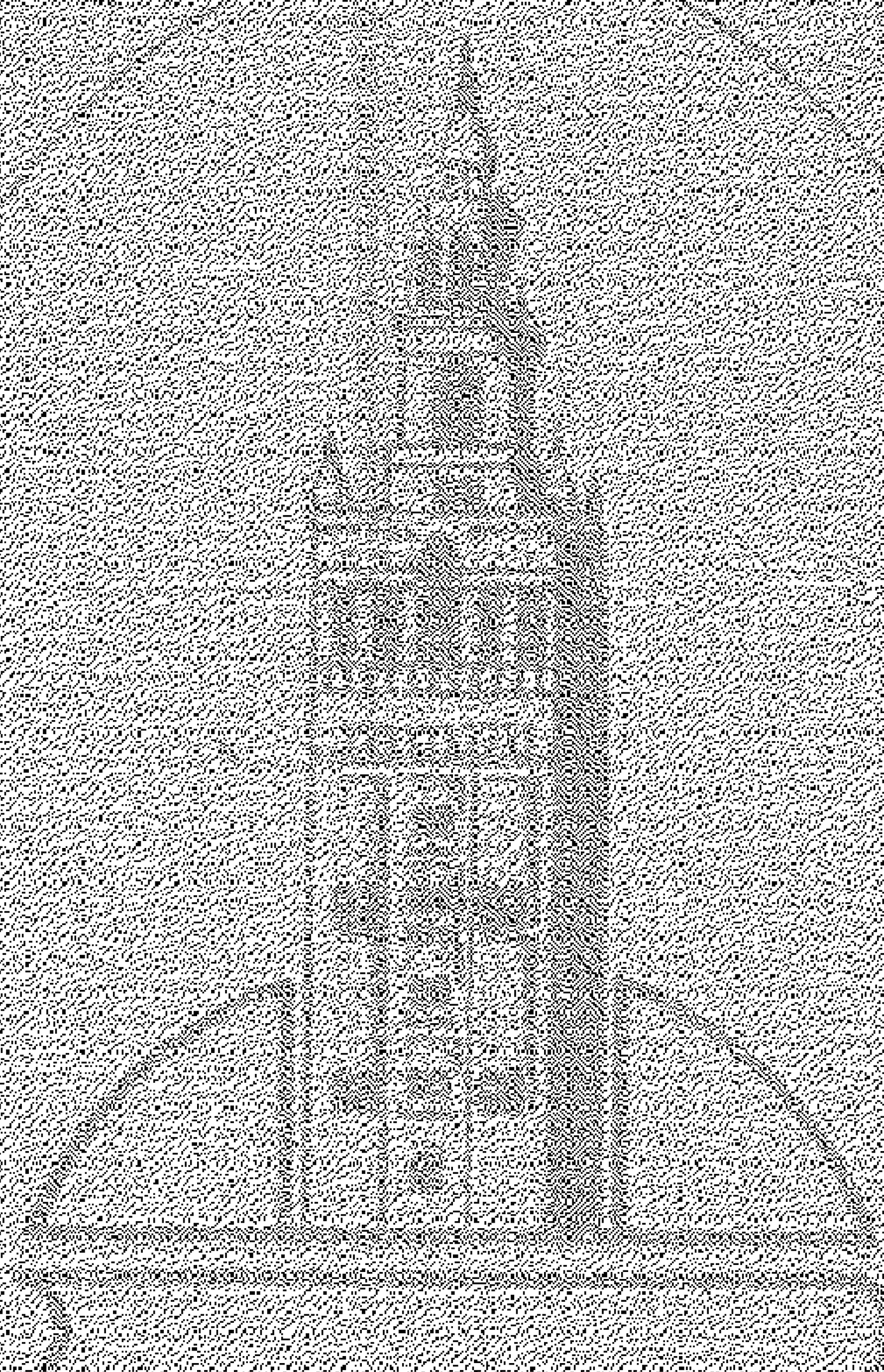


مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية والتربوية

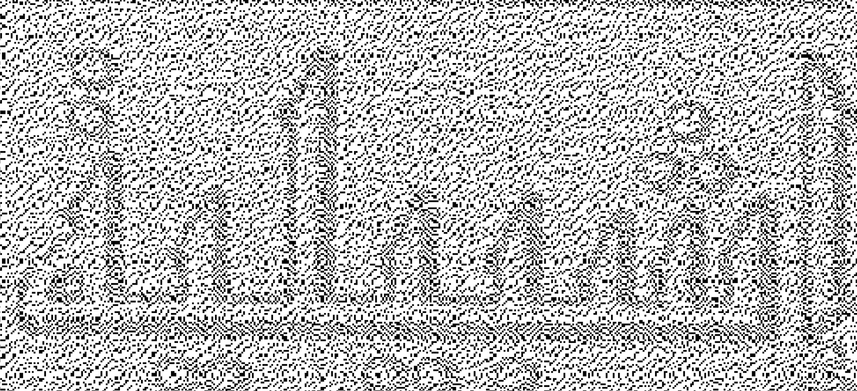
مجلة علمية محكمة



إشبيلية
للدراسات والنشر والتوزيع
دمشق - سورية



إشبيلية
للدراسات والنشر والتوزيع
دمشق - سورية
Studies, Publication & Distribution
DAMASCUS, P.O. Box [illegible] SYRIA



للدراسات والنشر والتوزيع
دمشق - سورية

Studies, Publication & Distribution
DAMASCUS, P.O. Box [illegible] SYRIA

مجلّة

جامعة دمشق

للآداب والعلوم الإنسانية والتربوية



مجلة علمية محكمة دورية

المجلد ١٣ ـ العدد الرابع ـ ١٩٩٧

شروط النشر في مجلة جامعة دمشق

للآداب والعلوم الإنسانية والتربوية

تقبل المجلة البحوث العلمية المبتكرة في العلوم الإنسانية والتربوية باللغة العربيـة أو بـإحدى اللغـات الحية، على أن تحقق الشروط التالية:

١- أن يكون البحث جديداً ولم ينشر مضمونه من قبل.

٢- يوضع اسم الباحث وصفته العلمية وعنوانه باللغتين العربية والانكليزيـة تحـت عنـوان البحـث مباشرة.

٣- يكتب على ورقة مستقلة عنوان البحث واسم صاحبه وصفته العلمية مع ملخصيـن عـن البحـث أحدهما باللغة العربية والآخر بإحدى اللغتين الانكليزية أو الفرنسية على ألاّ يتجـاوز كـل منـهما /١٥٠/ كلمة.

٤- ترسل ثلاث نسخ من البحوث مطبوعة على وجه واحـد مـن الـورق **210 × 297** مـم **(A4)** ومنضدة على الحاسوب (وفق القياس والنموذج المنشور في هذا العدد)، ويرفق مـع هـذه النسـخ **«الديسك»** .

٥ـ يجب ألا يتجاوز عدد صفحات البحث /٣٠/ صفحة بما في ذلـك الأشـكال والرسـوم والجـداول والصور والمراجع.

٦- توضع قائمة بالمراجع في آخر البحث على ورقة أو أوراق مستقلة وفق الترتيب الألفبائي لأسـماء أسر المؤلفين ودون أرقام.

٧- يُتجنب الاختزال مالم يُشر إلى ذلك.

٨- يقدم كل من أشكال البحث مرسوماً بالحبر الأسود على ورقة مستقلة لاتتجاوز أبعادها أبعاد الصفحة النموذجية.

٩- تقدم الصور واضحة على ورق صقيل بأبعاد بطاقة البريد.

١٠- يُضَمَّن البحث المقابلات الأجنبية للمصطلحات العربية المستخدمة مرة واحدة عند ورودها لأول مرة.

١١- تخضع البحوث المقدمة للتقويم لبيان مدى صلاحيتها للنشر.

١٢- لاتعاد البحوث إلى أصحابها إذا لم تُقبل للنشر.

١٣- يحصل الباحث (الباحثون) على ثلاث نسخ من العدد الذي ينشر فيه البحث.

١٤- تتم جميع المراسلات باسم:

مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية والتربوية ـ دمشق ـ الجمهورية العربية السورية

ص.ب: 5735 ـ هاتف: 2215743 ـ فاكس: 2129807

المحتوى

سلامة موسى* بين النقد والأيديولوجيا

د. ماجدة حمود
كلية الآداب ــ قسم اللغة العربية
جامعة دمشق

ملخص

عانى النقد العربي الحديث من ظاهرة تقديس رواد النهضة، إذ يتم تقديس إنجازاتهم وتجاوز أخطائهم.
إن هذه الدراسة تطمح إلى الوقوف عند أفكار رائد من رواد نهضتنا، وهو سلامة موسى، تناقشها مناقشة علمية هادئة، تبين إنجازاته وأخطاءه.
لهذا بدأت بالوقوف عند مفهوم الأدب لديه مبينة كيف طغى عليه المفهوم المادي متناسياً" الجانب الروحي والجمالي فيه، فهو يعتقد أن العناية بالشكل من أسباب جمود الأدب، إنه أحد المخلصين للفكر الاشتراكي الذي تبناه منذ تفتح وعيه، كما أنه أسير فكرة ثابتة: هي أن علينا النهوض عن

* ولد سلامة موسى في كانون الثاني ١٨٨٧ في قرية كفر العفي في مديرية الشرقية، حيث تلقى تعليمه الابتدائي ثم تابع دراسته الثانوية في القاهرة، عام ١٩٠٧ سافر إلى باريس، ثم سافر إلى لندن عام ١٩٠٨ حيث انتمى إلى الجمعية الفابية الاشتراكية، بعد عودته إلى القاهرة ١٩١٤ أسس مجلة (المستقبل) التي أقفلتها سلطة الاحتلال الإنكليزي عام ١٩٢٠. شارك في تأسيس الحزب الاشتراكي المصري، وفي عام ١٩٢٩ أسس (المجلة الجديدة) التي استمرت اثني عشر عاماً، وفي عام ١٩٤٦ سجنته حكومة صدقي بتهمة النشاط الشيوعي. شارك في تأسيس أو في نشاط كثير من الجمعيات الاجتماعية والفكرية والثقافية، كما ترأس تحرير العديد من المجلات والصحف منها مثلاً: (الهلال)،(النجمة)، الزهراء)، (مصر)، (الشؤون الاجتماعية) توفي سلامة موسى في ٤ آب ١٩٥٨.

طريق العلم فقط، أما الأدب فهو نوع من العلم التابع لن يرقى إلا بارتقاء المجتمع إلى المستوى الصناعي، ولعل السبب في ذلك أنه يعيش حالة انبهار بإنجازات الغرب الصناعية. ولذلك لن نستغرب أن تكون رسالة الأديب لديه نقل القيم والمثل الغربية إلى القارئ كي نصنع عبرها حضارتنا بالطريقة نفسها!!

وعلى هذا الأساس جاءت دعوته للعامية وتشجيعه للحرف اللاتيني، إننا بذلك ننتمي لحضارة العلم على حد زعمه!!

لذلك كان سلامة موسى، باعتقادنا، نموذجاً للمثقف المنسلخ عن بيئته، فلا يرى فيها إلا السلبيات! في حين يرى الإيجابيات تنحصر كلها في البيئة الغربية!

وقد أبرزت الدراسة كيف أخطأ الناقد غالي شكري في دفاعه عن انتماء سلامة للتراث فقو له مالم يقله، فذكر أنه يطالب بدراسة الآداب القديمة والحديثة، في حين وجدنا موسى لايريد بقاء التراث في ذاكرة الأجيال لأن ذلك يمنعهم من التفكير!!

لم يكتف البحث بإبراز أخطاء سلامة موسى، وإنما حاول أن يبرز إنجازاته، إذ رغم موقفه المتعنت من اللغة الفصيحة، نجده يخدمها بصورة غير مباشرة، فقد استطاع تطويعها، فجعلها لغة الحياة والأدب، كذلك نجده من أوائل الذين استخدموا مصطلحات أدبية وعلمية مأخوذة من الغربيين.

كما يعد من أوائل النقاد الذين اهتموا بفن المسرح، لأنه أراد أن يحوله إلى جامعة تتسع للأفكار العميقة، فيبتعد عن أن يكون مكاناً" للهو والتسلية،كذلك ظهر لنا اهتمامه بفن القصة، منذ وقت مبكر، خاصة في مجال تصوير الشخصية.

١ ـــ المقدمة:

يجدر بنا في البداية أن نعرف ما الذي نقصده بمصطلح "النقد"، ومصطلح "الأيديولوجيا" ؟ إن "النقد الأدبي" كما نراه ممارسة للرؤيا الجمالية التي تتكون لدى المرء عبر الزمن، وعلى هذا الأساس لا نستيطع أن نقول: إنها تعتمد الذوق والفطرة فقط؛ لأن الذوق كما نلاحظ يتطور عبر الزمن وذلك بتأثير الثقافة والتجربة اللتين ترهقان الذوق وتصقلانه مع مرور الأيام.

وهكذا فإن النقد يهتم بما يؤسس جمالية النص الأدبي، فيجعلنا نستمع بقراءته لأنه يملك عناصر جمالية (لغوية تخييلية، شعورية، فكرية...) يستطيع الأديب أن يحقق انسجاماً فيما بينها، فيجذبنا إلى قراءة نصه مقدماً لنا متعة فنية لاتعوضها أية متعة في الحياة.

أما مصطلح "أيديولوجيا" فنعني به مجموعة الأفكار التي تنتظم ذهن الناقد، فتجعله يدور حولها، فيتحول النص الأدبي إلى نص فكري، قيمته الأولى والأخيرة بما يطرحه من أفكار تنسجم مع رؤية الكاتب الفكرية، عندئذ ينال هذا النص أرفع الأوسمة من الناقد الأيديولوجي، أما إذا لم تنسجم أفكاره مع أفكار الناقد فهو نص رديء ليس على الصعيد الفكري فقط، وإنما على الصعيد الجمالي أيضاً"، وتلك الطامة الكبرى باعتقادنا!!

والحقيقة أننا اليوم بحاجة إلى مناقشة الأفكار والمفهومات الأدبية بانفتاح وموضوعية أي بعيداً عن العلاقات الشخصية والأهواء الفكرية، وبذلك ينأى النقد عن التفاهات،ونجعله من أرقى الفعاليات الفكرية والذوقية في حياتنا الأدبية والنقدية، لنفسح له المجال كي يمارس دوره في تطوير فكرنا وذوقنا معاً.

وأعتقد أن هذا الدور لن يتحقق إلا إذ استطعنا استيعاب وجهة النظر المخالفة لنا، إذ ليس كل ما يناقض أفكارنا وليس كل ما ينسجم مع أفكارنا حسناً"، كما فعل بعض النقاد العرب حين تناولوا رواد النهضة.

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نلاحظ أن النقد العربي الحديث مازال يعاني من ظـاهرة تقديس رواد النهضة، إذ يتم تضخيم إنجازاتهم في بحـوث الدارسـين العـرب، دون الوقوف على أخطائهم في أغلب الأحيان.

وقد لاحظنا ذلك حين تناول غالي شكري سلامة موسى في كتابه "سلامة موسى وأزمة الضمير العربي" ولدى غيره من الدارسين العرب (كأولئك الذين شاركوا فـي تنـاول سلامة موسى في العدد الخاص الذي أصدرته مجلة "الطريـق" عنـه، وهـو العـدد الخامس، أيلول ١٩٩٤)

ولاشك أن مثل هذه النظرة القديسية ستؤدي إلى جمود النقد الأدبي وعدم تطـوره، إذ لاتمكن تجاوز أخطائه إلا بعد معرفتها ومناقشـتها مناقشـة علميـة تتسـم بالـهدوء والموضوعية، فلا ترمي إلى شي الخصم على السفود كما فعـل مصطفـى صـادق الرافعي مع خصومه (عباس محمود العقاد، طه حسين، عبد الله عفيفي...)

لعل أهم ما تطمح إليه هذه الدراسة هو الوقوف على أفكار سلامة موسى ومناقشـتها مناقشة علمية هادئة تبين ماله وما عليه.

لهذا سنحاول التوقف عند أهـم القضايـا التـي طرحـها والمفـهومات التـي دعـا إليها،باعتقادنا، من خلال ممارسته النقدية.

٢ ـ مفهوم الأدب والدعوة إلى تجديده:

اقترن التعريف بالأدب لدى سلامة موسى بالدعوة إلى تجديده، لهذا لـن نجـد لديـه تعريفاً" يخلو من هذه الدعوة، ولعل الهاجس الاجتماعي بكل ما يعنيه من رغبـة فـي التطور هو ما يسيطر عليه "فالتجديد في الأدب هذه الأيام لايعني شـيئاً آخـر سـوى التجديد في الحياة" (١)

قال هذا الكلام (عام ١٩٣٣) وسنجده يؤكد ضرورة التجديد في هذين المنحيين بقية حياته، فقد آلمه أن يجد الكتاب في مصر على نقيض الكتاب الانكليز والأميركيين،يهتمون بالأسلوب الكتابي، ويهملون أسلوب العيش، بل نجده يصرح (عام ١٩٤٢) بأن "الفن ليس له غاية أخرى سوى خدمة المجتمع، وقد تكون هذه الخدمة بإظهار عيوبه وبحثه على التغيير" (٢)

إذ طغت الفائدة المادية على مفهوم الأدب لديه لهذا لانجد لديه اهتماما بالمنفعة الروحية أو اللذة الجمالية التي تحدثها اللغة الأدبية بما تحتويه من انفعال وخيال وموسيقا، بل نجده يعلن موت هذا الأدب الذي يدعوه بالأدب الملوكي "أدب المجاز والاستعارة والتورية والبهارج والمحسنات" (٣)

موضع آخر نجده يضيف صفات جديدة للأدب القديم: إنه متشائم، وهو أدب الجمود والتقاليد وكراهة المراة، إنه في نظره لذة عابرة، ومزاج، وترف ذهني.

لاأدري كيف يكره الأدب القديم المرأة ويفرد لها غرضا شعريا خاصا بها وهو "الغزل" ! يبدو لنا أن سلامة موسى وقع ضحية فكرة ثابتة أن القديم سبب من أسباب ضعفنا، وأن العناية بالشكل من أسباب جمود الأدب.

لو تأملنا الفكرة الأولى والدوافع التي أدت بالناقد إلى تبنيها لوجدنا أن انتماءه للأقلية المسيحية في مصر قد أثر في رؤيته للماضي، إذ ثمة خوف لديه من سيطرة هذا الماضي على الحاضر ومن ثم سيكون نقيضا لمشروعه الاشتراكي الذي يتبناه.

أما الفكرة الثانية "العناية بالشكل من أسباب جمود الأدب" فقد كان لها أسباب واقعية تتعلق بالأدب الذي كان سائدا قبل عصر النهضة، ويغلب على عصر سلامة، إنه أدب الزخرفة والمحسنات البديعية، أي المبالغة في الشكل على حساب المضمون، لهذا كان رد فعله عنيفا، لكن خطأه انه عمم هذا على التراث كله.

وللإنصاف نقول: إن نظرته هذه تنسحب على الأدب الغربي أيضاً فهو يعيب على أدب شكسبير أنه يخلو من الرسالة لهذا يجب ألا يلقى كبير اهتمام منا. أما دوستفسكي،فإن البراعة الفنية أنقصت من قيمة القصة "ولكن حين يتناول أشخاصه كما هم، على الطبيعة والأصل والنزعة بلا أي مبالاة، هنا فقط نجد الفن العالي..."(٤)

إذاً ماهو الأدب الذي يسعى إليه سلامة موسى ويدعوه بالأدب الجديد؟

إن الأدب "في نظره" هم وقلق ودراسة وبرنامج في الحياة وتوسيع في الوجدان،وارتقاء لشخصي ومجتمعي، وزيادة في الفهم والإنسانية "وبتعبير آخر، إنه الأدب الاشتراكي الذي يراه "أدب التغيير والتطور والإيمان بالمستقبل ومكافحة الفقر والجهل والمرض، ومكافحة الاستعمار والاستبداد هو أدب الشعب الذي يكتب بلغة الشعب"(٥) إننا أمام وظيفة مادية للأدب، لهذا نستغرب وجود عبارة "توسيع الوجدان" التي تجعل له وظيفة معنوية، إن هذه العبارة تمر مروراً عابراً، فلا نجده يتوقف عندها، لأنه يرى في الحقيقة إن وظيفة الأدب الأساسية هي وظيفة علمية، بل يسعى إلى إلغاء الفروق بين الأدب والعلم أو بين الروحانيات والماديات، لأن رجال النهضة،في أوروبا ألغوا هذه الفروق فقد كان الفنان "دافنشي" مثلاً يمارس النحت والرسم كما يمارس علوم الطيران والحرب والطبيعيات!

ولكن المتأمل يلاحظ أن إلغاء الفروق هذه لم يكن لصالح علاقة متوازنة بين العلم المادي والعالم الروحاني لدى سلامة موسى، بل لصالح الجانب الأول (العلم) على حساب الجاني الثاني (الأدب) فها هو ذا يقول في البلاغة العصرية "نحن بحاجة إلى بلاغة جديدة تؤدي إلى دقة الفهم العلمي لإيجاد مجتمع علمي، بلاغة تميز بين الكلمة الذاتية وبين الكلمة الموضوعية"(٦)

يتحول الأدب على يديه إلى لغة موضوعية لا لغة الذات والوجدان، بل نجده يصــرح بأن "العلم في عصرنا، مشكلاتنا الروحية أكثر مما يحلها الأدب وهناك فلسفة علميــة وإنسانية قد نغير بها وجهة نظرنا إلى الإنسان والطبيعة والكون" (٧)

نحن بحاجة إلى العلم لا إلى الأدب، لأن العلم يعتمــد منــهجاً ارتقائيــاً، علــى حــد قوله،نستطيع بوساطته أن نطور أنفسنا ومجتمعنا.

إن حماسته للعلم أوقعته في كثير من المبالغات والأحكام المتسرعة التي أساءت إلــى طبيعة الأدب فجعلته فعالية فكرية أكثر منها فعالية جمالية، وبذلك طغت لديه النظــرة النفعية للأدب على النظرة الجمالية!! لأن وسيلة التمدن والنهضــة هــو العلــم. أمــا الأدب،في نظره، فهو ترف ذهني، لهذا لسنا بحاجة إلى شكسبير، وإذا كان لابــد مــن الأدب فليكن أدب الكفاح والرسالة وليس هذا أدب شكسبير، فنحن لسنا بحاجــة إلــى ترجمة مسرحياته وإنما بحاجة إلى إنشاء كليات لدرس العلوم، ونحتاج إلــى ترجمــة مائة كتاب في العلوم والمناهج العلمية. (٨)

إن سلامة موسى أسير فكرة ثابتة هي أن علينا النهوض عن طريق العلم فقــط، أمــا الثقافة الأدبية فهي نوع من العلم التابع لن يرتقي إلا بارتقاء المجتمع إلــى المســتوى الصناعي، لأن المجتمع الزراعي، في نظره، لابــد أن يعيــش ثقافــة أدبيــة راكــدة محافظة،أما المجتمع المتمدن فهو الذي يعيش ثقافة علمية متحركة ومتغيرة.(٩) لــهذا نجده في كتابة " انتصارات إنسان" يعلن أن ثقافتنا يجب ان تكون علمية حتــى تثمــر حضارة صناعية، أما عهد الزراعة والأدب، فيجب أن نتركه لسكان أفريقيا.

إن هذه النظرة الأحادية الجانب سببها الانبهار بإنجازات الغرب الصناعية التي تعتمــد العلم أساساً لها، ولاشك أن شدة الانبهار هذه أدت به إلى إهمال الجانب الروحي لعملية النهضة بل الجانب المادي الأساسي (الزراعة) أيضاً !!

وقد لاحظنا في كتابه "الأدب للشعب" الذي أصدره (عام ١٩٥٤) تطور نظرته للأدب،إذ التفت إلى الناحية الجمالية، ورأى "أن الأدب فن، وشرط الفنون جميعها،هو الطرب فيجب حين نقرأ الأدب أن نطرب..."(١٠)

٣ ـ رسالة الأديب:

لكن سرعان ما يتراجع هذا التطور حين نجده يطالب الأديب، في الكتاب نفسه، "أن يكتب بلغة الشعب" كي يستطيع إيصال رسالته لشعبه، فيزيد حياته حيوية " بالتوسع والتعمق والفهم للكون والدنيا والإنسان"

إنه لا يذكر لنا علاقة هذه اللغة الشعبية بالجمال، لأنه يحدثنا عن دورها الوظيفي لا الجمالي. فهي في نظره لغة نفعية فقط!!

وهو في كتابه "مقالات ممنوعة" يوضح لنا أن رسالة الأديب عامة وخاصة فأما العامة فهي أن يجعل الأدب وفق المبادئ البشرية بحيث يغرس الكاتب في القارئ حب البشرية والطبيعة والفن والعلم والثقافة..... وأما رسالته الخاصة فهي خاصة لأنها تعالج شأناً من شؤون المجتمع المصري الحاضر مثل تعجيل التطور الاقتصادي نحو الصناعة، مثل المساواة ومثل التعليم (١١)

إذاً لما كان الكاتب أكثر وجداناً وثقافة ووعياً من القارئ باستطاعته أن يرفعه إلى أرقى مستوى، ويملأ صدره باهتمامات هي هموم بشرية تزيد على همومه الشخصية،كما يملؤه بمسرات الحياة بأن يكشف له عن ألوان من الجمال والشرف والحق والقوة لم يكن يعرفها من قبل في الطبيعة والإنسان والفن.

مهمة الكاتب أن يحمل القارئ على أن يأبى حياة الحشرة بهموم شخصية وضيعة: أكل وشرب ومسكن، وأن يكسبه هموما" بشرية عظيمة كالحرية والثقافة والحضارة والفن

والثورة... والكاتب العظيم هو الذي يصدم قارئه فيوقظه، ويرد إليه وجدانه، سعة وعمقاً". (١٢).

نجد هنا مراوحة بين المهمة السطحية للأدب (التعجيل بالتطور الصناعي) والمهمة العميقة له (الارتقاء بوجدان القارئ وإحساسه بالجمال والشرف والحق)، وكذلك نستطيع ان نلمس تأكيد هذه المهمة لدى سلامة موسى في العبارة الأخيرة خاصة (يرد إليه وجدانه، ثم يزيد هذا الوجدان سعة وعمقا")

ولو تساءلنا ماهي القيم التي تزيد الوجدان عمقاً لديه؟ لوجدناه يوضح لنا، في الكتاب نفسه، أن علينا (أي الأدباء) "أن نوجههم جميعاً (أي القراء) نحو الغرب أي نحو الحضارة العصرية، بأن ننقل إليهم المثل والقيم البشرية كما هي في أوروبا" (١٣)

إذاً رسالة الأديب في رأيه: الانسلاخ عن بيئته بكل مافيها من قيم، من أجل الانضواء تحت لواء بيئة غريبة عنه (أوروبا)!!

إن انبهاره بالحضارة الغربية وضيقة من حالة الضعف والتخلف في بلاده دفعاه إلى رؤية محددة لطبيعة الإبداع الفني ومهمته فالإبداع إذا لم يحمل نكهة البيئة لايمكن أن يكون أصيلاً متميزاً !

مازالت نظرته مادية للأدب فهو يعزله عن روح البيئة وينظر إليه من حيث هو منتج مادي من السهل نقله من بيئة إلى أخرى.

يحس المرء أيضاً شيئاً من التناقض إذ كيف يريد سلامة موسى أن يتحدث الأديب بلغة الناس الذين يعايشهم ثم يقدم لهم قيماً غريبة عنهم؟ !

٤ ــ الأسلوب:

لعل التناقض الأساسي لديه أنه يفصل جسد الأدب عن روحه حين يفصل الفكرة عن الألفاظ التي تؤديها فها هو ذا يقول في كتابه " برناردشو" " نحتاج إلى أدب الأفكار لا

إلى أدب الألفاظ" (١٤) ولهذا بدا معجبا بالكاتب "برناردشو" مؤثرا أسلوب المنطق الصارم الذي من سماته الحذر والاعتدال.

ومثل هذا الأسلوب أبعد ما يكون عن الأدب وأقرب ما يكون من العلم، ولهذا اتهمه الكتاب المصريون بأنه ليس أديبا، فهم لم يجدوا عنده زخارف مألوفة لدى غيره من الأدباء!

أما عن رأيه بالأسلوب العاطفي فهو لاينكر سجره ولكن رغم أنه يلتذ بسحره أحيانا،فإنه يؤثر عليه "أسلوب التعقل والوجدان" (١٥) على حد قوله يلفت نظرنا في عبارته الأخيرة استخدامه مصلح "الوجدان" بمعنى المنطق، أي نقيض العاطفة، وهو مخالف لما نستخدمه عادة (يأتي بمعنى الانفعال، الأعماق، القلب، الضمير....)

إذا" الأسلوب الذي يؤثره سلامة موسى هو أسلوب الحياة " فالرجل الصحيح والمستقيم في معاملاته في عبارة صريحة وفي كلمات لاتقبل الالتواء، فإذا طالبنا الصبي أو الشاب بأن يحسن الأسلوب في كتابته، فإنما نطالبه في الحقيقة بأن يتخذ أسلوبا حسنا في معيشته وأن يرى شخصيته."(١٦)

إننا نلاحظ أن سلامة موسى يردد في الفكرة الأولى "الأسلوب هو الرجل" عبارة بوفون الشهيرة، وهذا مالا خلاف عليه، ولكن قوله: كي يطور الإنسان أسلوبه لابد ان يطور معيشته، فهذا يعني أن أسلوب الإنسان الفقير ومقدرته اللغوية ستتغير حين سيصبح غنيا!

إن نظرته للأسلوب نظرة مادية بحتة فهو لاينظر إلى اللغة من حيث هي كائن حي يتطور بازدياد ثقافة الإنسان لا بازدياد أمواله!

٥ ــ التراث لدى سلامة موسى:

لاحظنا سابقاً موقف سلامة موسى من القديم سواء على صعيد السلوك والمفـهومات أم على صعيد اللغة، لهذا لم أكن انوي التوقف عند هذا الموضوع لولا أنني وجدت غالي شكري يدافع عنه في هذه النقطة فها هو ذا يقول عنه: إنه "لايثور على التراث الفكري العربي، وإنما يثور ضد ادبائنا وكتابنا الذين يحتذون القوالب العربيـــة القديمـــة فـــي التعبير، فيعوقون، بذلك التقليد الأعمى، تطور ثقافتنا ولغتنا، إنه يطالب بدراســة الآداب القديمة والحديثة / لنكشف تطورنا الأدبي فنستطيع دفعه إلى أمام" (١٧)

صحيح أن موسى ثار ضد الملحدين ورأى أن الابتكار لايكون إلا بمخالفة القدماء،لكنه نسي أن الابتكار يكون بمخالفة المعاصرين أيضاً فالتقليد مرفوض سواء أكان للقدمـــاء أم للمعاصرين.

أما انه لايثور على التراث الفكري العربي فهذا غير صحيح، يكفي دعوته للعامية ثـــم للحرف الاتيني، فاللغة الفصيحة هي في الواقع الوعاء الذي يضم تراثنا الفكري.

وقد وجدناه يقول صراحة في كتابه "البلاغة العصرية": "إما أن نهلك ونبيد كمـــا بـــاد الديناصور، إذا التزمنا عاداتنا الذهنية والاجتماعية والثقافية لانغيرها، وإما أن نعيـــن لشعبنا وسائر العرب آفاق التطور البشري... ووسيلة البقاء والحياة في عصرنا هــــي العلم والصناعة ولاسبيل إلى لصناعة بغير العلم، ولاسبيل إلى العلم بغـــير الحـــروف اللاتينية" (١٨)

إننا أمام خطة عمل مستقبلية لامكان فيها للماضي بشتى صوره (الذهنية، والاجتماعية، والثقافية!!)

ربما وجدنا قائلاً يقول: إن كتاب البلاغة العصرية طبع طبعته الأولى (عـــام ١٩٤٥) ولاشك أن نظرة موسى قد تطورت مع الزمن لكننا لوعدنا إلى أواخر كتبه "مـــا هـــي

النهضة" الذي صدر في طبعته الأولى عام (١٩٦١) لوجدناه يقول "إن أسوأ ما أخشاه ان ننتصر على المستعمرين ونطردهم وأن ننتصر على المستغلين ونخضعهم ثم نعجز عن أن نهزم القرون الوسطى في حياتنا ن ونعود إلى دعوة: عودوا إلى القدماء.(١٩)

إن العودة إلى الماضي والاشتياق إليه هو اشتياق إلى الموت، ففي الماضي كثير من "سمات الموت، بل هو الموت" على حد قوله في كتابه "الأدب والشعب".

بقي أن نتناول فكرة شكري الأخيرة أن موسى "يطالب بدراسة الآداب العربية القديمة والحديثة، لنكتشف حلقات تطورنا الأدبي فنستطيع دفعه إلى الأمام".

إن شكري لشدة حماسته لموسى نجده يقوّله مالم يقله، بل نجد لدى موسى تصريحات نقيضه، إنه يريد أدباً للشعب، للمجتمع أي للإنسانية وللحياة، وكل هذه المعاني بعيدة عن شعراء العرب مع استثناء المعري لذلك لايمكن الأديب (كذا) المصري العصري أن يستلهم الأدب العربي القديم" (٢٠)

وفي موضع آخر يصرح بأن الشباب لن يجدوا في مؤلفات ابن الرومي وأبي نواس والمتنبي العبرة الاجتماعية أو الإنسانية، أما إذا عاد الأديب إلى التاريخ ليستلهم منه،فإنه "يخون أدبه وهو بمنزلة الجندي الذي فر من الميدان الأول، وهو حي بولاق ورمزيته لوطننا" (٢١)

إن الاستمداد من التاريخ يعده خيانة لأنه انسلاخ عن الواقع، ثم لو كان صحيحاً مطالبته بدراسة القديم لوجدناه يطالب باطلاع الطلاب عليه، إنه على النقيض من ذلك نجده يطالب بتنشئتهم بعيداً عنه، إذ علينا "أن نقاطع الاقتباس في المدارس الابتدائية والثانوية، ونجعل التفكير يقوم مقام الاقتباس، فيجب ألا تكون هناك جملة مختارة تحفظ عن ظهر قلب، بل يجب أن يعود الصبي أو الشاب كيف يفكر ويبحث ويطلع"(٢٢)

إذا لايريد للتراث أن يبقى في ذاكرة الأجيال، لأن ذلك يمنعهم من التفكير في رأيه،لعل البداية من الفراغ هي ما تساعد على التفكير !! أو أن نتخذ قدوة لنا من الكتاب الأجانب هو الدواء! كما فعل هو نفسه حين اتخذ مثله الأعلى منهم وخاصة (برناردشو ويلز) وهذا ما صرح به في كتابه "برناردشو" ولهذا السبب وجدناه يهتم بحياة الكتاب أكثر من اهتمامه بأدبهم في كثير من الأحيان.

٦ ــ موقفه من اللغة وأهم إنجازاته:

يرى موسى ان مشكلة اللغة في مقدمة المشاكل التي تعاني منها، إذ إننا نعالج موضوعات عصرية بلغة غير عصرية، لهذا دعا الأدباء إلى لغة الحياة التي هي لغة الشعب، أي ننزل "إلى الشعب قبل أن نرفعه إلينا، بل إننا لن نستطيع رفعه إلينا ألا إذا نزلنا إليه، يجب أن نهدم الحاجز الذي يفصل بين الشعب وبين الأدب باتخاذ الأسلوب الميسر والكلمة المألوفة..." (٢٣)

إن نظرته الطبقية يسقطها على اللغة العربية الفصيحة لهذا يعدها لغة المتزمتين والأثرياء ولغة الفروسية والفقه ولما كان اشتراكيا" فلا بد أن يرفض هذه اللغة ويدعو إلى العامية، لغة الشعب الكادح، وقد وجدناه يرد على عباس محمود العقاد الذي هاجم الإشتاركيين لدعوتهم للعامية بأن الاشتراكيين" يمتازون بالروح الشعبي ويعملون لتكوينه وهم لهذا السبب مستقبليون وليسوا سلفيين، ولذلك يحملهم احترامهم للشعب على إيثار لغته الحاضرة على لغة السلف، في حين هو سلفي الذهن في لغته وأسلوبه وتفكيره وسلوكه" (٢٤)

إذا اللغة الفصيحة لن تستطيع الإسهام في تطور الأمة، ولن تستطيع التعبير عن روح الأمة، وهي من أسباب تدني المسرح، لأن المؤلفين يديرون الحوار بالفصيحة والكلمة الفصحى ليست "جوية" أي أنها لاتنقل لنا جو الحديث، لأننا ألفنا أن يكون الحديث

باللغة العامية، فترجمته إلى اللغة الفصحى يصدمنا ويشعرنا بأن الكلمة ليست في جوها الاجتماعي...(٢٥)

هنا لابد أن نتساءل: هل تستطيع العامية نقل جو الحديث دائماً؟ أليست الفصيحة أقدر على تصوير الحدث التاريخي؟ أليست أقدر على نقل جو المثقفين؟

بينما وجدنا أديباً ناقداً (يحيى حقي) وهو معاصر لسلامة موسى يدعو كتاب المسرح الفكاهي إلى كتابة حوارهم بالفصيحة إذ ليس من المعقول أن يقتصر المرح الفكاهي على العامية، ويضرب لهم مثلاً لنجاح الفصيحة إحدى المسرحيات الفكاهية المترجمة تدعى "كنوك" ثم يقول "نحن نخاف العفريت قبل أن يطلع لنا، ونسيء الظن بالجمهور قبل أن نمتحنه" (٢٦)

ولو قارنا بين حكمي الرجلين لوجدنا حكما" جاهزا" لدى سلامة موسى، في حين دعا حقي إلى ترك الفرصة للجمهور فقد يتقبل اللغة الفصيحة حتى في اقرب الأنواع المسرحية (الكوميديا) إلى العامية.

إن الفصيحة في نظر موسى لاترضي الرجل المثقف، فما بالك بالعامي! لأنها عاجزة عن نقل العلوم، وهو يرد على أولئك الذين يقولون بإمكانية إصلاحها لتصبح عصرية بأن ذلك مستحيل، والسبب أننا نجهل نحو مائة علم وفن، و"لايمكن أن نعرفها إلا إذا تركنا لغتنا ونطقنا بلغة أخرى" كل ذلك من أجل معيشة عصرية والعيش في الحضارة الصناعية التي تعتمد العلم والمنطق لا "حضارة والعقائد والزراعة" (٢٧) لهذا تحولت البلاغة لديه إلى علم يراد به مخاطبة العقل، فالحضارة اليوم حضارة أرقام تبتعد عن الاستعارة والمجاز أي عن العاطفة.

ولما كان من المستحيل، في رأيه، أن تستطيع لغتنا نقل العلوم ومن ثم الإسهام في الحضارة الانسانية، فإننا نجده يناصر الدعوة التي قامت في مصر لاستبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية، فهي ستكسبنا عقلية متمدنيين، وتنزع عنا الخصومة التي

تبعثها كلمتا شرق وغرب لهذا عد هذا الاقتراح "وثبة إلى المستقبل، لو أننا عملنا به لاستطعنا أن ننقل مصر إلى مقام تركيا التي أغلق عليها هذا الخط أبواب مستقبلها"(٢٨)

لانريد أن نتوقف عند الدعوة إلى الحرف اللاتيني لأنها دعوة أثبتت إخفاقها وماتت في مهدها، يكفي أن تركيا مازالت، رغم اعتمادها الحرف اللاتيني منذ أكثر من ثمانين سنة، من الدول النامية!

إننا أمام نموذج للمثقف المنسلخ عن بيئته، إذ لم ير فيها إلا السلبيات، المنضوي تحت لواء بيئة غريبة لا يرى فيها إلا الإيجابيات.

نحن لا ننكر أثر إتقان لغة أجنبية على التطور المعرفي لدينا، لكن التفكير العلمي بلغة أجنبية من أسباب تعثر نهوضنا العلمي، لأننا لن نتطور إلا إذا فكرنا بلغتنا العربية وأبدعنا عن طريقها، كما يقول كثير من المفكرين العرب اليوم.

رغم موقفه المتعنت من اللغة الفصيحة، وجدناه يخدمها بصورة غير مباشرة إذ استطاع تطويعها فجعلها لغة الحياة والأدب معاً، فبدت لغته صورة لما يطمح إليه من تطور فكانت "لغة تجديد الحياة والتفكير بالحياة، وقد توجه بخطابه من خلالها إلى نفوس تواقة للتجديد يملؤها الحماس له..." (٢٩)

كذلك أسهم في تطويعها حين استخدم كثيراً من المصطلحات الدبية الجديدة، في عصره، (الأدب المرتبط، الواقعية، الرومانسية، القصة السيكولوجية، القصة الاجتماعية، الأدب اليساري...) وهو في كثير من الأحيان يعرف القارئ بهذه المصطلحات قبل أن يستخدمها.

وقد يكون سلامة موسى أول من كتب بالعربية عن الاشتراكية والتحليل النفسي (٣٠) فأدخل إلى العربية مصطلحات جديدة في علم الاجتماع وعلم النفس ن وهو يعترف أنه أول من أفشى لفظة "ثقافة" في الأدب العربي الحديث، منتحلاً إياها من ابن خلدون.

ويلاحظ أن موسى يستخدم المصطلح الأجنبي بحروفه ذاتها بعد أن يعرفه كي يتقبله الذوق العربي، فيستخدم مثلاً "ميكانيكية" بدلاً من آلية، وهو يتهم من يترجم مصطلحات غربية إلى العربية أنه يسعى إلى تأخير نهضتنا العلمية، لكننا لاحظنا أن سلامة موسى نفسه يعّرب كثيراً من المصطلحات الأدبية والاجتماعية والعلمية.

لهذا قد يلمس المرء قلق المصطلح لديه فتارة يستخدمه بحروفه الأجنبية وتارة يعربه وذلك في الكتاب الواحد، كما حصل في كتابه "برناردشو" فقد استخدم مصطلح "دراما" تارة و "مسرح" تارة أخرى.

وهو يلاحظ ملاحظة ذكية في مجال المصطلح، إذ كثيراً ما نختار اسماً أو مصطلحاً يتناسب مع حالتنا النفسية فمثلاً فريق السلفيين نسميهم "الرجعيين" و "الجامدين" إذا كنا نكرههم، أما "المجددون" فنختار لهم هذا الاسم إذا كنا نحبهم، أما إذا كنا نكرههم فندعوهم "بالملحدين" أو "الماديين".

بالإضافة إلى إنجازات سلامة موسى في اللغة والمصطلح، بإمكاننا أن نتلمس إنجازات أخر له، كتعريفه بفن المسرح، منذ وقت مبكر، إذ يعد من أوائل النقاد الذين اهتموا به ورغبوا في أن يتحول المسرح إلى مدرسة أو جامعة، فيتسع للأفكار الفلسفية والاجتماعية، ويبتعد عن ان يكون مكانا" للهو والتسلية كحالة المسرح العربي.

إن رغبته في ارتقاء هذا الفن دفعته إلى تاليف كتاب يختص بمسرح "برناردشو" أشار إلى ضرورة ترجمة مسرحياته كي تقرأ أولاً ليدرك المفكرون قيمتها ويتفهمونها (كذا) ثم ينقلونها عبر التمثيل إلى الجمهور، إنها في رأيه أشبه بجامعة" تعلم وتلهم وترشد نحو الخير والبر والشرف والقوة".

وهو رغم إعجابه بمسرح "برناردشو" نجده ينتقد بعض مسرحياته حتى إننا لانجد في مشاهدها سوى الأحاديث، ويذكر مثالاً على ذلك مسرحية "الإنسان والسبرمان" إذ يتكون المشهد من أربعة أشخاص يتحدثون خلال ساعة بلا أدنى حركة أو تغيير، قد يحدث هذا في الحياة، ولكن الفن يقتضي طرد السأم عن المتفرجين لأن المسرح إمتاع وتعليم معاً (٣١).

يبدو لنا موسى، هنا "ناقداً موضوعياً، ينظر إلى إيجابيات مسرح "برناردشو" كما ينظر إلى سلبياته.

لكننا نلاحظ انه لم يستطع التخلي عن بعض مظاهر الضعف في التأليف التي كانت تصاحب كتاب تلك الفترة، فمثلاً نجده يتحدث عن الزواج في مسرحيات "برناردشو" فيبين رأيه بالزواج وتحديد النسل، ثم يأتي برأي "رسل" في هذا الموضوع ثم نجده يتحدث عن البيان الشيوعي، وينسى موضوعه الأصلي (الزواج في دراما برناردشو)".

إن ظاهرة الاستطراد هذه عانى منها النثر العربي طويلا"، لذلك لايمكن أن يتخلى عنها دفعة واحدة.

بالإضافة إلى اهتمامه بفن المسرح نجده مهتما" بفن القصة وتصوير الشخصية الإيجابية خاصة، كي تصبح الشخصية الفنية قدوة لجمهور القراء في سعيها لصنع حياة أفضل، وقد شاع الاهتمام بـ الشخصية الإيجابية في النقد الماركسي، في تلك الفترة التي عاصرها سلامة موسى خاصة، إذ من المعروف أن علم الجمال الماركسي لم يطور نظرته للشخصية فيتقبل الشخصية السلبية في الأدب، باعتقادنا، إلا في أواخر السبعينيات.

٧ ــ خاتمة:

مهما يكن فإن سلامة موسى يعد أحد النقاد الرواد الذين عاشوا هاجس التغيير والتطور في الحياة والأدب، فشكلوا بجهودهم رد فعل على كل مظاهر التخلف سواء في الحياة أم في الأدب، لهذا كانت معظم إنجازاتهم أقرب إلى الانفعال منه إلى العقل، رغم ما يبدو في ظاهر دعوتهم من التشديد على العقل ورفض كل ما يناقضه.

إنهم في زحمة انشغالهم بضرورة النهوض الاجتماعي وتجنيد كل الإمكانيات بما فيها الأدب من أجله، نسوا طبيعة الأدب الأصلية وحولوه إلى منتج مادي نازعين منه كل ما يجعله فناً جميلاً!

إن المبالغة في الدعوة إلى المنطق، تعد في نظرنا نوعاً من ردة الفعل التي تبعد الإنسان عن جادة ما يدعو إليه، فتغرقه بالانفعال الذي يرفضه.

لهذا لن نستغرب طغيان المادية على مفهوم الأدب لديه، الأمر الذي أدى إلى إهمال الجانب الجمالي في الأدب.

وقد ساعد على ذلك تبنيه للاشتراكية وحماسته الزائدة لها مما جعله يطمح إلى اعتماد العلم أساساً في كل جوانب حياتنا المادية والروحية، لذلك كان من الطبيعي أن يرى الأدب فعالية فكرية لاجمالية.

لعل أخطر ماعاناه سلامة موسى: هو الانبهار بالحضارة الغربية، هذا الانبهار الذي لمسناه لدى معظم المثقفين العرب الذين عاشوا عصر النهضة.

إن هذه المعاناة أدت إلى نظرة ضيقة للأدب، حتى إن الحفاظ على المحلية والتراث في الأدب والفكر أصبح تخلفاً في رأيه!!

ولكن رغم ذلك ورغم دعوته للعامية وتشجيعه للحرف اللاتيني، لايمكننا أن ننسى ما قدمه من خدمات للعربية الفصيحة خاصة حين اقترب بها من الحياة الحديثة، فوجدناه

يستخدم في كتاباته لغة حيوية مرنة، مقدماً لنا مصطلحات حديثة فـــي الأدب والعلـــوم الاجتماعية.

الحواشي:

١ ـ سلامة موسى "الأدب الانجليزي الحديث" المطبعة العصرية، القـاهرة ط٢،١٩٤٨ (ط١ ١٩٣٣) المقدمة ص ٣.

٢ ـ سلامة موسى "انتصارات إنسان" دار مصر للطباعة، ط١، ١٩٦٠، ص٦٨.

٣ ـ سلامة موسى "الأدب للشـعب" سـلامة موسـى للنشـر والتوزيـع، القـاهرة ط١،١٩٥٤، ص٤٦.

٤ ـ سـلامة موسـى "مقـالات ممنوعـة" سـلامة موسـى للنشـر والتوزيـع القاهرة،ط٤،١٩٦٤ ط١ ١٩٤٥ ص ٦٧

٥ ـ موسى "الأدب للشعب" ص ١٢٣.

٦ ـ سلامة موسى "البلاغة العصرية واللغة العربية" سلامة موسى للنشر والتوزيـع القاهرة ط ٤، ١٩٦٤. ط ١ ١٩٤٥ ص ١٨٦.

٧ ـ موسى "مقالات ممنوعة" ص ٢٠

٨ ـ سلامى موسـى "مـاهي النهضـة" مكتبـة المعـارف بـيروت، ط٢، ١٩٧٤ (ط١،١٩٦٢) ص ٢٠٤

٩ ـ سلامة موسى "تربية سلامة موسى" مؤسسة الخـانجي، مصـر ط ١ (١٩٦٠) ص١١٠ بتصرف

١٠ ـ موسى "الأدب للشعب" ص ٧

١١ ـ موسى "مقالات ممنوعة" ص ١٨٤

١٢ ـ موسى، المصدر السابق ص ١٦٥

١٣ ـ موسى، المصدر السابق ص ١٧٦

١٤ ـ ت سلامة موسى، "برناردشو" مؤسسة الخانجي بمصر، مطبعة المدني،القـاهرة ط١ ١٩٥٧ ص٩

١٥ ــ موسى "تربية سلامة موسى" ص ١٠٠

١٦ ــ موسى "البلاغة العصرية" ص ٥٧

١٧ ــ غالي شكري "سلامة موسى وأزمة الضمير العربي" مكتبة الخانجي بمصر،القاهرة ط١ ص ٢٨.

١٨ ــ موسى "البلاغة العصرية" ص ١٨٢ ــ ١٨٣

١٩ ــ موسى "ماهي النهضة" ص ١١

٢٠ ــ موسى "الأدب للشعب" ص ٧٨

٢١ ــ موسى "مقالات ممنوعة" ص ١٧٧

٢٢ ــ موسى "البلاغة العصرية" ص ٥٧

٢٣ ــ موسى "الأدب للشعب" ص ٣٠

٢٤ ــ موسى "البلاغة العصرية" ص٩

٢٥ــ موسى، المصدر السابق ص٤٤

٢٦ ــ يحيى حقي "مدرسة المسرح" الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦، ص ١٦٣

٢٧ ــ موسى "البلاغة العصرية" ص ٨

٢٨ ــ موسى المصدر السابق ص ١٤٣

٢٩ ــ ماجد السامرائي "مجلة الثقافة" (الجامعة الأردنية) عدد ١٣ سنة ١٤١٥ ك١٩٩٥،٢ ص ٤٥

٣٠ ــ سلامة موسى "الأدب والحياة" دار النشر المصرية ــ القاهرة ط ١ ١٩٥٦ص٥

٣١ ــ موسى "برناردشو" ص ١١٨ بتصرف.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق ١٩٩٧/٩/١١

توفيق الطويل. فيلسوف أخلاق عربي معاصر

د. زاهد روسان
قسم علم الاجتماع ــ كلية الآداب
جامعة اليرموك ــ الأردن

ملخص

تحاول هذه الدراسة أن تلقي الضوء على أحد المفكرين العرب المعاصرين الذين دعوا إلى إيجاد فلسفة عربية معاصرة في الأخلاق تقف موقفاً معتدلاً بين المثالية والتجريبية، هذا المفكر هو توفيق الطويل.

وقد تضمنت هذه الدراسة ثلاث نقاط: عالجت الأولى موقف توفيق الطويل من فلاسفة الأخلاق الطبيعيين ومنهجهم التجريبي، كما عالجت الثانية موقفه من فلاسفة الأخلاق المثاليين، إذ أنكر عليهم تمسكه بالمنهج العقلي بصفته منهجاً وحيداً في معالجة القضايا الأخلاقية.

وهكذا جاء موقفه ــ محور النقطة الثالثة ــ ليجمع بين الاتجاهين السابقين، وهذا الموقف هو الذي يسميه فيلسوفنا ب ــ "المثالية المعدلة" في الأخلاق.

أما هل كان إسهام توفيق الطويل يلبي متطلبات الواقع العربي بكل تطلعاته أم هو مجرد عرض لمذاهب وتيارات غربية منبتة الصلة عن واقعنا؟ فهذا ما سيحاول البحث الحالي بيانه في النهاية وفي أثناء المناقشة.

مقدمة

يحذو توفيق الطويل (+ ١٩٩٠م) حذو يوسف كرم (١) (١٨٨٦ ـ ١٩٥٩) في إيجاد فلسفة عربية معاصرة تأخذ بالحسبان "الجانب العقلي" المعتدل الذي يجمع بين المثالية والواقعية، مع هذا الفارق: وهو أن توفيق الطويل يركّز جلّ اهتمامه على الجانب الأخلاقي، في حين أن يوسف كرم يركز على الجوانب الفلسفية الأخرى وخاصة الجانب المعرفي، إضافة إلى مسائل الطبيعة.

وفي سبيل إنجاز مهمته، أخرج لنا الدكتور توفيق الطويل كتاباً في "الفلسفة الخلقية: نشأتها وتطورها" (١٩٦٠ م)، استعرض فيه مذاهب الأخلاق على اختلافها منذ اليونان إلى يومنا هذا، لينتهي من هذا كله إلى اتجاه يختاره لنفسه هو الذي يطلق عليه اسم "المثالية المعدلة" في الأخلاق، وفي تحديد مراده منها يقول: يشارك الإنسان النبات في النمو، والحيوان في الحس، وينفرد دون جميع الكائنات بالعقل، ومن أجل هذا كانت مزاولة التأمل العقلي أكمل حالات الوجود الإنساني فيما قال أرسطو قديماً... والإنسان هو الكائن الوحيد الذي لايقنع بالواقع، ويتطلع إلى ما ينبغي أن يكون، يضيق بالسلوك الذي تسوق إليه الشهوات والعواطف، ويكبر الذي يجري بمقتضى الواجب،فإننا لانقول للحجر الهابط بفعل الجاذبية إلى أسفل: ينبغي أن تتدحرج صاعداً إلى أعلى، ولا للوحش الذي يمزق فريسته: ينبغي أن ترأف بها وترحم ضعفها ... من أجل هذا كان صعودنا سلم الإنسانية، أو هبوطنا مدارج الحيوانية، إنما يكون بمقدار حظنا من المثالية التي تعبر عندنا عما ينبغي أن نكون عليه (٢).

ويضيف توفيق الطويل قائلاً: "وتقوم المثالية المعدلة في تحقيق الذات بكل قواها الحيوية، وهذا التحقيق يتطلب الإلمام بحقيقة الطبيعة البشرية، ومعرفة إمكاناتها،ووضع مثل إنساني رفيع يكفل وحدتها ويضمن تكاملها، وفي ظله يشبع

الإنسان قواه جميعها ــ الحسي منها والروحي ــ بهداية العقـــل وإرشـــاده وتتوخـــى الأنانية والغيرية، فيزول العداء التقليدي بين توكيد الذات ونكرانها "(٣).

إن توفيق الطويل ــ كما يبدو من النص ــ لم يكن متطرفاً في الأخذ بهذا المذهـــب أو ذاك من مذاهب الفلسفة، بل جاء موقفه ليجمع بين طرفيـــن متضـــادين: فقـــد كـــان المتطرفون من الحسيين ــ من ناحية ــ ينشدون أسس الأخلاق فيمـــا يحقـــق ســـعادة الإنسان، وكان المتطرفون من العقليين ــ من ناحية أخرى ــ يلتمسون أداء الواجـــب الذي يأمرنا منطق العقل أو يأمرنا صوت الضمير بفعله، ســـواء حقـــق هـــذا الأداء للواجب سعادة للفرد القائم به، أم لم يحقق، لكن لماذا لايكـــون أداء الواجـــب محققـــاً السعادة في آن معاً؟ لماذا نفترض أن تحقيق القيم الروحية العليا يتعارض مع الرغبـات البدنية؟ إن توفيق الطويل يرفض الفصل بين ماهو روح وما هو بدن في الإنسان؛ لأن ذلك من شأنه أن يفكك الطبيعة البشرية التي هي روح وبدن، وأن يحدث من الأمراض العصبية والانحرافات النفسية التي أشارت إليها الدراسات السيكولوجية الحديثة مـــاهو معروف. وهكذا وقف فيلسوفنا موقف الوسط في الأخـــلاق، والتمـــس الســـعادة فـــي الفضيلة، والمتعة في الواجب، فكان للحواس عنده دورها وللعقل دوره،فتلـــك تشـــتهي وهذا ينظم لها طريق الإشباع، بحيث لاتطغى سعادة الفرد على سعادة المجموع.

المشكلة وأسئلتها:

إن السؤال الذي يود الباحث أن يطرحه هنا هو: ما مذهب توفيق الطويـــل الأخلاقـــي الذي يريد أن يقدمه مشروعاً فلسفياً يستجيب في نظره لمتطلبات المرحلة الراهنة؟

ويجيب الباحث عن هذا السؤال الرئيس بما يلي، وقد وردت الإجابة على شكل أسئلة.

١ ــ ما موقف توفيق الطويل من الفلاسفة الطبيعيين؟

٢ ــ ما موقفه من الفلاسفة المثاليين؟

٣ ــ ما موقفه الجديد بعد معارضته للموقفين السابقين؟

مذهب توفيق الطويل الأخلاقي

١ ــ موقفه من الفلاسفة الطبيعيين:

يقصد بالفلاسفة الطبيعيين، أصحاب النزعة الواقعية من التجريبيين والوضعيين والماركسيين ومن إليهم من الحسيين الذين يصطنعون المنهج العلمي التجريبي في دراساتهم، فيعتمدون على الملاحظة الحسية والتجربة العلمية متى كانت ممكنة،مقتصرين في دراساتهم على الوقائع الجزئية المحسوسة بهدف التوصل إلى قوانين تفسيرها، تمهيداً للإفادة منها في دنيا الحياة، متأثرين في ذلك بالعلم الطبيعي ومناهجه، وهؤلاء مضطرون بحكم منهجهم العلمي إلى دراسة القيم الجزئية كما تبدو بالفعل في مجتمع بشري يرتبط بمكان معين وزمن محدد، ويخضع لظروف بعينها،ومن ثم تتطور القيم في عرفهم بتطور المجتمع الذي يعيشها فتكون عندئذ نسبية متغيرة.

والقيم عند هؤلاء تعني الاهتمام بفعل (أو قول أو شيء) واستحسانه، والميل إليه والرغبة فيه، والشعور باللذة نحوه، وإيثاره على غيره، أو نحو ذلك من المعاني التي توحي بأن القيم ذات طابع شخصي تنشأ عن ذات. قائلها بكل ماتضم من ميول ورغبات ووجدان وأهواء (٤).

وفي مجال الأخلاق رأى الطبيعيون أن الذي يتحكم في أخلاقية الأفعال الإنسانية هو مبدأ المنفعة ــ مع توحيد مدلولها باللذة والسعادة ــ فتصبح المنفعة غاية الأفعال الإنسانية ومعيار الأحكام الخلقية، ومن هنا يتغير الحكم على الأفعال بتغير ما تؤديه لأصحابها من نفع أو ضرر، من لذة أو ألم، ويبدو الخير أو الشر مجرد اصطلاح تعارف عليه مجموعة من الناس يقيمون في مكان معين وزمان محدد، ويتأثرون

بظروف تخضع للتغير المستمر. إن الخير عند هؤلاء الطبيعيين مجرد استحسان لفعل يحقق منفعة أو يعوق مضرة، والشر مجرد استهجان لفعل يعوق نفعاً أو ينزل ضرراً.

ومع أن "التجريبية" كمذهب خلقي حديثة العهد، إلا أن نواتها عرفت منذ العصر اليوناني، فقد بدأت ــ في صورتها النفعية (أي اللذية) ــ على يد "ديمقريطس" Democritus (+ ٣٧٠ ق.م)، وسارت خلال الأبيقورية Epicureanism قديماً حتى بدت في فلسفة العصور الحديثة عند دعاة المنفعة الفردية والعامة وأتباع الوضعية ودعاة التطور والقائلين بالماركسية ومؤيدي الفلسفة العلمية (البراجماتية)

والفلسفة التحليلية وغيرهم ممن ردّوا التقييم إلى الإنسان الذي يتغير بتغير الأحوال والظروف التي تكتنفه، وأنكروا الحقائق الثابتة والقيم المطلقة ونحوها مما يتحدث عنه المثاليون من أصحاب الاتجاه العقلي الحدسي في صورته التقليدية.

هذا وقد أيّد موقف الطبيعيين من القيم الخلقية أصحاب الدراسات السيكولوجية والأنتروبولوجية الحديثة.

ومجمل القول إن الفلاسفة الطبيعيين متفقون ــ مع الخلافات التي تفصل بعضهم عن بعض على رفض مصادرة المثاليين من العقليين التي تؤكد وجود عالم للحقائق والقيم وراء العالم الخارجي المحسوس، ومقتنعون بردٍّ السلوك إلى إغراء الرغبات والميول،وجزاءات الأفعال ونتائجها ونحو ذلك مما يتيسر إخضاعه لمنهج البحث العلمي،والنظر إلى القيم الخلقية على أنها تصدر عن مشاعرنا وتقديرنا لمنافعنا مما أدى إلى أن تكون جزئية نسبية متغيرة.

والآن نودّ أن نعرف ما هو موقف توفيق الطويل من فلاسفة الأخلاق الطبيعيين ومذاهبهم:

يأخذ توفيق الطويل على الطبيعيين بشكل عام اصطناعهم المنهج التجريبي ومحاولة فرضه على الدراسات الإنسانية ــ ومنها الأخلاق ــ وكأنه المنهج الوحيد الذي يلائم الموضوعات الطبيعية الجامدة منها والإنسانية كافة، متناسين أو متغافلين أن هذه الموضوعات ليست من طبيعة واحدة حتى يتيسر إخضاعها لمنهج واحد. وهنا يسجل توفيق الطويل ملاحظاته على هذا المنهج ومحاولة تطبيقه من قبل الطبيعيين على العلوم الإنسانية ــ وهي الملاحظات نفسها التي آثارها ويثيرها بين الحين والآخر اللاطبيعيون ــ فيقول إن من جملة الأسباب التي تحول دون اصطناع المناهج التجريبية في الأخلاق وفي العلوم الإنسانية بوجه عام، هي أن حرية الإرادة البشرية تتدخل في الظواهر الإنسانية ــ خلقية وغير خلقية ــ وتتكفل بتغيير مجراها بحيث يتعذر إخضاعها لقانون علمي ثابت، إلى جانب أن التجربة ــ وهي الطريقة الوحيدة إلى كشف القوانين الطبيعية ــ مجالها في الدراسات الإنسانية ضيق، وفوق هذا فإن مقررات هذه الدراسات تشير إلى ظروف شخصية تحول دون عموميتها والإدّعاء بأنها تصدق في كل زمان و مكان، هذا إلى جانب أن مقررات الدراسات الإنسانية ليست موضوعية خالصة لتعذر تجرد الباحث فيها من ميوله و رغباته تجرداً كاملاً(٥).

ومن الأسباب أيضاً والتي تحول دون تطبيق المنهاج التجريبي على الأخلاق في نظر فيلسوفنا ــ هي أن الأخلاق ــ والعلوم الإنسانية عامة ــ يصعب إخضاعها للتكميم Quantificatino و يستحيل تصويرها بالمعادلات الرياضية. ومن هذا المنطلق يحمل توفيق الطويل بشدة على أحد فلاسفة النزعة الواقعية في الأخلاق وهو "بنتام" J.Betham (+١٨٣٢) حين وضع هذا الأخير مايسميه بعلم حساب اللذات(٦) Hedonistic Calculus و ضمنه عدة مقاييس تقاس بها اللذة التي كانت عنده غاية السلوك الخير و الباعث الوحيد على إتيانه. ووجه النقد يكمن في أن اللذة إما أن تكون شعورية أو حاضرة في الذهن. فإذا كانت شعورية فإن الإنسان حين يقوم بتطبيق

قواعد حساب اللذات وخصوصاً على نفسه، يزول الشعور باللذة بمجرد إخضاعه لعملية التطبيق، وإذا كانت حاضرة في الذهن، فإن استعادتها تعني الرجوع إلى الذاكرة، والذاكرة تنسى، و في كلتا الحالتين يتعذر إخضاع اللذات للقياس الرياضي،يقول فيلسوفنا بهذا الصدد: "ولكن نزعته الحسية (أي بنتام) قد أعمته عن معيارية البحث الأخلاقي الذي يستهدف وضع المبدأ الإنساني الأعلى، وحساب اللذات عنده يقتضي أن يكون الإنسان يشعر باللذة أو حاضرة في ذهنه، ولكن قيام الإنسان بتطبيق قواعد هذا الحساب يفقده الشعور باللذة، أو يضعف إحساسه بها، ومن ثمّ لايكون قياسه لها دقيقاً، وهذا إلى أن القيم الذاتية يتعذر إخضاعها للقياس الرياضي،فليس من اليسير أن يحول عمق اللذة أو صفاءها... إلى أرقام دقيقة"(٧). ويشارك توفيق الطويل في إنكار تكميم اللذات وحسابها. الكثيرون من فلاسفة الأخلاق من أمثال جرين T.H.Green (+١٨٨٢) و سدجويك H.Sidgwick +١٩٠٠ و برادلي Bradley +١٩٢٤ ومكنزي J.S.Mackenzie +١٩٣٥لأنها قيم غير متجانسة(٨).

على أن كل هذا لا يمنع في رأي فيلسوفنا من ضرورة استخدام مناهج البحث العلمي في الدراسات الأخلاقية، شرط إلا يقف بالبحث الخلقي عند الوصف والتقرير، بل ينبغي تجاوز هذا إلى دراسة ماينبغي أن يكون، أي ما يقوله المثاليون في دراساتهم العقلية(٩).

ويتابع توفيق الطويل حملته النقدية فيشير إلى أن التجربة التي يردّ إليها الطبيعيون أخلاقية الأفعال الإنسانية لا تتناول إلا الجزئي، وهي تعرض له في حالة معينة من حالاته، ولاتكشف هذه التجربة إلا عن علاقات تقوم بين حوادث متغيرة، ولاتستطيع أن تتجاوز هذا الإطار المحدود، لأن هذا من شأن العقل الذي تخضع له التجارب الجزئية، ومن ثم كانت االتجربة لاتكفي لقيام المبادئ العامة المطلقة التي تفسر التجربة وتجعل أحكامنا موضوعية، إن هذه المبادئ لا تتعلق بالجزئيات التي تدرك بالحس،والتجربة تشهد بأن العقول السليمة تلتقي عند المبادئ العقلية العامة، وهكذا فان

إنكار العقل ــ بصفته قوة إدراك وتفكير ــ يفضي إلى إنكار الحقائق الموضوعية،ورد معرفتنا إلى حقائق جزئية متغيرة ويترتب على هذا أن يتضاءل العلم وتختفي الفلسفة(١٠).

ولكن هذا الذي يقوله فيلسوفنا في نقض التجربة أساساً للقوانين الخلقية العامة لايعني الاستغناء عن التجربة في كسب المعرفة العامة، والمعرفة الخلقية بشكل عام، بل لابد ــ في نظره ــ من تضافر التجربة الحسية والنظر العقلي مجتمعين، وكل محاولة يراد بها بتر أحد هذين العنصرين تنتهي ــ لامحالة ــ إلى ضلال فهو يقول: "إن المعرفة بغير التجربة الحسية مستحيلة، ولكنها لاتكتمل ولا تستوفي شرطها العلمي أو الفلسفي بالتجربة وحدها، فهي تفتقر لكي تستوفي هذا الشرط إلى هذا الذي نسميه بالعقل،ونعرف أن اكتسابه كقوة مفكرة بالتجربة الحسية مستحيل" (١١)، وهنا،وانطلاقاً من هذا الموقف المعرفي، يمتدح فيلسوفنا، الفيلسوف الألماني ليبنتز + ١٧١٦ Leibnitz الذي عده خير من يعبّر عن حقيقة المعرفة الإنسانية، بل وأصدق فهماً لها،ذلك أنه استطاع بفضل نزعته إلى التوفيق بين المذاهب، أن يعبر الهوة التي تفصل بين النزعة الحسية والنزعة العقلية، رغم أن ليبنتز ما برح أن يكون من أتباع المذهب العقلي أيضاً، يقول توفيق الطويل بهذا الصدد: " وقد كان ليبنتز... أصدق من الحسيين والعقليين فهماً لحقيقة المعرفة الإنسانية حين سلّم مع جون لوك بأن ليس في العقل شيء إلا وقد مرّ بالحس أولاً، وأضاف إلى قوله: إلا العقل نفسه" (١٢). ويصدق هذا الكلام على حقيقة المعرفة بشكل عام كما يصدق على المعرفة الخلقية بشكل خاص لأن هذه الأخيرة ليست إلا فرعاً من فروع الأولى.

ويأخذ توفيق الطويل على الطبيعيين ــ في صورتهم النفعية ــ أنهم،أولاً: جعلوا اللذة (أو المنفعة أو السعادة) غاية الحياة، كما جعلوها ــ ثانياً ــ معيار القيم ومقياس الأحكام الخلقية.

بالنسبة للنقطة الأولى، يرى توفيق الطويل أنه من الخطأ أن توضع اللذة غاية قصوى لأفعال الإنسان لأن هذا ــ في نظره ــ يناسب حياة الحيوان أكثر مما يناسب حياة الإنسان الذي لاتستقيم إنسانيته إلا إذا كان يؤمن بمثل أعلى يلتزم به ويميزه عن سائر الكائنات، بمعنى آخر: إن الإنسان لا يطلب اللذة لذاتها أي بصفتها غاية تنتهي عندها آماله، وإنما يطلبها بصفتها أداة من أجل تحقيق غاية تسمو عليها، ومن هنا كانت الحياة الخلقية ــ من وجهة نظره ــ تتطلب مجاهدة النفس والعمل على ضبط الأهواء والنزوات، ولاتكون في إشباع الشهوات والتمتع باللذات. فإذا كان محك الأخلاقية ــ كما يبدو في المذهب النفعي ــ هو حب الذات وما يحتمل أن يصيب صاحب الفعل من وجوه النفع وأسباب الضرر، انهارت الأخلاقية وافتقدت مايسوغ وجودها، لأن الإنسان بطبعه وفطرته ينشد منافعه ويلتمس ما يحقق مصالحه، وعندها لن تكون به حاجة إلى وضع مذهب أخلاقي يرشده إلى كماله الإنساني (١٣). إن الأحرى بالإنسان ــ في نظر فيلسوفنا ــ إلا ينشد السعادة (أو اللذة أو المنفعة) إلا حين تتفق مع الواجب ولا تتنافى مع منطق العقل؛ لأن الأخلاقية ــ كما يرى ــ إنما تنشأ حين يحصل تعارض بين الهوى والواجب، وتبدو الحاجة إلى التضحية باللذات الشخصية من أجل مبدأ يدين به ويستلذ الألم في سبيله (١٤).

وبالنسبة للنقطة الثانية، يرفض فيلسوفنا أن تكون اللذة معياراً لأحكامنا الخلقية، ذلك لأن الموازنة بين اللذات لاختيار أفضلها تتطلب معياراً آخر يقوم وراء اللذة، ولايمكن أن تكون الحواس، بل قدرة أسمى من الحواس جميعاً، ثم إن الإنسان كثيراً مايعزف عن لذة أو منفعة محققة، استجابة لمبدأ أو فكرة يدين بها، وكثيراً مايختار بمحض حريته فعلاً يجلب ألماً أو ضرراً ولاءً منه لغاية أنبل وأشرف، بل إن بعض النفعيين قدماء (مثل أبيقور picurus + ٢٧٠ ق.م) ومحدثين (مثل جون ستيوارت مل J. S Mill + ١٨٧٣) من أرجع الموازنة بين اللذات إلى التبصر أو العقل وهما مبدآن

لايقومان على أسس لذية، وفي هذا ــ يقول توفيق الطويل ــ "ما يكفي هدمــــاً لقيـــام اللذة معياراً لأحكامنا الخلقية" (١٥).

على أن إنكار توفيق الطويل للذة كغاية قصوى لأفعال الإنسان ومعيار أسمى للأحكـــام الخلقية ومعارضته لهذا الاتجاه الحسي، لاينفي أنه لايميـــل إلـــى مذاهـــب الحدســـيين والعقليين، بل هو في الحقيقة يجمع بين الاتجاهين معـــاً دون تغليـــب طـــرف علـــى آخر،فهو يقول: إن "الإنسان ليس حساً خالصـــاً ولا عقـــلاً محضـــاً، ولكنـــه يجمـــع بينهما،ولاتستقيم حياته الصحيحة من دونهما مجتمعين وتكامل النفس يقتضي الإبقـــاء على قوى الإنسان سواء أكانت حسية أم عقلية، مع تمكين هذه القوى مـــن أن تـــؤدي وظيفتها الطبيعية بتوجيه العقل وتدبيره" (١٦).

وكما لايسلم توفيق الطويل للواقعيين الطبيعيين باتخاذهم التجربة أساساً للقوانين الخلقية العامة، أو بجعلهم اللذة غاية للأفعال الإنسانية، ومعيـــاراً للأحكـــام الخلقيـــة كمـــافعل النفعيون منهم، فهو لايسلّم لهم كذلك بتفسيرهم للضمير الإنساني الذي ردّوه إلى عمليـة تطور تدريجي. فقد ذهب بعض النفعيين ممن اعتنقـــوا نظريـــة التطـــور الداروينيـــة وطبقوها في مجال الأخلاق، إلى أن الحياة الخلقية تخضع لنمـــو مســـتمر أو تطـــور متصل، وأن المثل العليا للجماعـــات البشـــرية تتنـــازع وتصطـــرع، فيبقـــى منـــها الأصلح،وينقرض منها ما لا يكون صالحاً، أي ما لا يقوى على النضال، وذهبوا إلـــى أن كمال الحياة الخلقية مرهون بمدى تكيف الإنسان مع بيئته، وغاية الحياة تقوم فـــي تحقيق اللذة أو تجنب الألم، والأصل في الإنسان أنه أناني بفطرته، ولكنه فطن إلـــى أن تعاونه مع الآخرين يؤكد مصالحه، ويزيد من منافعه، فاختلطت في سلوكه وتصرفاتـــه الأثرة بالإيثار، وبمرور الزمن استصوب العمل لصالح غيره ولو خـــلا مـــن النفـــع الذاتي، أو تعارض مع مصالحه الشخصية، وتكيف الإنسان مع بيئته في تقدم مســـتمر سينتهي يوماً بأن تحلّ الغيرية مكان الأنانية، لأن الحياة الخلقية تتحـــرك نحـــو مثـــل يتحقق فيه الانسجام الكامل بين مطالب الفرد ومطالب المجموع (١٧)، ويمثـــل هـــذا

الاتجاه في العصر الحديث "هربرت سبنسر "+١٩٠٣ H.Spencer و"ليسلي ستيفن" +١٩٠٤ L.Stephen و"صموبل ألكسندر" + ١٩٣٨ S.Alexander "وفريدريك نيتشه " +١٩٠٠ F.Nietzsche وغيرهم.

إن سبب رفض توفيق الطويل لما قال به التطوريون يعود إلى أن التطور الذي يقول به هؤلاء ليس أكثر من مجرد دراسة تاريخية تتناول نشأة الحياة الخلقية وتتبع تطورها، وهذا في نظره لايكفي لتفسيرها، بل لابد ــ وهذا هو الأهم من وجهة نظره ــ من تحديد الغاية التي تكمن في نهاية التطور، ذلك أن غرض البحث الخلقي كما يقول: هو وضع المثل الأعلى الذي ينبغي أن يسير بمقتضاه سلوك الإنسان، ولامعنى لانسجام الفرد مع بيئته مالم تكن ثمة "غاية" ينشدها الفرد ويرى أن حياته ينبغي أن تسير وفقاً لها، فيعمل على تعديل نفسه أو تعديل بيئته أو تعديلهما معاً حتى يتفقا مع المثل العليا التي يدين بها، ويحرص على تحقيقها، أما " دراسة نشأة الحكم الخلقي ومعرفة ماضيه فلا تفسر لنا أخلاقية الأفعال الإنسانية، لأن أخلاقية الفعل تقوم في غايته وليس في بدايته التي تثوي في أغوار الماضي البعيد " (١٨). هذا إلى جانب أن الانتخاب الطبيعي الذي يقول به التطوريون لايفسر لنا ظاهرة النزاع بين الأفكار العقلية والقيم الخلقية ؛ ذلك لأن النزاع بين الأفكار يتضمن وعياً أو شعوراً بالغاية،وهو مايفتقد في حالة الانتخاب الطبيعي الذي يعمل بغير وعي أو غاية، الأمر الذي يسمح بالقول: إن قوانين التطور تصلح لأن تطبق في مملكة الحيوان، ولايتيسر تطبيقها على أسمى جانب في حياة الإنسان، أي جانب المثل العليا التي ينبغي أن يسير السلوك الإنساني بمقتضاها (١٩).

يضاف إلى ذلك أن دعاة التطور ــ في نظر فيلسوفنا ــ يخلطون الخير بمعناه البيولوجي، بالخير بمعناه الأخلاقي، مع أن الفرق بينهما واضح: فالكائن العضوي يحقق غاياته دون أن يستعين بالعقل والإرادة، ولكن الإنسان لايستطيع أن يخضع سلوكه لمبادئ الأخلاق دون أن يستعين بالعقل المدرك و الإرادة الحرة، و الحياة

الخلقية لا تستقيم بغير هذين الركنين مجتمعين: التعقل و الحرية، إن الفضيلة لا تورث و إنما تكتسب إرادياً، و تتحقق في حياتنا الراهنة لا في عالم مستقبلي نحلم به، وتقوم على هدى العقل، و لا تكون مجرد مسايرة لمطالب الجسم و نزواته، و هكذا يمكن القول "إن قانون التطور طبيعي بيولوجي يعبر عما هو كائن، و قانون الأخلاق مثالي ينسجه العقل و تحققه الإرادة، ثم هو تعبير عما ينبغي أن يكون"(٢٠)

ويتناول توفيق الطويل كذلك بالنقد و التحليل، صوراً أخرى من صور المذهب الطبيعي الأخلاقي، فيذكر بهذا الصدد وضعية الفرنسيين، ومادية الماركسيين،وبراجماتية الأمريكان، إضافة إلى الوضعية المنطقية المحدثة، والفلسفات الوجودية.

فيما يتعلق بوضعية الفرنسيين المتمثلة في فكر "أوغست كونت"+١٨٥٧A.Comte و"دور كايم"+١٩١٧ E.Durkheim و "ليفي بريل"+١٩٣٩ Bruhl – Levey، فيأخذ عليهم توفيق الطويل أنهم ردوا القيم إلى المجتمع، بمعنى أن الأخلاقية في نظرهم تقوم في طاعة الفرد لمواضعات المجتمع وتقاليده، وفي هذا – كما يقول فيلسوفنا – موطن ضعف لأن الفرد في هذه الحالة سيكون مسلوب الحرية، فاقد الإرادة و الفاعلية،والتجربة شاهد على ذلك، فهي ترينا أن قيم المجتمع كثيراً ما تكون هزيلة بالية، وعندئذ تكون الأخلاقية في هذا الوضع إقراراً لفساد المجتمع، و توكيداً لقيمة المريضة، مع أن الأخلاقية الصحيحة – في نظره – تستلزم في هذا الحال الثورة على فساد البيئة، و التمرد على قيمها البالية، ابتغاء إصلاحها أو وضع قيم جديدة سليمة تأخذ مكانها، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل – في نظر توفيق الطويل – على أن القيم الجديدة تصدر عن فرد يؤمن بمثل أعلى، رجعاً لفساد مجتمعه، ومنعاً للجمود، و تحقيقاً للكمال المنشود (٢١).

غير أن توفيق الطويل، إذ يرفض أن تكون القيم الخلقية وليدة العقل الجمعي، يرى أن القيم يضعها الفرد، ولكن عن اختيار حرّ، وتعقل للموقف، وتدبر لظروفه، مع التسليم بأن الحرية نفسها مقيدة بشخصية صاحبها التي أسهم المجتمع في تكوينها. وعلى هذا الأساس لا تكون القيم ــ في نظره ــ مجرد صدى للجماعة البشرية، واستجابة لعرفها، ومسايرة لتقاليدها، وإنما تنبع أصلاً من العقل الذي يعرض للبحث في غاية الإنسان بما هو إنسان، ومن ثم فلا ترتد هذه القيم ــ وفق رأيه ــ إلى سلطة خارجية تتمثل في عرف اجتماعي كالذي قال به الوضعيون، أو حاكم سياسي كما قال هوبز T.Hobbes +١٦٧٩، أو كهنوت ديني كالذي أنتصر له متأخرو رجال اللاهوت(٢٢).

لكن ينبغي إلا يُفهم من ذلك، أن توفيق الطويل يميل إلى أصحاب النزعة الفردية الصرفة ضد الوضعيين، بل على العكس، فإن هؤلاء (أي أصحاب النزعة الفردية من أمثال "توماس كارلايل"+Th.Carlyle١٨٨١، و "بندتو كروتشه"+B.Groce١٩٥٢) هم أيضاً ــ في نظره ــ قد غالوا كثيراً في تمجيد الفرد لدرجة أنه أصبح هو من يحدد معنى التاريخ و يوجه سيره، و أن الأفراد هم صانعوا المجتمعات، و بناة حضارتها،وأصحاب الفضل الأول في رقيها و تقدمها، والأصح ــ في نظر فيلسوفنا ــ أن يُقال: إن هنالك تفاعلاً متبادلاً بين الفرد والمجتمع إذ لا يقوم أحدهما مستقلاً عن الآخر، ذلك لأن الحياة الأخلاقية ــ في رأيه و في رأي المعاصرين من علماء الاجتماع علماء النفس ــ حياة إنسانية، أي حياة كائن يرتبط في جوهره بغيره، و يعيش وسط جماعة، فحياته إذاً ليست حياة روحية خالصة، و لا هي حيوانية خالصة،و إنما هي مزيج منهما معاً. و لا يتنافى القول ــ كما يرى توفيق الطويل ــ مع القول بنصيب الفرد الملحوظ في وضع المثل العليا، وردّ الإلزام الخلقي، إلى الفرد، و تحرير الفرد من عبوديته للمجتمع، و ذلك حتى يستقيم كيان الأخلاقية التي تقيم المسؤولية الخلقية على أساس من توافر التعقل و حرية الاختيار(٢٣).

و أما في ما يتعلق بالماركسية، و هي الفلسفة التي ردّت القيم الخلقية إلى الأحوال الاقتصادية دون غيرها من مقومات الحياة الاجتماعية، فإن توفيق الطويل لا ينكر قطّ آثر هذه الأحوال في سلوك الفرد و حياة الجماعة، و لكن إلى جانبها ــ كما يقول ــ تقوم عوامل أخرى أكبر أهمية و أعظم تأثيراً، و كلها تتمثل في "الإنسان" صانع التاريخ، بما نجم عن عقله من علم وفلسفة وفن وأدب وغيرها، و هو بفاعليته و إرادته قادر على أن يغيّر كل شيء حتى الأحوال الاقتصادية نفسها، على نحو ما،يقول أصحاب التفسير الروحي للتاريخ، وهكذا فإن الأدنى إلى الصواب ــ في نظر فيلسوفنا ــ أن يفسر التاريخ بتفاعل عوامله المادية و الروحية معاً(٢٤).

لكن فيلسوفنا ــ كما يبدو للباحث ــ قد تراجع عما قاله بشأن الماركسية، فيعترف بأن بعض أعلامها قد فطنوا إلى التأثير المتبادل بين الفكر والمادة، كما هو الحال عند "ماوتسي تونغ Mao Tse ــ T ung الذي قال: "إن الأفكار النظرية وعلاقات الإنتاج والبناء العلوي قد يلعب في بعض الحالات الدور الأساسي الحاسم في تطور التاريخ"(٢٥).

ومع تسليم توفيق الطويل بالحقيقة الآتية، وهي أن بعض القيم تنشأ عن أوضاع اقتصادية أو ظروف اجتماعية تتغير بتغيرها في المجتمع الواحد، فإنه يرى أن وراء هذه القيم النسبية المتغيرة توجد قيم عليا تتخطى الزمان والمكان، هذا يعني أن توفيق الطويل يؤمن بضرورة وجود مثالية أخلاقية يسير في ضوئها سلوك الإنسان إذ لا يتنافى هذا مع ارتباط الإلزام الخلقي بالواقع وظروفه (٢٦).

لكن هذا النقد الموجه إلى الماركسية، لم يمنع فيلسوفنا من الإشادة بهذه الفلسفة لما لها من أثر في تقدم البشرية وتطورها، وخصوصاً في تأثير نظرياتها على الحركات الاجتماعية وتطورها في مجرى التاريخ البشري، فهو يقول: إن "للماركسية مع كل مايقال في نقدها فضلاً ملحوظاً في التطور التقدمي الذي أدرك الكثير من البلاد، وما

من شك في أنها أحدثت ثورة في علمي التاريخ والاجتماع وهيـــأت الأذهــان لقيــام الاشتراكية في كثير من البـــلاد التـــي عـــانت مـــن متـــاعب الرأســـمالية وويــلات الاستعمار،وعالجت بالتحليل العلمي كثيراً من المسائل الاقتصادية، وكان لها نصيبـــها في تطور البحث الوضعي في الظواهر الخلقية التـــي تنشـــأ بـــالفعل عــن أوضـــاع اقتصادية"(٢٧).

وفيما يتعلق بأصحاب الفلسفة الذرائعية (البراجماتية) Pragmatism الأمريكية" ساندرز بيرس" + ١٩١٤ C.S. Peirc ، و"وليم جيمس" + ١٩١٠ W. James و"جون ديـــوي" Dewey.J١٩٥٣+، وهم الذين انصرفوا عن النظر العقلي المجرد إلى طلب المنفعـــة المجدية والعمل المثمر، فيأخذ عليهم توفيق الطويل أنهم حولوا القيم الأخلاقيـــة إلـــى صفقات تجارية خاضعة لقانون الربح والخسارة، أو العـــرض والطلـــب، أو الخـــير والشر، فقيم الأخلاق عندهم تكون صادقة متى حققت نفعاً في حياة الإنسان وإلا فـــهي كاذبة،فليس ثمة حق في ذاته ولاخير في ذاته، وإنما الحق ــ أو الخير ــ كورقة النقـد الزائفة تظل صالحة للاستعمال حتى ينكشف زيفها فيما قال وليم جيمس (٢٨).

ويأخذ فيلسوفنا على هذه الفلسفة أيضاً أنها جاءت لتكـــون منـــهجاً لحـــل مشـــكلات الديمقراطية الأمريكية الصناعية، لان أصحابها قد تأثروا بما في أمريكا من مصـــانع ضخمة وأرباح طائلة، فبدأ الخير والحق يطرح في الأسواق ليحكمه قـــانون العـــرض والطلب، ومن الحكمـــة فـــي رأي فيلســـوفنا ــ إلا يرتبـــط الخـــير بـــالخلاف بيـــن الأفراد،والنزاع بين المجتمعات، وان يعد الحق أو الخير مستقلا عـــن العقـــل الـــذي يدركه، والظروف التي تحيط به، لأن اختلاف الناس على شكل الأرض أمبسطة هـــي أم كروية ــ لايكون قط دليلاً على أن الأرض ليس لها شكل (٢٩).

وأما عن نظرية الوضعين المنطقيين التي زعم فيها "أير ayer " وكارناب Carnap أن العبارات الأخلاقية قضايا زائفة لأنها لاتحتمل الصدق ولا الكذب ولا يمكن التثبت مـــن

صوابها بالخبرة الحسية، لأنها مجرد رغبات أو وصايا أو أوامر فيقول توفيق الطويـل في الرد عليها: إنه لو صح هذا لتعذر الفصل بين حكمين أخلاقيين مختلفين على فعـل واحد، لأن كل حكم منهما سيكون تعبيراً عن مزاج صاحبه، وعندئذ يمتنـع التنـاقض بين الحكمين، هذا إلا أن الأمر لايستلزم اعتقاد صاحبه بصحته، فقد أمر بشيء أعتقـد أنه خاطئ، ولايكون مثل هذا مبدأً أخلاقياً، وليس ثمة إلزام بطاعة إنسان لمجرد أنـه يصدر أمراً، فإذا أطعته لسبب أخلاقي ــ كالبر بوعد ــ لم يكن مرجع الطاعـة إلـى الأمر، بل إلى شيء وراءه.(٣٠)

ويمكن أن يضاف إلى هؤلاء الطبيعيين طائفة من الفلاسفة شاركتهم فـي مخاصمـة المثالية التقليدية في فلسفة الأخلاق، أولئك هم أتباع الفلسفة الوجودية Existentialisn فهم يرفضون إخضاع الفرد للحتمية الاجتماعية أو الموضوعيـة العلميـة، ويـهتمون بحرية الفرد إلى حد التوحد بينها وبين وجوده، وفي ضوء هذا استبعدوا القيـم التـي تفرضها على الإنسان سلطة ما، لأن اختياره لموقف في حياته دون موقف آخر لايتقيد بفكرة سابقة أو قوة عليا، وإلا افتقد الإنسان حريته، إن الإنسان الفرد هـو رب القيـم وخالقها بمحض حريته التي لاترتد إلى معطيات سابقة، وبهذا أسقط الوجوديون القيـم المتعارف عليها من حسابهم، سواء منها ما فرضه العـرف الاجتمـاعي، أو إمـلاء المعتقد الديني، أو أوجبته سلطة سياسة، ومثل هؤلاء الوجوديين ينكرون القيم الإنسانية العليا، فينتفي من ثم دورها في توجيه الحياة والرأي عند فيلسوفنا توفيـق الطويـل أن حياة البشر لاتستقيم بغير مبدأ أسمى يدين له الإنسان بالولاء، وإلا تحول الإنسان إلـى حيوان (٣١).

وهكذا يخلص توفيق الطويل من مناقشته للواقعيين الطبيعيين إلى أن هؤلاء قد أسـقطوا من حسابهم الجانب المشرق الوضاء في طبيعة الإنسان، ووقفوا عند جانبها البـهيمي الحسي دون أن يتجاوزوا هذا الواقع إلى تصوير ما ينبغي أن يكـون، وهـو هـدف الفلسفة الخلقية الأصيلة التي يؤمن بها(٣٢).

لكن رغم من كل ما قاله فيلسوفنا من نقد ومأخذ تجاه مذاهب التجريبيين ومن إليهم فيما يتعلق بالقيم الخلقية، إلا أنه يعترف أن هؤلاء قد كشفوا عن ثروة من الحقائق أفادت فلاسفة الأخلاق وإعانتهم على فهم الطبيعة البشرية وتقدير إمكانياتها، وما كان في وسع أحد منهم أن يرسم للبشرية مثلاً أعلى جديراً بالبقاء مالم يكن على بينة من هذه الآفاق التي ارتادها هؤلاء التجريبيون وكشفوا عن مناطقها المجهولة، ونشير فيما يلي إلى بعض أفضالهم كما يعترف بها توفيق الطويل.

لقد كشف النفعيون عن دوافع الأفعال الإنسانية في طبيعة البشر، وحددوا مكان اللذة والالم من تصرفات الإنسان، وأكد التطوريون منهم أثر التطور في حياة المبادئ الخلقية ونموها وتغيرها، كما لفت الوضعيون الأنظار إلى ضرورة الحياة الاجتماعية لقيام المبادئ الخلقية، لان الإنسان لايحيا فرداً منعزلاً عن غيره من الناس، وإلا لاستغنى عن المثل العليا في تدبير حياته الإنسانية، وأبان أصحاب التفسير المادي عن كنوز من حقائق الطبيعة البشرية تتمثل في حياة الفرد والمجتمع معا". وأما الوضعية المنطقية فقد كان لتحليلاتها المنطقية أثرها ــ غير المباشر ــ على التوجيه الاجتماعي المستنير عن طريق توضيح الأفكار وليس في كشف الحقائق... وهكذا فإن فلسفة الأخلاق التقليدية ما كان لها أن تستقيم صحيحة سليمة بغير فهم لهذه الحقائق وغيرها مما كشفه الفلاسفة الطبيعيون، وهل يتيسر لفيلسوف أن يضع مثلا" أعلى لسلوك الإنسان اذا لم يكن على علم بإمكانيات طبيعته(٣٣).

حسبنا هذا إذاً عن موقف توفيق الطويل من الفلاسفة الطبيعيين فيما يتعلق بالقيم الخلقية لننتقل إلى موقفه من المثاليين.

٢ ــ موقف توفيق الطويل من فلاسفة الأخلاق المثاليين:

تطلق المثالية الأخلاقية على العقلين والحدسيين = (الفطريين) من الفلاسفة الذي يتوخون اصطناع المنهج العقلي في دراسة القيم ويرفضون موقف الطبيعيين من القول

بذاتية الأحكام الخلقية ونسبية القيم وتغيرها بتغير الظروف وينكرون رد الضمير إلى التجربة، وربط أخلاقية الأفعال بما ينجم عنها من آثار ويترتب عليها من نتائج، ومع اعتراف المثاليين بوجود القيم الجزئية النسبية التي تتغير وفقاً لظروفها وأحوالها، إلا انهم يؤكدون أن وراء هذه القيم النسبية المتغيرة تقوم قيم إنسانية عليا لاتستمد من الخبرة الحسية، ولا تتغير بتغير الزمان والمكان، إنما تنتزع من طبيعة العقل البشري،فتكون ملائمة لاسيما جانب في طبائع البشر، وهو الجانب العاقل المشترك بين البشر كافة.

وهذه القيم العليا والأخلاقية منها بالذات، ليست مجرد صفات يخلعها العقل وفاقاً للظروف المتغيرة المنظورة كما ظن الطبيعيون، وإنما هي صفات عينية قائمة في طبائع الأفعال الإنسانية، مستقلة عن رغبات الإنسان وميوله، بعيدة عن مصالحه ومنافعه، ومن هنا كانت هذه القيم كلية مطلقة ثابتة وليست جزئية نسبية متغيرة، وبدا الضمير عندهم قوة فطرية كامنة في طبائع البشر، تدرك الخير وتميز بينه وبين الشر حدسياً تلقائياً، دون اعتبار لنتائج الأفعال وآثارها، وهكذا كانت الأخلاقية تحمل في باطنها جزاءها وتتضمن في ذاتها مسوغاتها (٣٤).

ويمثل هذا الاتجاه في العصر اليوناني سقراط وأفلاطون وأرسطو إضافة إلى الرواقية Stoicism، وقد رد هؤلاء الأخلاقية إلى العقل الذي يميز الإنسان من سائر الكائنات،إلا أن منهم من أسرف في تقديره للعقل ومكانه من سلوك الإنسان، حتى احتقر الجانب الحسي في طبائع البشر ونزع نزعة المتصوفة حتى رأى أن الخيرية تتحقق بمقدار تجرد النفس من علائق البدن ومزاولة صاحبها للرياضة الروحية التي تقوم على الزهد في مباهج الدنيا، وإماتة الشهوات والعواطف كما هو الحال عند الكلبية Cynics والرواقية Ctoicism بصورة خاصة (٣٥). أما في العصر الحديث فيبدو هذا الاتجاه المثالي عند أفلاطونيي كمبردج في إنجلترا، وقد رد هؤلاء الخيرية والشرية إلى طبائع الأفعال دون نتائجها النافعة أو آثارها الضارة، والعقل هو الذي

يكشف عن خصائص الأفعال الإنسانية ويعرف صفاتها الذاتية، فيتبين بهذا ما استقر فيها من خير أو من شر ويمثل هؤلاء كدويرث + ١٦٨٨ Cudworth وهنري مور + ١٦٨٧ م H. More ومما يجدر ذكره هنا هو أن المعتزلة من متكلمي الإسلام يتفقون مع أفلاطوني كمبردج من الحدسين العقليين من حيث إن خيرية الأفعال أو شريتها قائمة في طبائع الأفعال نفسها وليست من صنع أحد (٣٦).

كما يبدو هذا التيار المثالي بارزاً عند دعاة مذهب الحاسة الخلقية Sense Moral الذين ضاقوا بالنزعة الحسية وافتقدوا الثقة بالعقل فلجئوا إلى العاطفة يستفتونها في أساس الأخلاقية، ورفضوا مع العقليين رد الإلزام الخلقي إلى سلطة تقوم خارج الذات،وتفرض على الإنسان مبادئ الأخلاق ولكنهم أنكروا العقل الاستدلالي أداة للكشف عن طبائع الأفعال الإنسانية ومصدراً للإلزام الخلقي، ومن ثم تخلى العقل عن سيادته مؤقتا"، وتأكد على يدهم الاتجاه الوجداني الحدسي في الأخلاق، والرأي عند هؤلاء أن الإنسان يولد مزوداً بحاسة باطنية لا تجيء اكتساباً هي قوة حدسية تميز الطبيعة الإنسانية عن الطبيعة الحيوانية، وظيفتها تمييز الخير من الشر وبفضلها يقبل الناس على الخير وينفرون من الشر من غير جزاء. ولكن هذه الحاسة تشبه حاسة الجمال أو قوة النطق (التفكير) في الإنسان من حيث كونها متأصلة في طبائع البشر ،ولكنها تموت بالإهمال وتقوى بالمران، وتنمو بالتربية الحسنة، وتسوء في البيئة الفاسدة، ومن هنا تفاوت إدراك الناس للخير والشر، كما يتفاوت إحساسهم بالجمال والقبح، أو قدرتهم على الإدراك العقلي المجرد. وهكذا ترتد قوانين الأخلاق عند اتباع هذا الاتجاه إلى هذه الحاسة (أي الوجدان أو العاطفة)، ومن دعاة هذا المذهب شافتسبري + ١٧١٣ Shsflesbury وفرنسيس هاتشيسون + ١٧٤٧ F. Hitchesom

ويشارك هؤلاء كذلك دعاة الضمير Conscience الذين يتزعمهم الأسقف بطلر+١٧٥٢ Bishop Butler إذ أقام الأخلاقية فيما سماه الضمير والضمير عنده ليس حشداً" من الوجدان والعواطف كما فعل أقرانه من الحدسيين، وإنما عده قدرة

(قوة) عقلية مستقلة ذات قدسية تميزها عن غيرها من القدرات، إنها عقلية خالصة تمتاز بسلطان مطلق لاتمتد إليه أهواء الإنسان وشهواته، ولا تؤثر فيه مصالحه أو رغباته، وظيفتها إدراك الخير والتمييز بينه وبين الشر، وهي معصومة من الخطأ منزهة عن التحيز والمحاباة(٣٨). ويضاف إلى المذاهب السابقة مذهب الواجب الذي أنشأه كانط + ١٨٠٤ Kant وقد توخى فيه أن يضع للأخلاق قانونا كلياً لايرتد إلى الوجدان ولايستقى من التجربة ولكنه يستند إلى العقل ويكون عاما مطلقا غير مقيد ولامشروط بغاية تقوم خارجه فأوجب بهذا أن يطاع مبدأ الواجب لذاته دون نظر إلى نتائجه أو جزاءاته وأصبحت سلطة القانون باطنية ذاتية وليست مفروضة من الخارج.(٣٩).

وهناك أخيراً المثالية المحدثة والمعاصرة، وهي الفلسفة التي تأكد فيها إدراك الفرد لوحدته مع إقرانه وارتداد الإلزام الفردي إلى النظم الأخلاقية التي تتمثل في الأسرة والدولة والمجتمع، ومن زعماء هذا المذهب " بوزانكيت +١٩٢٣ Bozanguet وادوار دكيرد + ١٩٠٩ E. caird وبرادلي + ١٩٢٤ Bardly وغيرهم(٤٠).

والسؤال الآن هو: ماموقف توفيق الطويل من هذه الفلسفات ومذاهبها؟

يأخذ توفيق الطويل على المثاليين بشكل عام في أنهم اتخذوا المنهج العقلي أساساً لمباحث الأخلاق، وهو منهج يقوم على مسلمات واضحة بذاتها وصادقة بالضرورة تدرك بالحدس من غير استدلال قياسي أو تجربة حسية، ومن هذه المسلمات يتوصل الباحث إلى نظرياته، وينتهي هذا المنهج بالامثاليين إلى وضع قواعد خلقية عامة مطلقة تصدق في كل زمان ومكان، كما ينتهي بهم (هذا المنهج) إلى القول إن الخير ضرورة عقلية يقتضيها العقل، وإدراكه إنما يكون بالحدس الذي يدرك البديهيات. إن توفيق الطويل إذ يرفض اصطناع هذا المنهج في الأخلاق، لان النتائج فيه لاتقاس بالواقع بل قد تتنافى معه يرى أنه بالإمكان التوصل عن طريق الاستقراء إلى قوانين

عامة كالتي يدعيها المثاليون، ولكنها تصدق على سبيل الترجيح والاحتمال فـي كـل زمان ومكان ويسوغ عموميتها في أنه (أي توفيق الطويل) يميل إلـى عـد الطبيعـة البشرية واحدة في جوهرها وليست هذه ــ في نظره ــ مسـلمة كمـا عدهـا ليفـي برول،فإن التجربة تشهد بأن هذه الطبيعة فـي ماضيـها وحاضرهـا عقـل وهـوى والمفروض أن قوانين الأخلاق ينبغي أن تصاغ ــ كما يقول ــ بحيث لاتهمل الجـانب الحيواني في طبيعة البشر، وفي الوقت نفسه تكون ملائمة لاسيما جـانب فـي هـذه الطبيعة وهو الجانب العاقل، وهو حظ مشترك بين الناس في كل زمان ومكان، وهـذا يعني أن قوانيـن الأخـلاق هـي كقوانيـن العلـم عنـد التجريبييـن، احتماليـة أو ترجيحية،وليست يقينية بالمعنى الذي يقصده المثاليون، وبهذا ــ يقول توفيق الطويل ــ تحتفظ فلسفة الأخلاق باتجاهها المعياري وتتجاوز نطاق البحث التجريبي فيما هو كائن إلى دراسة ما ينبغي أن يكون، وتدرس القيم والمثل العليا دون أن تقيم دراساتها علـى مجرد مسلمات تفترض صحتها مجرد افتراض وتسوغ قوانينها بوحدة الطبيعة البشرية التي يشهد بها استقراء بني الإنسان(٤١). هذا يعني أن توفيـق الطويـل لا يريـد أن يضحي بالعلوم المعيارية أو الإنسانية لحساب التجريبية الوضعية ولا بالثانية لحسـاب الأولى إذ لامانع لديه أن تكون هناك دراسات تجريبية في المنطق تضاف إلى فـروع علم النفس ولكن دون ان تقضي على علم المنطق المعياري وكذلك لاضير عنده فـي استخدام دراسات وضعية تقريرية في الجمال، شرط إلا نستغني بها عن علم الجمـال المعياري الأصيل، وقل مثل ذلك في الأخلاق، فهو لا يرفض أن تكون لنـا دراسـات أخلاقية تصطنع منهج الاستقراء وتصف ماكان وما هو كائن وتلحـق بفـروع علـم الاجتماع ــ كدراسات المدرسة الاجتماعية الفرنسية ــ شـريطة إلا تلغـي معياريـة فلسفة الأخلاق التي ترسم ــ كما يقول ــ قيمنا وتصور مثلنا العليا، مما يجعل مجـال العلم أكثر رحابة ويضيء من جوانبه المظلمة الغامضة إضافة إلى انـه يزيـد فـي خصب إنتاجه (٤٢) وهكذا يكون توفيق الطويل ــ كما يعتقد ــ قد واءم بين الجـانب

الحسي والجانب العاقل في سلوك الإنسان أملاً في الحفاظ على تكامل الشخصية الإنسانية وتوازنها من أن تنهار، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل في مطلع معالجتنا لموقف فيلسوفنا من الفلاسفة الطبيعيين.

ثم يأخذ توفيق الطويل على المتزمتين من المثاليين قدماء ومحدثين (أمثال الرواقية قديماً وكانط حديثاً) استخفافهم بالعواطف والميول، ونفورهم من الجسم الذي عد في نظرهم مصدر كل شر فطالبوا بالعمل عن استئصال شهواته، وإماتة رغباته وميوله،على طريقة الصوفية والنساك، ومن شأن هذا في نظر فيلسوفنا أن يجعل الأخلاقية مطلبا صعب المنال لايقوى على تحقيقه إلا الأبطال، إلى جانب أن محاربة الجسم ونزواته تفكيك للطبيعة البشرية، لأنها ليست عقلا خالصا حتى يمكن استبعاد جانبها الحاس بل هي في نظره حس وعقل، وهكذا يرى أنه لابد من إشباع الرغبات والعواطف والغرائز كافة، لأنها تساعد على حفظ الفرد والإبقاء على نوعه كما تبعث فيه الحيوية والنشاط شرط إلا يتجاوز هذا الإشباع حد الإسراف ولايتعارض مع آداب المجتمع ومطالبه، وذلك لايكون إلا بهداية العقل وإرشاده وتنظيمه لها، يقول توفيق الطويل بهذا الصدد: إن للغرائز وظيفتها في المحافظة على الفرد والإبقاء على النوع،وللعواطف والرغبات أهميتها في بعث الحرارة والحيوية في سلوك الإنسان،وإذا كانت آداب المجتمع تقتضي في بعض الحالات قمع الشهوات ووأد العواطف، وجب الحذر من مغبة مجاهدتها، والعمل على قتلها مخافة الإصابة بالاضطرابات العصبية والانحرافات النفسية التي أشارت إليها الدراسات السيكولوجية الحديثة.(٤٣).

أما الخلاص من التوترات التي قد تنشأ بين نوازع الحس ومطالب المجتمع ومن ثم تؤدي إلى أزمات نفسية حادة نتيجة القمع، فيرى توفيق الطويل أن ذلك يكون بطريق الإعلاء أو التصعيد ويراد به تحويل الطاقة النفسية العزيزية عن أهدافها الطبيعية التي تتنافى مع آداب المجتمع وتعاليم الدين، إلى أهداف أخرى تساير ادابنا، ولاتتنافى مع معتقداتنا ومعاييرنا الأخلاقية، أو هو التغلب على الدوافع المكبوتة بتغيير مجراها

وإبدالها بأشكال سامية من النشاط وليس في هذا إشباع حقيقي للغرائز والميول المكبوتة، ولكنه إشباع بديل غير أصيل وبهذا الإشباع البديل ــ يقول توفيق الطويل ــ يمكن التخلص من التوترات التي تقترب بالأزمات النفسية الناشئة عن الصراع السالف الذكر، أما العمل على إماتة الجانب الحسي والقضاء على نوازعه فكفيل بأن يفقد الإنسان توازنه، ويدمر شخصيته ويقضي على تكامل الطبيعة البشرية، وما لهذا وجدت مبادئ الأخلاق ومثلها العليا (٤٤). هذا يعني أن الأخلاقية في نظر توفيق الطويل ــ لاتقتضي من الإنسان أن يتخلى عن سعادته ولأن تثير بين عقله وحسه حرباً" مستعرة، بل ينبغي أن تقوم السعادة عند الإنسان مقترنة بإشباع الحاجات الدنيوية من غيرتهم أو جشع أو تهور، وأن يجري السلوك الإنساني وفق أوامر العقل ونواهيه، وبهذا يرتفع الإنسان فوق بهيميته من غير أن يتحمل من الأعباء ما تنوء به طبائع البشر.

ولايفوت توفيق الطويل أن يسجل بهذه المناسبة مفخرة لأرسطو كان لها قيمتها في تاريخ الفلسفة الخلقية، وذلك حين حرص هذا الأخير على رفض الانسياق مع طلاب اللذة من الحسيين احتراما" لإنسانيته، ونفر من الزهدة الذين تطلعوا إلى إماتة الجانب الحسي في طبائعهم، تقديراً منه لسلامة النفس البشرية واتزانها، يقول توفيق الطويل: لقد فطن أرسطو إلى ما فات المثاليين المتزمتين قدماء ومحدثين، إذ لم يحارب اللذة في ذاتها كما فعل هؤلاء المتزمتون لأنها عنده ليست شراً في ذاتها ولا خيراً في ذاتها، بل عدها علامة الفعل الخير، بمعنى أن الفاضل لا يستكمل شرائط الفضيلة مالم يجد في مزاولتها لذة ولاغنى عنده عن الخيرات والظروف الخارجية في استكمال السعادة العملية، ومن ثم كان من الخطأ أن يقال إن الإنسان يسعد وهو على آلة التعذيب(٤٥) كما فعل الرواقيون. ويضيف قائلاً: إن أرسطو لايتصور الفضيلة إلا باجتماع العقل والشهوة، ومن أجل هذا رفض موقف الزهدة الذين نزعوا إلى استئصال الشهوة من طبائع البشر، لأن الإنسان عنده ليس عقلاً خالصاً كما تصور العقليون

المتزمتون، ولاحساً محضاً كما ظن الحسيون المتطرفون وإنما هو مركب منهما معاً فالأهواء والشهوات هيولى (= مادة) الطبيعة البشرية والعقل صورتها ولاقيام لصورة بغير هيولى إلا متى كانت طبيعة إلهية(٤٦).

ومن المآخذ التي يأخذها توفيق الطويل على المتزمتين من المثاليين قولهم بمنع الاستثناء من القانون الأخلاقي مهما كانت مسوغاته وتحت أي ظرف من الظروف ذلك لان القانون الأخلاقي في نظرهم يتميز من جملة ما يتميز بأنه لا يقبل شكاً ولاجدلاً، ولا يحتمل تناقضاً، وهذا يقتضي أمرين الأول أنه يستحيل التسليم بصحة نقيضه، والثاني أنه يستحيل أن يطبق نقيضه كقاعدة عامة لسلوك الكائن البشري(٤٧).

إن توفيق الطويل حينما يرفض ذلك، يعتقد أن ليس ثمة قاعدة أخلاقية بلغت من القداسة حداً يمنعنا من أن نستثني منها بعض الحالات في بعض الظروف، إن القانون الأخلاقي ــ كما يقول ــ مستعيناً في ذلك بجاكوبي Jacobi قد وضع من أجل الإنسان وليس الإنسان هو الذي خلق من اجل القانون (٤٨) والتجربة تشهد على ذلك فكثيراً من المبادئ الخلقية ماتكسر إبان الحروب خاصة لمنع مزيد من الشرور. وحتى في حياة السلم كثيراً ما يحدث التصارع بين هذه المبادئ بعضها مع بعض كالصراع الذي يقوم بين مبدأ يوجب الامتناع عن الكذب ومبدأ يوجب الكذب إنقاذاً لحياة إنسان يريد مجرم أن يقتله، بل إن على الدبلوماسي أن يكذب متى أدى كذبه إلى منع حرب عالمية ثالثة، وبذلك ــ يقول توفيق الطويل ــ تبطل قاعدة كانط كبير المثاليين التي تقول آية السلوك الخير إمكان تعميمه من غير تناقض(٤٩).

وهنا وانطلاقاً من الموقف السابق المعارض للمثالية المتزمتة بشكل عام ولكانط بشكل خاص يؤيد فيلسوفنا ما ذهب إليه أحد النقاد من المثاليين المعتدلين أمثال "وليم ديفيدروس +١٩٤٠ W.D.Ross حين عارض هذا الأخير الأمر المطلق عند كانط (الواجب الذي يلزم الإنسان بطاعته دون نظر إلى نتائجه) بمجموعة من الواجبات

والإلزامات قد يناقض بعضهم بعضاً ومع ذلك لايمكن تعميم نقيضين منهما قاعدة عامة لسلوك الإنسان: فالإلزام الذي يوجب الصدق، قد يتعارض مع إلزام آخر يوجب على الأسير أن يكذب على آسريه متى اقتضت ذلك مصلحة الوطن، وخوفاً من أن يفشو بين الناس كسر القاعدة الخلقية بغير موجب، اشترط جيمس مل + ١٨٣٦ James Mill لكسر القاعدة إمكان تعميم كسرها في كل ظرف مشابه، فيصبح كسرها في هذه الحالة قاعدة أخلاقية إذ لايكون كسرها من أجل نزوة أو شهوة أو مصلحة،وهكذا أجاز عصيان الواجب من أجل واجب أسمى وكسر القاعدة الأخلاقية من أجل قاعدة أسمى(٥٠).

وبعد أن يناقش توفيق الطويل المثالية الأخلاقية والمتزمة منها في صورتها العامة ينتقل إلى مناقشة ماهو خاص فيها وأول ما يتناول بهذا الصدد أفلاطونيي كمبردج الذين قاموا بتعليق الأخلاقية على طبيعة الأفعال الإنسانية، فعلى الرغم من اعتراف فيلسوفنا بما ذهب إليه هؤلاء الفلاسفة من أن في طبيعة الأفعال الإنسانية ما يسوغ وصفها بالخيرية أو الشرية بوجه عام، إلا أنه يأخذ عليهم إنكارهم للغايات من فعلها،والبواعث التي تحفز الإنسان على إتيانها، ذلك أن هذه الغايات أو البواعث ــ في نظره ــ هي التي تحدد بوجه قاطع مدى خيريتها أو شريتها فالقتل ــ على سبيل المثال ــ يختلف حين يكون مجرد اغتيال يبعث عليه الحقد، وتحفز إليه الضغينة وحين يكون قصاصاً ينال به القاتل جزاءه العادل، والقتل في الحالين واحد ــ من حيث هو إزهاق لروح ــ إنما تختلف البواعث والغايات فتختلف تبعاً لها أحكامنا الخلقية التي نصدرها على الفعل الواحد، وهكذا إذاً تتوقف خيرية الأفعال على الغاية التي يتوخاها الفاعل من ورائها والباعث الذي عجل بإتيانها. لكن هذا لايعني في نظر فيلسوفنا أنه ينبغي أن نعلق الأخلاقية بجزاءاتها كما فعل الطبيعيون من قبل، بل إن اعتبارات المنفعة الشخصية لاتصلح أساساً لقيام الأخلاقية، بل يعني التوفيق بين طبيعة الأفعال البشرية وبين النتائج المترتبة على هذه الأفعال.(٥١)

والنقد نفسه يوجهه توفيق الطويل كذلك إلى أصحاب الحاسة الخلقية، حين جعلوا من الوجدان مصدرا لجميع ما نأتيه من أفعال، والأخلاقية في نظرهم إنما تحمل في باطنها جزاءها وتتضمن في ذاتها مسوغات قيامها دون حساب للغايات أو النتائج تماماً كما فعل أفلاطونيو كمبردج من قبل، إلا أنه (أي توفيق الطويل) يأخذ عليهم توحيدهم بين الخير والجمال على نحو ما قال قدماء اليونان، ففي نظره يبدو هذا التوحيد أقرب إلى التشبيه المجازي منه إلى التعبير عن الواقع، وإلا فما الجمال الحقيقي الذي يمكن أن يبدو عندما تراق الدماء وتزهق الأرواح، أو عندما تتكسر الرؤوس وتبقر البطون استشهاداً في سبيل مبدأ؟ إن في الاستشهاد ـ كما يرى فيلسوفنا ـ معنى كريماً له جلاله، ولكنه لاينبغي أن يوصف بالجمال إلا من قبيل المجاز، ثم ياترى ما مظاهر الخيرية التي قد تبدو في سلوك فتاة جميلة فاتنة ولكنها مستهترة تستخف بمبادئ الأخلاق ومثلها العليا؟.(٥٢)

غير أن أكثر ما يعاب على هذا المذهب ـ فيما يرى توفيق الطويل ـ هو أن دعوته إلى الحاسة الخلقية ينتفي معها قيام الإلزام الخلقي الذي يوجب على الإنسان إتيان أفعال أو تجنب أخرى رغم احتمال مسايرتها لرغباته وأهوائه، والأخلاقية في الأصل تقوم على مجاهدة النفس الأمارة بالسوء، وضبط الجامح من مطالبها، وإن لم يكن من متطلبات هذا الضبط أن يعمل الإنسان على إماتة الجانب الحاس في طبيعته كما ظن الكلبية والمتطرفون من الرواقية قديماً. إن في وسع كل شخص أن يرفض الحاسة الخلقية وأن يقول لدعاتها: إنه لايجد في نفسه هذا الوجدان الذي يتحدثون عنه, ومن ثم لايشعر بإلزام يوجب عليه أن يتوخى العدالة أو يلتزم الأمانة أو يتمسك بالفضيلة(٥٣).

كما أن التسليم بالحاسة الخلقية ـ فيما يقول توفيق الطويل ـ ينتفي معه قيام التعقل وحرية الاختيار وهما ـ مجتمعين ـ ركنا المسؤولية الأخلاقية: ذلك لان الأريحية ـ أو أي وجدان أو رغبة ـ كما يصرح هاتشسون يستحيل أثارتها مباشرة بالإدارة، لان جميع حالات العقل من أعمال الحس، والحس مستقل عن إرادتنا، بمعنى أنه يقوم

بوظيفته منساقا" بطبيعته وليس استجابة لإرادتنا. فإذا ثبت أن الحس أو الوجدان يـدرك خيرية الأفعال أو شريتها من تلقاء نفسه ويحملنا على إتيان بعض الأفعـــال وتجنـب بعضها الآخر، فلا مجال لتدريب إرادتنا الحرة وتنمية القدرة على تخير أفعال وتجنـب اخرى، مما يترتب عليه أن تنتفي المسؤولية الخلقية (٥٤).

على أن هذا النقد الموجه إلى اتباع الحاسة الخلقية لم يمنع فيلسوفنا من الاعتراف لـــهم ببعض وجوه الفضل في الحياة الأخلاقية، ويبدو ذلك في شيئين: الأول انهم اســتبعدوا الأنانية أساساً وحيداً للأخلاقية، وأحلوا الغيرية (= خدمة الآخرين) مكانها في حياتنـــا الخلقية إذ إنَّ كثيراً ما تقتضي الأخلاقية مقاومة الأثرة وتغليب الإيثار بإعلاء النزعـات وتوجيه الاستعدادات الفطرية المكتسبة إلى حيث ينبغي أن توجه والشـــيء الثـاني أن هؤلاء الاتباع قد أكبروا من أمر الوجدان والعواطف وأقروها أساساً للأخلاقية بعـد أن كانت السيادة للعقل وحده، وهذا يعني انهم استبعدوا جفاف الأخلاقيـة ولـم يحتقـروا الجانب الحسي في طبيعتنا البشرية، وهذه ميزة لها أهميتها بالقياس إلى نظرة العقليين المتزمتين الذين أرادوا لحياتنا الأخلاقية أن تكون صراعاً وحرباً هدفها قتـل الجـانب الحسي ودفن حاجاته ومطالبه، مع أن الحياة الإنسانية في طبيعتها ــ في نظر توفيـق الطويل ــ روح وجسم أو عقل وهوى وينبغـي تغليـب الأولـى علـى الثانيـة دون إماتتها(٥٥).

أما عن مذهب الضمير فيأخذ توفيق على زعيمه الأسقف بطلر + ١٧٥٢ BUTLER أنه قد أخطأ سيكولوجيا حين تصور الضمير قدرة مستقلة. وذلك على غير ما يقول بـه اليوم علماء النفس المحدثون الذين رفضوا وجود قدرات مستقلة بعضها عـن بعـض ورأوا أن النفس البشرية وحدة تقوم بوظائف مختلفة من تعقل وتخيل وتصور وتذكـر ونزوع وتصميم وغير ذلك، وبطلر من هذه الناحية كما يرى توفيق الطويل ــ يشـبه أفلاطون حين قسم هذا الأخير النفـس إلـى القـوى الثـلاث: الشـهوية والغضبيـة والناطقة،وكفل للأخيرة السيادة فتجاهل بهذا وحدة النفس البشرية، كما تجاهلها بطلـر

في العصر الحديث، كما يأخذ عليه كذلك (أي على بطلر) تصويره لجانب التعقل في الضمير الذي يبدو ـ في نظر فيلسوفنا ـ غامضاً مضللاً حتى ليصعب التمييز بين أوامر الضمير المتعقل ونداء الرغبة التي لاتستفتي العقل ولاتعمل بمقتضى منطقه، بل قد تختلط أوامره بمطالب العرف الاجتماعي ومقتضيات آدابه العامة، من هنا يفتقر الضمير ـ كما يرى توفيق الطويل ـ إلى منطق العقل النظري ليتخلص في ضوئه من آثار العرف واللياقة والآداب العامة ونحوها مما يمكن أن يختلط بالضمير ويؤدي بصاحبه إلى الضلال عندئذ قد تتيسر معرفة البواعث الحقيقة التي تحفز ـ على سبيل المثال ـ القروية إلى استهجان ما يبدو لها خلاعة في سلوك المدنيات، أهو الضمير الفطري في نفوس البشر أم تأثرها بالعرف الاجتماعي الذي سيطر على أهل قريتها؟ ومثل هذا يمكن أن يقال في الخادمة التي تستهجن مجون سيدتها مع قيام الفوارق الطبقية في ذهنها(٥٦).

هذا وقد تصدى لهذا المذهب، التجريبيون والتطوريون والوضعيون والمحدثون من علماء النفس والاجتماع، إذ ضاقوا بفطرية الضمير وحدسية إدراكه وعمومية إحكامه،وحاولوا تفسيره في ضوء التجربة. ومن ثم فإن القوانين والأحكام الأخلاقية ينبغي ـ في نظرهم ـ أن تكون تقريراً لواقع يمكن التثبت منه بالمشاهدة والتجربة(٥٧).

على أن هذا المذهب (الضمير) مع كل ما يقال في بيان أخطائه ـ هو في نظر توفيق الطويل ـ أدنى إلى أن يكون مذهبا أخلاقيا من هذا الضمير الذي تصوره المحدثون والمعاصرون من علماء النفس والاجتماع ومن إليهم وذلك لأن هؤلاء ارتدوا بتحليلاتهم إلى الواقع في ماضيه وحاضره، ليصفوا هذا الضمير الذي صدر عن طبيعة الفرد وبيئته، دون ان يتعرضوا ـ بطبيعة دراساتهم ومناهجها إلى المثل العليا التي توضع لتكون منسجمة مع إمكانيات الطبيعة البشرية وحافزة على الترقي إلى الكمال الذي ينبغي أن ينشده الإنسان ليتحرر من عبودية الواقع الأليم ويعيش في دنيا

الحث والجمال (٥٨) بمعنى أن الأخلاق ــ في نظر فيلسوفنا ــ تتوخى دائماً التعبير عما ينبغي أن يكون ولاتقف عند وصف ماهو كائن.

وفيما يتعلق بمذهب الواجب فيأخذ توفيق الطويل على زعيمه كانط ١٨٠٤ KANT إضافة إلى ما سبق ذكره من مآخذ في أثناء الحديث عن المثالية في أنه رد الإلزام الخلقي إلى العقل وحده دون نظر إلى نتائجه أو جزاءاته وهو ينتهي إلى مقاومة الطبيعة الحسية في مختلف مظاهرها والعمل على إماتة دوافع الإنسان وميوله الفطرية وأهوائه وشهواته الحسية باسم العقل وكذلك انفعالاته وعواطفه المكتسبة... وهكذا تُقتل طبيعتنا الحسية باسم العقل وتحارب دوافعنا الفطرية والمكتسبة باسم الأخلاقية، تماماً فعل الرواقيون والكلبيون من قبل والصحيح ــ في نظر فيلسوفنا ــ هو أنه لكي نحافظ على شخصيتنا من أن تختل أو أن يصيبها عطب ينبغي إلا يطغي العقل على الجانب الحسي من طبيعتنا ويعمل على إماتته ولا أن يطغى الجانب الحسي على العقلي، بل ان الأخلاقية الصحيحة ــ في نظره ــ توجب إخضاع الهوى والشهوة والميول في كل صورها لمنطق العقل ووحيه.

ولكنها (أي الأخلاقية الصحيحة) تقديراً منها لوظائف الغرائز والعواطف تأبىٰ أن تمكن العقل من إماتة الجانب الحسي والقضاء التام على نزعاته، ذلك أن المثل الأعلى السليم ــ كما يرسمه فيلسوفنا ــ لايقوم على إنكار الذات ووأد رغباتها والتضحية بمطالبها، وإنما يقتضي أن يشبع الإنسان رغباته في غيرنهم، ويسد حاجاته ومطالبه في غير جشع ويستجيب لعواطفه ومشاعره في غير ابتذال. وينظم أهواءه وميوله في ضوء العقل بمثل هذا تستقيم الحياة الإنسانية وتتكامل شخصية الإنسان (٥٩).

هذا وقد تعرضت فلسفة الأخلاق عند كانط لمزيد من الحملات شنها خصومها من التجريبيين والوضعيين ومن إليهم ممن رفضوا رد الأخلاقية إلى العقل واستنكروا القول بعمومية أحكامها وموضوعية قيمها ويذكر توفيق الطويل بهذا الصدد إميل

دوركايم ــ أكبر اتباع المدرسة الاجتماعية الفرنسية من الوضعيين ــ الـــذي رأى أن القاعدة الخلقية لاتضم عنصر الإلزام فحسب، كما ذهب إلى ذلك "كانط" حيـــن جعـل الواجب أمراً ملزما وتكليفاً لامفر منه، بل تضم كذلك عنصر الترغيب، فـــهي آمــرة لأنها إملاء سلطة يتعين على الفرد أن يطيعها ــ هي عنده سلطة الجماعة التي ينتمـي إليها الفرد ــ ثم هي كذلك قاعدة مغرية تحبـــب إلـــى النـــاس العمـــل بمـــا يحقـق سعادتهم،وبهذا ينصرف الإنسان وفاقا لمبدأ لايخلو من مغريات (٦٠).

كما تعرضت فلسفته الأخلاقية كذلك لحملات من النقد جاء أكثرها هذه المرة من اتبـاع المثالية المحدثة في إنجلترا، فقد رفض هؤلاء تحويل القـــاعدة الخلقيـــة إلـــى قـــانون صوري مقطوع الصلة بالواقع إن مبدأ الواجب عند كانط لايســـاعد الإنســـان علـــى استخلاص واجباته في الحياة العملية، إنه قاعدة ســـلبية للســـلوك لاتصلـــح مرشـــداً وهادياً،يفيد فيما يتعين الإمساك عن فعله، ولايفيد في الإرشاد إلى ما ينبغي فعله فيمـــا قال "جون ستورت مكـــنزي" (١٩٣٥) و"برادلـــي" (١٩٢٤) Bradley و"مويرهيـــد" (١٩٤٠) J.H. Muirhead وغيرهم من أعلام المثالية المحدثة، أنكر هـــؤلاء أيضـــاً ماترتب على صورية القانون الأخلاقي من نتائج في مقدمتها التشدد والـــتزمت الـــذي تمثل في إبعاد العواطف والميول حتى ولو كانت نبيلة ــ باعثا على فعل الواجـــب ــ ذلك لان القانون الأخلاقي مبدأ صوري خالص لا يتعلق بوجدان أو عاطفة أو شـــهوة أو نحوها مما يدخل في طبائع البشر (٦١).

ولم يقف المثاليون الجدد عند حدود معارضة فلسفة "كانط" الأخلاقية، بل تعدوا ذلـــك فخاصموا نزعة الحسيين من الطبيعيين والنفعيين ومن إليهم من التجريبيين، وقوضـــوا الأخلاق التي ترتد إلى وجدان اللذة، ودعوا إلى تحقيق المثل الأخلاقي الأعلـــى الـــذي هو تحقيق للذات العاقلة إذ لا يحارب الجانب الحاس في طبائع البشر، ولا يغالي فـــي تقدير الجانب العاقل فيها على حساب الجانب الحيواني بوأد الشهوات وإقامـــة نـــوازع

الحس، على أن يراعى في هذا المثل الأخلاقي الأعلى مصلحة الفرد وهي مندمجة في مجموعها أكانت أسرة أم وطناً أم مجتمعاً(٦٢).

والآن وبعد هذه المآخذ التي أخذها توفيق الطويل على الفلاسفة الطبيعيين والمثاليين على حد سواء يحاول فيلسوفنا أن يحدد معالم فلسفة جديدة تدين بالولاء لنوع جديد من المثالية الأخلاقية هي المثالية المعدلة فما هي إذاً هذه الفلسفة التي دعا إليها توفيق الطويل لتكون فلسفة عربية معاصرة تتجاوز أخطاء الواقعية والمثالية ؟ ثم ماهي معالمها؟

٣ ــ مثالية توفيق الطويل المعدلة:

جاءت مثالية توفيق الطويل الأخلاقية حصيلة مناقشاته مع الفلاسفة الطبيعيين من جهة ومع الفلاسفة المثاليين من جهة أخرى وذلك من حيث تفسيرهم للإلزام الخلقي،وفهمهم طبيعته، وتحديدهم مصادره ومنابعه، فهو (أي توفيق الطويل) لم يرض بما ذهب إليه الطبيعيون بمختلف صورهم، من رد الأخلاق إلى التجربة الحسية، ومعالجتها بمناهج استقرائية خالصة، لان في ذلك إنكاراً لدور العقل الذي يمتاز به الإنسان من سائر الكائنات ويلتمس به الرقي وينشد الكمال والمثل العليا، كما لم يرض بما فعله المثاليون بمختلف اتجاهاتهم، من رد الأخلاق إلى العقل وحده أو الحدس دون التجربة الحسية،ومعالجتها بمناهج استنباطية محضة، لان ذلك من شأنه ان يعمل على إماتة الجانب الحسي في طبيعة الإنسان بوأد شهواته وقتل عواطفه والتخلي عن سعادته (وإن رأى هؤلاء في مزاولة هذه الحياة الصارمة سعادة)، والصحيح في رأي فيلسوفنا، هو أن الطبيعة البشرية وحدة متكاملة تتألف من حس وعقل، وأن الأخلاقية تقتضي ضبط جموح الحس في ضوء العقل، ولكنها لا تتطلب إماتة الحس وقتل نوازعه، خشية ما ينجم عن هذا من أخطار تؤدي إلى تمزيق شخصية الفرد نفسه،وهكذا يكون أول معلم من معالم المثالية المعدلة عند توفيق الطويل هو تحقيق

الذات بكل قواها الحيوية وهذا التحقيق ــ كما ألمعنا ــ يتطلب الإلمام بحقيقة الطبيعة البشرية ومعرفة إمكاناتها، ووضع مثل إنساني رفيع يكفل وحدتها ويضمن تكاملها،وفي ظله يشبع الإنسان قواه جميعها ــ الحسي منها والروحي ــ بهداية العقل وإرشاده(٦٣) فإذا كان الإنسان يشارك النبات في النمو والحيوان في الحس إذ ينزع معه إلى إشباع حاجاته العضوية ومطالبه الجسمانية، فإنه ينفرد عنهما بالعقل، لذلك كانت مزاولة التأمل العقلي أكمل حالات الوجود الإنساني، غير أن للحدس دوره الواضح في إقامة الأخلاقية الصحيحة، ولكن ليس هذا مسوغا" للإيغال في النزعة الحدسية التي أدت بأصحاب المثالية التقليدية إلى الوقوع في أخطاء كبرى، اقتضت تدخل العقل لتصحيح أوضاعها(٦٤).

والإنسان في نظر المثالية المعدلة، هو الكائن الأخلاقي الوحيد الذي يملك إرادة التغيير عن وعي وتبصر، فلا يقنع بالواقع الذي يعيشه، ويتطلع إلى ما ينبغي أن يكون يضيق بالسلوك الذي تسوق إليه الشهوات والعواطف، ويكبر الذي يجري بمقتضى الواجب،فإننا لانقول للحجر الهابط بفعل الجاذبية إلى أسفل، ينبغي أن تتدحرج صاعداً إلى أعلى، ولا للوحش الذي يمزق فريسته/ ينبغي أن ترأف بها وترحم ضعفها.... من أجل هذا كان صعودنا سلم الإنسانية أو هبوطنا مدارج الحيوانية إنما يكون بمقدار حظنا من المثالية التي تعبر عما ينبغي أن نكون عليه (٦٥).

كما تتميز المثالية المعدلة "بالتآخي بين الأنانية والغيرية Altruism and Egoism وذلك في محاولة منها لإزالة العداء التقليدي بين توكيد الذات ونكرانها. فقد رفض توفيق الطويل ــ وكما أسلفنا ــ أن تكون الأنانية أساساً وحيداً للأخلاق كما ذهب إلى ذلك اللذيون والنفعيون، إذ لو كان الأمر كذلك، أي لو كان معيار الأخلاقية يقتصر على حب الذات وما يحتمل أن يصيب صاحب الفعل من وجوه النفع وأسباب الضرر،لانهارت الأخلاقية وافتقدت ما يسوغ وجودها، لأن الإنسان بطبعه وفطرته ينشد منافعه، ويلتمس ما يحقق مصالحه، فما حاجته بعد هذا إلى مذهب أخلاقي يرشده

إلى كماله الإنساني ؟ كما رفض فيلسوفنا من قبل ما ذهب إليه المتزمتون من المثاليين حين أحلوا الغيرية "مكان الأنانية" من حياتنا الخلقية، وأنه ينبغي على الفرد التضحية بالذات وقمع رغباتها، ووأد أهوائها، وتوجيه الأخلاق إلى الإيثار وصالح الآخرين ونكران الذات وأما سبب رفضه فيعود إلى أن الأخلاقية في هذه الحالة ستصبح مطلباً" صعب المنال لايقوى على حملها إلا أفذاذ الأبطال، إضافة إلى أن التضحية بالذات من اجل الآخرين معناه زعزعة شخصية الإنسان الفرد وإحداث خلل فيها، مما يترتب على ذلك الإصابة بالاضطرابات العصبية والانحرافات النفسية. والصواب في نظر فيلسوفنا هو في الجمع بين توكيد الذات ونكرانها، أو إن شئت فقل بين التضحية بالذات وتحقيق الذات، بحيث يحقق الفرد مصالحه الشخصية عن طريق العمل لمصلحة المجموع دون إسراف أو مغالاة، ذلك أن إسراف الفرد في التضحية بنفسه من أجل الآخرين يفقده استقلال تفكيره ويؤدي به إلى العجز حتى عن خدمة الآخرين لأنه هو نفسه لبنة في بناء هذا المجتمع، ومغالاته في رعاية نفسه وإمعانه في الاهتمام بمصالحه الشخصية يؤدي به إلى الانفصال عن المجتمع الذي ينتمي إليه ومن ثم إلى انحرافه وتفكيك شخصيته، لذا فإن الأخلاقية ــ في نظر فيلسوفنا ــ تقتضي التوفيق بين هاتين النزعتين المتضادتين، وعد الإنسان فرداً" في أسرة ومواطناً" في أمة وعضواً" في هيئة اجتماعية، وبهذا يخلص الفرد لواجبه نحو نفسه في الوقت الذي يدين فيه بالولاء للمجموع الذي ينتمي إليه وبذلك يتصل كمال الفرد بكمال المجموع،وتقترن السعادة بالفضيلة دون أن تكون إحداهما ضحية الأخرى كما كان الحال في مذاهب المتزمتين من العقليين من ناحية، والمتطرفين من الحسيين من ناحية أخرى (٦٧). وبهذا أيضاً يختفي النزاع التقليدي بين الأثرة والإيثار. ويذوب توكيد الذات في نكرانها، ويظل الإنسان خلال هذا محتفظاً" بفرديته واستقلال شخصيته، رغم ولائه للمجموع الذي ينتمي إليه، وتوفيق الطويل من هذه الناحية متأثر أشد التأثر بــ ــ شافتسبري " زعيم الحاسة الخلقية الذي ذهب هو الآخر إلى إزالة التعارض بين

الغيرية والأنانية، وقال إن في كل فرد وجدان طبيعي فردي يحمله على تحقيق الخير للآخرين، وأن التجربة تشهد بوجود انسجام تام بين ميل الإنسان الطبيعي إلى خدمة غيره، وحبه الفطري لمصالحه(٦٨). وكان في هذا إبطال لمذهب هوبز Hobbes الأناني الذي رد تصرفات الإنسان إلى المنفعة الفردية وجعل الواجب الاجتماعي الذي يوجب العمل لصالح الآخرين مرهونا" بسلطة خارجية تفرض عليه فرضا" وتنزل به عقابها ان قصر في تأدية هذا الواجب(٦٩).

والمثالية المعدلة السابقة، تساير ـــ من وجهة نظر توفيق الطويل ـــ منطق الدراسات النفسية الحديثة من حيث السعي نحو الكمال وتحقيق الخير للفرد وللمجتمع معا"، بعيداً عن الكبت والعقد التي قد تسبب أمراضاً نفسية مرهقة، فعلم النفس الحديث يشير إلى ان النزوع إلى الاكتمال يبدو في ميولنا الفطرية وهي تنزع إلى الإشباع، فإذا حيل بينها وبين ما تشتهي اشتد ضغطها حتى تنال بغيتها أو يصاب صاحبها بانحراف عصبي، غير أن الإنسان دون غيره من الكائنات هو وحده الذي ينزع إلى الكمال بشعوره الواعي، ويرسم إليه الطريق عن تعقل وتدبير، ويقترن تحرك ذاته إلى الاكتمال بحالة وجدانية تسمى بالسعادة.

" فتحقق الذات " الذي هو جوهر هذه الفلسفة يراد به التعبير عن جميع قوانا الحيوية من ميول ودوافع فطرية، وعواطف ورغبات مكتسبة تعبيرا" كاملا" ينتفي معه قيام كبت أو عقد أو صراع باطني، ويهدف تعبير هذه القوى الحيوية إلى تحقيق غاية مشتركة تحقق الخير للفرد وللمجتمع معاً، وهذه الغاية تتمثل فيما يسمى بالمثل الأعلى الذي يرد ميولنا الفطرية عن غايتها الأصلية ويعيد توجيهها إلى هدف مألوف يساير آداب المجتمع ويتمشى مع تقاليده ومواضعاته (٧٠) وهكذا فإن الإنسان الذي اكتملت سعادته ـــ عند فيلسوفنا ـــ هو الذي يوفق في التعبير عن قواه الحيوية تعبيراً كاملاً يحقق به ذاته بهداية العقل وإشرافه.

والسعادة حالة وجدانية تقترن بتحقيق الذات، ولكنها نفسها لاتصلح غاية قصوى لسلوك الإنسان كما ادعى أصحاب مذهب السعادة عند أفلاطون وأرسطو وأصحاب مذهب المنفعة أمثال "بنتام" و"مل" وذلك لان الإنسان يكاد لايقصد إليها واعياً حتى يفقد الشعور بها، لابد أن يكون المثل الأعلى موضوعياً يحمل في باطنه قيمته ويطلب لذاته،ويشهد تاريخ البشرية بوجود قيم موضوعية تبدو في الشرف والعدالة والإيثار والجود والحرية ونحوها ولهذا وجب أن يراعي في السلوك الصادر عن الفرد حكم التجربة الإنسانية الطويلة الأمد كما يعبر عنها العرف الأخلاقي العام الذي يفرض نفسه على الشعوب خلال الزمن.

ثم إن المثالية المعدلة ترفض الإباحة أو الدعوة إليها حينما تعني الإباحة التعبير الحر الذي يتمثل في إشباع الغرائز والرغبات من غير عائق من ضمير أو عرف أخلاقي،أي عندما تعني إنكار الكبح والاسترسال مع الهوى بعبارة أخرى فإذا كان تحقيق الذات يقتضي التعبير عن قوانا الحيوية ــ كما أشرنا إلى ذلك سابقا" ــ فهذا لايعني من وجهة نظر توفيق الطويل التعبير الحر أو الإباحية، لان ذلك يهبط بالإنسان إلى مستوى البهائم ولايرتفع به إلى المثل الأعلى فالإباحية علاج فاسد من الناحية الاجتماعية والنفسية والبيولوجية:

أما إنه فاسد من الناحية الاجتماعية، فذلك لان التسليم به في شأن الغريزة الجنسية يجيز تعميمه على غيرها من غرائز، وعندئذ يجوز للجندي أن يهرب من معركته استجابة لغريزة المحافظة على الذات، كما يجوز للمغضب المنفعل أن يفتك بمن أغضبه إرضاء لغريزة المقاتلة، وللقوي أن يغتصب ملك الضعيف إشباعاً لغريزة التملك... إلى غير ما يقال في هذا الصدد ما يرد البشرية إلى شريعة الغاب.

أما إنه فاسد بل باطل من ناحية العلاج النفسي، فذلك لان التجربة تشهد بأن الإباحة كثيراً ماتكون اكثر إتعاساً لصاحبها من الكبت، لأنها كثيراً ماتولد صراعاً عقلياً عنيفاً

مرده إلى اشمئزاز الإنسان من نفسه ونفوره من انحطاطه إلى مراتــب البهيمــة،لان إطلاق الطاقة الجنسية المكبوتة بالاسترسال مع الشهوة والهوى إنما يكون على حساب الضمير والتضحية بإنسانية صاحبه، بهذا تخفق الإباحة في أن تكون حــلاً للصــراع الباطني وتظل المشكلة قائمة.

وأما أن الإباحة تتعارض مع القانون البيولوجي، فذلــك لأنــها تتنــافى مــع غرائــز اجتماعية كامنة في طبيعة الإنسان، تقتضيه أن يتوخى حاجات غــيره كمــا يتوخــى حاجاته الشخصية.

وهكذا فمن الخطأ إذا" في رأي فيلسوفنا أن نظن أن قوانين الأخــلاق تتعــارض مــع قوانين الطبيعة البشرية، فهي تسايرها وتؤكد مضمونها(٧١).

والمثالية المعدلة أخيرا" تقتضي إعلاء الطاقة الحبيسة التي تختنق بها غرائز الإنســان ويراد به تحويل الطاقة النفسية الغريزية عن أهدافها الطبيعية ــ وهي إشباعها إشــباعاً مباشرا" يتنافى مع آداب المجتمع ــ إلى أهداف أخرى تساير آدابنا ولا تتنــافى مــع معتقداتنا ومعاييرنا الخلقية والاجتماعية، ولكن للإعــلاء ــ فــي نظــر فيلســوفنا ــ شروطا" ثلاثة ينبغي توافرها:

أولها: أنه يتطلب وجود مادة يمكن التسامي بها، فالمرأة ــ على سبيل المثال ــ التــي بلغت الخامسة والثلاثين دون أن يقلقها الشعور الجنسي لاتسعد بإعلاء غريزة لا تشعر بإلحاحها، كما أن الإعلاء لايصلح في غريزة تكون موضع احتقــار واشــمئزاز مــن صاحبها.

وثانيها: أن يكون الإعلاء مريحا" لصاحبه، فانعدام السرور في الهواية الجديــدة دليــل على فشل الإعلاء وإخفاقه، لذا وجب على كل فرد أن يحسن اختيــار الهوايــة التــي تلائمه.

وثالثها: أن يكون الإعلاء مفيداً للمجموع لان الفرد لاتكتمل سعادته بعيداً عن المجتمع الذي يعيش فيه، لأنه ليس هناك عذاب أقسى من الحبس الانفرادي، ولا عقاب أشد من النفي الاجتماعي ومن تجاهل الميول الاجتماعية الكامنة في طبيعته افتقد الشعور الكامل بالسعادة(٧٢).

هذه إذاً هي مثالية توفيق الطويل المعدلة جاءت ــ كما يقول ــ لتبرأ من التزمت المقيت للمثالية التقليدية، وتتحرر من قيود النزعة الصورية التي شابت المثالية الكانطية المتطرفة، لتتمثل في تحقيق الذات بإشباع قواها الحيوية في غير جور على قيم المجتمع أو استخفاف بمعاييره، وهكذا يبدو الإنسان في هذه المثالية فرداً في أسرة ومواطناً في أمة وعضواً في مجتمع إنساني يرتبط كماله بكمال المجموع الذي ينتمي إليه مع احتفاظه بفرديته واستقلال شخصيته بحيث تبرأ الأخلاقية من تفكيك الطبيعة البشرية بالفصل القاطع بين العقل والحساسية، وغلبة الواحد على الآخر، وبهذا فحسب تصبح الأخلاقية مطلبا ميسور المنال وليست عبئاً لايقوى على حمله الأبطال (٧٣).

مناقشة

يتبين لنا من العرض السابق أن هناك جهوداً بذلت من لدن فيلسوفنا، في محاولة منه لإيجاد فلسفة عربية معاصرة في الأخلاق تستجيب في نظره لمتطلبات المرحلة الراهنة، وتتجاوز المرحلة السابقة التي بدت قيمها له هزيلة بالية. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل هذه الفلسفة (الأخلاقية) التي طلع بها علينا توفيق الطويل هي حقاً فلسفة عربية معاصرة تنبع من صميم المجتمع العزبي ثم تلبي متطلبات هذا الواقع بكل تطلعاته؟ أم هي استلهام لاتجاهات أخلاقية غريبة بعيدة عن واقعنا وظروفنا ومعطياتنا التاريخية؟

إن من يرصد كتابات توفيق الطويل الأخلاقية ممثلة في مثاليته المعدلة، لا بد وأن يحكم عليها بأنها مرتبطة إلى حد كبير بمدارس أخلاقية غربية، تلك المدارس التي ظهرت وانتشرت في أوروبا وخاصة في فرنسا، التي كانت مقصد كثير من المبعوثين العرب خلال العقود الأولى من هذا القرن، وكان فيلسوفنا أحد الرواد الذين نهلوا من الفلسفة الغربية وحاولوا نشر مبادئها في الوطن العربي وخاصة في مصر، وهكذا جاءت فلسفته تأليفية تجميعية، تقطف من كل بستان زهرة، فتأخذ من مذهب المنفعة في شتى اتجاهاته شيئاً، ومن المدرسة الاجتماعية الفرنسية شيئاً آخر ومن مذاهب الحدسيين ــ ومنهم العقليون ــ شيئاً ثالثاً، وهكذا... لينتهي من هذا كله، وبعد مناقشته لكل هذه المذاهب، إلى اتجاه يختاره لنفسه هو الذي يطلق عليه اسم " المثالية المعدلة".

والحضور الفلسفي الغربي في الفكر العربي المعاصر، ليس مقتصراً على توفيق الطويل، بل هو مجرد عند "يوسف كرم" + ١٩٥٩م وعند زكي نجيب محمود زعيم الوضعية المنطقية في الوطن العربي وعند آخرين كثيرين: فالديكارتية ــ مثلا ــ وجدت طريقها كمنهج ولغة فلسفية لدى أوساط المثقفين العرب البارزين أمثال طه حسين وعثمان أمين وكمال الحاج، وشخصانية "مونييه" +١٩٥٠م E. Mounier تجدها بشكل ملحوظ في كتب رينه حبشي ومحمد عزيز الحبابي والوجودية عند "عبد الرحمن بدوي" وهناك أيضاً الهيغلية والرغماتية والبنوية وغيرها من التيارات الفلسفية الغربية التي وجدت لها مرتعاً خصباً لدى المثقفين العرب(٧٤).

على ماذا يدل هذا الحضور الفلسفي الغربي في الفكر العربي المعاصر وخاصة في فكر توفيق الطويل؟

في اعتقادي أنه من أحد الأسباب الرئيسة لهذا الحضور هو هيمنة الرؤية الدينية في الوسط العربي الإسلامي المعاصر بعدها الرؤية الموجهة والمحددة في حالة التعامل النظري مع التاريخ ومع الطبيعة، وقد ترتب على هذا اضطهاد العقل ومهاجمته

والتنديد بفاعليته، ويبدو ان فتوى الغزالي حجة الإسلام (ت ٥٠٥هـ ــ ١١١١م) القاضية بتفكير الفلاسفة على طريقة "من تمنطق فقد تزندق" لاتزال سارية المفعول حتى في أيامنا الحاضرة خاصة في مصر. فقد هوجم "محمد عبده" (ت ١٣٢٣هـ ــ ١٩٠٥م) لأنه انتصر للعقل وكفل له حرية الانطلاق في تطهير الدين مما أفسده من منكرات وبدع، وبالمقابل يهاجم شيخ الأزهر الأسبق العقل ومنطقه فيقول: "لقد أخطأ اليونان قديماً حين استمسكوا بالعقل واعتزوا بمنطقه، وأخطأنا نحن حين أخذنا عنهم هذه النقيضة"، ويقول رداً على سؤال حول رأيه في الإمام الشيخ "محمد عبده": إنه أخطأ حين فسر القرآن الكريم بالعقل، وكان ينبغي أن يفسر القرآن بالقرآن (٧٥). وهكذا وجد المفكرون العرب ومنهم توفيق الطويل، متنفساً حين درسوا في الغرب الأوروبي وأخذوا نظرياته فأدخلوها إلى الفكر العربي رداً على الواقع المعاش.

ومما يؤخذ على توفيق الطويل كذلك أنه أراد أن يعالج قضايا الوطن العربي ومنها القضايا الأخلاقية بمعزل عن الشروط التاريخية المؤطرة لها، بمعنى آخر إن توفيق الطويل، بعد أن استعرض في بعض كتبه مذاهب الأخلاقيين، ظل يحاور هذه الفلسفات الأخلاقية على المستوى الفلسفي وحسب، ولم يتجاوز ذلك إلى البحث في الخلفيات المعرفية والتاريخية لنظريات الفلاسفة الذين حاورهم، كما أنه ــ وكما يبدو لي ــ لم يخطر ببال فيلسوفنا أو لم يأخذ بالحسبان أن ظروف المجتمع العربي ومعطياته التاريخية تختلف عن ظروف المجتمع الغربي ومعطياته، ومن ثم تختلف نظريات الفلسفة بعضها عن بعضها الآخر، إن ماكان ينقص توفيق الطويل هو ــ في نظرنا ــ عدم امتلاكه المنهج العلمي الصحيح الذي يمكن من وضع النظريات الفلسفية كلها بصفة عامة في إطارها التاريخي الواقعي والمعرفي، الأمر الذي سيجعل الفيلسوف العربي دائماً وأبداً واعياً بخصوصية تاريخيته، وواعياً بالشروط المعرفية والمجتمعية التي تنشأ فوقها الفلسفات الأخرى، وقد نتج عن كل هذا أن بقي مشروع توفيق الطويل

الفلسفي ـــ كما يبدو لي ـــ برواج مكانه، ربمـــا دون مســـتقبل وربمـــا دون أنصـــار ومؤيدين، يمكن أن يعتمدوا نظرياته ويعملوا على تنميتها وتطويرها.

وقد ترتب على هذا الحضور الفلسفي الغربي فقـــدان الاســتقلال الفلســفي العربـــي المعاصر، وجعله يسير في أفق التبعية العمياء للفكر الآخر.

يضاف إلى ماسبق قوله، إن توفيق الطويل الذي تأثر بالفكر الغربي إلى حد كبير لـــم يقف عند هذا الحد، بل حاول ـــ في سبيل إنجاز فلسفته الأخلاقية ـــ أن يستعين كذلـك بالفكر اليوناني القديم ليطعم نظريته المعدلة، وهنا أيضاً يبدو لنا التناقض الذاتـــي فـــي فلسفته، فهو يريد بناء موقف فلسفي معاصر، ولكنه من جهة أخرى يريـــد أن تكـــون الفلسفات اليونانية القديمة دعامة هذا الموقف المعاصر إن التناقض يبرز هنـــا فـــي أن بناء الجديد ينبغي أن يستند كذلك إلى القديم وخاصة أرسطو الـــذي يمدحـــه فيلســـوفنا كثيراً، بل يضعه في مصاف الفلاسفة المحدثين، كونه أولاً، رفض الانسياق مع طلاب اللذة ـــ احتراماً لإنسانية الإنسان ونفر ثانياً من الزهدة الذين تطلعوا إلى إماتة الجـــانب الحسي في طباعهم، تقديراً منه لسلامة النفس البشرية، وهكذا فطن إلى ما كشفه علـــم النفس الحديث بشأن تكامل النفس الإنسانية، ذلك أن مجاهدة النفس لاستئصال الميـــول والرغبات تفضي إلى اضطرابات عصبية أو انحرافات نفســـية توقـــع بـــالفرد أبلـــغ الضرر(٧٦).

وهناك ملاحظة أخيرة نود أن نشير إليها ونحن بصدد تقويم فلســـفة توفيـــق الطويـــل الأخلاقية، وهي أن فلسفته كانت من النوع الذي يسمى بوجهة النظر الانتقائية، وهـــذا الاعتبار الأخير مألوف في "تقويم" طريقة فلسفات كثيرة، ومنها الفلسفة العربية بوجـــه عام، وهكذا إذن يكون مذهب "توفيق الطويل" انتقائياً وذلك بنوســـانه بيـــن المذهـــب التجريبي والمثالية... ليغدو في النهاية مذهباً مثالياً.. معدلاً.

غير أن هذه الملاحظات التي أشرنا إليها ينبغي إلا تقلل من أهمية فكر توفيق الطويل الأخلاقي، فإن أقل ما يمكن القول فيه، هو أنه كان له دوره الهام في تاريخ الفكر العربي الذي ينبغي توجيه الاهتمام في دراسته من جوانبه المختلفة بحيث تكتمل صورة جهد فيلسوفنا مع صورة جهود الفلاسفة الآخرين من الرواد العرب وإسهاماتهم الفكرية المتعددة التي تحدد صورة الفكر العربي المعاصر.

الحواشي

١ ـ انظر بحثنا بعنوان: فلسفة عربية معاصرة بين المثالية والتجريبية، يوسف كـرم أنموذجاً، مجلة جامعة دمشق، مقبول للنشر ١٩٩٢.

٢ ـ الطويل، توفيق، فلسفة الأخلاق، نشأتها وتطورها، ط٤ القـاهرة، دار النهضـة العربية ١٩٧٩ ص ٤٩٦ ـ ٤٩٧.

٣ ـ المصدر نفسه ص ٤٩٧

٤ ـ الطويل، توفيق "القيم العليا في فلسفة الأخلاق" مجلة عالم الفكر (ع يناير فبراير ـ مارس ١٩٧٦) الكويت ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

٥ ـ الطويل، توفيق. فلسفة الأخلاق ص ٤٨٨.

٦ ـ انظر: الطويل، توفيق، مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخـلاق ط١ القـاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٣ ص ١٠٤ ـ ١٠٨.

٧ ـ الطويل، توفيق فلسفة الأخلاق، ص ٢٣٦ وانظر أيضاً" المصـدر السـابق ص ١١٩ ـ ١٢٠.

٨ ـ الطويل، توفيق، وعبد الحميد حمد مقدمة الترجمة العربية لكتاب: المجمـل فـي تاريخ علم الأخلاق، ط١، الإسكندرية: دار نشر الثقافة: ١٩٤٩: ج١ ص ٢٦

٩ ـ الطويل، توفيق "العقليون والتجريبيون في فلسفة الأخلاق" مجلـة أسـاتذة كليـة الآداب القاهرة، ١٩٥٢ ص ٦٦.

١٠ ـ الطويل، توفيق، فلسفة الأخلاق ص ٣٠

١١ ـ المصدر نفسه ص ٤٩٠

١٢ المصدر نفسه الصفحة نفسها

١٣ ــ المصدر نفسه ص٢٣١

١٤ ــ المصدر نفسه ص١٣٦

١٥ ــ المصدر نفسه الصفحة نفسها

١٦ ــ المصدر نفسه ص٢٣٥

١٧ ــ المصدر نفسه ص ٢٤٦ ــ ٢٤٨ ــ ٥١٣ ــ ٥١٤

١٨ ــ المصدر نفسه ص٤٩٠

١٩ ــ المصدر نفسه ص٢٥٨

٢٠ ــ المصدر نفسه ص٢٦٤

٢١ ــ الطويل، توفيق "القيم العليا في فلسفة الأخلاق": مجلة عالم الفكر ص ٢٣١

٢٢ ــ الطويل، توفيق، فلسفة الأخلاق ص ٢٨٦ ــ ٢٨٧

٢٣ ــ الطويل، توفيق "القيم العليا في فلسفة الأخلاق" مجلة عالم الفكر، ص ٢٣٢

٢٤ ــ الطويل، توفيق، فلسفة الأخلاق ص ٣١٤

٢٥ ــ المصدر نفسه ص٣١٤ ــ ٣١٥

٢٦ ــ المصدر نفسه ص ٣١٥

٢٧ ــ المصدر نفسه ص ٣١٥ ــ ٣١٦

٢٨ ــ نقلا عن المصدر السابق ص ٣٠٢

٢٩ ــ المصدر نفسه، الصفحة نفسها

٣٠ ـ الطويل، توفيق أسس الفلسفة ط٦ القاهرة: دار النهضة العربية ١٩٧٦ ص ٤٤٤ ـ ٤٤٦

٣١ ـ الطويل توفيق، فلسفة الأخلاق ص ٥١٦

٣٢ ـ المصدر نفسه ص٤٩٢ ـ ٤٩٣

٣٣ ـ الطويل، توفيق أسس الفلسفة ص ٧٥

٣٤ ـ الطويل توفيق "القيم العليا في فلسفة الأخلاق" مجلة عالم الفكر ص ٢٢٢

٣٥ ـ الطويل، توفيق، فلسفة الأخلاق ص ١٠٦ وما يليها

٣٦ ـ المصدر نفسه ص٣٣١ ـ ٣٣٦

٣٧ ـ المصدر نفسه ص ٣٣٨ وما يليها

٣٨ ـ المصدر نفسه ص٣٦٩ وما يليها

٣٩ ـ المصدر نفسه ص ٣٣٩ وما يليها

٤٠ ـ المصدر نفسه ص ٤٥٥ وما يليها

٤١ ـ الطويل، توفيق "العقليون والتجريبيون في فلسفة الأخلاق" مجلة أساتذة كلية الآداب بالقاهرة ص ٦٧

٤٢ ـ المصدر نفسه ص٦٨

٤٣ ـ الطويل، توفيق، فلسفة الأخلاق ص ١٢٥

٤٤ ـ المصدر نفسه ص١٢٦

٤٥ ـ المصدر نفسه ص٤٩٥

٤٦ ـ المصدر نفسه الصفحة نفسها

٤٧ ـ المصدر نفسه ص٤٠٤

٤٨ ـ المصدر نفسه ص٤٤٤

٤٩ ـ المصدر نفسه ص٤٩٦

٥٠ ـ المصدر نفسه ص ٤٤٦ ـ ٤٤٧

٥١ ـ المصدر نفسه ص٤٩٣ ـ ٤٩٤

٥٢ ـ المصدر نفسه ص ٣٤١ ـ ٣٥١

٥٣ ـ المصدر نفسه ص٣٦٣ ـ ٣٦٤ ـ ٤٠٧

٥٤ ـ المصدر نفسه ص٣٦٢ ـ ٣٦٤

٥٥ ـ المصدر نفسه ص ٣٤٥

٥٦ ـ المصدر نفسه ص ٣٨٣ ـ ٣٩٢ ـ ٣٩٧

٥٧ ـ المصدر نفسه ص٣٨٤ وما يليها

٥٨ ـ المصدر نفسه ص٣٩٥ وما يليها

٥٩ ـ المصدر نفسه ص ٤٤٨

٦٠ ـ المصدر نفسه ص ٤٥٠ ـ ٤٥١

٦١ ـ المصدر نفسه ص ٤٤٢ وما يليها

٦٢ ـ المصدر نفسه ص ٤٧٥ وما يليها

٦٣ ـ انظر المصدر نفسه ص ٤٩٧

٦٤ ـ انظر المصدر نفسه ص ٤٩٦

٦٥ ــ المصدر نفسه ص ٤٩٧

٦٦ ــ المصدر نفسه الصفحة نفسها

٦٧ ــ المصدر نفسه الصفحة نفسها

٦٨ ــ المصدر نفسه ص ٣٤٥

٦٩ ــ المصدر نفسه ص ٣٥٢

٧٠ ــ المصدر نفسه ص ٤٩٧

٧١ ــ المصدر نفسه ص ٥٠٢ ــ ٥٠٣

٧٢ ــ المصدر نفسه ص ٥٠٥ ــ ٥٠٦

٧٣ ــ المصدر نفسه ص ٥٠٦ ــ ٥٠٧

٧٤ ــ انظر

ــ عطية، احمد، عبد الحليم "الديكارتية في الفكر العربي المعاصر: التناول اللاعقلاني للعقلانية "المجلة الفلسفية العربية، عمان / الأردن مج٢ (عدد ١ ــ حزيران ــ ١٩٩٢) ص ١٣ ــ ٢٨.

ــ صليبا، جميل "الفكر الفلسفي في الثقافة العربية المعاصرة" الفكر العربي في مائة سنة بحوث مؤتمر هيئة الدراسات العربية المنعقد في تشرين الثاني ١٩٦٦ في الجامعة الأميركية في بيروت ــ منشورات العيد المئوي (بيروت: الجامعة الأميركية ١٩٦٧م) ص ٥٩٠ ــ ٥٩١.

٧٥ ــ الطويل، توفيق في تراثنا العربي الإسلامي ــ سلسلة عالم المعرفة رقم ٨٧ الكويت: مطابع الرسالة ١٩٨٥، ص١٦٦

٧٦ ــ الطويل، توفيق، فلسفة الأخلاق ص ٩١، ٤٩٥.

الحواشي

ــ صليبا، جميل " الفكر الفلسفي في الثقافة العربية المعاصرة " بحوث مؤتمر هيئة الدراسات العربية المنعقد في تشرين الثاني ١٩٦٦ في الجامعة الأمريكية في بيروت، منشورات العيد المئوي (بيروت: الجامعة الأمريكية ١٩٦٧) ص ٥٦٨ ــ ٦٠٣.

ــ سد جويك هـ ــ المجمل في تاريخ علم الأخلاق، ترجمة توفيق الطويل ط١ الإسكندرية: دار نشر الثقافة ١٩٤٩ ج١.

ــ الطويل، توفيق أسس الفلسفة ط٦، القاهرة: دار النهضة العربية ١٩٧٦

ــ الطويل، توفيق، فلسفة الأخلاق، نشأتها وتطورها ط٤، القاهرة: دار النهضة العربية ١٩٧٩

ــ الطويل، توفيق في تراثنا العربي الإسلامي ــ سلسلة عالم المعرفة رقم ٨٧ ــ الكويت: مطابع الرسالة ١٩٨٥.

ــ الطويل، توفيق " العقليون والتجريبيون في فلسفة الأخلاق " مجلة أساتذة كلية الآداب، القاهرة ١٩٥٢ ص ٣٩ ــ ٦٨

ــ الطويل، توفيق " مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق " ط١ القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٣

ــ الطويل، توفيق "القيم العليا في فلسفة الأخلاق" مجلة عالم الفكر (عدد يناير ــ فبراير ــ مارس ١٩٧٦) الكويت ص ٢١١ ــ ٢٥٨.

ــ عطيه، أحمد عبد الحليم "الديكارتية في الفكر العربي المعاصر، التناول اللاعقلاني للعقلانية" المجلة الفلسفية العربية ــ عمان / الأردن مج٢ (عدد ١ حزيران ١٩٩٢) ص ١٣ ــ ٢٨.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق٢٥/٥/١٩٩٣

اتجاهات طلاب المدارس الثانوية الفنية وذويهم ومدرسيهم كعوامل مؤثرة في الاختيار الدراسي والمهني

/دراسة ميدانية على عينة من طلاب الصف العاشر والثاني عشر في محافظات دمشق وحماه والحسكة/

د. غسان صالح
كلية التربية ــ جامعة دمشق

الملخص

يعالج هذا البحث مسألة اتجاهات الطلاب في المدارس الفنية ومقارنتها باتجاهات ذويهم ومدرسيهم كعوامل مؤثرة في الاختيار الدراسي والمهني في محافظات دمشق، وحماه، والحسكة متبعاً في ذلك المنهج الوصفي التحليلي، ومستخدماً ثلاث أدوات هي عبارة عن استبانات واحدة للطلاب والثانية للأهل والثالثة للمدرسين وخلصت إلى مجموعة من النتائج منها:

١ ــ عدم وجود فروق دالة إحصائياً بين متوسط اتجاهات طلاب الأول الثانوي الفني والثالث الثانوي الفني.

٢ ــ عدم وجود فروق دالة إحصائياً بين متوسط اتجاهات طلاب المدارس الفنية في دمشق وطلاب المدارس الفنية في حماه.

٣ ــ عدم وجود فروق جوهرية بين متوسط اتجاهات الطلاب ومتوسط اتجاهات الأهل.

وجود فروق جوهرية بين متوسط اتجاهات طلاب المدارس الفنية ومتوسط اتجاهات المدرسين.

مقدمة

لعل أهم ما يميز هذا العصر سيادة الاتجاه الإنساني الذي يركز على الكشف عن قدرات الفرد واستعداداته والعمل على استثمارها واستغلالها إلى أقصى حد بهدف تحقيق التطور العلمي ـ التقني الذي أصبح ميداناً للتنافس بين المجتمعات، هذا التطور الذي فسح المجال واسعاً أمام استخدام الآلة والتطبيقات التكنولوجية في مجالات الحياة الاجتماعية الاقتصادية، أوجد حاجات ملحة لا غنى عنها من الأطر الفنية المؤهلة بالحد الأدنى بالمعارف العلمية والمهارات الفكرية والفنية التي تمكنها من التعامل السليم مع المعطيات الأساسية في الحياة (٢ـ ١٩٩٢ ص٤) وهذا ما يدعو الآن كل الاختصاصيين في علم النفس المهني وعلم النفس الصناعي وعلم النفس المدرسي وبشكل أخص العاملين في حقل التوجيه المدرسي والمهني إلى استخدام كل الأدوات والوسائل العلمية التي تساهم في الكشف عن القدرات والاستعدادات التي يمتلكها الأفراد من أحل تأمين كل الظروف التي تعمل على تنميتها وتطويرها بالشكل الأمثل. ولقد أصبح من المؤكد أن الرأسمال الحقيقي لأي مجتمع من المجتمعات يكمن ـ في البحث والكشف والمحافظة على ذوي الاستعدادات المتميزة من مبتكرين ومتفوقين (٢ـ ١٩٩٢ ص٥) وأيضاً رعاية وتنمية استعدادات الأفراد العاديين وقدراتهم بما يساعدهم على اكتساب المهارات والخبرات التي تكفل لهم النجاح في المجالات التي يمكن أن يعملوا فيها. ومن هنا كان على المدرسة كمؤسسة تربوية ـ تعليمية لا بل على النظام التعليمي بأبعاده الاجتماعية والفلسفية والأيديولوجية وبما يتضمنه من مناهج وطرائق ووسائل تعليمية وحتى بما يستخدم من عناصر مادية (مدارس،صفوف، مقاعد، الخ....) وبمن يشرف على العملية التربوية ـ التعليمية،ويتحمل مسئوليتها المباشرة (مدرسين ـ إداريين) أن يكونوا في خدمة الطلاب من أجل إشباع حاجاتهم النفسية والمادية لتحقيق أفضل نمو بتوفير أفضل

الشروط وأحسنها، وهذا يعني بداية إعادة النظر في بنى المراحل التعليمية وأنواعـــها ومضامين المواد التعليمية وأشكالها على قاعدة مساعدة الفرد علـــى اختيـار الفـرع الدراسي الذي يتفق مع قدراته واستعداداته من ناحية ومع ميوله واهتماماته من ناحيـة أخرى والتي تدخل في تصنيف أبو حطب تحـت قـدرات الذكـاء الشـخصي (٣ــ ١٩٨٦ــ ص٤١٧ وما بعد)، ومن الصعب تحقيق مثل هذا التوافق إلا باستخدام برامج منظمة للتوجيه المدرسي والمهني التي اتسع دورها وتعمق ليشمل مختلـف المراحـل الدراسية ويصل إلى المؤسسات الإنتاجية والخدمية وغيرها انطلاقاً من حقيقة أنه فـي سياق عملية التوجيه كنشاط اجتماعي ــ تربوي منظم تتضح وتتبلور الأدوار المهنيـة المستقبلية التي ترتكز على اهتمامات الطلاب وتسـاعدهم علـى صياغـة مـبررات اختياراتهم المهنية، والتوجيه يتمثل في هذه الحالة بمجموعة من الإجراءات التي يقـوم بها المرشد المهني مستخدماً التقنيات العلمية ــ لإنارة طريق الفرد المهنية من خـلال تقديم المعلومات الدراسية والمهنية وتبصيره بقدراته وإمكانياته ليتمكن مـن الاختيـار الواعي للفرع الدراسي الذي يتفق مع قدراته وميوله من ناحية ومع حاجات المجتمـع الراهنة والمستقبلية من الكفاءات والاختصاصات المتنوعة بما يحقق التوازن في قـوة العمل من ناحية ثانية، وفقاً لذلك فالاختيار المهني يصبح مرحلة من مراحل التوجيـه المهني وليس عملية مستقلة وهذا ما يذهب إليه كل من حـامد زهـران (٤ــ١٩٨٥ــ ١٩٨٦ من ص٣٨٨) وسيد عبد الحميد مرسـي (٥ــ١٩٩٢ ص٢٥٢) سـليم نعامـة وعلي سعد (٦ــ ١٩٩٣ ص ــ١٩٤) وآخرون. كما أن ابراهيم شوقي عبد الحميـد لا يذهب بعيداً عن ذلك عندما يعتبرهما عملية واحدة غير أنهما يختلفان من حيث الـهدف (٧ــ١٩٩٦ــ ص ــ٧٤) فالاختيار المهني وفقاً لما أشرنا هو مرحلة في سياق عمليـة التربية المهنية التي تعتبر مسألة لازمة وضرورية للتوجيه لا بل أن التوجيه لا يمكـن أن يحقق أهدافه إلا من خلالها إذ عندما نتحدث عن التوجيه المهني لا بـد أن نحـدد مسار التربية المهنية وغاياتها من خلال مضمونها ووظائفها، ويحـدد خـالد خطـاب

بعضاً من هذه المضامين والوظائف بما يلي: ١ــ توسيع آفاق التعليم بجعله مدخلاً إلى عالم العمل وعالم التكنولوجيا ومنتجاتها وثانياً بمساعدة من يرغب في ترك التعليم في أية مرحلة من مراحله دون أن تتوفر لديهم النية والصلاحية لمزاولة مهن معينة على اكتساب الاتجاهات العقلية وطرق التفكير الكفيلة بزيادة قدراتهم وإمكانياتهم (٨ــ١٩٩٥ــ ص ٨). أي أن أهمية مضامين التربية ووظائفها لا تتحدد فقط باكتساب المهارات والخبرات المعرفية وإنما أيضاً من خلال الدور الذي تلعبه في تنمية الميول والاتجاهات وبلورة الاختيارات المهنية، أي أن المراهق إلى أن يصل إلى معرفة وإدراك متطلبات الاختيار المهني السليم فهو يحتاج إلى عملية توجيه طويلة تبدأ في مراحل التعليم الأولى وتستمر معه إلى أن يتمكن من الوصول إلى قرار حر وواع في اختياره.

ولكن على الرغم مما يظهر في عملية الاختيار من حرية وعلى ما تعكسه من رغبة لدى المراهق في أن يمارس دوره في الاختيار دون تدخل من أحد حتى (من والديه) إلا أننا نؤكد أن الاختيار هذا يبقى مرتبطاً في حدود معينة بالحياة الاقتصادية وبدرجة تطورها من ناحية وبما توفره من فرص العمل من ناحية ثانية، والمسألة هنا لا تتعلق باتخاذ القرار الذي يحدد مستقبل الفرد المهني فقط وإنما لأن هذا القرار يتضمن مسار حياة الفرد بكل مراحلها وأبعادها وبما يمكن أن يحققه من توازن واستقرار وما يجلبه من سعادة وهناء أو من تعاسة وشقاء.

المعروف أن التغيرات الاقتصادية تحدث بوتائر متسارعة وعلى مستوى واسع (الثورة التقنية الصناعية والتقنية ــ العلمية) وهذا يعني أيضاً أن عالم المهن يعاني أيضاً من تغيرات سريعة ودائمة وتذكر شكيوبو (٩ــ ١٩٩٦ ص ــ٢٥٨) أن هناك دراسات متعددة تشير إلى أنه في كل /١٥/ سنة تحدث تغيرات جذرية في تكنولوجيا الإنتاج وفي مختلف الميادين، بحيث أن هذا التطور المتسارع يتطلب الأخذ بفكرة التربية الدائمة والمستمرة التي كان قد أكد عليها عبد الدايم (١٠ــ ١٩٧٨ ص ــ٢٤٧) إلى

جانب التنويع في بنى التعليم الثانوي وبما يتبع رغبات المتعلمين واحتياجاتهم من ناحية وبما يلبي حاجات المجتمع من الكفاءات المتخصصة في مختلف الميادين وبمستويات مختلفة. من ناحية ثانية حيث أن تنويع التعليم على هذا الأساس يساهم مساهمة كبيرة في تلبية متطلبات التنمية الشاملة (١١ـ ١٩٩٦ ـ ص ـ٤٣،٤٥). وهذا يعني أن التعليم الثانوي يجب أن يتضمن مختلف الاختصاصات التي من شأنها أن تزود الطلاب بالمهارات والخبرات المعرفية والعلمية التطبيقية التي تساعد من لا تتاح لهم إمكانية متابعة الدراسة الجامعية لأسباب منها ما هو متعلق بقدراتهم ومنها ما هو متعلق بمجمل الظروف والشروط الخارجية المحيطة بهم، على مزاولة مهنة ما بعد تخرجهم، وحتى بالنسبة للراغبين في متابعة الدراسة والإعداد الأكاديمي، فأن خبرات هذه المرحلة تفتح أمامهم آفاقاً جديدة من الإعداد التخصصي العميق، كما أنها تساعدهم على الكشف عن استعداداتهم التقنية وتنميتها خاصة إذا أخذنا بالاعتبار أن مثل هذه الاستعدادات الراقية جداً لا تظهر بشكل واضح قبل سن الرابعة عشرة.
T-CRETU,1971- M,Qeteanu, ١٩٧١ G.BERNYER ـ ١٩٥٨

في حين توصل Ozunu في بحث له عن تكون الاستعدادات التقنية في المشاغل المدرسية، أن هذه الاستعدادات تتكون في سن وسيطة ٦و١٥ سنة (١٢ ـ ١٩٨٩ ص ـ ٢٣) هذه الاستعدادات التي تعتبر شرطاً ضرورياً للنجاح في الدراسات الأكاديمية التي تسلتزم هذا النوع من القدرات والاستعدادات /الهندسة، الطب...الخ/ وهذا يقتضي خضوع التلاميذ لبرامج تدريب متنوعة قبل هذا السن، ليتاح تنمية مثل هذه الاستعدادات وبروزها وهذا ما يجعل للتوجيه المدرسي والمهني في ظل التغيرات السريعة والتنوع الخصب في الاختصاصات أهمية لا تقل عن أهمية التربية الدائمة والمستمرة. كونه يتضمن مساعدة الطلاب على اختيار الفروع الدراسية التي تتناسب مع قدراتهم واستعداداتهم ومع ميولهم وهذا التوافق الذي يعتبر شرطاً أساسياً للنجاح المدرسي الراهن والمهني مستقبلاً.

لتحقيق هذا الهدف لا بد من التوسع في التعليم الثانوي مع الأخذ بعين الاعتبار عند ذلك:

١ـ الانفتاح على الطالب نفسه.

٢ـ الانفتاح على مختلف الاختصاصات المهنية ما كان منها متوسطاً أم أكاديمياً عالمياً.

وانسجاماً مع ما أشار إليه البحث حتى الآن. يجب أن يتم التركيز على العامل الأول، باعتبار أن محور هذه العملية هو الإنسان بما يمتلكه سواء أكان كامناً أم ظاهراً من استعدادات وقدرات، وعليه أن يدرك ذلك وأن يتقبله ليقبل عليه بدافعية وثقة ورغبة مما يساعد على اكتساب الخبرات المعرفية والمهارات العقلية واليدوية المطلوبة.

مسألة البحث وأهميته:

لعل ما أشرنا إليه في مقدمة البحث يسلط الضوء على الإطار العام الذي ينطلق منه البحث، والذي يفتح مجالاً واسعاً أيضاً للبحث والتقصي من خلال مجمل المشكلات التي يمكن أن تطرحها مسألة التعليم الفني والمهني، وإذا كنا قد وقفنا عند جانب من جوانب هذه المسألة، وهي مسألة الاتجاهات عند كل من الطلاب والمدرسين والأهل نحو هذا النوع من التعليم الذي أخذ قطرنا العربي السوري يهتم به كثيراً بصورة خاصة منذ النصف الثاني من العقد الثامن وذلك بهدف تمكن النظام التعليمي من مواكبة متطلبات العصر التكنولوجية ـ العلمية من خلال إعداد الناشئة في المرحلة الثانوية لاكتساب المهارات والخبرات المعرفية في مختلف الفروع والاختصاصات، وبما يفترض أن يفي بحاجات ومتطلبات التنمية الشاملة التي أصبح لزاماً عليها استثمار الكامن الإنساني من الاستعدادات والقدرات إلى أقصى حد ممكن، وذلك بتوفير مجمل الشروط: الاجتماعية، التربوية، النفسية، الاقتصادية التعليمية

والمهنية،ولهذا عندما تفتقد بعض تلك الشروط، أو يتم تجاهلها لسبب أو آخر فغالباً ما يؤدي ذلك إلى عرقلة نمو الاستعدادات وتطورها كما يجب وخاصة تلك المتعلقة بالشروط النفسية للفرد سواء ميوله أو اهتماماته، فإن تجاهل هذا العامل سيعوق تطور الفرد بالاتجاه السليم والصحيح.

وهذا ينطبق على مسألة البحث التي أعطت لموضوعنا أهمية من خلال اتباع منهج في عملية فرز الطلاب إلى الاختصاصات المختلفة دون مراعاة للعامل النفسي الذي أشرنا إلى أهميته ولعل هذا لعب دوراً كبيراً في تكوين اتجاهات سلبية نحو هذا النوع من التعليم، إلى جانب تضافر عوامل أخرى متمثلة بالخلفية الاجتماعية الثقافية التاريخية والتربوية التي أسهمت بدورها في عزوف الطلاب عن التوجه نحو هذا التعليم، وفي رفض أهلهم في كثير من الأحيان القبول بمتابعة أبنائهم الدراسة في المدارس المهنية.

المشكلة أنه على الرغم من تزايد الاهتمام بهذا النوع من التعليم ووضع الإمكانات الكبيرة للتوسع فيه وتطويره من أجل استيعاب أكبر عدد من طلاب المرحلة الثانوية فيه، فإن هذه الجهود لم تحقق النتائج المرجوة منها في استقطاب الطلاب في متابعة الدراسة فيه، والمسألة الأكثر أهمية لا تتوقف عند العزوف عن التسجيل في المدارس المهنية، وإنما في التسرب الحاصل في إعداد الطلاب بعد تسجيلهم.

والجدول رقم /١/

يبين لنا عدد المسجلين في التعليم الفني والمهني ونسبتهم إلى خطط وزارة التربية.

المحافظة	العام الدراسي	الناجحون في الصف التاسع	النسبة التي حددتها الوزارة للدخول إلى الفني	العدد	المسجل فعلياً	عدد غير المسجلين	نسبة غير المسجلين إلى المسجلين
دمشق	٩٠-٩١	١٦٢٦١	٥٠٪	٨١٣٠	٣١٣٩	٤٩٩١	٦١٪
	٩١-٩٢	١٤٢٧٧	٥٥٪	٧٨٥٢	٣٦٦٢	٤١٩٠	٥٣٪
	٩٢-٩٣	١٥٦٩٢	٥٥٪	٩٤١٥	٤٥٢٧	٤٨٨٨	٥٢٪
	٩٣-٩٤	١٧٤٥٣	٦٥٪	١١٣٤٤	٤٩٤١	٦٤٠٣	٥٦٪
حماه	٩٠-٩١	٩٨٥٤	٥٠٪	٤٩٥٧	٢١١٩	٢٨٣٨	٥٧٪
	٩١-٩٢	١٠٠٩٤	٥٥٪	٥٥٥١	٢٥٧٥	٢٩٧٦	٥٤٪
	٩٢-٩٣	٩٢٨٨	٦٠٪	٥٥٧٢	٢٦٣٩	٢٩٣٣	٥٣٪
	٩٣-٩٤	١٠٣٦٥	٦٥٪	٦٧٣٧	٢٧١٧	٤٠٢٠٠	٦٠٪
الحسكة	٩٠-٩١	٥٤٠٣	٥٠٪	٢٧٠١	١٧٣٣	٩٦٨	٣٦٪
	٩١-٩٢	٤٨٦٠	٥٥٪	٢٦٧٣	١٥١٢	١١٦٠	٤٣٪
	٩٢-٩٣	٥٧٠١	٦٠٪	٣٤٢٠	١١٣٠	٢٢٩٠	٦٧٪
	٩٣-٩٤	٤٣٤١	٦٥٪	٢٨٠٣	١٤٧٣	١٣٣٠	٤٣٪

نلاحظ من قراءة الجدول السابق أن خطة الوزارة لم تحقق ٥٠٪ لا بل كانت أقل من ذلك باستثناء محافظة الحسكة في الأعوام الدراسة ٩٠ـ٩١ وصلت إلى ٦٤٪ وفي ٩٩١ـ٩٩٢ وصلت إلى ٥٧٪ وأيضا حققت نفس النسبة في العام الدراسي ٩٩٣ـ٩٩٤ هذا عن مدى تحقق الخطة في استيعاب الطلاب. أما مسألة التسرب فيمكن أن نلقي عليها ضوءا من خلال الجدول التالي /٢/.

الجدول رقم /٢/

يبين نسبة تسرب الطلاب المسجلين ما بين العاشر والحادي عشر:

المحافظة	العام	المسجل في الصف العاشر	المسجل في الصف الحادي عشر في الثاني من العام السابق الذين انتقلوا إلى الحادي	التسرب	نسبة التسرب
دمشق	٩١-٩٢	٣٦٦٢	٢٦٣٢	١٠٣٠	٢٨٪
	٩٢-٩٣	٤٥٢٧	٣٢٤٨	١٢٨٢	٢٨٪
	٩٣-٩٤	٤٩٤١	٣٢٤٥	١٦٩٦	٣٤٪
	٩٤-٩٥	٥٥٢٨	٣٧٩٢	١٧٣٦	٣١٪
حماة	٩١-٩٢	٢٥٧٥	٢٠٠١	٥٧٤	٢٢٪
	٩٢-٩٣	٢٦٣٩	٢٣٦٤	٢٧٥	١٠٪
	٩٣-٩٤	٢٧١٧	٢٢٩٠	٤٢٧	١٥٪
	٩٤-٩٥	٣٣٣٣	٢٧٦٧	٥٦٦	١٦٪
الحسكة	٩١-٩٢	١٥١٢	١٢٠٢	٣١٠	٢٠٪
	٩٢-٩٣	١١٣٠	٩٤٠	١٩٠	١٦٪
	٩٣-٩٤	١٤٧٣	١٢٤٣	٢٣٠	١٥٪
	٩٤-٩٥	١٢١٦	١٠٥٥	١٦٠	١٣٪

يرصد هذا الجدول وخلال أربعة أعوام دراسية نسبة التسرب الحاصلة بين الطلاب في المدارس الفنية للصف الأول الثانوي ولم نتمكن من الحصول على إحصاءات دقيقة عن التسرب الحاصل ما بين الحادي عشر والثاني عشر، ومع ذلك فلم نر أهمية كبيرة لذلك لأننا نستطيع أن نتبين من خلال هذا الجدول. والجدول السابق حجم المشكلة وأهميتها والمتمثلة، ليس فقط في عدم تسجيل الطلاب وفقاً لخطة الوزارة،وإنما أيضاً بتسربهم، والسؤال المطروح. أين يذهب هؤلاء الطلاب؟ (غير المسجلين). لسنا معنيين بالإجابة على هذا السؤال في هذا البحث لأن ذلك يحتاج إلى بحث آخر وأدوات بحث مختلفة تحيط بهذه المسألة. إلا أنه لا بد من أن نشير، وفي الإطار العام إلى أن هناك مجموعة من الآثار السلبية المترتبة على هذا التسرب وهي آثار نفسية، واجتماعية اقتصادية وتربوية وتعليمية. لعل الاتجاه العام السائد نحو هذا التعليم هو اتجاه سلبي بشكل عام، وهذا له مبرراته المرتبطة بواقع التعليم الفني

والمهني سابقاً في المرحلة السابقة وبالإجراءات المتخذة في فرز الطلاب دون مراعاة لميولهم واهتماماتهم ورغباتهم والتي تعتبر عاملاً أساسياً في رفع مستوى الدافعية (١٣ــ١٩٩٥ــ ص ٣). وهذا ما يدفع الطلاب إلى ترك المدرسة المهنية والالتحاق بالمدارس الخاصة للتقدم إلى الثانوية العامة كونها تتيح أمامهم فرصاً أكبر لتحقيق المستقبل الذي رسموه لأنفسهم، ولذا ترى أنه لا بد أن يرافق هذا التوسع بجهد كبير يساهم بتكوين اتجاهات إيجابية عند الأفراد نحو هذا التعليم تساهم في تحديد منظومة قيمية ــ معرفية تشكل عوامل دفع وحفز لاختيار الفروع الدراسية. التي يتضمنها التعليم الفني والمهني، الاتجاهات كما يجمع علماء النفس الاجتماعي على أنها تعبير عن علاقة وجدانية سلوكية بين الذات والموضوع (١٤ــ١٩٩٧،ص١) وهي تشير إلى وجود مشاعر وجدانية إيجابية أو سلبية وإلى دوافع جذب نحو موضوع أو ظاهرة أو حدث أو نفور من موضوع أو ظاهرة أو حدث. لذا رأينا ضرورة التركيز على أهمية الاتجاهات العلمية بعد دورها أساسيا في متابعة الدراسة والنجاح فيها من خلال ما تحققه من رفع مستوى الدافعية للإنجاز والتحصيل وبذلك تكون هذه الاتجاهات كما يرى (الشيخ ــ ١٥ــ١٩٨٦ ص ٨٧). وبشكل خاص في مجال بحثنا هذا، مدعمة لسلوكنا حيال الأشياء والحوادث والظواهر الطبيعية، كما أنها متغير هام يؤثر في اكتساب المعرفة وتحصيل المهارات.

أهداف البحث:

وفقا لما تمت الإشارة إليه سابقا فإن أهداف البحث تتمثل بما يلي:

١ــ التعرف على اتجاهات كل من الطلاب والآباء والمدرسين نحو التعليم الفني والمهني.

٢ــ تعرف العلاقة بين اتجاهات طلاب الأول الثانوي وطلاب الثالث الثانوي.

٣ــ تعرف العلاقة بين اتجاهات الطلاب واتجاهات ذويهم.

٤ــ تعرف العلاقة بين اتجاهات الطلاب واتجاهات مدرسيهم.

٥ــ تعرف العلاقة بين اتجاهات الطلاب في كل من المحافظات الثلاث /دمشق ــ حماه ــ الحسكة/.

٦ــ تعرف العلاقة بين اتجاهات المدرسين واتجاهات الأهل.

حدود البحث:

شملت الدراسة مدن القطر العربي السوري /دمشق ــ حماه ــ الحسكة/ للعام الدراسي ١٩٩٥/١٩٩٦ وتناولت طلاب الصف الأول الثانوي والثالث الثانوي الفني في بعض مدارس هذه المحافظات /مدارس فنون نسوية ــ تجارة ــ وصناعة/ وتعرضت الدراسة لمعرفة اتجاهات الطلاب وأهلهم ومدرسيهم في التعليم الفني.

فرضيات البحث:

١ــ لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى ٠,٠١ بين طلاب الصف الأول الثانوي وطلاب الصف الثالث الثانوي على المقياس ككل وبالنسبة لكل جانب من جوانب المقياس.

٢ــ لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى دلالة ٠,٠١ بين الطلاب في المحافظات على عبارات المقياس ككل وبالنسبة لكل جانب من جوانبه.

٣ــ لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية عند كل مستوى دلالة ٠,٠١ بين الطلاب وبين المدرسين على المقياس ككل. وبالنسبة لكل جانب من جوانب المقياس.

٤ــ لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى دلالة ٠,٠١ بين الطلاب والأهل وبين المدرسين على المقياس ككل وبالنسبة لكل جانب من جوانبه.

٥ــ لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى دلالة ٠,٠١ بين الأهل وبين المدرسين على المقياس ككل وبالنسبة لكل جانب من جوانب المقياس.

منهج البحث:

يعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي في دراسة الاتجاهات باعتباره كما يراه الشيباني ــ يقوم بوصف الوقائع الراهنة بطبيعة ظاهرة أو موقف أو مجموعة من الأحداث والعلاقات التي توجد بين الوقائع. (١٦ــ١٩٩٣ ص ٧).

أدوات البحث:

اعتمد البحث الأدوات التالية:

١ــ استبانة الطلاب وهي مكونة من ٤٤ عبارة موزعة على خمس جوانب:

أولا ــ الجانب المتعلق بطريقة فرز الطلاب والرضى عنه ويتضمن ست عبارات موزعة في الاستبيان على النحو التالي: ٣ــ٥ــ٨ــ١٢ــ١٥ــ٣٠.

ثانيا ــ الجانب المعرفي والإداري وتضمن تسع عبارات موزعة كالآتي: ١٤ــ١٦ــ١٧ــ٢٤ــ٢٥ــ٣٩ــ٤٠ــ٤١ــ٤٢.

ثالثا ــ الجانب المتعلق بالتأهيل للحياة المستقبلية ونظرة المجتمع وشمل عشر عبارات موزعة على النحو التالي: ٢ــ٧ــ٩ــ١٣ــ٢٨ــ٢٩ــ٣٢ــ٣٣ــ٣٤ــ٣٦.

رابعاً ـ الجانب النفسي وشمل عشر عبارات توزعت على النحو التـالي: ١ ـ٤ـ٦ـ١٠ـ١١ـ١٩ـ٢٦ـ٢٧ـ٣١ـ٣٥.

خامساً ـ العلاقة مع المدرسين والزملاء تسع عبارات توزعت على الأسئلة: ١٨ـ٢٠ـ٢١ـ٢٢ـ٢٣ـ٣٧ـ٣٨ـ٤٣ـ٤٤.

٢ـ استبانة الأهل، وهي مكونة من /٣٢/ عبارة موزعة على أربعة جوانب:

أولاً ـ طريقـة فـرز الطـلاب والرضـى عنـه والعبـارات هـي: ١ـ٣ـ٥ـ٧ـ١١ـ١٢ـ١٣ـ١٤ـ١٥ـ١٦ـ١٩ـ٢٠.

ثانياً ـ المعرفي والإداري وعباراته موزعة في الاستبيان على النحو التـالي: ١٧ـ١٨ـ٢٣ـ٢٤ـ٢٦ـ٢٧ـ٣١ـ٣٢.

ثالثاً ـ التأهيل للحياة المستقبلية ونظرة المجتمع وتشمل العبـارات التاليـة: ٢ـ٤ـ٦ـ ٨ ـ٩ـ١٠ـ ٢٥.

رابعـاً ـ العلاقـة مـع المدرسـين وتضمـن العبـارات التاليـة: ٢١ـ٢٢ـ٢٨ـ٢٩ـ٣٠.

٣ـ استبانة المدرسين تضمنت بدورها /٣٢/عبارة موزعة على أربعة جوانب:

أولاً ـ طريقـة فـرز الطـلاب والرضـى عنـه علـى النحـو التـالي: ٥ـ٧ـ٨ـ٩ـ١٥ـ٢٧.

ثانيـاً ـ المعرفـي والإداري وعباراتـه موزعـة علـى النحـو التـالي: ١٨ـ١٩ـ٢٠ـ٢١ـ٢٢ـ٢٣ـ٢٤ـ٢٥ـ٢٦ـ٣٠ـ٣١ـ٣٢.

ثالثاً ـ التأهيل للحياة المستقبلية ونظرة المجتمع وتضمن العبـارات التاليـة: ١ـ٢ـ٣ـ٤ـ٦ـ٢٨ـ٢٩.

رابعـــاً ــ العلاقـــة بيـــن المدرســـين والمربيـــن العبـــارات: ١٠ــ١١ــ١٢ــ١٣ــ١٤ــ١٦ــ١٧. وزعـت الاسـتبانات الثـلاث علـى مجموعة من المحكمون في كلية التربية بهدف الكشف عن وضوح صياغـة العبارات وتقويمها والتأكد من صدقها.

وفي ضوء ملاحظات المحكمين تمت إعادة صياغة بعض العبارات وحذف عبـارات أخرى وإضافة عبارات لزيادة صدق الأداة.

ثبات الأداة:

وزعت استبانة الطلاب على عينة استطلاعية أولى مؤلفة من خمسة وعشرين طالبـاً وطالبة في مدرستي الصناعة والفنون النسوية بدمشق لمعرفة ما إذا كانت الاسـتبانة تتضمن بعض العبارات الناقصـة أو فيمـا إذا كـان يرغـب الطـلاب بإضافـات أخرى،ووزعت استبانة الأهل والمدرسين ولنفس الهدف على عينة من عشـرة آبـاء وعشرة مدرسين ولم تذكر أية إضافات أو استفسارات.

وبعد ثلاثة أسابيع وزعت الاستبانات على العينة لدراسة استطلاعية ثانية لمعرفة مـدى ثبات الأداة حيث أن الثبات يشير إلى النتائج نفسها حين يقيس تكـرار البنـود نفسـها (١٧ــ١٩٨٣ــ ص ٢٢٥).

وباستخدام معامل الارتباط بيرسون بين الدراستين الأولى والثانية تـم التوصـل إلـى النتائج التالية من حيث ثبات المقياس:

١ــ مقياس اتجاهات الطلاب كان ر= ٨٣٪

٢ــ مقياس اتجاهات الأهل كان ر= ٨٦٪

٣ــ مقياس اتجاهات المدرسين كان ر= ٨٢٪

القوانين الإحصائية المستخدمة:

ــ استخراج النسب المئوية لاتجاهات كل من الطلاب والأهل والمدرسين بالنسبة لكــل عبارة وبالنسبة لكل جانب من جوانب المقياس.

ــ حساب المتوسطات باستخدام القانون: س= مج س / ن

ــ لدراسة ثبات المقياس تم استخدام معامل الترابط حسب القانون التالي:

ر = ن مج ص س – مج س × مج ص

[(ن مج ص^{٢}) – (مج س)^{٢}] [ن مج ص^{٢} – (مج ص^{٢})]

ولبيان فيما إذا كان هناك فروق في الاتجاهات بين كل من الطلاب والأهل والمدرسين وبين طلاب الأول الثانوي والثالث الثانوي.

تم استخدام القانون التالي لبيان دلالة الفروق.

ت= [(ن^{١}ع^{٢} +ن^{٢} (ع^{٢})^{٢}][/ ن^{١} + (ن^{٢})^{٢}

رقم /٣/ يوضح توزع عينة الطلاب بالنسبة للمجتمع الأصلي في المحافظات الثلاث.

في حين أن الجدول رقم /٤/ بين توزع فئة المدرسين والأهل من عينة البحــث علــى المحافظات الثلاث:

جدول رقم /٣/

يبين توزع الطلاب عينة البحث على المحافظات الثلاث.

المحافظة	الصف	عدد أفراد المجتمع الأصلي	عدد أفراد العينة	نسبة العينة إلى المجتمع الأصلي
دمشق	الأول الثانوي	٥٦٦٠	١٨٠	٪٣,١٨
	الثالث الثانوي	٣٣٦٣	٦٠	٪١,٧٨
حماه	الأول الثانوي	٢٤٧١	٨٠	٪٣,٢٣
	الثالث الثانوي	١٥٩٨	٤٠	٪٢,٠٥
الحسكة	الأول الثانوي	١٥٩٦	١٠٠	٪٦,٢
	الثالث الثانوي	٩١٣	٤٠	٪٤,٣٨
المجموع		١٥٥٩٦	٥٠٠	٪٣,٢٠

أما عينة الأهل والمدرسين فقد اختيرت أيضا بشكل عشوائي من المحافظات الثلاث على النحو التالي:

جدول رقم /٤/

يبين توزع عينة الأهل والمدرسين على المحافظات الثلاث.

المحافظة	الأهل	المدرسون
دمشق	٤٠	٢٠
حماه	٤٠	٢٠
الحسكة	٤٠	٢٠

الدراسات السابقة:

١ـ دراسة يونس ناصر ١٩٨٤ التي تناولت اتجاهات الطلاب المعلمين نحو مهنة التعليم بشكل عام.

هدفت هذه الدراسة إلى معرفة قدرة نظام الإعداد التربوي في سورية على تغيير اتجاهات الطلاب المعلمين نحو مهنة التعليم وخلصت الدراسة إلى:

أ ـ حدوث تغير ذي دلالة في الاتجاهات نحو مهنة التعليم بين بداية الإعداد ونهايته.

ب ـ وجود ارتباط بين نتائج التحصيل في مجموعة من المواد التربوية وبين الاتجاهات نحو مهنة التعليم بعد بداية الإعداد.

٢ـ دراسة يونس معلا ١٩٨٧ بعنوان: "اتجاهات طلاب المدرسة الإعدادية نحو المهن".

ومن بين ما هدفت إليه الدراسة:

أ ـ الكشف عن موقف طلاب الثالث الإعدادي من المهن.

ب ـ معرفة إذا كانت هناك فروق في الاتجاهات بين كل من الذكور والإناث.

جـ ـ بيان العوامل التي تكمن وراء الاتجاهات نحو المهن اليدوية والعملية...الخ

وخلصت الدراسة إلى النتائج التالية:

١ ـ تفضيل الطلاب للمهن الفكرية والعلمية بنسبة عالية.

٢ ـ النزوع الكبير لدى الإناث للعمل خارج المنزل.

٣ ـ أظهرت الدراسة أن نسبة كبيرة من أبناء المستوى الاجتماعي والاقتصادي المنخفض تتجه بشدة نحو المهن الفكرية العلمية.

٤ ـ بينت نتائج الدراسة، الاتجاه القوي للآباء لأن تكون مهن أولادهم في المستقبل من المهن الفكرية والعلمية.

٣ـ دراسة سليمان الشيخ ١٩٧٨.

"اتجاهات الطلبة والطالبات بجامعة قطر نحو اختيار المهنة"

خلصت الدراسة إلى النتائج التالية:

١ــ الطلبة والطالبات راضون عن المهن التي تعدهم لها كلياتهم، كما بينت النتــائج أن الطالب يتمتع بدرجة من الاستقلالية في تقرير مصيره وتحديد كليتـــه علــى خــلاف الطالبات اللواتي يعتبرن أكثر اعتمادا على رأي الأسرة.

٤ــ دراسة جودت سعادة ١٩٨٧.

دراسة مقارنة لاتجاهات المشرفين التربويين والمديرين والمعلميــن نحــو الدراســات الاجتماعية، ومن بين ما هدفت إليه الدراسة معرفة نوع الاتجاهات، هل هي ســلبية أم إيجابية نحو الدراسات الاجتماعية حسب المستويات الوظيفية. وانتهت الدراسة إلــى أن اتجاهات جميع أفراد العينة نحو الدراسات الاجتماعية كانت إيجابية.

٥ــ دراسة شنودة حسب الله بشاي ١٩٩٣.

/الاتجاهات النفسية لطلاب شعبة التعليم الابتدائي نحو مهنة التدريس وعلاقتها بتوافقهم النفسي/

هدفت الدراسة إلى معرفة طبيعة اتجاهات طلاب التعليم الابتدائي في كلية التربية نحــو مهنة التدريس. ومن بين ما خلصت إليه الدراسة أن اتجاهات طلاب شـــعبة التعليــم الابتدائي نحو مهنة التدريس سلبية بشكل عام.

البحوث المنهجية والعلمية ذات الصلة الوثيقة بموضوع بحثنا على المستوى القطـــري نادرة جدا إذا لم تكن معدومة باعتبار أن التعليم الفني والمهني يمثل تجربة متميزة فــي القطر العربي السوري على المستوى العربي من حيث التوسع في هذا التعليم ليشـــمل ٧٠٪ من الطلاب الناجحين في المرحلة الإعدادية.

كما أن هذه التجربة حديثة العهد وهي ترجع إلى النصف الثاني من العقد الثامن. أمـــا على المستوى العربي، فعلى الرغم من قدم هذه التجربة في بعض الأقطـــار العربيــة

(مصر) إلا أنها لم تتوسع بهذا الحجم ولا تزال في حدودها الضيقة من حيث استيعاب عدد الطلاب، مما جعل البحوث في هذا الميدان قليلة جداً.

إن هذه الدراسة تختلف في أهدافها وأبعادها ومتغيراتها عن الدراسات المشار غليها حيث تركز على عملية الاختيار الدراسي والمهني وانعكاساتها في تكوين الاتجاهات /سلبية وإيجابية/ نحو هذا النوع من التعليم عند الطلاب والمدرسين وهذا ما يجعل البحث فريداً إذ لا توجد بحوث سابقة تناولت هذه المسألة في القطر العربي السوري.

لقد أفدنا من الدراسات السابقة في منهجيتها وفي مقارنة بعض نتائجها بنتائج دراستنا من حيث طبيعة الاتجاهات المتكونة نحو المهنة أو الدراسة.

كشفت نتائج الدراسات السابقة التي أشرنا إليها عن تناقص واضح حيث أظهر بعضها اتجاهات إيجابية (ناصر ١٩٨٤ ــ الشيخ ١٩٧٨ ــ جودت سعادة ١٩٨٧) في حين دراسة (شنودة ١٩٩٣) كشفت عن اتجاهات سلبية وهي تتفق في ذلك مع نتائج دراستنا التي كشفت عن اتجاهات سلبية أيضاً نحو الدراسة والمهنة التي يعد لها الطلاب، كما اتفقت نتائج دراستنا هذه مع نتائج دراسة معلا، بالنسبة لاتجاه الطلاب الإيجابي وآبائهم نحو الدراسات التي تؤهلهم لممارسة مهن فكرية واجتماعية.

تحليل النتائج

تشير النسب المئوية لإجابات الطلاب والأهل والمدرسين عن وجود اتجاهات سلبية واضحة وعدم قبول عدد كبير من عينة البحث لهذا النوع من التعليم ولطريقة الاختيار الدراسي وحتى للسياسة التربوية المتمثلة بالإجراءات المتخذة لاختيار الطلاب إلى فروع الدراسة المختلفة والتأهيل للحياة المستقبلية والنظرة الاجتماعية السلبية التي تترسخ نحو التعليم الفني والمهني ونحو الطلاب الذين يختارون لمتابعة الدراسة في المدارس الفنية.

الملاحظ أن طلاب الصف الثالث الثانوي عبروا عن اتجاهات أكثر سلبية من إجابات طلاب الصف الأول الثانوي. إنهم وصلوا إلى المرحلة الأخيرة من الدراسة ومع ذلك فإنهم غير راضين عن دراستهم وعن طريقة الاختيار التي قادتهم إلى هذه الدراسة ولعل هذا يرجع إلى عدم قدرة المنهاج على إشباع حاجاتهم المعرفية من ناحية بحيث أن ٧٠٪ من طلاب الثالث الثانوي أجابوا أن المعلومات المتضمنة في المنهاج لا تلبي طموحاتهم المعرفية وأيضاً لعدم اتخاذ الإدارة والتدابير التي من شأنها أن تساعدهم على التكيف من ناحية ثانية بحيث أن نسبة ٤٥٪ من الطلاب عبروا عن اتجاهات سلبية نحو الإدارة وعن عدم قناعتهم بالدور الذي تقوم به كما أن ٣٧٪ من إلى ٢١٪ ولقد أجاب ٦٨٪ من طلاب الثالث الثانوي عن عدم رضاهم من نوع الدراسة مقابل ٥٦٪ لطلاب الأول الثانوي.

في حين أن ٥٧٪ من الأهل لم يكونوا راضين عن دراسة أبنائهم في المدارس الفنية. كما أجاب ٨٠٪ من طلاب الثالث الثانوي بعدم اختيارهم لفرعهم الدراسي لو خيروا في ذلك، مقابل ٦٠٪ من طلاب العاشر و٦٣٪ من عينة الأهل. كما أن الرضى المهني مستقبلاً غير متحقق وهو بنسبة أعلى لدى طلاب الثالث الثانوي ٧١٪ مقابل ٥٢٪ لطلاب الصف العاشر. لا شك في أن معاناة طلاب الثالث الثانوي أكثر عمقاً وأكبر أثراً من جراء الفترة التي قضوها في المدارس الفنية وما ترتب على ذلك من علاقات اجتماعية غير متكافئة سواء بمدرسيهم أم بأقرانهم في الثانويات العامة والفروق التي شعروا بها مقارنة بأقرانهم في التعليم العام وهذا يجعلهم أكثر استعدادا للتعبير السلبي عن مواقفهم واتجاهاتهم من كل ماله علاقة بفرعهم الدراسي. إذ أن ٤٦٪ منهم أجابوا بأن لديهم مشاعر نقص تجاه زملائهم في المدارس العامة و٥٤٪ منهم يشعرون بأنهم أدنى مستوى من أقرانهم في التعلم العام.

٨٠٪ من طلاب البكالوريا أجابوا بأن أسلوب الفرز المتبع يعزز مفهوم الفشل عند الطلاب في التعليم الفني مقابل ٦٣٪ لطلاب الصف العاشر ــ هذا ويلاحظ أيضاً أن اتجاهات الأهل والمدرسين لا تقل سلبية كثيراً عن اتجاهات الطلاب ٥٠٪ للأهل مقابل ٦٢٪ للمدرسين على أن أسلوب الفرز غير جيد وأجاب ٧٣٪ من المدرسين بأن الأسلوب يعزز مفهوم الفشل عند الطلاب كما أكد ذلك ٥٣٪ من الأهل.

ويرى ٧٦٪ منهم أن دخول أبنائهم المدارس الفنية لم يراع لهم ميولهم واهتماماتهم و٧٣٪ رأوا أن إهمال أبنائهم وعدم اكتراثهم بواجباتهم الدراسية يرجع إلى طريقة الاختيار الدراسي التي ألزمت أبناءهم بمتابعة فروع الدراسة دون مراعاة لاهتماماتهم. ويؤكد ذلك أن ٨٠٪ من عينة المدرسين، ٦٥٪ منهم يرون أن الطلاب غير مبالين وغير مهتمين باكتساب المهارات التي تتيحها المشاغل المدرسية. ٧٦٪ من الأهل يقولون أن أبناءهم جاهزون دائماً لتقديم المبررات لعدم اكتراثهم والسبب في ذلك يرجع إلى عدم قبولهم لفرعهم الدراسي وعدم رضاهم عنه. كما وتقترب إجابات الأهل والمدرسين من بعضها على أن الطلاب يفتقدون إلى الاهتمام بالمشاركة بالأنشطة الصيفية ٦٩٪ الأهل و٦٣٪ مدرسون كما أجاب ٤٨٪ من الطلاب بعدم الشعور بالاهتمام نحو واجباتهم الدراسية. وفي هذا يشير ٧٧٪ من طلاب البكالوريا على أن التعليم الفني وقف أمام تحقيق طموحاتهم مقابل ٦٣٪ لطلاب العاشر الذين لا يزالون في بداية الطريق.

ويؤكد كل من الأهل والمدرسين على أهمية برامج التوجيه النفسي المهني في تنمية الميول والاهتمامات ٦٧٪ عينة المدرسين مقابل ٧٩٪ عند الأهل، وأما عن الدور الذي تلعبه هذه البرامج في تحقيق التكيف من خلال المساعدة التي تقدمها للطلاب لحل مشكلاتهم الدراسية والسلوكية فأكدها ٧٨٪ من الأهل مقابل ٧٥٪ من المدرسين.

وعلى السؤال فيما إذا كان التعليم الفني يؤهل للحياة العملية جـاءت الإجابـات مـن عينات البحث متباينة إلى حد كبير حتى ضمن العينة الواحدة بين طـلاب البكالوريـا وطلاب الصف العاشر إذ أكد ٦٢٪ من طلاب الثالث الثانوي على عدم قدرة التعليـم الفني بواقعه القائم على الإعداد للحياة العملية ولعل هذا يرجع إلى أن عدداً كبيراً مـن هؤلاء الطلاب لم يتمكنوا من اكتساب المهارات والخبرات اللازمة خلال سني تعليمهم السابقة في المدارس الفنية لأسباب متعددة منها بالدرجة الأولى عـدم اكتراثـهم و لا مبالاتهم ثم يسقطون هذا التقصير على نظام التعليم بحد ذاته. في حين أن هذه النسـبة تنخفض لدى طلبة الصف العاشر لتبلغ ٤٧٪ أما عند الأهل فهي ٣٠٪ ولـم تتجـاوز ٢٣٪ عند المدرسين. بشكل عام هناك تصور قائم على عجز النظـام التعليمـي عـن إعداد الطالب للحياة العملية وإن كانت النسب متفاوتة. وهناك شبه إجماع بين عينـات البحث في الإجابة على أن الفرص المستقبلية سواء أكانت دراسية أم مهنية قليلة جـداً أمام طلبة التعليم الفني وبالتالي فلقد اعتبروها من العوامل المسـاعدة علـى خفـض مستوى الدافعية للتحصيل واكتساب المهارات.

٧٢٪ من الطلاب أكدوا بأن وجود فرص أكثر كفيلة برفع مستوى التحصيل كمـا أن ٦٥٪ من عينة المدرسين وافقت على ذلك ونسبة ٧٦٪ من عينة الأهل أكدت أن عـدم فسح المجال أمام الطلاب بشكل أوسع (إتاحة فرص أكثر) للدخول إلى الجامعـة هـو الذي يدفع الأهل لإدخال أبنائهم المدارس الخاصة وعبر ٧١٪ أيضاً من الأهـل عـن رضاهم عن دخول أبنائهم إلى المدارس الفنية فيما إذا أتيحت أمامهم فـرص أفضـل. بشكل عام. إن الرؤية المستقبلية المهنية محددة بآفاق مستقبلية ضيقـة عـبرت عنـها إجابات عينات البحث وبكل جلاء. ٦٧٪ للطلاب و٧٥٪ المدرسين و٧٩٪ للأهل.

على الرغم من إجابة عدد كبير من أفراد عينات البحث على أهميـة التعليـم الفنـي والمهني ودوره في عمليات التنمية ٦٦٪ للطلاب، ٧٢٪ للأهل و٧٧٪ للمدرسـين، إلا

أن هذه الأهمية المقرة من الناحية النظرية لم تتمكن من تعزيز المكانة الاجتماعية لـهذا التعليم ولا أن ترتقي بها في نظر الناس ومعتقداتهم عندما تدخل حيز الحكم على واقـع عياني مشخص حيث أن ٦٣٪ من الأهل أجابوا بأن القيمة العلمية المتدنية التي يمنحها المجتمع لهذا النوع من التعليم تحول دون تشجيعهم لأبنائهم على الدخول إليـه و٦٧٪ من الطلاب رأوا في ذلك السبب الكامن وراء عزوف الطلاب عن الدخول إليـه كمـا وافق ٥٧٪ من المدرسين على ذلك.

وحتى الاستعدادات التي تطورت أدوات قياسها إلى درجة كبيرة فهي لا تزال ميدانـاً للتخمين يتأثر بالأحكام الأخلاقية والنظرة الاجتماعية من وجهة نظر عينـات البحـث ٦٤٪ من أفراد عينة الأهل يعتبرون أن استعدادات طلاب التعليم الفنـي والمـهني لا ترتقي إلى مستوى استعدادات أقرانهم في التعليم العام ولقد وافق ٦٢٪ من أفراد عينـة المدرسين على أن استعدادات هؤلاء الطلاب أدنى مستوى من استعدادات زملائهم فـي المدارس العامة وحتى الطلاب أنفسهم انساقوا وراء هذه النظرة الاجتماعية الأخلاقيـة ــ التاريخية في الحكم على استعداداتهم ٦٨٪.

وأما عن دور الإدارة وفعاليتها في معالجة مشكلات الطلاب وتوفير مسـتلزمات فقـد برزت اتجاهات متباينة وبشكل خاص بين الطلاب من ناحية وبين الأهل والمدرسـين من ناحية ثانية، نسبة لا بأس بها من الطلاب ٤٧٪ بكالوريا ٤٨٪ عاشر أقروا بعـدم جديتها وبلا فاعلية دورها في معالجة مختلف المشكلات، في حيـن عـبرت إجابـات الأهل والمدرسين عن اتجاهات أكثر إيجابية حيـال هـذه المسـألة فقـط ٢٧٪ مـن المدرسين عبر عن عدم جدية الإدارة مقابل ٣٠٪ للأهل. وهذا التبـاين يرجـع إلـى عوامل ثقافية، مهنية ــ قيمية ــ أخلاقية.

المدرس جزء من الإدارة لا بل يرى في أنه يمثل الإدارة في معظم المواقف وكثيراً ما يعتقد بأن ما يقدمه للطالب يتجاوز حدود الواجبات المفروضة عليه (وإن لم يكن ذلك حقيقياً). والأهل من ناحيتهم يعتبرون أن المدرسة ممثلة (بالإدارة) كمؤسسة اجتماعية ثقافية لها دور كبير في تنشئة الأجيال وهذا الدور يكمل دور الأسرة في ذلك إذا لم يتفوق عليه. ولما اعتاد الناس أن ينظروا إلى المدرسة (المؤسسة) وفق معايير قيمية وأخلاقية معينة، منطلقين في ذلك من المهام المناطة بالمدرسة وبالدور الذي عليها أن تقوم به أكثر من الوقوف عند دور الإدارة بممارساتها الفعلية الواقعية وبذلك يتم التجاهل أو التغاضي عن بعض القصور أو العجز في هذا الدور الممارس لصالح الدور المفترض.

جدول – آ –

الجانب		النسب المئوية لإجابات الأهل				رقم	النسب المئوية لإجابات المدرسين			
		موافق		غير موافق		السؤال	موافق		غير موافق	
جانب		المتوسط	النسب المئوية	المتوسط	النسب المئوية		النسب المئوية	المتوسط	النسب المئوية	المتوسط
	١		٥٠٪		٣٦,٦٦٪	٥	٢٥٪		٦١,٦٦٪	
	٣		٦١,٦٦٪		٢٠٪	٧	٧٢,٣٣٪		١٠٪	
	٥		٥٦,٦٦٪		٣١,٦٦٪	٨	٧٨,٣٣٪	٦٤٪	١٥٪	
	٧		٦٢,٥٪		١٦,٦٦٪	٩	٨٠٪		١٠٪	٢٢٪
	١١		٥٣,٣٣٪		٢٨,٣٣٪	١٥	٦٥٪		١٥٪	
	١٢	٦٢٪	٦٩,١٦٪	٢٦٪	٢١,٦٦٪	٢٧	٦٣,٣٣٪		٢٠٪	
أسلوب الاختيار الدراسي	١٣		٧١,٦٦٪		١٤,١٦٪	١٨	٦٥٪		١٣,٣٣٪	
	١٤		٧٥,٨٣٪		١٩,١٦٪	١٩	٨١,٦٦٪		٦٪	
	١٥		٧٥,٨٣٪		١٧,٥٪	٢٠	٥٨,٣٣٪	٥٨٪	١١,٦٦٪	
	١٦		٧٣,٣٣٪		١١,٦٦٪	٢١	٧٥٪		١١,٦٦٪	٢٧٪
	١٩		٢٥٪		٦١,٦٦٪	٢٢	٧٥٪		١٦,٦٦٪	
	٢٠		٦٤.١٦٪		١٦,٦٦٪	٢٣	٦٨,٣٣٪		١٨,٣٣٪	

تتمة الجدول ـ آ ـ

الجانب		النسب المئوية لإجابات الأهل				رقم	النسب المئوية لإجابات المدرسين			
		موافق		غير موافق		السؤال	موافق		غير موافق	
جانب		المتوسط	النسب المئوية	المتوسط	النسب المئوية		النسب المئوية	المتوسط	النسب المئوية	المتوسط
الجانب المعرفي والإداري	١٧		٪٩,١٦		٪٧٩,١٦	٢٤	٪٦٥		٪٢٣,٣٣	
	١٨		٪١٠		٪٧٧,٥	٢٥	٪٦٦,٦		٪٢٠	
	٢٣		٪٤٦,٦٦		٪٤٥	٢٦	٪٧٥	٪٥٨	٪٨,٣٣	
	٢٤	٪٣٠	٪٣٠,٨٣	٪٥٨	٪٤٩,١٦	٣٠	٪٢٠		٪٦٠	
	٢٦		٪٢٠		٪٦٥,٨٣	٣١	٪١٨,٣٣		٪٦٨,٣٣	
	٢٧		٪٣٤,١٦		٪٥٥,٨٣	٣٢	٪٢٦,٦٦		٪٦٣,٣٣	
	٣١		٪٤٢,٥		٪٤٤,١٦	١	٢١,٦٦٪		٪٧١,٦٦	
	٣٢		٪٤٥		٪٤٤,١٦	٢	٪١٥		٪٧١,٦٦	
جانب التأهيل والنظرة الاجتماعية	٢		٪٣٠		٪٥٦,٦٦	٣	٪٦٥	٪٣٥	٪٢٣,٣٣	
	٤	٪٥٧,٠٢	٪٧٩,١٦		٪١٠,٨٣	٤	٪٧٥		٪١٦,٦٦	
	٦		٪١٦,٦٦		٪٧١,٦٦	٦	٪٧٦,٦٦		٪٥	
	٨		٪٧٠,٨٣		٪٢٢,٥	٢٨	٪٦٥,٦٦		٪٢٦,٦٦	
	٩		٪٦٢,٥		٪٢٠	٢٩	٪٦١,٦٦		٪٣٠	
	١٠		٪٧٥,٨٣	٪٣١	٪١٨,٣٣	١٠	٪٨,٣٣		٪٧٠	
	٢٥		٪٦٤,١٦		٪١٦,٣٣	١١	٪٨,٣٣		٪٥٣,٣٣	
جانب العلاقات مع المدرسين	٢١		٪٣٢,٥		٪٤٩,١٦	١٢	٪٥		٪٦١,٦٦	
	٢٢		٪١٧,٥		٪٥٠,٨٣	١٣	٪٥	٪١٤	٪٧١,٦٦	
	٢٨	٪٣٢,٦٦	٪٢٩,١٦	٪٤٩	٪٦٠	١٤	٪١٠		٪٦٣,٣٣	
	٢٩		٪٥١,٦٦		٪٣٣.٣٣	١٦	٪٢٠		٪٤٥	
	٣٠		٪٣٢,٥		٪٥١,٦٦	١٧	٪٤٣,٣٣		٣٨,٣٣٪	

يؤكد المدرسون وجود علاقة إيجابية وبناءة تتمثـل بمتابعتـهم الطـلاب علـى آلات التدريب وحثهم على القيام بواجباتهم وإقامة علاقات طيبة معهم. وذلك بنسبة ٥٨٪ من أفراد العينة في حين أن نسبة الأهل كانت أدنى من ذلك ٤٩٪ وهذا يعنـي أن هنـاك تحفظاً نسبياً على طبيعة هذه العلاقة والدور الذي يقوم به المدرس. وكانت اتجاهـات الطلاب أكثر سلبية فيما يتعلق بالمتابعة ٢٦٪ و٢٢٪ من طلاب البكالوريا المـدرس لا يستمع لوجهات نظرهم ٢٦٪ منهم لا يشعرون بجدية المدرس، والمدرب ولكن هـذه النسبة كانت أكثر ارتفاعاً لدى طلاب الصف العاشر ٤٨٪ المدرس لا يستمع لوجهـة نظرهم ٥٣٪ ولا يشعرون بجدية المدرس، وأجاب ٢٠٪ مـن عينـة الطـلاب بـأن مشاعرهم تجاه بعضهم غير حميمة و٢٢٪ قالوا أن هذه المشاعر لا تقوم على المـودة والتعاون والجانب الأخير الذي تشير إليه هو الجانب النفسي التي تضمنته أداة البحـث عن الطلاب فقط، وأظهرت نتائج هذا الجانب اتجاهات سلبية نحو التعليم الفني حيـث أن ٦٣٪ من الطلاب رأوا أنه لا يتبع اهتماماتهم العملية، ٦١٪ أكدوا أنهم لا يحققـون طموحاتهم من خلال دراستهم في هذه المدارس و٦٤٪ لا يجدون ذواتـهم فـي هـذه الدراسة كما يشعرون أنهم أدنى مستوى من زملائهم مما يساعد في تكويـن مفـهوم سلبي للذات. وبالتالي عجز الطالب عن تقدير ذاته بالشكل الذي يحـول دون تحقيقـه لذاته. لأنه كما هو معلوم في نظرية الذات عند روجرز أن تقدير الذات وتحقيق الـذات يعتمدان بشكل أساسي على مفهوم إيجابي للذات ــ (الجدولين آ ــ ب)

جدول ــ ب ــ

رقم السؤال	بكالوريا		عاشر		بكالوريا		عاشر		بكالوريا + عاشر		بكالوريا + عاشر		الجانب
	موافق	المتوسط	موافق	المتوسط	غير	المتوسط	غير	المتوسط	موافق	المتوسط	غير	المتوسط	
٣	٦٨٪	٧٤٪	٥٦٪	٥٩,٣ ٪	١٧٪	١٤,٣ ٪	٢٨٪	٣٠٪	٦٠٪	٦٣,٦ ٪	٢٥٪	٢٥,٥ ٪	الاختيار المدرسي
٥	٦٩٪		٦٢٪		١٦٪		٢٩٪		٦٤٪		٢٦٪		
٨	٨٠٪		٦٠٪		٩٪		٢٩٪		٦٦٪		٢٣٪		
١٢	٧١٪		٥٢٪		٢٠٪		٣١٪		٥٨٪		٢٨٪		
١٥	٨٠٪		٦٣٪		١٠٪		٣٠٪		٦٧٪		٢٤٪		
٣٠	٧٧٪		٦٣٪		١٤٪		٣٣٪		٦٧٪		٢٧٪		
١٤	٨٦٪	٤٦,٧ ٪	٥٧٪	٤٨٪	١٠٪	٤٠,٦ ٪	٣٣٪	٤١,٣ ٪	٦٥٪	٤٧٪	٢٧٪	٤١٪	المعرفي والإداري
١٦	٧٠٪		٥٧٪		١٠٪		٢٨٪		٦٠٪		٢٣٪		
١٧	٣٤٪		٥٨٪		٥٧٪		٣٠٪		٥١٪		٣٨٪		
٢٤	٥٩٪		٥١٪		٢٧٪		٤١٪		٥٣٪		٣٧٪		
٢٥	٤١٪		٤٦٪		٤٦٪		٤٣٪		٤٥٪		٤٤٪		
٣٩	١٦٪		٤٤٪		٧٤٪		٤٣٪		٣٦٪		٥٢٪		
٤٠	٤٧٪		٤٦٪		٣٥٪		٤٥٪		٤٦٪		٤١٪		
٤١	٥٩٪		٤٢٪		٣٦٪		٤٢٪		٤٧٪		٣٧٪		
٤٢	٩٪		٢٧٪		٨١٪		٦٩٪		٢٢٪		٧٢٪		

تتمة الجدول – ب –

رقم السؤال	بكالوريا		عاشر		بكالوريا		عاشر		بكالوريا + عاشر		بكالوريا + عاشر		الجانب
	موافق	المتوسط	موافق	المتوسط	غير	المتوسط	غير	المتوسط	موافق	المتوسط	غير	المتوسط	
١	٥٩٪	٦٣,٣٪	٥٠٪	٤٩,٧٪	٢٤٪	٢٥,٨٪	٣٤٪	٤١,٢٪	٥٢٪	٥٣,٦٪	٣٢٪	٣٧٪	الجانب النفسي
٤	٧٤٪		٥٨٪		١٤٪		٣٠٪		٦٣٪		٢٦٪		
٦	٣٩٪		٣٣٪		٥٤٪		٦٠٪		٣٥٪		٥٩٪		
١٠	٧٦٪		٣٥٪		١١٪		٣٥٪		٦١٪		٢٩٪		
١١	٨٤٪		٥٦٪		١٠٪		٤٣٪		٦٤٪		٣٤٪		
١٩	٥٣٪		٤٤٪		٣٦٪		٤٧٪		٤٦٪		٤٤٪		
٢٦	٥٤٪		٥٤٪		٣٤٪		٣٩٪		٥٤٪		٣٧٪		
٢٧	٥٩٪		٤٣٪		٢٥٪		٥٠٪		٤٩٪		٤٤٪		
٣١	٨١٪		٥٠٪		١١٪		٤١٪		٥٩٪		٣٣٪		
٣٥	٥٥٪		٥٤٪		٣٥٪		٣٣٪		٥٤٪		٣٣٪		
١٨	١١٪	١٩٪	٣١٪	٤٣٪	٧٦٪	٦٥٪	٥١٪	٤٣٪	٢٦٪	٣٦٪	٦٣٪	٥١٪	العلاقة مع المدرسين والزملاء
٢٠	١٣٪		٥٣٪		٦٦٪		٣٨٪		٤٤٪		٤٦٪		
٢١	٢٦٪		٥٥٪		٦١٪		٣٢٪		٤٧٪		٤٦٪		
٢٢	٢١٪		٥٣٪		٦٢٪		٣٤٪		٤٤٪		٤٢٪		
٢٣	٢٢٪		٤٨٪		٥٤٪		٣٩٪		٤١٪		٤٣٪		
٣٧	٩٪		٢٧٪		٨٦٪		٦٥٪		٢٢٪		٧١٪		
٣٨	١١٪		٢٣٪		٧٩٪		٦٣٪		٢٠٪		٦٨٪		
٤٣	٢٣٪		٦٣٪		٥٩٪		٢٨٪		٥٣٪		٣٧٪		
٤٤	٢٥٪		٣٤٪		٤٤٪		٤٩٪		٣١٪		٤٨٪		

تتمة الجدول ــ ب ــ

رقم السؤال	بكالوريا		عاشر		بكالوريا		عاشر		بكالوريا + عاشر		بكالوريا + عاشر		الجانب
	موافق	المتوسط	موافق	المتوسط	غير	المتوسط	غير	المتوسط	موافق	المتوسط	غير	المتوسط	
٢	٪٦٢		٪٤٧		٪٢٤		٪٤٢		٪٥١		٪٣٧		التأهيل للحياة والنظرة الاجتماعية
٧	٪١١		٪٢٩		٪٨٣		٪٦١		٪٢٤		٪٦٧		
٩	٪١١		٪٢٩		٪٧٧		٪٦١		٪٢٤		٪٦٦		
١٣	٪١١		٪٣٣		٪٦٧		٪٥٩		٪٢٧		٪٦١		
٢٨	٪٨١	٥٦,٤ ٪	٪٦٣	٥٠,٧ ٪	٪٦	٣٤,٤ ٪	٪٢٩	٣٩,٧ ٪	٪٦٨	٥٢,٢ ٪	٪٢٥	٣٨,٣ ٪	
٢٩	٪٨١		٪٦٢		٪١١		٪٢٣		٪٦٧		٪٢٧		
٣٢	٪٨٤		٪٦٨		٪١٠		٪٢٦		٪٧٢		٪٢٢		
٣٣	٪٨١		٪٦٧		٪١٦		٪٢٢		٪٧١		٪٢٠		
٣٤	٪٧٦		٪٦٥		٪١٨		٪٢٥		٪٦٨		٪٢٣		
٣٦	٪٦٦		٪٤٤		٪٢٢		٪٣٩		٪٥٦		٪٣٥		

معالجة الفرضيات:

أولاً ــ الفرضية الأولى: لاتوجد فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى دلالة ٠,٠٥ ومستوى ٠,٠١ بين طلاب الصف الأول الثانوي المهني وطلاب الثالث الثانوي المهني على عبارات المقياس ككل وبالنسبة لكل جانب من جوانب المقياس.

نتيجة لتطبيق مقياس اتجاهات الطلاب والأهل والمدرسين نحو التعليم الفني تم الحصول على المعطيات التي مكنت الباحث من حساب قيمة (ت) في دلالة الفروق بين متوسطات اتجاهات طلاب الصف الأول الثانوي ومتوسطات اتجاهات الثالث فني.

جدول رقم /٥/.

الصف	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة	درجة الحرية
أول ثانوي	٣٦٠	٩١,٨	١٠,٩	١,٤١٨	١,٩٧	٠,٠٥	٤٩٨
ثالث ثانوي	١٤٠	٩٣,٧	٢٣,١		٢,٥٩	٠,٠١	

المقارنة بين اتجاهات عينة طلاب الأول الثانوي وعينة طلاب الثالث الثانوي فني على عبارات المقياس ككل.

بينت المقارنة الإحصائية في الجدول رقم /٥/ عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين اتجاهات طلاب الصف الأول الثانوي والثالث الثانوي عند مستوى الدلالة ٠,٠١ حيث بلغت قيمة ت المحسوبة ١,٤١٨ وبالمقارنة مع قيمة ت النظرية التي تساوي ٢,٥٥ عند مستوى دلالة ٠,٠١ ودرجة حرية ٤٩٨، نجد أن قيمة ت المحسوبة أصغر من قيمة ت النظرية والفروق بين المتوسطين غير دالة إحصائياً وبذلك نقبل الفرضية القائلة بعدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية.

وأما بالنسبة لجوانب المقياس الفرعية فقد جاءت على النحو التالي:

١ــ المقارنة بين اتجاهات طلاب الصف الأول الثانوي واتجاهات الثالث الثانوي فني على جانب أسلوب الاختيار الدراسي والمهني.

جدول رقم /٦/

المقارنة بين اتجاهات طلاب الصف الأول الثانوي واتجاهات طلاب الثالث الثانوي على جانب أسلوب الاختيار الدراسي والمهني.

الصف	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة	درجة الحرية
أول ثانوي	٣٦٠	١٣,٧٨	٠,٢٥	٥١,٨	١,٩٧	٠,٠٥	٤٩٨
ثالث ثانوي	١٤٠	١٥,٥٧	٠,٥٢		٢,٥٩	٠,٠١	

تبين المقارنة الإحصائية في الجدول رقم /٦/ أن قيمة ت المحسوبة تساوي (٥١,٨) وبالمقارنة مع قيمة ت النظرية والتي تساوي ١,٩٧ عند مستوى دلالة ٠,٠٥ و٢,٥٩

عند مستوى دلالة ٠,٠١ نجد أن قيمة ت المحسوبة أكبر من قيمة ت النظرية والفروق لها دلالة عند مستويي الدلالة ٠,٠٥ و٠,٠١.

٢ــ المقارنة بين اتجاهات طلاب الصف الأول الثانوي والثالث الثانوي على جانب المنهاج والإدارة.

جدول رقم /٧/

الصف	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة	درجة الحرية
أول ثانوي	٣٦٠	١٨,٥٤	١,٨٧	٠,٠٧٤	١,٩٧	٠,٠٥	٤٩٨
ثالث ثانوي	١٤٠	١٨,٥٦	٤,٢٩		٢,٥٩	٠,٠١	

تبين المقارنة الإحصائية في الجدول رقم /٧/ إلى عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين طلاب الأول الثانوي وطلاب الثالث الثانوي على هذا الجانب، حيث بلغت قيمة ت المحسوبة ٠,٠٧٤ وهي أصغر من قيمة ت النظرية عند كل من مستويي الدلالة ٠,٠٥ وكذلك ٠,٠١ والتي تساوي على التوالي ١,٩٧ و٢,٥٩ والفروق عند المستويين ليس له دلالة إحصائية.

٣ــ المقارنة بين اتجاهات طلاب الصف الأول الثانوي والثالث الثانوي الفني على جانب التأهيل والنظرة الاجتماعية.

الجدول رقم /٨/

الصف	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة	درجة الحرية
أول ثانوي	٣٦٠	٢١,٠٩	٢,٩٧	٢,٢٥٥	١,٩٧	٠,٠٥	٤٩٨
ثالث ثانوي	١٤٠	٢٢,٠٢	٦,١٩		٢,٥٩	٠,٠١	

المقارنة بين طلاب الأول الثانوي والثالث الثانوي على جانب التأهيل والنظرة الاجتماعية

٤ـ تشير المقارنة الإحصائية في الجدول رقم /٨/ إلى وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين طلاب الأول الثانوي وطلاب الثالث الثانوي عند مستوى دلالة ٠,٠١ حيث بلغت قيمة ت المحسوبة ٢,٢٥٥ وهي أقل من قيمة ت النظرية التي تساوي ٢,٥٩ مما يعني عدم وجود فروق عند ٠,٠٥ حيث قيمة ت النظرية عند هذا المستوى من الدلالة ١,٩٧ وهي أقل من قيمة ت المحسوبة وهذا يعني عدم وجود فروق عند هذا المستوى.

٥ـ المقارنة بين اتجاهات طلاب الصف الأول الثانوي والثالث الثانوي على الجانب النفسي.

الجدول رقم /٩/

المقارنة بين اتجاهات طلاب الصف الأول الثانوي والثالث ثانوي فني على الجانب النفسي.

الصف	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة	درجة الحرية
أول ثانوي	٣٦٠	٢٠,٨٤	١,٥٥	١٥,٤٦	١,٩٧	٠,٠٥	٤٩٨
ثالث ثانوي	١٤٠	٢٣,٨٣	٢,٤٩		٢,٥٩	٠,٠١	

دلت المقارنة بين الإحصائية في الجدول رقم /٩/ أن قيم ت المحسوبة والتي بلغت ١٥,٤٦ أكبر من قيمة ت النظرية عند مستوى الدلالة ٠,٠٥ والمساوية 1.97 ومستوى دلالة ٠,٠١ والتي تساوي ٢,٥٩ والفروق بين عينتي الطلاب فروق جوهرية ولها دلالة إحصائية. حيث أن اتجاه عينة طلاب الأول الثانوي أكثر سلبية.

٦ـ المقارنة بين اتجاهات طلاب الأول الثانوي والثالث ثانوي على جانب العلاقة مع الزملاء والمدرسين.

الجدول رقم /١٠/

المقارنة بين اتجاهات طلاب الأول الثانوي والثالث الثانوي على جانب العلاقة مع الزملاء والمدرسين.

الصف	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة	درجة الحرية
أول ثانوي	٣٦٠	١٧,٨٤	٢,٣٩	١٨,٨	١,٩٧	٠,٠٥	٤٩٨
ثالث ثانوي	١٤٠	١٣,٦٤	١,٧٩		٢,٥٩	٠,٠١	

توضح المقارنة الإحصائية في الجدول رقم /١٠/ وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين طلاب الأول الثانوي وطلاب الثالث الثانوي. حيث بلغت قيمة ت المحسوبة ١٨,٨ وهي أكبر من قيمة ت النظرية عند مستوى الدلالة ٠,٠١ والتي تساوي ٢,٥٩ وكذلك عند مستوى الدلالة ٠,٠٥ وبالتالي الفروق عند المستويين فروق جوهرية ولها دلالة إحصائية وتظهر أيضاً اتجاهات سلبية على هذا الجانب عند طلاب الأول الثانوي أكثر منها عند طلاب الثالث الثانوي.

ثانياً ـ الفرضية الثانية:

لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى دلالة ٠,٠١ ومستوى دلالة ٠,٠٥ بين عينة الطلاب وفق توزعهم على المحافظات على عبارات المقياس ككل وبالنسبة لكل جانب من جوانبه.

أولاً ـ المقارنة الإحصائية بين متوسط اتجاهات طلاب دمشق ذكور وإناث ومتوسط اتجاهات طلاب حماه ذكور وإناث على جوانب المقياس ككل.

الجدول رقم /١١/

المقارنة بين اتجاهات طلاب دمشق واتجاهات طلاب حماه على عبارات المقياس ككل.

المحافظة	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة	درجة الحرية
دمشق	٢٤٠	٩٦,٩٤	١٩,٦	٠,٩٦٨	١,٩٧	٠,٠٥	٢٥٨
حماه	١٢٠	٩٤,٨٥	١٩,٤٦		٢,٥٩	٠,٠١	

بينت المقارنة الإحصائية في الجدول رقم /١١/ بين متوسط اتجاه الطلاب في مدينة دمشق واتجاهات طلاب مدينة حماه عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين المتوسطين لأن قيمة ت المحسوبة كانت أصغر من قيمة ت النظرية عند مستويي الدلالة ٠,٠٥ و٠,٠١ وهذا يعني قبول فرضية العدم القائلة بعدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية. في حين أن المقارنة الإحصائية على جوانب المقياس الفرعي فقد بينت ما يلي:

أ ـ بالنسبة للجانب الأول المتعلق بالاختيار الدراسي والمهني بين المقارنة الإحصائية بين اتجاهات طلاب دمشق وطلاب حماه على وجود فرق ذو دلالة إحصائية لأنه عند مقارنة قيمة ت المحسوبة مع قيمة ت النظرية في الجدول رقم /١٢/ نلاحظ أن القيمة النظرية لـ ت أصغر من القيمة المحسوبة وهذا يعني وجود فروق جوهرية. وطلاب دمشق اتجاهاتهم أكثر سلبية.

الجدول رقم /١٢/

المقارنة بين اتجاهات طلاب دمشق واتجاهات طلاب حماه على جانب الاختيار والدراسة والمهن.

المحافظة	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة
دمشق	٢٤٠	١٥,٢٢	٠,٦٢	٤,٣	١,٩٧	٠,٠٥
حماه	١٢٠	١٤,٨٢	١,١٣٩		٢,٥٩	٠,٠١

٢ ـ الجانب المعرفي والاداري ـ المقارنة الإحصائية بين اتجاهات طلاب دمشق وحماه على هذا الجانب في الجدول رقم /١٣/ أظهرت أن قيمة ت المحسوبة البالغة ٠,٥٣ أصغر من قيمة ت النظرية عند مستوى الدلالة ٠,٠٥ و٠,٠١ وهذا يعني وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين القيمتين.

الجدول رقم /١٣/

المقارنة بين اتجاهات طلاب دمشق وحماه على الجانب المعرفي والإداري.

المحافظة	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة
دمشق	٢٤٠	١٩,١٨	٣,١٨	٠,٥٣	١,٩٧	٠,٠٥
حماه	١٢٠	١٩,٣٦	٣,٠٩		٢,٥٩	٠,٠١

٣ ـ جانب التأهيل للحياة والنظرة الاجتماعية. دلت المقارنة الإحصائية بين اتجاهات الطلاب على هذا الجانب كما هو مبين في الجدول رقم /١٤/ على عدم وجود فروق ذو دلالة إحصائية لأن ت المحسوبة كانت قيمتها أصغر من ت النظرية.

جدول رقم /١٤/

المقارنة بين اتجاهات طلاب دمشق وحماه على جانب التأهيل للحياة والنظرة الاجتماعية.

المحافظة	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة
دمشق	٢٤٠	٢٤,٥٤	٤,٠٨	١,٥٩١	١,٩٧	٠,٠٥
حماه	١٢٠	٢٣,٩٦	٥,٩		٢,٥٩	٠,٠١

٤ ـ الجانب النفسي ـ المقارنة الإحصائية على هذا الجانب بين متوسط اتجاهات طلاب دمشق ومتوسط اتجاهات طلاب حماه أظهرت بدونها عدم وجود فروق دالة إحصائياً نظراً لأن قيمة ت المحسوبة كما هو مبين في الجدول /١٥/ أصغر من قيمة ت النظرية عند مستويي الدلالة ٠,٠٥ و٠,٠١.

جدول رقم /١٥/

المقارنة بين اتجاهات طلاب دمشق وحماه على الجانب النفسي.

المحافظة	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة
دمشق	٢٤٠	٢٢,٧٤	١,٩	٠,٥٦	١,٩٧	٠,٠٥
حماه	١٢٠	٢٢,٦٢	١,٩٨		٢,٥٩	٠,٠١

٥ ــ الجانب الخامس العلاقة بين المدرسين والمدربين والزملاء. أشارت المقارنة الإحصائية في جدول رقم /١٦/ بين متوسط اتجاهات الطلاب في المدينتين دمشق وحماه على وجود فروق ذات دلالة إحصائية إذ أن قيمة ت المحسوبة بلغت ٣,٤٢٨ ولدى مقارنتها بقيمة ت النظرية المساوية ٢,٥٩ عند مستوى دلالة ٠,٠١ تبين أنها أكبر منها مما يعني وجود فروق وهي فروق جوهرية ولصالح طلاب دمشق أيضاً.

الجدول رقم /١٦/

المقارنة بين طلاب دمشق وطلاب حماه على جانب العلاقة مع المدرسين والمدربين والزملاء.

المحافظة	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة
دمشق	٢٤٠	١٦,٢٧	٤,٠٨	٣,٤٢٨	١,٩٧	٠,٠٥
حماه	١٤٠	١٤,٨٣	٢,٩٧		٢,٥٩	٠,٠١

ثانياً ــ المقارنة الإحصائية بين متوسط اتجاهات طلاب دمشق ذكوراً وإناثاً ومتوسط اتجاهات طلاب الحسكة ذكوراً وإناثاً على جوانب المقياس ككل.

الجدول رقم /١٧/

المقارنة الإحصائية بين طلاب دمشق وطلاب الحسكة على جوانب المقياس ككل.

المحافظة	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة	درجة الحرية
دمشق	٢٤٠	٩٦,٩٤	١٩,٦	٠,٥٥٥	١,٩٧	٠,٠٥	٣٧٨
حماه	١٤٠	٩٤,٨٥	١٧,٠٨		٢,٥٩	٠,٠١	

تبين المقارنة الإحصائية في الجدول رقم /١٧/ بين متوسط اتجاهات طـــلاب دمشـــق ومتوسط اتجاهات طلاب الحسكة على أن قيمة ت المحسوبة بلغت ٠,٥٥٥ في حيـــن أن قيمة ت النظرية ٢,٥٩ عند مستوى دلالة ٠,٠١ ولدى مقارنة القيمتيـــن تبيـن أن قيمة ت المحسوبة أصغر من قيمة ت النظرية مما يؤكد عــدم وجــود فــروق دالـــة إحصائياً. وهذا يعني قبول فرضية العدم.

غير أن المقارنة الإحصائية بين اتجاهات الطلاب في كل من دمشق والحســكة علـــى جوانب المقياس الفرعية فإنها جاءت على النحو التالي:

١ــ المقارنة الإحصائية على الجانب الأول ــ الاختيار الدراسي والمهني. وكما يبيـــن الجدول رقم /١٨/ تدل على وجود فــرق ذو دلالـــة إحصائيـــة بحيـــث أن قيمـــة ت المحسوبة أكبر من قيمة ت النظرية وهذا الفرق جوهري وهو لصالح طلاب دمشـــق الذين يظهرون من جديد اتجاهات أكثر سلبية من طلاب الحسكة.

الجدول الرقم /١٨/

المقارنة بين اتجاهات طلاب دمشق واتجاهات طلاب الحسكة على جانب الاختيار الدراسي والمهني.

	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة
طلاب دمشق	٢٤٠	١٥,٢٢	٠,٦٢	١١,٧٧٠	١,٩٧	٠,٠٥
طلاب حماه	١٤٠	١٤,٣٣	٠,٨٤		٢,٥٩	٠,٠١

٢ ــ في الجانب الثاني دلت المقارنة الإحصائية بين اتجاهات طلاب دمشق وطـــلاب الحسكة في الجدول رقم /١٩/ على الجانب المعرفـــي والإداري. علـــى أن قيمـــة ت المحسوبة جاءت أصغر من قيمة ت النظرية وهذا يعني عدم وجـــود فـــروق الدالـــة إحصائياً على هذا الجانب من بين الطلاب.

الجدول رقم /١٩/

المقارنة بين طلاب دمشق وطلاب الحسكة على الجانب المعرفي والإداري.

المحافظة	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة
دمشق	٢٤٠	١٩,١٨	٣,١٨	٠,٧١٧	١,٩٧	٠,٠٥
حماة	١٤٠	١٩,٤١	٢,٦٨		٢,٥٩	٠,٠١

٣ ـ أوضحت المقارنة الإحصائية بين اتجاهات الطلاب على جانب التأهيل للحياة والنظرة الاجتماعية في الجدول رقم /٢٠/ على وجود فروق ذو دلالة إحصائية وذلك لأن قيمة ت المحسوبة بلغت ٤,٣٥٠ في حين أن قيمة ت النظرية ٢,٥٩ ولدى مقارنة القيمتين يتبين ان قيمة ت المحسوبة أكبر من قيمة ت النظرية، أي وجود فروق جوهرية بين المتوسطين لصالح طلاب دمشق الذين كانوا أكثر سلبية في اتجاهاتهم على هذا الجانب من طلاب الحسكة.

الجدول رقم /٢٠/

المقارنة بين اتجاهات الطلاب في دمشق والحسكة على جانب التأهيل للحياة والنظرة الاجتماعية.

المحافظة	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة
دمشق	٢٤٠	٢٤,٥٤	٤,٠٨	٤,٣٥٠	١,٩٧	٠,٠٥
حماة	١٤٠	٢٢,٥٩	٤,٤١		٢,٥٩	٠.٠١

٤ ـ بالنسبة للجانب النفسي أوضحت المقارنة الإحصائية في الجدول /٢١/ بين متوسط اتجاهات الطلاب في كل من دمشق والحسكة على وجود فرق ذو دلالة إحصائية عند مستوى دلالة ٠,٠٥ لأن قيمة ت المحسوبة بلغت ٢,٥٤٧ وهي أكبر من قيمة ت النظرية المساوية ١,٩٧ عند هذا المستوى من الدلالة. غير أن هذه الفروق تزول عند مقارنة قيمة ت المحسوبة مع قيمة ت النظرية عند مستوى دلالة ٠,٠١

والبالغة ٢,٥٩ حيث تظهر قيمة ت النظرية هنا على أنها أكبر من قيمة ت المحسوبة وهذا يشير إلى عدم وجود فروق دالة إحصائياً.

جدول رقم/٢١/

بين طلاب دمشق وطلاب الحسكة على الجانب النفسي.

المحافظة	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة
دمشق	٢٤٠	٢٢,٧٤	١,٩	٢,٥٧٤	١,٩٧	٠,٠٥
حماة	١٤٠	٢٢,٠٣	٣,٤٦		٢,٥٩	٠,٠١

٥ ــ أم الجانب الأخير العلاقة مع المدرسين والمدربين والزملاء. فإن المقارنة الإحصائية في الجدول رقم /٢٢/ بين متوسطات اتجاهات الطلاب تدل على عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية نظرا لأن قيمة ت المحسوبة كانت أصغر من قيمة ت النظرية عند مستويي الدلالة ٠,٠٥ و ٠,٠١.

الجدول رقم /٢٢/

المقارنة بين اتجاهات الطلاب في دمشق والحسكة على جانب العلاقة مع المدرسين والمدربين والزملاء.

المحافظة	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة
دمشق	٢٤٠	١٦,٢٧	٤,٠٨	١,٧٥٣	١,٩٧	٠,٠٥
حماة	١٤٠	١٦,٩٧	٣,٢١		٢,٥٩	٠,٠١

ثالثا: المقارنة الإحصائية بين متوسط اتجاهات طلاب الحسكة ذكورا وإناثا ومتوسط اتجاهات طلاب حماة ذكورا وإناثا على جوانب المقياس ككل.

الجدول رقم /٢٣/

المقارنة بين اتجاهات الطلاب في دمشق والحسكة على عبارات المقياس ككل.

المحافظة	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة
دمشق	١٤٠	٩٥,٨٥	١٧,٠٨	٠,٤٤٠	١,٩٧	٠,٠٥
حماة	١٢٠	٩٤,٨٥	١٩,٤٦		٢,٥٩	٠,٠١

دلت المقارنة الإحصائية في الجدول رقم /٢٣/ بين متوسط اتجاهات طلاب الحسكة ومتوسط اتجاهات طلاب حماة على عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية لأن قيمة ت المحسوبة بلغت ٠,٤٤٠ وهي أصغر من قيمة ت النظرية عند مستويي الدلالة ٠,٠٥ و ٠,٠١ والمساوية ١.٩٧ و ٢,٥٩. وهذا يعني قبول فرضية العدم القائلة بعدم وجود فروق دالة إحصائياً. غير أن المقارنة الإحصائية على الجوانب الفرعية للمقاس قد أوضحت مايلي:

١ ــ المقارنة بين متوسط اتجاهات طلاب الحسكة وطلاب حماة على جانب الاختيار الدراسي والمهني.

جدول رقم /٢٤/

المقارنة بين اتجاهات طلاب الحسكة وطلاب حماة على جانب الاختيار الدراسي والمهني.

المحافظة	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة
دمشق	١٤٠	١٤,٣٣	٠,٨٤	٣,٩٦	١,٩٧	٠,٠٥
حماة	١٢٠	١٤,٨٢	١,١٣٩		٢,٥٩	٠,٠١

أوضحت المقارنة الإحصائية في الجدول /٢٤/ على أن قيمة ت المحسوبة بلغت ٣,٩٦ وبالمقارنة مع قيمة ت النظرية عند مستوى دلالة ٠,٠١ تساوي ٢,٥٩ تبين أن

القيمة المحسوبة أكبر من القيمة النظرية مما يشير إلى وجود فرق ذو دلالة إحصائيـــة بين المتوسطين لصالح طلاب حماة.

١ ــ المقارنة بين متوسط اتجاهات طلاب الحسكة وطلاب حماة على الجانب المعرفي والإداري.

الجدول رقم /٢٥/

المقارنة بين اتجاهات طلاب الحسكة وطلاب حماة على الجانب المعرفي والإداري.

المحافظة	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة
دمشق	١٤٠	١٩,٤١	٢,٦٨	٠,١٣٩	١,٩٧	٠,٠٥
حماة	١٢٠	١٩,٣٦	٣,٠٩		٢,٥٩	٠,٠١

٣ ــ المقارنة بين اتجاهات طلاب الحسكة واتجاهات طلاب حماة على جانب التــأهيل للحياة والنظرة الاجتماعية.

الجدول رقم /٢٦/

المقارنة بين طلاب الحسكة وطلاب حماة على جانب التأهيل للحياة والنظرة الاجتماعية.

المحافظة	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة	درجة الحرية
دمشق	١٤٠	٢٢,٥٩	٤,٤١	١,٦٩٤	١,٩٧	٠,٠٥	٢,٨٥
حماة	١٢٠	٢٢,٦٢	١,٩٨		٢,٥٩	٠,٠١	

المقارنة بين اتجاهات طلاب الحسكة ومتوسط اتجاهات ىحماة فـــي الجـــدول /٢٦/ تشير إلى أن قيمة ت المحسوبة بلغت ١,٦٩٤ في حين أن قيمة ت النظرية ٢,٥٩ عند مستوى الدلالة ٠,٠١ ولدى مقارنة القيمتين يتبين أن القيمة المحسوبة أصغر من القيمة النظرية مما يعني عدم وجود فرق ذو دلالة إحصائية بين المتوسطين.

٤ ـ المقارنة بين اتجاهات طلاب الحسكة وطلاب حماة على الجانب النفسي.

جدول رقم /٢٧/

المقارنة بين اتجاهات طلاب الحسكة وطلاب حماة.

المحافظة	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة
دمشق	١٤٠	٢٢,٠٣	٣,٤٦	١,٦٤٤	١,٩٧	٠,٠٥
حماة	١٢٠	٢٢,٦٢	١,٩٨		٢,٥٩	٠,٠١

توضح المقارنة الإحصائية في الجدول /٢٧/ عدم وجود فرق ودلالـــة إحصائيـــة لأن قيمة ت المحسوبة أصغر من قيمة ت النظرية عند مستويي الدلالة ٠,٠٥ و ٠,٠١.

٥ ـ المقارنة بين اتجاهات طلاب الحسكة وطلاب حماة على جانب العلاقـــات مـــع المدرس والمدرب والزملاء.

جدول رقم /٢٨/

المحافظة	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة
دمشق	١٤٠	١٦,٩٧	٣.٢١	٥,٥٢٦	١,٩٧	٠,٠٥
حماة	١٢٠	١٤,٨٣	٢,٩٧		٢,٥٩	٠,٠١

دلت المقارنة الإحصائية في الجدول /٢٨/ على وجود فرق ذي دلالة إحصائية حيـــث جاءت قيمة ت المحسوبة ٥,٥٦٢ وهي أكبر من قيمة ت النظرية المساوية ٢,٥٩ عند مستوى دلالة ٠,٠١ مما يعني وجود فروق جوهرية بين المتوسطين.

ثالثاً ـ الفرضية الثالثة:

لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسط اتجاهات الطلاب وبين متوسط اتجاهات المدرسين على عبارات المقياس ككل وبالنسبة إلى جانب من جوانبه.

الجدول رقم /٢٩/

المقارنة بين الطلاب والمدرسين على عبارات المقياس ككل.

	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة	درجة الحرية
مدرسين	٦٠	٦١,٠٦	١٧,٧٤	١٦,٨٧	١,٩٧	٠,٠٥	٥٥٨
طلاب	٥٠٠	٩٢,٧٩	١٣,١٨		٢,٥٩	٠,٠١	

تبين نتائج المقارنة الإحصائية في الجدول رقم /٢٩/ وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى دلالة ٠,٠١ والبالغة قيمتها ٢,٥٩ ومستوى دلالة ٠,٠٥ وقيمتها ١,٩٧ وعند مقارنة قيمتي ت النظرية عند مستوى الدلالة ٠,٠١ و ٠,٠٥ مع قيمة ت المحسوبة نلاحظ أن قيمة ت المحسوبة بلغت /١٦,٨٧/ و٥٨٥ أكبر من قيمتي ت النظرية وبالتالي فالفروق بين القيمتين المحسوبة والنظرية فروق جوهرية، بحيث يظهر المدرسون اتجاهات أكثر إيجابية بالنسبة للمقياس ككل من الطلاب.

وأما المقارنة بين اتجاهات الطلاب واتجاهات المدرسين على جوانب المقياس الفرعية فقد جاءت على النحو التالي:

١ ــ المقارنة بين اتجاهات المدرسين واتجاهات الطلاب على جانب أسلوب الاختيار الدراسي والمهني.

الجدول رقم /٣٠/

مقارنة بين اتجاهات المدرسين واتجاهات الطلاب على جانب أسلوب الاختيار الدراسي والمهني.

	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة	درجة الحرية
مدرسين	٦٠	١٤,٥٣	٢,١٨	١,٧٥٦	١,٩٧	٠,٠٥	٥٥٨
طلاب	٥٠٠	١٤,٣٤	٠,٣٦		٢,٥٩	٠,٠١	

دلت نتائج المقارنة الإحصائية في الجدول /٣٠/ عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى دلالة ٠,٠١ حيث بلغت قيمة ت النظرية ٢,٥٩ وعند مستوى دلالة ٠,٠٥ حيث بلغت قيمة ت ١,٩٧ ولدى مقارنة هاتين القيمتين مع قيمة ت المحسوبة والبالغة ١,٧٥٦ تبين لنا أنها أصغر من القيمتين النظريتين وبالتالي فإن الفروق بين القيمتين النظرية والمحسوبة فروق غير دالة إحصائياً.

٢ ـ المقارنة بين اتجاهات المدرسين واتجاهات الطلاب على جانب المنهاج والإدارة.

الجدول رقم /٣١/

المقارنة بين اتجاهات المدرسين واتجاهات الطلاب على جانب المنهاج والإدارة.

	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة	درجة الحرية
مدرسين	٦٠	٢٠,٢٥	٥,٢١	٤,٤٣١	١,٩٧	٠,٠٥	٥٥٨
طلاب	٥٠٠	١٨,٥٧	٢,٣١		٢,٥٩	٠,٠١	

تشير المقارنة الإحصائية في الجدول رقم /٣١/ على وجود فرق ذو دلالة إحصائية بين اتجاهات المدرسين واتجاهات الطلاب عند مستويي الدلالة ٠,٠١ و ٠,٠٥ حيث بلغت قيمة ت المحسوبة ٤,٤٣١ ولدى مقارنتها مع قيمة ت النظرية ٢,٥٩ عند مستوى دلالة ٠,٠١ و ١,٩٧ عند مستوى دلالة ٠,٠٥ نجد أن قيمة ت المحسوبة أكبر

من قيمة ت النظرية والفرق هنا دال إحصائيا لصالح المدرسين ويعني وجود اتجاهات أكثر إيجابية لديهم على هذا الجانب.

٣ ــ المقارنة الإحصائية بين اتجاهات المدرسين واتجاهات الطلاب على جانب التأهيل والنظرة الاجتماعية.

الجدول رقم /٣٢/

المقارنة بين اتجاهات المدرسين واتجاهات الطلاب على جانب التأهيل والنظرة الاجتماعية.

	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة	درجة الحرية
مدرسين	٦٠	١٥,٢٧	٣,٣١	٥,٤٨	١,٩٧	٠,٠٥	٥٥٨
طلاب	٥٠٠	٢١,٤٥	٣,٨١		٢,٥٩	٠,٠١	

تبين المقارنة الإحصائية في الجدول رقم /٣٢/ وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسط اتجاه المدرسين ومتوسط اتجاه الطلاب حيث بلغت قيمة ت المحسوبة ٥,٤٨ ولدى مقارنتها مع قيمة ت النظرية عند مستوى الدلالة ٠,٠١ والتي تساوي ٢,٥٩ نرى أنها أكبر منها وبالتالي فهذا يعني وجود فروق دالة إحصائيا.

٤ ــ تبين نتائج المقارنة الإحصائية في الجدول رقم /٣٢/ على وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسط اتجاه المدرسين ومتوسط اتجاه الطلاب. حيث بلغت قيمة ت المحسوبة ١٩,٥٥ وهي أكبر من قيمة ت النظرية البالغة ٢,٥٩ عند مستوى دلالة ٠,٠١ مما يعني وجود فروق جوهرية في هذا الجانب.

الجدول رقم /٣٣/

المقارنة بين اتجاهات المدرسين واتجاهات الطلاب على جانب علاقات المدرسين والمدربين.

	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة	درجة الحرية
مدرسين	٦٠	١٠,٦٧	١,٨٤	١٩,٥٥	١,٩٧	٠,٠٥	٥٥٨
طلاب	٥٠٠	١٦,٩	٢,٣٨		٢,٥٩	٠,٠١	

رابعاً ـ الفرضية الرابعة:

نصت الفرضية الرابعة على أنه لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسط اتجاهات الأهل ومتوسط اتجاهات الطلاب على عبارات المقياس ككل وبالنسبة إلى جانب من جوانبه.

الجدول رقم /٣٤/

المقارنة بين اتجاهات الأهل واتجاهات الطلاب على عبارات المقياس ككل.

	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة	درجة الحرية
الأهل	١٢٠	٦٧,٦٨	١٣,٥٧	١٨,٦	١,٩٧	٠,٠٥	٦١٨
الطلاب	٥٠٠	٩٢,٩٧	١٣,١٨		٢,٥٩	٠,٠١	

دلت نتائج المقارنة الإحصائية بين متوسط اتجاه الأهل ومتوسط اتجاه الطلاب على وجود فروق ذات دلالة إحصائية حيث بلغت قيمة ت المحسوبة ١٨,٦ ولدى مقارنتها مع قيمة ت النظرية البالغة ٢,٥٩ عند مستوى دلالة ٠,٠١ و ١,٩٧ عند مستوى دلالة ٠,٠٥ ودرجة حرية ٦١٨ نلاحظ أن القيمة المحسوبة أكبر من القيمة النظرية لـ ت وهذا يعني وجود فروق جوهرية لصالح الطلاب مما يعني رفض الفرضية القائلة بعدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية.

وأما المقارنة بين اتجاهات الأهل واتجاهات الطلاب على الجوانب الفرعية للمقياس فقد جاءت على النحو التالي:

١ ـ المقارنة بين اتجاهات الأهل واتجاهات الطلاب على جانب الاختيار الدراسي والمهني.

تبين المقارنة الإحصائية في الجدول رقم /٣٥/ على أن قيمة ت المحسوبة بلغت ٩٣,٩٧ وهي قيمة كبيرة مقارنة مع قيمة ت النظرية ٢,٥٩ عند مستوى الدلالة ٠,٠١ وهذا يدل على وجود فروق جوهرية.

الجدول رقم /٣٥/

المقارنة بين اتجاهات الأهل واتجاهات الطلاب نحو إسلوب الاختيار الدراسي والمهني.

	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة	درجة الحرية
الأهل	١٢٠	٢٨,٢١	٣,٢١	٩٣,٩٧	١,٩٧	٠,٠٥	٦١٨
الطلاب	٥٠٠	١٤,٣٤	٠,٣٦		٢,٥٩	٠,٠١	

٢ ـ المقارنة بين اتجاهات الأهل واتجاهات الطلاب على جانب المنهاج والإدارة.

تشير المقارنة الإحصائية بين متوسطات اتجاهات الأهل والطلاب على أن قيمة ت المحسوبة بلغت على هذا الجانب ١٩,٥٣ في حين نلاحظ أن قيمة ت النظرية ٢,٥٩ عند مستوى دلالة ٠,٠١ و ١,٩٧ عند مستوى دلالة ٠,٠٥ ولدى مقارنة القيمة النظرية لـ ت عند مستوى الدلالة مع القيمة المحسوبة نرى أن القيمة المحسوبة أكبر من القيمة النظرية مما يعني وجود فروق بين القيمتين وهذه الفروق دالة إحصائيا وهي جوهرية.

الجدول رقم /٣٦/

المقارنة بين اتجاهات الأهل واتجاهات الطلاب على جانب المنهاج والإدارة.

	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة	درجة الحرية
الأهل	١٢٠	١٣,٩٣	٢,٤٣	١٩,٥٣	١,٩٧	٠,٠٥	٦١٨
الطلاب	٥٠٠	١٨,٥٧	٢,٣١		٢,٥٩	٠,٠١	

٣ ــ المقارنة بين اتجاهات الأهل واتجاهات على جانب التأهيل ونظرة المجتمع.

الجدول رقم /٣٧/

	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة	درجة الحرية
الأهل	١٢٠	٦٧,٦٨	١٣,٥٧	١٨,٦	١,٩٧	٠,٠٥	٦١٨
الطلاب	٥٠٠	٩٢,٩٧	١٣,١٨		٢,٥٩	٠,٠١	

أوضحت المقارنة الإحصائية بين اتجاهات الأهل واتجاهات الطلاب وجود فروق دالة إحصائيا حيث بلغت قيمة ت المحسوبة ١٤,٨٧ وهي أكبر من قيمة ت النظرية التي تساوي ٢,٥٩ عند مستوى دلالة ٠,٠١ مما يشير إلى وجود فرق جوهري ولصالح الطلاب الذين يعتبرون أكثر سلبية في اتجاهاتهم من الأهل على هذا الجانب مما يعني رفض فرضية العدم.

٤ ــ المقارنة بين اتجاهات الأهل واتجاهات الطلاب على جانب العلاقة بين المدرسين والمدربين.

الجدول رقم /٣٨/

	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	ت المحسوبة	ت النظرية	مستوى الدلالة	درجة الحرية
الأهل	١٢٠	٨,٩	١,٢٤	٣٥,٦٢	١,٩٧	٠,٠٥	٦١٨
الطلاب	٥٠٠	١٦,٩	٢,٣٨		٢,٥٩	٠,٠١	

معالجة نقدية لبعض المشكلات التي أثارها البحث

١ ــ إن طريقة الاختيار الدراسي والمهني المتبعة والتي تتفق مع ما أسماه /جان دريفيون../ بالتوجيه الإلزامي الذي نأبى القبول به اليوم على الرغم من المبررات والمسوغات التي نضعها في مؤسساتنا التعليمية ومصانعنا لهذا النوع من التوجيه (١٩-١٩٧٣ ص٦٤) هذه الطريقة التي تقوم على توجيه الطلاب نحو الفروع الدراسية المختلفة على أساس الدرجات التي حصلها الطلاب بنتيجة الامتحانات النهائية للمرحلة الإعدادية ودون مراعاة لميولهم واهتماماتهم على الرغم من أنها ــ أي الميول والاهتمامات تعتبر من الأسس النفسية للنجاح المدرسي ــ (٢٠-١٩٨٧ ص٣٥). ودون تقص فعلي للاستعدادات والقدرات العقلية التي يمتلكها الطلاب، ومع أن المتفوق تحصيلا هو /الذي يرتفع في إنجازه أو تحصيله الدراسي بمقدار ملحوظ عن الأكثرية أو المتوسطين من أقرانه/ (٢١-١٩٩٣-١٩٩٤ ص٩) إلا أن هذا التفوق يرتبط بمجموعة من العوامل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتربوية والموقفية أيضا. حيث أن المتفوق تحصيليا لا يعني أنه متفوق ذكاءا والمتوسط تحصيليا لا يعني بالمطلق أنه أقل مستوى من حيث القدرة الذكائية العامة أو من حيث امتلاك الاستعدادات الخاصة من المتفوقين تحصيليا وهناك بعض الأفراد من ذوي الذكاء المرتفع ولكنهم عاديون في تحصيلهم. لم تؤكد الدراسات وجود علاقة دالة بين درجات الطلاب في اختبار القدرات العقلية (٢-١٩٧٢ ص٧٤٦)، ولكن ما تتفق عليه معظم

الدراسات هو أن النجاح في الدراسات الأكاديمية يرتبط بالقدرات العقلية، فـــالتحصيل إذا ليس هو المقياس الوحيد الذي يعتمد لأنه لا يغني عن أدوات الكشف عـــن الذكـــاء وعن القدرات الخاصة، فوسائل القياس هذه تساعد المختصين لتوجيـــه الأفـــراد نحـــو الدراسات والمهن التي تناسب الاستعدادات التي يمتلكونـــــها وتنســـجم مـــع ميولـــهم واهتماماتهم دون هدر لهذه الاستعدادات وبعيدا عن تجاهل الميول والاهتمامات، ولقـــد كشفت نتائج هذا البحث أن الطريقة المتبعة في الاختيار الدراسي والمهني والمعتمـــــدة نتائج التحصيل تساهم في تكوين فكرة سلبية عن الذات وتعزز مفـــــهوم الفشـــل عنـــد الطلاب غير المقبولين في التعليم العام على أساس من الدونية.

وهذا ما يدفع الطالب لاحقا لوضع المبررات والمسوغات لعدم التزامـــــه وانضباطـــه وعدم قناعته في هذا الاختيار الدراسي مما يساعد على تكوين مـــــا يســـمى /بـــالعزو السلبي/ وهي نظرية كان قد طورها /هيدر/ في مجال علم النفس لتفسير العلاق بيـــن سلوك الفرد وما يعزوه من أسباب لهذا السلوك كما يدركها الفرد نفســـــه (٢٣-١٩٨٨ ص٥)، والذي يؤدي إلى الحديث عما يسميه /بارسونز/ (بعملية الوصم الاجتمـــاعي). الذي يفسره (لويل مالوكس ١٩٧١، .Noel. Mailloux)بتمـــاهي الفـــرد بـــالصورة السيئة التي يكونها الآخرون ــ الأسرة والمجتمع ــ فالطالب في هذه المـــدارس، قـــد تصدر عنه في بعض الأحيان بعض الأنماط السلوكية غير السوية (كما هـــو الحـــال بالنسبة لبعض الطلاب في المدارس العامة) كالهرب والتغيب والشجار مـــع الزمـــلاء وعدم القيام بالواجبات المدرسية ....الخ، ولكن هنا بالنسبة لسلوك الطالب في المدرسة الفنية فيستجيب له المدرسون والأهل بأن نعتوه بالمشاغب والمقصر والفاشـــل وهـــذا النعت يدعم تصرفاته مما يؤدي إلى تدعيم رأي المدرسين والأهل به، وفـــي مرحلـــة لاحقة يصبح الطالب مجبرا على التصرف وفقا لتلك الصورة التي كونها المحيط عنـــه، طالما أ ن الآخرين لا يتوقعون منه شيئا، ولطالما هو فاشل في نظرهم، فلماذا لا يكون على هذه الصورة الحقيقية؟ أي أن الطالب الذي ينطلق من فكرة سلبية عن ذاتـــه فـــي

سياق علاقته مع الآخرين، لكونه لا يمتلك القدرات التي يمتلكها أقرانه، فإن الذين يتابعون في هذه الفروع الدراسية هم من ذوي القدرات المتدنية ونظرة الآخرين لهم هي غالبا نظرة دونية، إذن فمن غير المنتظر منهم تحقيق نتائج متميزة كونها تخالف التوقعات.

إن مثل هذه النتائج التي يمكن أن تقود إليها عملية الاختيار الدراسي والمهني في واقعها الراهن تدفعنا للتأكيد على أهمية التوجيه المهني في المدرسة الإعدادية وضرورة تطبيق برامج توجيه تستخدم أدوات علمية لمعرفة ميول الطلاب واهتماماتهم ورغباتهم والكشف عن إمكاناتهم وقدراتهم، والعمل على تنميتها بمساعدتهم باختيار الفروع الدراسية التي تتفق وقدراتهم والتي يرغبون فيها دون شعور بالنقص أو الدونية.

٢ ــ المسألة الثانية التي أثارتها نتائج الدراسة تبرز أهمية الإرشاد النفسي والمدرسي والمهني في هذه المرحلة، حيث أن العدد الكبير للاختصاصات المهنية الموجودة يستلزم تقديم معلومات عن طبيعتها وعن القدرات المطلوبة فيها، وأيضا عن آفاقها المستقبلية كما أن برامج الإرشاد النفسي المهني تساعد الطالب على معرفة نفسه معرفة حقيقية من خلال وسائل قياس القدرات وبالتالي مساعدته على تقبل ذاته على ما هي عليه لأن هذا هو الأساس في انطلاق الفرد لتحقيق ذاته وتقديرها وبالتالي العمل على تنمية قدراته وتطويرها وتحقيق تكيفه وتلاؤمه، وبذلك تكون عملية التوجيه المتضمنة في برامجه عملية تعليمية ويكون التوجيه وفقا لذلك سواء في جانبه النمائي أو الوقائي هادفا إلى التأثير على مخزون الطالب المعرفي والسلوكي ليصبح أكثر فهما لذاته وللعالم المحيط به كما يكون في جانبه العلاجي هادفا إلى إحداث تعديلات في تصرفات الطالب وقواعده المعرفية ليصبح أكثر رضا وإنتاجا وفهما لذاته وللعالم (١٢ ــ ١٩٩٧ ص٩). وهذا يبرز من ناحية أخرى وبشكل واضح وجلي أهمية دور الأخصائي النفسي المدرسي وتنوع مهامه، سواء الإنمائية في تدعيم رعاية النمو

السوي أم الوقائية في مساعدة الطلاب على تجنب المشكلات السلوكية والانحرافية وأيضا العلاجية (٢٥ ــ ١٩٩٧ ص٦).

٣ــ إن عدم إتاحة الفرص بشكل واسع ولا سيما لمتابعة الدراسة الجامعية والتأهيل غير المرضي للحياة المستقبلية وعدم إمكانية إبراز الدور الفعال لهذا النوع من التعليم في التنمية الاجتماعية والاقتصادية من المسائل التي أبرزتها نتائج البحث والتي تقتضي التصدي لها بكل جرأة ومنطقية والجرأة هنل تتمثل في الذهاب بعيدا في التعليم الفني والمهني ليصبح هو القاعدة والأساس في الدخول إلى الجامعات. باختصاصاتها المتعددة انطلاقا من إعادة النظر في طبيعة الامتحانات والاختبارات التحصيلية وطريقة القبول الجامعي وإيجاد نوع من الحركة الديناميكية التي تتيح الانتقال من اختصاص إلى آخر في مرحلة ما قبل الجامعة، والمنطقية تتمثل بإتاحة عدد كبير من الفرص لنتمكن عند ذلك من الحديث عن توجيه حر وواع للطالب لنوع دراسته ومهنته التي سيمارسها في المستقبل.

٤ ــ تعزيز دور الإدارة وتدعيم فعاليتها في علاقتها مع طلابها معرفيا ووجدانيا واجتماعيا، بحيث تصبح من عوامل الجذب المساعدة على تكوين اتجاهات إيجابية نحو هذا النوع من التعليم سواء بالنسبة للطلاب أم بالنسبة للأهل وذلك بمتابعة الطلاب وتلبية احتياجاتهم ومتطلباتهم العلمية والاجتماعية والوجدانية وتفعيل الأنشطة الصفية وغير الصفية وتنويعها بما يساهم في خلق جو من الثقة والاحترام، يكون المدرس والمدرب معا الحجر الأساس في بنائه وتشييده من خلال ما يقدمانه للطالب من مساعدة ورعاية وتفهم وأيضا باحترامهم للقوانين والنظم التي تحكم العلاقات وتضبطها وبتفانيهم أمام واجباتهم بتحملهم للمسؤولية بكل ثقة وإخلاص.

المراجع

١. الخطيب سليمان. الاتجاهات الحديثة في مناهج التعليم الأساسي ١٩٩٠ مجلة المعلم العربي. السنة الرابعة والأربعون.

٢. الكناني ممدوح عبد لمنعم وآخرون. الأسس النفسية للابتكار والتفوق العقلي ــ دار الترجمة الكويت الطبعة الأولى ١٩٩٥.

٣. أبو حطب فؤاد. القدرات العقلية ١٩٨٦ مكتبة الأنجلو المصرية.

٤. زهران حامد. الإرشاد النفسي منشورات جامعة دمشق ١٩٨٥ ــ ١٩٨٦.

٥. مرسي سعيد عبد الحميد. الإرشاد النفسي والتوجيه التربوي والمهني. مكتبة الخانجي بمصر ١٩٩٢.

٦. سعد علي ــ نعامة سليم. الشخصية السوية مكتبة ١٩٩٣.

٧. عبد الحميد إبراهيم شوقي وآخرون. علم النفس ومشكلات الصناعة دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ١٩٩٦.

٨. خطاب خالد. تعزيز إقبال الفتيات على التعليم التقني ولمهني وسوق العمل من خلال التربية المهنية في مرحلة التعليم الأساسي. دراسة مقدمة إلى الندوة العربية حول المرأة والتعليم التقني ولمهني وسوق العمل ١٩٩٥.

٩. SCHIOPU, U-VERZA, E. Psihogia VIRS Tilor, 1995 Bucursti.

١٠. عبد الدايم عبد الله. الثورة التكنولوجية في التربية العربية دار العلم للملايين ١٩٧٨.

١١. ندوة تنويع التعليم القانوني في قطر والاقتراح البديل. مجلة التربية ـ العدد ـ ١٩٩٥.

١٢. OZUNU, DUMITRU. Formara. Tehnice atelierele scolare Ediutura Dacia. 1989

١٣. صالح غسان. محاضرة ألقيت في سمنار ـ علم النفس والصحة النفسية ١٩٩٥، غير منشورة.

١٤. سعد علي. صالح غسان. اتجاهات طلاب الجامعة نحو ظاهرة الغش الامتحاني. بحث مقدم إلى مجلة جامعة دمشق ١٩٩٧.

١٥. الشيخ عمر، مجلة العلوم الاجتماعية المجلد ١٤، العدد الثاني ـ ١٩٨٦.

١٦. علي. بشرى. اتجاهات الشباب الجامعي نحو عمل المرأة ـ رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في كلية التربية ١٩٩٣.

١٧. النجيبي محمد لبيب وزميله ـ البحث التربوي أصوله ومناهجه، عالم الكتب القاهرة ـ ١٩٨٣.

١٨. ميخائيل مطانيوس ـ القياس والتقويم في التربية الحديثة جامعة دمشق ـ ١٩٩٧.

١٩. JEAN, DREVILLON. Orientarea Scolara si profesionalastra. 1973. E D.

٢٠. TIBERIU, KULESAR, factorii psihologici P. BUCURESTI. ai reusitei scolare E. D. P. BUCURESTI-1987

٢١. زحلوق مها. التربية الخاصة للمتفوقين ـ منشورات جامعة دمشق ١٩٩٤.

٢٢. صالح أحمد زكي. علم النفس التربوي ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٢.

٢٣. نشواني عبد المجيد. أثر التحصيل والجنس ومفهوم الذات في إدراك عوامل النجاح والفشل المدرسي لدى طلبة الصف الثاني الثانوي ـ مجلة العلوم الاجتماعية عدد خاص ١٩٨٨.

٢٤. زهران حامد، زهران سناء، إعداد الأخصائي النفسي المدرسي في كليات التربية ودوره في تحسين العملية التربوية. بحث مقدم إلى المؤتمر التربوي في جامعة دمشق ١٩٩٧.

٢٥. حمدي نزيه. الريحان سليمان. دور كليات التربية في تطوير الإرشاد النفسي والتربوي بحث مقدم إلى المؤتمر التربوي في جامعة دمشق ١٩٩٧.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق ١٩٩٧/٨/٢٨

نظرية التنمية والتحديث: تحليل نقدي في ضوء خبرة المجتمع العربي

د. مجد الدين خيري
قسم علم الاجتماع ـ كلية الآداب
الجامعة الأردنية

ملخص

يهدف هذا البحث إلى تقييم المقولات الأساسية لنظريات التنمية الرئيسية في ضوء خبرة المجتمع العربي، وهذه النظريات هي: نظرية التحديث، ونظرية التبعية، ونظرية النظام العالمي الحديث، من خلال مراجعة لأهم أعلام هذه النظريات وكتاباتهم، وبخاصة أولئك الذين أجروا دراسات على المجتمع العربي.

وتوضح الأدلة التي يقدمها هذا البحث أن نظرية التحديث تعالج التنمية في المجتمعات العربية على أنها عملية داخلية بحتة تتم بمعزل عن الإطار المجتمعي الدولي على الرغم من أهمية الدور الذي يؤديه هذا الإطار في التأثير على التنمية في المجتمعات العربية.وتوضح الأدلة أن هذه النظرية ـ في تأكيدها أن المجتمعات العربية تتجه نحو صورة مشابهة للمجتمع الغربي الرأسمالي الحديث ـ تهمل الخصوصة البنائية والثقافية لهذه المجتمعات العربية.

وفيما يتعلق بنظرية التبعية فعلى الرغم من دورها في معارضة نظرية التحديث، وتقويض مقولاتها إلا أنها لم تنجح تماماً في تفسير التخلف، أو عدم النمو، في البلدان العربية، ولم تنجح تماماً أيضاً في اقتراح آليات فعالة لتقليل التبعية، أو التخلص منها.

أم بالنسبة لنظرية النظام العالمي الحديث فيوضح تحليلنا أنه بسبب تركيزها على العامل الاقتصادي بوصفه معياراً لتقسيم الدول طبقياً داخل هذا النظام، وأداة لضم الدول لهذا النظام، أهملت العامل السياسي ودوره المتميز الذي يضطلع به في المجتمعات العربية بشكل عام.

ويؤمل أن تؤدي مثل هذه الأدلة إلى محاولة تعديل مقولات نظريات التنمية في ضوء خبرة المجتمع العربي.

مقدمة

توضح مراجعة الأدبيات حول التنمية أن مفهوم التنمية الذي تبناه الفكر الغربي والذي طورت مقاييس التنمية الكمية في ضوئه يركز على تحقيق نمو مستمر في الناتج القومي الإجمالي (GNP)، وما ينتج عنه في تحقيق نمو مستمر في دخل الفرد الإجمالي (GNP/Capita)، وما يؤدي إليه ذلك من تحسن في ظروف المعيشة للمواطنين في البلدان غير الغربية[١] التي عرفت بالبلدان النامية، وبلدان العالم الثالث،وحديثاً ببلدان الجنوب.

واختلط مفهوم التنمية هذا بمفهوم النمو الاقتصادي في كتابات عديدة من المفكرين الغربيين، كما اختلط بمفهوم التحديث، أو التغريب بحيث استخدمت هذه المفاهيم جميعها للإشارة إلى الظاهرة نفسها رغم الاختلافات الجوهرية بينها في عديد من الكتابات[٢].

استخدم مفهوم التنمية هذا في صياغة عدد من النظريات الغربية التي تشكل في مجموعها جوهر الفكر التنموي الغربي. وهذه النظريات هي:نظرية التحديث (Modernization theory)، ونظرية النظام العالمي الحديث (World – System theory) وأثر هذا المفهوم في الصياغة الداخلية لنظرية التبعية (Dependency theory)، وعلى الرغم من اختلاف منشأ نظرية التبعية واختلاف توجهاتها الإيديولوجية إلا أنها تستمد كثيراً من مقولاتها من كتابات مفكرين غربيين يساريين وترتكز ــ مثلها في ذلك مثل النظريتين الغربيتين الخالصتين، أعني نظريتي التحديث، ونظرية النظام العالمي الحديث ــ على الجوانب الاقتصادية، وبخاصة تراكم الفائض الرأسمالي الذي يؤدي غيابه، أو هدره، إلى استمرار تخلف البلدان النامية وعدم نموها.

وتقدم هذه النظريات جميعها عدداً من المقولات التي تستند إلى مفهوم التنمية هذا والتي تعمل على تفسير عملية تحقيق ــ أو عدم تحقيق ــ التراكم الرأسمالي وزيادة الإنتاجية في البلدان النامية، إما بزيادة الموارد المتاحة، وإما باستخدام أساليب جديدة في العمل مما يؤدي إلى زيادة القدرة الإنتاجية للمجتمع زيادة مستمرة، ومتواصلة،ذات فعالية داخلية متجددة.

ومن جهة أخرى، توضح مراجعة الأدبيات أن هذه المقولات التي استعملت في عديد من التحليلات التنموية ربما لا تنطبق على واقع المجتمع العربي وخبراته التاريخية الخاصة فمقولات نظرية التحديث طورت في ضوء التجربة التاريخية التي غيرت المجتمعات الغربية ونقلتها من الإقطاع إلى الرأسمالية الحديثة مما حقق لها التقدم والسيطرة. ومن أهم جوانب هذه التجربة عمليات التحضر، والتصنيع، وتطوير التقنية الحديثة، وتحديث الشخصية، وتفرعت هذه النظرية إلى مدخلين أساسيين هما: مدخل التصنيف الثنائي للمجتمعات، أو النظرية التصنيفية، والمدخل النفسي أكد كلّ منهما أن المجتمعات النامية تسير بالضرورة في خط المجتمع الأوربي الغربي نفسه لتصل في النهاية إلى صورة مشابهة لهذا المجتمع مما أدى إلى إهمال الخصوصية الوطنية لعملية التطور في هذه المجتمعات.

ويعد المدخل التصنيفي الأداة الكلاسيكية التي استخدمت بعيد التقاء الرأسمالية الغربية بالمجتمعات غير الغربية ــ ومن ضمنها المجتمعات العربية ــ وحتى الستينيات من هذا القرن لتحليل عمليات التنمية والتغير في هذه المجتمعات غير الغربية. وجنح هذا المدخل إلى وضع المجتمعات النامية في مجملها ــ على الرغم من الفروقات الكبيرة فيما بينها ــ ضمن فئة عريضة واحدة، أو صنف أو نموذج مثالي. وأطلق على هذه الفئة العريضة، أو النموذج المثالي، اسم "المجتمعات المتخلفة"، وفيما بعد "المجتمعات النامية". وكان هذا النموذج المثالي يقارن باستمرار بشكل صريح، أو مقنع، بالنموذج

الآخر المقابل والمغاير تماماً، الذي يحوي المجتمعات الغربية، والذي اطلق عليه اسم "المجتمع الحديث".

يتضح من خلال المقارنة بين هذين النموذجين أن المجتمعات النامية تحتوي ما هو مختلف، أو مغاير، عن المجتمعات الغربية، أو ما هو أدنى مرتبة من التكنولوجيا والمؤسسات، وأنماط الشخصية. فهذه المجتمعات النامية زراعية، وفقيرة، وغير مصنعة، وتستخدم أدوات إنتاجية بسيطة مما يعيق نموها وتقدمها إلى مستوى مشابه،أو قريب، من مستوى المجتمعات الغربية الصناعية، الغنية، والتي تستخدم التكنولوجيا الحديثة(٣).

وقام تالكوت بارسونز في نهاية الستينات بإعادة صياغة مفاهيم ومقولات هذا المدخل التصنيفي بعد أن تعرضت لانتقادات واسعة لتفسير التنمية والتغير فقدم مفهوم "التكيف التطوري للمجتمع" الذي يقارن من خلاله بين المجتمع النامي، أو التقليدي، والمجتمع الغربي الصناعي الحديث. ويوضح بارسونز من خلال هذا المفهوم والمقولات المستندة إليه أن المجتمع الغربي يقيم الأفراد بناء على الإنجاز الفردي، أما المجتمع التقليدي فيقيم الأفراد بناءً على معايير موروثة مهملاً الإنجاز الفردي. كما يوضح أن المجتمع الغربي الصناعي يشجع على التنافس ويحض عليه، أما المجتمع التقليدي فلا يفعل ذلك(٤).

أما المدخل السيكولوجي الذي يستمد أغلب مفاهيمه ومقولاته من تحليلات ماكس فيبر لدور القيم البروتستانية في النمو الاقتصادي في المجتمع الغربي فإنه يشترك مع المدخل التصنيفي في استخدام النماذج المثالية والمقارنة بينهما. وإبراز ما يعيق وصول المجتمعات النامية إلى صورة مشابهة للمجتمع الغربي. إذ يضع هذا المدخل أنماط الشخصية في المجتمعات النامية ضمن فئة عريضة، أو نموذج مثالي، يطلق عليه اسم "الشخصية التقليدية"، ويقارنها بالنموذج المثالي للشخصية الغربية التي يطلق عليها اسم "الشخصية الحديثة". ويفترض هذا المدخل أن الشخصية التقليدية تتميز

بالتواكل والإيمان بالغيبيات، والارتباطية، والازدواجية في الشعور والسلوك، وعدم الثقة بالعلم ومنتجاته التكنولوجية، والضعف في استيعاب العلم الحديث والتكنولوجيا الحديثة، بينما تتميز الشخصية الحديثة بعكس هذه الصفات، فهي تتميز بالاعتماد على الذات، والإيمان بالمحسوس، والإنجازية، والثقة بالعلم ومنتجاته لحل المشكلات المختلفة.

وقام دافيد ماكيلاند في الستينيات باستخدام هذه المفاهيم والمقولات للمقارنة بين المجتمعات وتفسير مستويات التنمية بينها من خلال عامل نفسي واحد حفاز سماه "الحاجة إلى الإنجاز"، وسمى المجتمع الذي يحقق التنمية الاقتصادية أسرع من غيره نتيجة ازدياد عدد الأفراد الذين يملكون هذه الحاجة ب"مجتمع الإنجاز"[٥]. وسار افيرت هاجن في هذا الخط ذاته مستخدماً هذا العامل النفسي للمقارنة بين المجتمعات وتفسير التنمية فيها[٦].

وعمل اليكس انكليس ودافيد سميث على مقارنة درجة وجود "متزامن التحديث" (Modernity Syndrom) بين الأفراد في عدد من المجتمعات النامية ومن ضمنها تركيا، ومصر، ولبنان، موضحاً دور هذا المتزامن ــ الذي يوجد بشكله المثالي في المجتمعات الغربية ــ في النمو الاقتصادي في هذه المجتمعات[٧].

والاتجاهات النظرية الحديثة التي ظهرت في ميدان التنمية مثل نظرية التبعية، ونظرية النظام العالمي الحديث التي سبقت الإشارة إليهما تعد تطورات داخل النظرية الغربية العامة للتنمية. وهي تطورات ترتبط بشكل أو بآخر بنظرية التحديث من حيث اللجوء إلى مفهوم ذي طابع اقتصادي خالص للتنمية لكنها تختلف عن نظرية التحدث من حيث الموقف من التجربة الأوروبية الغربية، وبخاصة في حالة نظرية التبعية. فنظرية التبعية ترفض النظر إلى التجربة الأوربية في التنمية على أنها المثال الذي يجب أن تحتذيه البلدان النامية لتحقيق التنمية، كما ترفض النظر إلى العلاقة التاريخية التي

ربطت البلدان الغربية بالبلدان النامية والتي أخذت أشكال الاستعمار، والاستغلال واحتكار الفائض الرأسمالي – على أنها عامل مساعد في تنمية المجتمعات غير الغربية، كما تدعي نظرية التحديث. فنظرية التبعية تؤكد أن هذه العلاقة أعاقت، بل خنقت، في عديد من الحالات التطور الطبيعي للاقتصادات المحلية في المجتمعات غير الغربية، وبخاصة في إفريقيا. فقد عمل الاستعمار الغربي في هذه البلدان على تحويلها إلى أسواق لمنتجات الدول الغربية، وأدخل الاضطراب إلى اقتصاداتها بدفعها إلى إنتاج مواد أولية تخدم أهداف السوق العالمية وليس السوق المحلية.

أما نظرية النظام العالمي الحديث فترفض بشكل قاطع ثنائية المجتمع التقليدي – المجتمع الحديث الذي تقوم عليه نظرية التحديث، وتؤكد بدلاً عن ذلك أن هذين النمطين العريضين وحدتان مترابطتان في نظام واحد متفاعل، متكامل. لكن نتيجة هذا التفاعل غالباً ما تكون لمصلحة الوحدات الأقوى، فالنمو في هذه الوحدات التي تشغل مكانة مركزية عليا داخل النظام العالمي غالباً ما يكون على حساب التراجع، أو عدم النمو، في الوحدات الأضعف التي تشغل مكانة هامشية، أو محيطية، دنيا، أو وسطى داخل النظام العالمي.

وفي العربية، يوضح نبيل السمالوطي وجود مداخل نظرية متعددة لفهم قضايا التخلف والتنمية يناقشها تحت العناوين التالية:

مدخل النماذج المثالية، ومدخل المتصلات الثقافية، ومدخل التحضر، ومدخل المراحل التاريخية، والمدخل الاقتصادي، والمدخل العنصري، والمدخل الماركسي، والمدخل الديمغرافي، والمدخل التكاملي متعدد النظم[٨]. وتعد هذه المداخل النظرية الفرعية في مجملها تفرعاً، أو تطويراً، لنظرية التحديث.

وسأعمل في هذا البحث على توضيح المقولات الرئيسية لنظرية التحديث، ولنظرية التبعية، ولنظرية النظام العالمي الحديث، من خلال مراجعة لأهم أعلام هذه النظريات

وكتاباتهم. كما سأعمل على تقييم قدرة هذه النظريات على تفسير عمليات التنمية والتحديث في المجتمع العربي في ضوء الأطروحة الأساسية التي يقوم عليها هذا البحث الذي تقول: إن أغلب هذه المقولات لا تنطبق على واقع المجتمع العربي إذ أنها طورت في ضوء التجربة التاريخية لأوربا الغربية.

مقولات نظرية التحديث

سأعمل في هذا الجزء من البحث على توضيح المقولات الرئيسية التي تقوم عليها نظرية التحديث، وذلك من خلال مراجعة لكتابات بعض أعلام هذه النظرية وبخاصة أولئك الذين أجروا دراسات ميدانية على البلدان النامية وبعض البلدان العربية أمثال: دافيد ليرنر[٩]،وجوزف كاهل[١٠]، ووالتر روستو.[١١]، ودافيد ماكليلاند، وأفيرت هاجن [١٢]، واليكس انكليس ودافيد سميث [١٣].

١ــ رفض مراحل تطور المجتمع الإنساني الماركسية، وهي: المشاعية،والعبودية،والإقطاعية، والرأسمالية، والاشتراكية وطرح مراحل أخرى بديلة اختزلت في مرحلتين رئيسيتين، هما: مرحلة التقليدية أو التخلف، ومرحلة الحداثة، أو التقدم. فالمجتمع الإنساني يتغير عابراً خطاً مستقيماً من التقليدية إلى التحديث.

٢ــ رفض حركات التاريخ الماركسية، وبخاصة الصراع الطبقي، وطرح محركات جديدة هي القوى الأجنبية التي تغير في مؤسسات المجتمع التقليدي، وتقدم نموذجاً يمكن تقليده، وتدعم النخبة، أو الصفوة المحلية، التي تهيء الظروف للانطلاق نحو التحديث.

٣ــ لا يعود سبب التخلف في البلدان النامية إلى خضوعها للاستعمار، وإنما يعود إلى المؤسسات التقليدية التي تتميز بالقدرية، والغيبية، والتي تنمي اتجاهات وقيم لاعقلانية لدى الأفراد. وهي قيم ذات أثر سلبي على التنمية فهي تبعد الأفراد عن

الادخار،والتفاني في العمل لتحقيق النجاح المادي، وتوجههم بـــدلاً عــن ذلــك نحــو الاستهلاك والإغراق فيه، واحتقار العمل اليدوي والابتعاد عنه.

٤ــ إن عملية التغير الاجتماعي التي لوحظت في أوروبا الغربية والتي اشتملت علــى التحضر، والتصنيع، وتحديث الشخصية هي العملية التي تلاحظ الآن في بلدان الشــرق الأوسط العربية، وستؤدي هذه العملية إلى تكرار التجربة الغربية في تحويل المجتمــع التقليدي إلى مجتمع حديث.

٥ ــ تمر مجتمعات الشرق الأوسط العربية، والمجتمعات النامية بشكل عام، بما يسمى بــ "المرحلة الانتقالية"، وهي مرحلة تعقب ابتعاد هذه المجتمعات عن الحالة التقليديــة وترافق دخولها إلى العالم الحديث المصنع. وتتميز هذه المرحلــة الانتقاليــة بوجــود المؤسسات الاجتماعية والسياسية، والاقتصادية التقليدية جنباً إلى جنب مع المؤسســات الحديثة الآخذة بالنمو والتعاظم، والتي لن تلبــث أن تســتبدل المؤسســات التقليديــة وتمحوها بالتدريج.

٦ ــ جميع المجتمعات الإنسانية بما أنها تخضع لعمليات التغــير المدعمــة بعمليــات التحديث المشار إليها سابقاً نفسها، ستصل إلى وضع حضاري يشبه الوضع الحضاري في المجتمع الصناعي الغربي الحديث من حيث سيادة العلمانية والعقلانيــة المرتبطــة بالنظام الصناعي الحديث الذي يفرض علاقاته البراجماتية المميزة ويؤدي إلى دخــول المجتمع مرحلة المشاركة الجماهيرية والرعاية الاجتماعية التي تعطي الفرد مجــالات رحبة لممارسة حريته في اختيار الأدوار الاجتماعية التي يرغب في أن يعيشــها فــي أثناء حياته. كما تحقق له درجة كبيرة من الرفاه الاجتماعي.

٧ ــ آلية التنمية الأساسية هي السوق وليس التخطيط الحكومي، وبالتالي فــإن حــل مشكلة التخلف الاقتصادي في البلدان النامية يعتمد على القطاع الخاص الذي يجــب أن

يتمتع بحرية كاملة في الاستثمار واستخدام تقنيات حديثة لرفع الكفاية الإنتاجية،واستخدام الأرباح المتحققة لإحداث مزيد من التوسع في الاستثمار.

٨ ــ النمو الاقتصادي الصرف هو الأداة الأساسية لتحقيق التنمية في البلدان العربية مما يستدعي توجيه الجهود لتحقيق النمو المستمر في النتاج القومي الإجمالي ومتوسط دخل الفرد دون اهتمام كبير بالظروف السياسية والحضارية التي تسود هذه البلدان.

٩ــ المشاركة الشعبية الواسعة غير مطلوبة لتحقيق النمو الاقتصادي في البلدان النامية، إذ يكفي ازدياد عدد الأشخاص الذين يتميزون بالشخصية الإنجازية. هذا النمط من الشخصية الذي تنتجه مؤسسات التحديث تتبنى القيم الحديثة وتعمل على التجديد والابتكار، وتستبدل بالتدريج نمط الشخصية التقليدية المتسلطة، وغير المبدعة، التي تسود في المجتمع التقليدي وتؤدي إلى استمرار تخلفه.

نظرية التبعية ومقولاتها

كان لكتابات عدد من مفكري اميركا اللاتينية وعلماء الاقتصاد فيها، وبخاصة كتابات راؤول برابيشي[١٤]. وفردناندو كاردوس [١٥] أثر كبير في تطوير مفاهيم هذه النظرية وصياغة مقولاتها، كما كان لكتابات مفكرين غربيين ذوي توجهات يسارية، وبخاصة بول باران، وبول سويزي أثر أيضاً في تدعيم هذه المقولات من خلال الأدلة التاريخية التي قدماها لتحليل العلاقة بين الرأسمالية الغربية والبلدان النامية[١٦] .

وعمل عدد من المفكرين العرب القوميين واليساريين على إغناء هذه النظرية بالتحليلات التاريخية للعلاقة بين العالم العربي والغرب الرأسمالي. ومن أبرز هؤلاء سمير أمين، وجلال أمين، وعبد الخالق عبد الله[١٧].

وتعمل هذه النظرية على تفسير التخلف وعدم النمو في البلدان النامية من خلال مفهوم التبعية للغرب الرأسمالي ــ وهو مفهوم أساسي في هذه النظرية يفسر التخلف وعدم

النمو في البلدان النامية بإرجاعها إلى الشروط غير المتكافئة للعلاقة بين هذه البلدان وبين الغرب الرأسمالي. وتعمل هذه الشروط على استمرار استنزاف الفائض من البلدان النامية وعدم السماح بتراكمه في هذه البلدان. ويبدو ذلك بشكل خاص من خلال تعريف دوس سانتوس للتبعية "فهي حالة ما تكشف أن اقتصاد بعض الدول يرتبط بنمو اقتصاد دولة، أو دول أخرى وتوسعها. إذ تأخذ علاقة التشابك بين اقتصاد دولتين، أو أكثر، وبينهما وبين التجارة الدولية شكل تبعية عندما تستطيع بعض الدول المهيمنة، أو المسيطرة، أن تتسع وتنمو ذاتياً، في حين أن الدول الأخرى التابعة لاتستطيع أن تفعل ذلك إلا انعكاساً لتوسع الاقتصاد المهيمن ونموه (١٨).ويؤكد أندريه جوندر فرانك أن هذه التبعية تؤدي إلى تنمية التخلف واستمراره في البلدان النامية (١٩).وتعد مقولات نظرية التبعية رفضاً لنظرية التحديث، ذلك أن نظرية التحديث تسعى إلى إعادة إنتاج التجربة الرأسمالية الغربية في بلدان العالم الثالث دون اهتمام بالخصوصية البنائية والثقافية لهذه البلدان. ولم تؤد الماركسية التقليدية دوراً في معارضة هذا المسعى، فهي تلتقي مع نظرية التحديث في عدد من المقولات الخاصة التي تنظر إلى الاستبداد، أو الركود، في بلدان العالم النامي على أنها معوقات للنمو والتطور في هذه البلدان. كما تتفق مع نظرية التحديث في ضرورة اختراق هذا الاستبداد، والركود، من الخارج دون إمعان نظر في النتائج العملية التي قد يسفر عنها ذلك بالنسبة للبلدان النامية.

شكلت الطروحات والتوجهات الأيدلوجية التي قدمها مفكرو نظرية التبعية المقولات الأساسية التي تقوم عليها هذه النظرية. ومن الطبيعي أن تكون هذه المقولات متناسبة مع هذه الطروحات التي يقدمها هؤلاء المفكرون ويدافعون عنها. كما سيتضح عند استعراض هذه المقولات ببعض التفصيل.

١ـ الأقاليم شديدة التخلف اليوم هي تلك التي كانت على علاقة وثيقة مع مراكز النظام العالمي إبان تشكل هذا النظام في بداية القرن السادس عشر الميلادي.

٢ــ يؤدي تركيز الدول الصناعية على الحصول على المواد الخام بأسعار رخيصة من الدول النامية إلى نشوء ما يعرف باسم "الاقتصاد الثنائي"، أي وجود شريحة اقتصادية محدودة تتميز بالكفاية التكنولوجية بينما تبقى البنية الاقتصادية الكلية على درجة كبيرة من التقليدية في أساليب العمل وأدواته. وبينما توجه الشريحة الحديثة قدراتها المتميزة للأسواق الخارجية وتزدهر باستمرار نتيجة لذلك، فإن بقية أجزاء البنية الاقتصادية تبقى عاجزة عن سد الحاجات المحلية المتزايدة.

٣ــ يتواطأ رأسماليو الدول النامية مع رأسماليي المراكز العالمية لتحقيق مصالحهم المشتركة على حساب تطور الدول النامية وتقدمها. فهم يعملون على استمرار ربط السوق المحلي بالسوق العالمي، كما يعملون على عقلنه واقع التبعية لضمان الحصول على الدعم والتأييد الشعبي والسياسي لهذا الواقع.

٤ــ لا يؤدي وجود الشركات متعددة الجنسيات في البلدان النامية إلى نمو هذه البلدان لأن هذه الشركات العملاقة تقوم بتحويل اغلب أرباحها إلى مراكزها الرئيسية في البلدان المتقدمة. وهي لا تستثمر في البلدان النامية إلا نسبة ضئيلة من الأرباح التي تجنى من هذه البلدان النامية.

٥ــ هناك سقف للتنمية في البلدان النامية لا يمكن تجاوزه، وبالتالي فإن هذه البلدان وإن استطاعت تحقيق درجة من النمو الاقتصادي والاجتماعي ــ لا يمكن أن تصل إلى مستوى البلدان الصناعية المتقدمة التي تعمل باستمرار على إبقاء البلدان النامية في وضع التابع حتى وإن تطلب ذلك استعمال القوة العسكرية.

نظرية النظام العالمي الحديث ومقولاتها

من جديد، أدت التطورات النظرية داخل ميدان التنمية والتحديث إلى تجاوز تحليلات نظرية التحديث، وإلى تقديم تحليل معارض لنظرية التبعية، وبخاصة فيما يتعلق

بطبيعة العلاقة بين المراكز الغربية والبلدان النامية والنتائج العملية لهذه العلاقة. وقد يعود ذلك إلى فشل نظرية التحديث في تقديم تفسير حقيقي للتخلف في البلدان النامية،وعدم قدرة نظرية التبعية على اقتراح آليات عملية تساعد على تحقيق النمو في هذه البلدان. فقد قدمت نظرية التحديث مفهوم "المجتمع التقليدي"، وأفاضت في شرح خصائصه، مفترضة في ذلك أن هذه الخصائص هي سبب التخلف وعلته. مهملة في الوقت ذاته الإطار السياسي الدولي وأثره في العمليات الداخلية في بلدان العالم الثالث. كما قدمت نظرية التبعية مفهوم "التبعية" واعتبرته المفهوم السحري الذي يؤدي إلى تفسير التخلف وتقديم آليات تؤدي إلى تجاوزه. وعلى الرغم من نجاح هذا المفهوم،والمقولات التي استندت إليه. في معارضة مفاهيم ومقولات نظرية التحديث وتجاوزها إلا أنه لم يقدم للبلدان النامية الحل المنشود الذي طال الشوق إليه. إذ لم تقدم نظرية التبعية الآليات المناسبة لتحقيق النمو في البلدان النامية. وفك الارتباط مع المراكز الرأسمالية ـــ الآلية التي قدمها سمير أمين ـــ على الرغم من جاذبية النظرية،وبخاصة لدى مفكري العالم العربي ذوي التوجهات اليمينية واليسارية لم يثبت نجاحها على المستوى العملي، فالارتباطات التجارية بين البلدان النامية والمراكز الرأسمالية تتميز بالتعقيد الشديد نظراً لتنوعها وتداخلها. أضف إلى ذلك أن الارتباطات السياسية بين فئات الصفوة في البلدان النامية وبين المراكز الرأسمالية تزيد هذه الارتباطات تعقيداً وعمقاً. كما أن حاجة البلدان النامية إلى التكنولوجيا المتقدمة التي تمتلكها المراكز الرأسمالية يجعل فك الارتباط مع المراكز الرأسمالية أمراً ضاراً،ومعوقاً للنمو في البلدان النامية.

وقد وجد من يقلل من مفهوم "التبعية" في تفسير التخلف في البلدان النامية. إذ يؤكد روبيرت برينر أن الصناعة الأوربية كانت قد توسعت بصورة أساسية في الأسواق الأوربية المحلية، وأن التطور الرأسمالي الذي تلا ذلك في بلدان محددة في أوربا

الغربية، وبخاصة بريطانيا لم يحدث نتيجة لخلق سوق دولي وإنما نتيجة لتطورات متداخلة في العلاقات الاجتماعية جعلت إنشاء مثل هذا السوق الدولي ممكناً (٢٠).

ومع ذلك فقد استفادت بعض البلدان الأوربية مثل إسبانيا والبرتغال من استنزاف ثروات المستعمرات في دفع عملية التطور الرأسمالي فيها وزيادة سرعته. وفيما يتعلق باقتراح آليات للنمو في البلدان النامية تبرز نظرية النظام العالمي الحديث، وهي النظرية الأكثر حداثة في ميدان التنمية والتحديث.وقد اشتهرت هذه النظرية في السبعينيات من هذا القرن على يد إيمانويل والشتين (٢١). وتركز هذه النظرية على طبيعة الإنتاج المحلي السائد معتبرة إياه المؤشر الأساسي على درجة النمو في المجتمع وعلى المكانة الطبقية التي يشغلها هذا المجتمع داخل النظام العالمي (٢٢). فهناك مجتمعات تشغل مكانة مركزية. وهي الدول الصناعية الحديثة كالولايات المتحدة. والاتحاد السوفييتي (سابقاً)، واليابان، وألمانيا. وينتج ذلك بشكل أساسي عن نمط الإنتاج السائد في هذه الدول وهو الإنتاج الصناعي الكثيف. وهناك الدول النامية التي يسود فيها الإنتاج الزراعي البسيط وهي في غالبيتها العظمى تشغل مكانة هامشية، أو محيطية، أو تخومية. وهناك دول تحتل مكانة متوسطة، أو شبه محيطية،مثل بعض الدول البترولية وعدد من دول أوروبا الشرقية.

والآلية التي تقترحها هذه النظرية وتركز عليها والتي يمكن من خلالها تغيير المكانة الطبقية لدولة من الدول داخل النظام العالمي هي الانتقال بالنمط الإنتاجي من الإنتاج الزراعي البسيط إلى الإنتاج الصناعي الكثيف. مما يعني أن هذه النظرية ــ على عكس التبعية ــ تطرح صورة متفائلة إلى حدٍ ما للعلاقة بين دول المركز ودول المحيط. وقد رأينا كيف تطرح نظرية التبعية صورة متشائمة للعلاقة بين البلدان النامية والبلدان الصناعية المتطورة، وبخاصة تأكيدها أن البلدان النامية وإن حققت درجات من النمو إلا أنها ستبقى تابعة للبلدان الصناعية المتطورة، وهو ما سماه أندريه جوندر فرانك "تنمية التخلف"، أو "التنمية التابعة".

وتمتاز هذه النظرية عن النظريتين اللتين سبق أن ناقشتهما في استنادها على المقاولات الرئيسية التالية:

١ــ رفض ثنائية التقليدي ــ الحديث، والنظر إلى مجتمعات العالم على أنها تشكل وحدة واحدة متفاعلة على الرغم من كون هذه المجتمعات تشغل مكانات طبقية متباينة،والتأكيد بالتالي على أن وحدة التحليل ليست المجتمع النامي وما فيه من قوى داخلية وإنما النظام العالمي كله.

٢ــ تحدد المكانة الطبقية التي تشغلها دولة من الدول نمط الإنتاج السائد فيها، وقوة جهازها الحكومي، وكفاية مدنها وبورجوازيتها الوطنية.

٣ــ تحويل النمط الإنتاجي في دولة من الدول النامية إلى النمط الصناعي الكثيف يؤدي إلى تحسن في مكانتها الطبقية داخل النظام العالمي الحديث.

وقام سمير أمين بعيد انهيار المعسكر الاشتراكي وتفرد الولايات المتحدة الامريكية بالهيمنة على النظام العالمي بدمج مفهوم التبعية والنظام العالمي لصياغة مقولات جديدة لتفسير واقع العلاقة بين البلدان النامية والنظام العالمي وللتنبؤ بمسار هذه العلاقة (٢٣)، وأهم هذه المقولات مايلي:

١ــ التوجه الراهن لتطور الرأسمالية يعمق الاستقطاب العالمي بين المراكز والأطراف، وبخاصة بعد انهيار المعسكر الاشتراكي وهذا مصدر أساسي من مصادر الفوضى في النظام العالمي المعاصر. إذ ينتج هذا الاستقطاب العالمي تناقضاً جديداً مميزاً ناتجاً عن تفاوت مستويات العولمة الاقتصادية والسياسية مما يؤدي إلى مزيد من الفوضى في هذا النظام.

٢ــ للخروج من الفوضى العالمية لا تملك دول الأطراف إلا الاستمرار في محاولاتها لفك الارتباط مع النظام العالمي المهيمن. ويتم ذلك من خلال آليات محددة أهمها:

تسييس الجماهيروتنظيمهم ديمقراطياً، وتدعيم الانتلجنسيا الوطنية التي تقوم بدور الوسيط الاجتماعي لصياغة مشروع حضاري بديل والنضال من أجل تحقيقه.

نقد نظريات التنمية في ضوء خبرة المجتمع العربي

على الرغم من وجاهة هذه المقولات جميعها وحيادها النسبي إلا أنها تبقى قاصرة على تقديم تحليل حقيقي لواقع التنمية والتحديث في المجتمع العربي المعاصر. وهذا ينطبق ـ وربما بشكل أكثر حدة ـ على المقولات التي قامت عليها نظرية التحديث،كما ينطبق على بعض المقولات التي قامت عليها نظرية التبعية.

فالمجتمع العربي بشكل عام لم يعرف الإقطاع المنظم كما عرفته أوروبا الغربية. وهذا يعني أن هذا المجتمع في تطوره لم يصل إلى وضع حضاري يتشابه مع النموذج الغربي في بعض الجوانب المحددة مثل التصنيع واستخدام التكنولوجيا، لكن نظراً لبناءاته الثقافية الخاصة قد يصل إلى وضع حضاري يتناسب مع تجربته الخاصة.

ومن جهة أخرى، أوضحت التجربة أن المجتمع قد لا يسير في الضرورة في خط عمودي مستقيم صعوداً نحو التحديث طوال الوقت، إذ إن المجتمع قد يصل إلى وضع، أو مرحلة، حضارية معينة ثم يتوقف، وأحياناً يعود إلى نقطة قريبة من نقطة البداية، ليسير بعدئذٍ في مسار جديد تحدده الظروف التاريخية الخاصة لهذا المجتمع. فتجارب النمو ترتبط بعوامل متعددة بعضها داخلي يتعلق بحجم السوق وطبيعة الأنشطة الإنتاجية والتقنية المستعملة فيها، وبعضها خارجي يتعلق بالعلاقات مع القوى الإقليمية ومع قوى المراكز المتقدمة.

أما بالنسبة لمقولة المرحلة الانتقالية التي قامت عليها النظرية التصنيفية فإنها في المجتمع العربي قد لا تكون انتقالية أبداً، فهذا الوضع الانتقالي قد يكتسب مع الزمن صفة الثبات والديمومة. فالمؤسسات التقليدية كالعائلة الممتدة، والروابط الأسرية ـ

وهي ليست من مؤسسات التحديث التي حددتها النظرية التصنيفية ـ أدت دوراً ولا تزال في تحديث وتنمية المجتمع العربي وتنميته. وتجربة المجتمع اللبناني كما يوضحها سمير خلف تقدم الدليل الميداني على قدرة هذه المؤسسات على تكييف نفسها لمتطلبات الاقتصاد الحديث (٢٤).

والبيانات من مجتمعات عربية أخرى توضح أيضاً قدرة هذه المؤسسات التقليدية على تكييف نفسها وفقاً لمتطلبات المجتمع الحديث (٢٥). مما يشير إلى أن المجتمع العربي في تطوره قد يتجه نحو نموذج حضاري خاص به، نموذج أقرب إلى النموذج الياباني منه إلى النموذج الغربي الخالص. فدور الحكومات العربية المعاصرة في التنمية يذكرنا و لا شك بالدور الذي قامت به الحكومة اليابانية في بداية تطوه المجتمع الياباني أضف إلى ذلك، أن المجتمع الياباني في بداية تطوره أبدى إعجابا وولعاً شديدين بالتكنولوجيا الغربية، مع رفض صارم للقيم الغربية، مما أنتج حركة في اتجاه إحياء التراث الياباني والتمسك به، إلى جانب حركة نحو التصنيع، مما ينطبق أيضاً على واقع المجتمع العربي المعاصر (٢٦).

وفيما يتعلق بالمجتمعات النامية الأخرى, وبخاصة الهند وبعض المجتمعات الآسيوية الأخرى، أوضحت الملاحظات التي قام بها جوزف جسفيلد خطأ سبع فرضيات يقوم عليها التحليل التصنيفي للمجتمعات، وهي:

١ـ المجتمعات النامية مجتمعات جامدة.

٢ـ الثقافة التقليدية كلّ متجانس من القيم والتوقعات السلوكية.

٣ـ المجتمع التقليدي بناء اجتماعي متجانس.

٤ـ التغيرات الجديدة بديل للتقاليد القديمة.

٥ـ الأشكال التقليدية والحديثة في صراع دائم.

٦ــ التقليدي والحديث نظامان متعارضان، يلغي أحدهما وجود الآخر.

٧ــ عمليات التحديث تضعف الأبنية التقليدية [٢٧].

وتحدى لويد رودلف وسوزان رودلف في دراستهما حول النظـام الطبقـي الـهندي التعارض الذي يفترضه المدخل التصنيفي بين التقاليد والتحديث فـهما يوضحـان أن نموذج التحديث نموذج مثالي لا ينتمي إلى المجتمعات النامية. ويؤكدان أن المجتمعات النامية يمكن أن تتطور بقدراتها الذاتية ودون الحاجة للقوى الخارجية.

وفهم التقاليد في البلدان النامية ــ في رأيهما ــ يؤدي إلى فهم أعمق لعملية التحديـث وعدم تعارضها مع التقاليد[٢٨].

ويسير ملتون سنجر في هذا الخط ذاته حين يؤكد أن الملاحظـات العلميـة للديانـات الاسيوية التي تمت حديثاً تشير إلى بعدها عن الجمود، فهي لا تشكل عائقاً أمام التطور ذلك لأن القيم التي تحتويها عامة، ومجردة، تخضع لتفسيرات متجددة حسب الظـروف السياسية والحضارية. ويوضح أن العلاقـة الخاصـة التـي ربطـت بيـن الزهـد البروتستانتي والتطور الصناعي الرأسمالي والتي ركز عليها ماكس فيبر تمثـل حالـة خاصة من حالات التفاعل بين القيم الدينية والنمو الاقتصادي، وليس من الضـروري أن تتكرر هذه العلاقة نفسها في الحضارات الأخرى غير الغربية.

ويركز برايان تيرنر[٢٩] في كتابه عام ١٩٧٨ على انتقاد كتابات دانيال ليرنر ــ أحـد أبرز ممثلي النظرية التصنيفية ــ موضحاً أن ليرنر يتخذ من المجتمع الغربي إطـاراً مرجعياً لتفسير تطور المجتمع التقليدي نحو المشاركة. كما يوضح أن لـيرنر يعـالج قضية التنمية في مجتمعات الشرق الأوسط وكأنها قضية داخلية بحتة توجد بمعزل عن الإطار المجتمعي الدولي. وهذا انتقاد جوهري ليس فقط لكتابات ليرنر وإنما لكتابـات غالبية ممثلي الاتجاه التصنيفي أمثال دافيد ماكليلاند، وانكليـس وسـميث، وروسـتو

وكاهل والتي سبق الإشارة إليها. وسيتضح لنا بعد قليل أهمية الإطار المجتمعي الدولي لفهم التنمية وتحليلها على مستوى المجتمع التقليدي.

ويسير جونارميردال [٣٠] في هذا الخط ذاته تقريباً حين يوضح أن النظرية التصنيفية تعاني من تحيز غربي خانق، وأن هدف الأنماط التي تقدمها إبقاء الهيمنة الغربية على الدول النامية. أما إيزنستات [٣١] فيرفض معظم مقولات ليرنر معلناً دوام المجتمع التقليدي الذي تتكيف بناءاته لتقبل الحديث وبخاصة في المجال الاقتصادي.

أُدرك فشل نظرية التحديث في الغرب بشكل سريع، والدليل على ذلك ظهور نظريات جديدة منذ بداية الستينيات من هذا القرن، ترفض النظرية التصنيفية وتعمل على تجاوزها. لكن يبدو أن هذا الفشل لم يدرك بشكل عميق بعد في العالم العربي. فلا يزال هناك عديد من الباحثين العرب ممن يتأثرون بمثل هذه المقولات التصنيفية عند إجراء دراساتهم الميدانية، ويمكن إيراد عدد من الأمثلة على مثل هذه الدراسات. وقد يعود ذلك إلى غياب الكتابات النظرية المتعمقة في ميدان التنمية والتحديث، وبخاصة تلك التي توضح أحدث التطورات النظرية داخل هذا الميدان. مما دفع حيدر إبراهيم علي للتحدث عن أزمة يعاني منها علم اجتماع التنمية في العالم العربي، إذ يقول: "يخشى المرء من القول بانطباق وضع الأزمة العامة بصورة أعمق وأشمل على علم اجتماع التنمية في الوطن العربي خاصة إذا عجز عن مواكبة التطور الفكري والنظري الإنساني بطريقة متكافئة ومستوعبة ونقدية، وفي الوقت نفسه يؤكد خصوصيته الحقة في النظرية والتطبيق[٣٢].

أما بالنسبة لنظرية التبعية فعلى الرغم من أهمية مقولاتها وقدرة هذه المقولات على توجيه الباحث لتحليل عمليات النمو والتحديث في عدد من المجتمعات النامية،وبخاصة في أميركا اللاتينية، إلا أنها، في مجملها، لا تساعدنا كثيراً على فهم عملية النمو في المجتمع العربي. فرغم وقوع أغلب أجزاء الوطن العربي تحت الحكم الاستعماري

الأوروبي المباشر إلا أن هذا الاستعمار لم يقع أساساً لأسباب اقتصادية، وإنما وقع لأسباب سياسية. فالعالم العربي قبل اكتشاف البترول لم يكن يملك ـ فيما عدا أجزاء محدودة منه ـ ثروات الهند أو أميركا اللاتينية. وبالتالي، فإن المستعمر الأوروبي ابتعد في أغلب الأحيان عن إجراء عمليات نقل واسعة للثروات الوطنية إلى المركز كما حصل في الهند مثلاً. وكانت المنطقة العربية ومنطقة الشرق الأوسط عموماً، قد دخلت مرحلة الركود الاقتصادي العميق بدءاً من بداية القرن السادس عشر إثر تحول طرق التجارة الدولية إلى رأس الرجاء الصالح، ومنه إلى بلدان أوروبا المختلفة. وتمثل هذا الركود في نضوب التجارة والموارد المالية التي كانت تأتي بها، وتآكل النظم الإنتاجية الزراعية والحرفية، وتدهور الأمن ووسائل المواصلات، وانتشار الأوبئة والمجاعات(٣٣).

وأهم طرق التجارة الدولية التي جلبت منتجات الهند والصين العديدية إلى العالم الإسلامي ومنه إلى بلدان أوروبا وبخاصة جنوا والبندقية على البحر الأبيض المتوسط طريقان، هما: الطريق البري الطويل عبر سفوح آسيا الوسطى من الصين إلى البحر الأسود ومن هناك إلى بلدان أوروبا؛ والطريق البحري ـ البري من الهند إلى رأس الخليج العربي، ومن ثم بطريق البر إلى بغداد ودمشق، ومدن الأراضي المقدسة، ومن هناك براً أو بحراً إلى الإسكندرية والقاهرة ثم إلى الموانئ الأوروبية على البحر الأبيض المتوسط.

عملت الموارد المالية المتدفقة التي كانت تجلبها التجارة الدولية إلى مدن المجتمع الإسلامي ونفوره وموانئه إلى ازدهار ـ هذا المجتمع بجميع فئاته التي ارتبطت بأشكال متعددة بهذه التجارة. فكانت القبائل البدوية تحصل على دخل مالي جيد نتيجة لما كانت تقدمه من خدمات لقوافل التجار مما كان يؤمن لها ـ إضافة لما كانت تحصل عليه من تربية المواشي ـ اكتفاءً ذاتياً استمر طوال قرون. ووفر هذا للمزارعين وسكان القرى التي تقع على أطراف الصحراء، أو بالقرب منها، ظروفاً

آمنة لزراعة الأرض بنشاط وتسويق منتجاتها في المدن القريبة بحيث أمن ذلك لسكان القرى دخلاً مالياً متجدداً، وأمن في الوقت ذاته لسكان المدن وفرة في الغذاء والمنتجات الاستهلاكية الأخرى مكنتهم من التفرغ للحرف والصناعات والعلوم ودعمت المواد الأولية التي كان يجلبها التجار مكانة هذه الحرف والصناعات والعلوم وقدمت لها الشروط اللازمة لتوسعها وتطورها.

أما التجار فكانوا أكثر الفئات ازدهاراً وثروة نتيجة لارتباطهم المباشر بالتجارة الدولية ونشاطاتها المتعددة. وعملت قدرتهم المالية هذه على تقريبهم من القادة العسكريين والسياسيين من الخلفاء والسلاطين، والوزراء الذين اعتمدوا على المكوس والضرائب التي يجنونها من هؤلاء التجار لدعم خزينة الدولة، وتوفير الموارد المطلوبة لتجهيز الجيوش وتمويل الحملات العسكرية، مما أمن للعالم الإسلامي قدرات عسكرية فعالة ــ دفاعياً وهجومياً ــ حافظت على حدود هذا العالم من الاختراق حتى نهايات القرن السادس عشر ــ إذا ما استثنينا الغزوات الصليبية والمغولية التي تمكن العالم الإسلامي في النهاية وبقدراته الذاتية من دحرها والتخلص منها.

يمكن القول بالتالي إن التجارة الدولية شكلت النشاط الإنتاجي الأساسي الذي مول جميع الأنشطة الأخرى في المجتمع سواء أكانت سياسية، أم اجتماعية. من هنا يتضح الأثر الفادح الذي يمكن أن يتركه انهيار هذه التجارة ليس بالنسبة للتجار فقط وإنما بالنسبة لجميع فئات المجتمع الأخرى ومؤسساته، بما في ذلك مؤسساته السياسية، وهذا ما حصل فعلاً فما إن قام البرتغاليون باكتشاف مضيق رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨م. حتى أقاموا صلات تجارية مستقلة بهم مع الهند عملوا من خلالها على نقل البضائع والسلع والمنتجات الهندية عبر خط بحري مباشر خاص بهم ــ مستقل عن الخطوط العربية والإسلامية ــ إلى الموانئ البرتغالية والمدن والموانئ الأوروبية الأخرى. وبدأت هذه المدن والموانئ في جني الأرباح وتركيزها مما أدى إلى

ازدهارها المالي والتجاري على حساب المدن والموانئ العربية والإسلامية التي بدأت بالتراجع والركود.

لم تتأثر المدن والموانئ الإسلامية فقط نتيجة نضوب موارد التجارة الدولية إثر إقامة الطريق البحري الأوروبي بين الهند وأوروبا إنما امتد التأثير إلى جميع فئات المجتمع التي ارتبطت بأشكال متعددة بهذه التجارة. ففقدت القبائل البدوية جزءاً أساسياً من دخلها مما دفعها إلى غزو القرى والمناطق الزراعية، وأحياناً المدن القريبة من الصحراء، للحصول على حاجاتها. فاضطرب الأمن، وتراجعت سلطة الدولة،وضعفت الزراعة مما مهد لحدوث المجاعات في المدن نتيجة نقص الأغذية، والمنتجات الاستهلاكية فيها. وخسر الحرفيون والصناع والعلماء مورداً أساسياً من موارد المواد الأولية التي يستخدمونها في نشاطاتهم مما أدى إلى ركود هذه النشاطات وتراجعها.

ولم تلبث هذه التأثيرات المدمرة أن وصلت إلى مؤسسات الدولة ذاتها بعد أن تناقصت موارد الخزينة بشكل لا يمكن تعويضه مما أدى إلى توقف المشاريع التي تمولها الدولة والتي كانت تدعم المجتمع المدني، وبخاصة الفقراء فيه. وأدى ذلك أيضاً إلى ترجع قدرة الدولة على تجهيز الجيوش وتمويل الحملات مما أضعف القدرات الدفاعية للعالم الإسلامي خارجياً وداخلياً كذلك.

وصل هذا الركود ذروته في القرن الثامن عسر، حين بدأت الدولة العثمانية (ممثلة العالم الإسلامي آنذاك) بالاستدانة من الدول الأوروبية مرة تلو المرة دون التخلص من هذا الركود. مما مهد لقيام مجموعة من الدول الأوروبية بالتدخل في اقتصاد الدولة العثمانية والعمل على تخفيض قيمة العملة العثمانية، وإعطاء امتيازات خاصة جداً للتجار الأوروبيين في أنحاء متفرقة من الإمبراطورية العثمانية. هذا النمط من الاستدانة والوقوع في شراك المدينين ميز أيضاً فترة حكم الأسرة الخديوية في مصر في القرن التاسع عشر وجزء من القرن العشرين.

مما مهد لوقوع غالبية البلدان العربية في قبضة الدول الأوروبية المستعمرة، ومن ثم لتفكيك الدولة العثمانية واقتسام ممتلكاتها بين عدد من الدول الأوروبية وبخاصة روسيا، وبريطانيا، وفرنسا، الذي حدث في بدايات القرن العشرين.

واهتمام بريطانيا طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بالمنطقة العربية لم يكن نتيجة ثرواتها، أو غناها بالموارد، وهي في معظمها صحراء قاحلة، وإنما نتيجة لموقعها الاستراتيجي على طريق الهند. وحين أصبح الطريق إلى الهند يمر عبر مصر بعد فتح قناة السويس أصبح لمصر أهمية خاصة بالنسبة لبريطانيا وتوضح تحليلات دودويل أن بريطانيا كانت تقيم موقفها من حركة محمد علي في مصر في ضوء تأثيرها على الطريق إلى الهند (٣٤).

ويؤكد عبد الوهاب بكر أيضاً أن أهمية مصر الاستراتيجية طوال القرن التاسع عشر كانت تنبثق من كونه منطلقاً للتجارة العابرة بين الهند وآسيا (٣٥).

وقد يكون هذا الاهتمام مرتبطاً أيضاً بمحاولات الدول الأوروبية إزعاج الاستقرار الداخلي للدولة العثمانية تمهيداً لإضعافها، ثم اقتسامها ــ وهو ما حدث فعلاً كما أشير من قبل.

وعلى الرغم من ذلك حدثت عمليات استغلال وتشويه لبنية الاقتصاد المصري،فاختراق السوق المحلية وعدم السماح بتراكم فائض الإنتاج داخلياً أبقى نمط الإنتاج المحلي متخلفاً إلى جانب نمط إنتاج محدود رأسمالي لكنه ذو توجه خارجي(٣٦).

والعملية ذاتها تقريباً تمت في سوريا وفي أجزاء أخرى من الدولة العثمانية في هذا القرن. ففي سوريا نتيجة لاستنزاف فائض الإنتاج بطرق شتى وعدم تراكمه داخلياً،تراجعت الحرف في دمشق وحلب تراجعاً مدمراً بعد تعافيها النسبي من الآثار المدمرة لتحول طرق التجارة الدولية عن المنطقة العربية. فقد ذكر قنصل فرنسي في

تقرير له أعده سنة ١٨٤٥ أن عدد الأنوال في حلب هبط إلى (١٥٠٠)، وفي دمشق إلى (١٠٠٠) مقابل إجمالي العدد للمدينتين وهو (١٢٠٠٠) نول. مما افقد عشرات الألوف من النساجين، وبعض الحرفيين، عملهم، وحطم النقابات التي كانت تؤدي دوراً مهماً في حياة المدن السورية.

رافق هذه العمليات تدفق السلع المصنعة من أوروبا التي أغرقت الأسواق السورية برخص أسعارها وأدت إلى تراجع الإنتاج المحلي نتيجة عدم قدرته على منافسة هذه السلع[٣٧].

وهذه العمليات ذاتها: الاختراق، والإغراق، ثم الإدماج في النظام الرأسمالي حدثت أيضاً في أجزاء أخرى من البلدان غير الأوروبية. وتوضح تحليلات فرانسيس مولدر أن ذلك حصل في الصين خلال القرن التاسع عشر إبان ضم الصين إلى تخوم النظام العالمي، كما توضح تحليلاته أن عدم ضم اليابان إلى تخوم النظام العالمي ساعد على نموها وتطورها بشكل سليم لتصبح القوة الاقتصادية الهائلة التي نراها اليوم[٣٨].

وإلى جانب هذه العمليات الثلاث وهي الاختراق، والإغراق، والإدماج التي ميزت العلاقة بين النظام العالمي وبين المنطقة العربية بشكل عام، يبقى الاستغلال العملية الأساسية التي ميزت، وتميز العلاقة بين النظام العالمي والبلدان النامية بشكل عام. وتوضح البيانات الإحصائية المأخوذة عن فؤاد مرسي والمعروضة بتصرف في الجدول (١) أن استثمارات المراكز الرأسمالية في البلدان النامية وصلت عام ١٩٨٠ إلى (١٢٨) مليار دولار أمريكي، تناقصت عام ١٩٨٧ إلى(٨٥) مليار دولار فقط. بينما وصلت العائدات التي حصلت عليها المراكز الرأسمالية في البلدان النامية إلى (٨٤) مليار دولار عام ١٩٨٠، أي بفارق قدره ٤٤ مليار دولار لمصلحة البلدان النامية. لكن هذه العائدات وصلت عام ١٩٨٧ إلى (١٧٤) مليار دولار أي بفارق قدره (٦٢) مليار دولار، لمصلحة المراكز الرأسمالية.

جدول رقم (١)

استثمارات المراكز الرأسمالية في البلدان النامية والعائدات السنوية، مليار دولار أمريكي (سنوات مختارة) [٣٩]

	١٩٨٠	١٩٨٢	١٩٨٥	١٩٨٧
الاستثمارات في البلدان النامية	١٢٨	١٣٨	٨٤	٨٥
العائدات للمراكز الرأسمالية	٨٤	١٠٢	١٥٢	١٤٧
الفرق لمصلحة المراكز الرأسمالية	٤٤-	٣٦-	٦٨+	٦٢+

ومن جهة أخرى، فقد تكون العلاقة بين العالم العربي وأوربا، وبخاصة بعد وقوع أجزاء واسعة من العالم العربي تحت السيطرة الاستعمارية المباشرة علاقة تبعية سياسية، لكن في الوقت الحاضر، وبعد عقود من الاستقلال السياسي، فإن أغلب الدول العربية لا تنظر إلى علاقاتها مع أوربا الغربية على أنها علاقة تبعية، وبخاصة في المجال السياسي، وإنما تنظر إليها على أنها علاقة محايدة نسبياً، ومفيدة إلى درجة كبيرة فيما يتعلق على بالحصول على التكنولوجيا اللازمة للتنمية في هذه البلدان العربية. وقد رأينا في صفحات سابقة كيف أن العالم العربي بشكل عام ينظر باحترام وإعجاب إلى التكنولوجيا الغربية، فموقفه من هذه التكنولوجيا موقف إيجابي لكن الموقف من القيم الثقافية وأنماط السلوك الغربية موقف سلبي بشكل عام. ولا يستطيع العالم العربي ، في الواقع، أن يعزل نفسه عن الغرب الصناعي فهو بحاجة مستمرة إلى التكنولوجيا الغربية لتطوير القدرات الإنتاجية العربية إلى أن تستطيع هذه القدرات أن تنتج تكنولوجيا خاصة بها لتلبية حاجاتها المختلفة وحاجات مواطنيها.

لكن التبعية الاقتصادية موجودة، فهي حقيقة قائمة مرتبطة بإنتاج الماد الخام في البلدان العربية والمركز الذي تحتله هذه المواد بالنسبة للبلدان الصناعية بشكل عام. وهذه التبعية ليست تبعية للغرب بالتحديد وإنما هي تبعية للدول الصناعية بشكل عام بما في ذلك اليابان. وقد قام محمد زاهر السماك [٤٠] بتطوير عدد من المؤشرات لقياس التبعية الاقتصادية العربية، ومنها: درجة الانكشاف الاقتصادي، وأهمية الصادرات، والتركيز

السلعي للصادرات، وتصدير السلع بشكلها الخام، وتنوع الواردات وتركيزها،والتركيز الجغرافي للصادرات، والتركيز الجغرافي للواردات، والتبعية التكنولوجية.

ويستنتج السماك أن الأقطار العربية النفطية تعاني من وطأة قيود مؤشرات التبعية الاقتصادية أكثر من الأقطار غير النفطية، وتشمل مجموعة الأقطار العربية النفطية الكويت، وليبيا، وقطر ،والسعودية، والإمارات العربية المتحدة، بينما تشمل الأقطار شبه النفطية الجزائر، والعراق، وتشمل مجموعة الأقطار النامية البحرين،ومصر،والأردن، ولبنان، والمغرب، وعمان، وسوريا، وتونس، وتشمل الأقطار الأقل نمواً جيبوتي، وموريتانيا، واليمن، والصومال، والسودان.

والتحليلات الإحصائية لمؤشر الانكشاف التجاري التي قام بها إبراهيم العيسوي توضح أن السعودية ـــ وهي قطر عربي نفطي ـــ تعاني من درجة مرتفعة من الانكشاف التجاري مقارنة بمصر ـــ وهي قطر عربي غير نفطي ـــ ومقارنة بالجزائر ـــ وهي قطر عربي شبه نفطي. انظر الجدول رقم (٢).

جدول رقم (٢)

القيم المقدرة لمؤشر الانكشاف التجاري (نسب مئوية) (١١)

مصر		الجزائر		السعودية	
الفترة	المؤشر	الفترة	المؤشر	الفترة	المؤشر
١٩٥٢ ١٩٥٦	٣٧	قبل ١٩٦٥	٨	قبل ١٩٧٤	٧٩
١٩٥٧ ١٩٦٧	٣٤	١٩٦٥ ١٩٧٣	٤٥	١٩٧٤ ١٩٨٠	١١٨
١٩٦٨ ١٩٧٣	٣٤	١٩٧٤ ١٩٨٠	٦٥	بعد ١٩٨٠	٨٠
١٩٧٤ ١٩٨٠	٣٥	بعد ١٩٨٠	٥٣		
بعد ١٩٨٠	٤٧				

ويتم حساب مؤشر الانكشاف التجاري من خلال مؤشرين، هما: نسبة الصادرات إلى الناتج المحلي الإجمالي، ونسبة الواردات إلى الناتج المحلي الإجمالي. فمؤشر درجة الانكشاف التجاري ليس سوى مجموع هذين المؤشرين باعتباره يعرف بنسبة مجموع الصادرات إلى نسبة الناتج المحلي الإجمالي. وكذلك بحسب المدى الخاص بمنطقة الانتقال على هذا المؤشر من المدى الخاص بكل من هذين المؤشرين. وهكذا فمدى مؤشر درجة الانكشاف التجاري هو "٢٠٪" أي أقل من ٤٥٪ (٤٢).

وتحليل الهيكل السلعي للصادرات في بعض البلدان النفطية يؤيد ذلك أيضاً، ففي دراسة أخرى قام بها رشيد عام ١٩٨٤ اتضح أن تحليل الهيكل السلعي للصادرات في بعض البلدان النفطية يظهر تزايد الأهمية النسبية للصادرات النفطية، بينما تحليل هيكل الواردات يظهر تنوع السلع المستوردة وبخاصة السلع الاستهلاكية المصنعة. ويؤدي إلى تدهور قطاع الزراعة، وإلى تخلف القطاع الصناعي المحلي. كما يؤدي إلى اتصاف الموازين السلعية بالعجز المستمر في قطاع الزراعة، وفي قطاع الصناعة التحويلية، ووجود فائض من القطاع الاستخراجي، مما يعني مزيداً من استنزاف موارد الثروة القومية (٤٣). كما توضح بيانات الاتحاد العام لغرف التجارة والصناعة والزراعة للبلاد العربية أن قطاع الصناعات الاستخراجية (إنتاج البترول والغاز) هو أهم القطاعات الاقتصادية المكونة للناتج المحلي الإجمالي في عدد من البلدان العربية النفطية. وتزيد نسبة مساهمته في الناتج المحلي الإجمالي على ٤٠٪ في كل من الإمارات العربية المتحدة وقطر (٤٤).

ومع ذلك لم تتمكن الأقطار العربية من استخدام النفط وعائداته الهائلة بوصفه سلاحاً فعالاً في التنمية. فتعاظم دور النفط بالنسبة لدول المركز أدى إلى زيادة اندماج البلدان العربية، وبخاصة النفطية منها في النظام العالمي بدلاً من زيادة استقلال هذه البلدان. ويشرح محرروا مجلس الوحدة العربية:

"فلقد شهد عقد السبعينيات ظروفاً غير عادية مواتية تماماً لقيام تنمية عربية شاملة. وكان النفط يبشر بأن يكون ميزة مستمرة من خلال خلق القاعدة المادية والبشرية التي تسمح بالنمو الذاتي المتجدد وتنميتها. غير أن التنمية التي تمت أدت إلى ازدياد اندماج الاقتصاد العربي في جملته أنفطياً كان أم غير نفطي، في الاقتصاد الرأسمالي العالمي. وبعبارة أخرى شهدت السبعينبات تكامل الاقتصاد العربي في جملته مع الاقتصاد العالمي وليس فيما بين وحداته القطرية ... حيث يؤدي هذا التكامل إلى استنزاف التنمية من الأطراف وتسخيرها لزيادة تدفقات القيمة لصالح المركز" (٤٥).

وفي الثمانينيات تراجع المجموع الناتج المحلي للبلدان العربية من (٤٤٠) مليار دولار عام ١٩٨٠م إلى (٣٨٠) مليار دولار عام ١٩٨٥م. وإلى (٣٧٥) مليار دولار عام ١٩٨٨م، كما يوضح الجدول رقم (٣). وبلغ المتوسط السنوي لمعدل التراجع مجموع الناتج المحلي للبلدان العربية مقوماً بالأسعار الثابتة حوالي ٤,٦% سنوياً خلال الفترة ١٩٨٠ ــ ١٩٨٨م.

جدول رقم (٣)

الناتج المحلي الإجمالي للوطن العربي في الثمانينات

مليار دولار أميركي، بالأسعار الجارية، (٤٦)

السنة	الوطن العربي	الأقطار النفطية	الأقطار غير النفطية
١٩٨٠	٤٤٠	٣٥٥	٨٥
١٩٨٥	٣٨٠	٢٨٩	٩١
١٩٨٨	٣٧٥	٢٧٣	١٠١
١٩٨٩	٣٨٧	٢٨١	١٠٦

ويقدر ارتفاع مجموع الناتج المحلي للبلدان العربية إلى حوالي (٣٨٧) مليار دولار عام ١٩٨٩، أي بنسبة زيادة حوالي ٣,٢ في المائة عن عام ١٩٨٨، بالأسعار الجارية، يعود الجزء الأكبر منه إلى الزيادة في إجمالي القيم المضافة لقطاع الصناعة الاستخراجية في البلدان العربية وذلك من (٦٤) مليار دولار عام ١٩٨٨ إلى (٧٧)

مليار دولار عام ١٩٨٩، أي بنسبة ٢٠ في المائة. كما ارتفع في عام ١٩٨٩ مجموع القيم المضافة، بالأسعار الجارية، في قطاع الصناعات التحويلية بنسبة ٣,٣ في المائة،وقطاع الخدمات بنحو ٢,٦ في المائة (٤٧).

وانخفض متوسط نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي للوطن العربي كله من (٢٧٠٠) دولار عام ١٩٨٠ إلى حوالي (٢٠٠٠) دولار عام ١٩٨٥، وإلى حوالي (١٧٠٠) دولار عام ١٩٨٨، وارتفع قليلاً عام ١٩٨٩ ليصل إلى (١٨١٠) دولار، كما يوضح الجدول رقم (٤).

جدول رقم (٤)

متوسط نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي في الثمانينيات، بالدولار أسعار جارية (٤٨)

السنة	الوطن العربي	الأقطار النفطية	الأقطار غير النفطية
١٩٨٠	٢٧٠٠	٧٨٦٠	٧٣٠
١٩٨٥	٢٠٠٠	٤٩٢٠	٦٧٠
١٩٨٨	١٧٠٠	٤٠٠٠	٦٩٠
١٩٨٩	١٨١٠	٤١٣٠	٧٠٠

وكان الانخفاض في متوسط نصيب الفرد أكثر وضوحاً في الأقطار النفطية عنه في الأقطار غير النفطية. ففي الأقطار النفطية انخفض هذا المتوسط من (٧٨٦٠) دولار عام ١٩٨٠ إلى (٤٠٠٠) دولار عام ١٩٨٨، ووصل عام ١٩٨٩ إلى ٤١٣٠ دولار. وتأتي الإمارات في المرتبة الأولى من بين البلدان العربية النفطية من حيث متوسط نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي، حيث بلغ حوالي (١٦) ألف دولار عام ١٩٨٨، تليها قطر ١٤,٥ ألف دولار، ثم الكويت ١٠.ألف دولار، والبحرين ٧,٥ ألف دولار.

وفي البلدان غير النفطية انخفض هذا المتوسط انخفاضاً خفيفاً من (٧٣٠) دولار عام ١٩٨٠ إلى (٦٩٠) دولاراً عام ١٩٨٨، ووصل عام ١٩٨٩ إلى ٧٠٠ دولار فقط. ويبلغ نصيب الفرد من الناتج المحلي حوالي ٩١٨ دولاراً في المغرب، و١٢٨٥ في تونس، و١٤٢٦ في سورية، و١٥٥٠ في الأردن؛ وهو يقل عن ٥٠٠ دولار في ست دول هي جيبوتي، والسودان، والصومال، ومصر، وموريتانيا، واليمن [٤٩].

ويكشف التوزيع النسبي للقطاعات على المستوى العربي طبقاً لبيانات التقرير الاقتصادي العربي الموحد عن تراجع الأهمية النسبية لكل من الزراعة والصناعة الاستخراجية والتحويلية لصالح التجارة والخدمات (الجدول رقم ٥)، مما يشير إلى ضعف القاعدة المادية للنشاط الاقتصادي في الأقطار العربية، ومما يزيد من اندماج الاقتصادات العربية في الاقتصاد العالمي. وإذا ما أخذنا زيادة عدد السكان الكبيرة في الوطن العربي فإن مثل هذا التراجع في الناتج القومي الإجمالي وفي مستوى الإنتاج المادي الذي ينعكس ولا شك على مستوى الحياة للمواطن العربي ودرجة الرفاهية التي ينعم بها. ويزداد السكان في الوطن العربي بمعدل سنوي مرتفع يصل إلى ٣ بالمائة، مقابل ١,٧ بالمائة للعالم كله، و ٠,٥ بالمائة فقط للبلدان الصناعية.

جدول رقم (٥)

التوزيع النسبي للقطاعات الاقتصادية في توليد الناتج القومي الإجمالي في الأقطار العربية، أعوام مختارة (نسب مئوية).[٥٠]

	١٩٧٠	١٩٨٠	١٩٨٧	١٩٨٩
الزراعة	١٦,٦	٧,٠	١١,٦	١١,٧
الصناعة الاستخراجية	٢٥,٥	٥٥,٣	١٨,٥	١٩,٩
الصناعة التحويلية	١٠,٧	٦,٨	١٠,٠	١١,٥
التجارة والخدمات	٢٢,٢	٢٠,٢	٣٧,٣	٤٣,٣
الهياكل الأساسية	٢٥,٠	١٠.٨	٢٢,٦	٢٢,٨

وعانى العالم العربي خلال العقد الماضي ولا يزال من تدهور قطاع الزراعة ومن جمود الإنتاج الزراعي. والبيانات في الجدول رقم (٦) توضح تراجع نسب الاكتفاء الذاتي بالنسبة للحبوب واللحوم، ومنتجات الألبان، وهي منتجات غذائية أساسية بالنسبة للمواطن العربي.

جدول رقم (٦)

نسب الاكتفاء الذاتي للإنتاج الزراعي في الوطن العربي ١٩٧٨ ــ ١٩٨٥ (٥١)

المحاصيل الزراعية	متوسط الفترة ١٩٧٨ـ١٩٨١	متوسط الفترة ١٩٨٢ـ١٩٨٥	متوسط النمو السنوي ١٩٧٨ـ١٩٨٥	
	الاكتفاء الذاتي %	الاكتفاء الذاتي %	الإنتاج	إجمالي الطلب
الحبوب	٥٨	٤٠	٤,٠	٥,٣
الفاكهة والخضار	٩,٥	٦,٥	٢,٨	١,٦
القطن	١٩٠	١٩١	٣,٥	٠,٩
منتجات الألبان	٩٣	٨٦	٣,١	١,٩
اللحوم	٨٤	٧٤	٥,٧	٤,٩

ولا يعود هذا التدهور في الإنتاج الزراعي إلى ضعف الإنتاجية فقط، وبخاصة الحبوب، واللحوم، ومنتجات الألبان، إنما يعود أيضا إلى التزايد الكبير في حجم الطلب على هذه المنتجات نتيجة لارتفاع القدرة الشرائية لدى غالبية الفئات الاجتماعية في الوطن العربي، وبخاصة الفئات الاجتماعية الاقتصادية الوسطى والعليا. لذا ينبغي أن تقوم السياسات المستقبلية في القطاع الزراعي على تنمية عرض السلع الزراعية من ناحية، وضبط جانب الطلب من خلال مجموعة من السياسات المستقبلية في القطاع الزراعي تعمل على تنمية عرض السلع الزراعية وتطويرها من ناحية، وضبط جانب الطلب من خلال مجموعة من السياسات الداخلية والسعرية المناسبة، من ناحية أخرى. وباختصار فإن معادلة الأمن الغذائي العربي معادلة لها بعدان: البعد الإنتاجي، والبعد التوزيعي، فإذا غاب أحد البعدين اضطرب الموقف، واختل الميزان(٥٢). ومثل هذه

السياسات لا يمكن التهاون فيها في ضوء التزايد المتنامي لعدد السكان في الوطن العربي، والتوجه الاستهلاكي القوي الذي يسود غالبية فئات المجتمع.

أما بالنسبة للتصنيع فقد تميز بالجمود سواء فيما يتعلق بحجم الإنتاج أو تنوعه، إذ لم يغطِّ الإنتاج الصناعي حاجة الدول العربية من الآلات والسلع الأخرى المصنعة. وبالتالي لم تتمكن هذه الدول من تقليل اعتمادها على المستوردات المصنعة في الخارج. والجدول رقم (٧) يوضح أن ميزان التجارة للصادرات والواردات الصناعية ميزان مختل لمصلحة الواردات بالنسبة إلى البلدان العربية غير النفطية جميعها،وبخاصة بالنسبة إلى بلدان شبه مصنعة كالمغرب، ومصر، ولبنان.

جدول رقم (٧)

معدل تغطية الصادرات الصناعية للواردات الصناعية

(١٩٨١ ــ ١٩٨٣) في البلدان العربية (٥٣)

المجموعة الصناعية الأولى		المجموعة الثانية		المجموعة الثالثة	
	المعاملات		المعاملات		المعاملات
الجزائر	١,٤٨	الأردن	٠,١٤٢	اليمن العربية	٠,٠٣٣
سوريا	٠,٤٦	الإمارات	١,١٧	السودان	٠,٠٢٣
العراق	٣,٠٢	البحرين	٠,٠٧	الصومال	٠,٠٣
المغرب	٠,٤٥	الكويت	٢,٧٤	اليمن الديمقراطية	٠,٣٤
تونس	٠,٧٠	السعودية	٢,٢٥	جيبوتي	٠,٠١١
مصر	٠,٣٩	عمان	٢,٩١	موريتانيا	١,٥٠
لبنان	٠,٢٥	قطر	٢,٢٢		

كما ترافق ازدياد التبعية في قطاعي الزراعة والصناعة أيضاً مع تزايد هائل في حجم الديون الخارجية وأعبائها، مما يفرض قيوداً ثقيلة على جهود التنمية العربية خلال العقد الحالي، وربما خلال العقود القادمة في حالة بعض الدول العربية. والجدول رقم (٨) يوضح تزايد أعباء خدمة الديون الخارجية سواء أكانت نسبة من الناتج القومي

الإجمالي أم نسبة من صادرات السلع والخدمات خلال السبعينات، وحتى بعد منتصف الثمانينات.

جدول رقم (٨)

الأعباء الكلية لخدمة الدين الخارجي في أقطار عربية مختارة(٥٤)

	% من الناتج القومي			% من صادرات السلع والخدمات		
	١٩٧٠	١٩٧٨	١٩٨٧	١٩٧٠	١٩٧٨	١٩٨٧
مصر	—	٨,٧	٥,٣	—	١٢,٢	٢١,٥
تونس	—	٣,٥	١٠,٨	—	١٢,٣	٢٩,٤
المغرب	١,٧	٤,٢	٨,٢	٩,٢	١٨,٧	٣٠,٨
الأردن	٠.٩	٢,٥	١١,١	٢,٦	٤,٠	٢١,٨

ومقارنة حالة التنمية البشرية في البلدان العربية مع بقية أقاليم العالم توضح تواضع مستوى هذه التنمية في هذه البلدان بالنسبة لغالبية المؤشرات المستخدمة . و يوضح الجدول رقم (٩) أن حياة معظم السكان في البلدان الصناعية هنيئة، و مريحة نسبياً،إذ يتجاوز متوسط دخل الفرد ١٢,٠٠٠ دولاراً في العام، و يتجاوز العمر المرتقب ٧٠ سنة في المتوسط . و ينعم الجميع بالمياه و الكهرباء و الرعاية الصحية و الغذاء الجيد ، و الترويج المناسب . و لا تزيد نسبة السكان دون خط الفقر عن ٢ بالمائة فقط .

جدول رقم (٩)

مقارنة حالة التنمية البشرية في الأقاليم المختلفة

(نهاية الثمانينات) (**)

	جنوب آسيا	شرق وجنوب شرق آسيا	أمريكا اللاتينية والكاريبي	الدول العربية	أفريقيا جنوب الصحراء	البلدان النامية
نصيب الفرد من الناتج القومي الإجمالي (بالدولار)	٣٩٠	٥٣٠	١٨٣٠	١٨٢٠	٤٧٠	٧١٠
العمر المرتقب (سنوات)	٥٨,٤	٦٨,١	٦٧,٤	٦٢,١	٥١,٨	٦٢,٨
معدل الوفيات دون الخامسة (لكل ألف)	١٥١	٥٧	٧٢	١٠٦	١٧٩	١١٦
معدل وفيات الأمهات (لكل مائة ألف)	٤١٠	١٢٠	١١٠	٢٩٠	٥٤٠	٢٩٠
معدل القراءة والكتابة بين الكبار (٪ لمن لهم ١٥ سنة فأكثر)	٤٢	٧٢	٨٢	٥٣	٤٥	٦٠
العلميون والفنيون (في الألف)	٣,٠	٠٠	٣٩,٥	٠٠	٠٠	٩,٥
المعدل السنوي لنمو السكان (١٩٦٠ ـ ١٩٩٠)	٢,٣	٢,٠	٢,٤	٢,٧	٢,٨	٢,٣
المعدل السنوي لنمو سكان الحضر (١٩٦٠ ـ ١٩٩٠)	٣,٩	٣,٩	٣,٧	٤,٦	٥,٢	٤,٠
الإنفاق العسكري كنسبة مئوية من الإنفاق على الصحة والتعليم	١٦٤	٠٠	٢٩	١٦٦	٧٠	١٠٩
السكان دون خط الفقر ٪	٤٢	١١	٣	١٥	٧٢	٣٢
الفجوة بين الإناث والذكور في القراءة والكتابة (الذكور ـ ١٠٠)	٤٩	٧٣	٩٥	٥٨	٥٦	٦٦
الفجوة بين الريف والحضر في الحصول على المياه المأمونة (الحضر ـ ١٠٠)	٦١	٧٦	٦٣	٤٩	٣٥	٦٢

و في دول أميركا اللاتينية و الكاريبي يتجاوز متوسط دخل الفرد ١٨٣٠ دولاراً، و يتجاوز العمر المرتقب ٦٧ سنة، وتصل نسبة من يعرفون القراءة والكتابة إلى ٨٣

بالمائة من مجموع السكان.وتنعم الغالبية بالماء والكهرباء، والرعاية الصحية الأولية،والغذاء، والترويح المناسب. ولا تزيد نسبة السكان دون خط الفقر عن ٣ بالمائة فقط.

وفي الدول العربية بمجموعها (بما في ذلك الدول النفطية) يصل متوسط دخل الفرد إلى ١٨٢٠ دولاراً، ولا يتجاوز العمر المرتقب ٦٢,١ سنة،ولا تزيد نسبة من يعرفون القراءة والكتابة عن ٥٣ بالمائة من مجموع السكان الذي قدر عام ١٩٩٠ ب ٢٢١ مليون نسمة يزدادون بمعدل سنوي مرتفع قدره ٣ بالمائة سنوياً(مقابل ١,٧ بالمائة للعالم كله و ٠,٥ بالمائة للبلدان الصناعية).

وتنعم قلة قليلة من السكان بالماء والكهرباء، والرعاية الصحية الأولية، والغذاء والترويح، أما الغالبية العظمى من السكان، الريفيون منهم ، فمحرومون من هذه الخدمات. وتصل نسبة السكان دون خط الفقرة إلى١٥ بالمائة من مجموع السكان،وفي بعض البلدان المحددة تصل إلى ٢٥ أو ٣٥ بالمائة.

لكن مستوى التنمية البشرية في البلدان العربية أفضل في العديد من الجوانب من مستواها في دول شرق وجنوب شرق آسيا، ودول شرقي آسيا وبخاصة فيما يتعلق بمتوسط دخل الفرد، وتوفر الرعاية الصحية الأولية.

كما أن مستوى التنمية البشرية في البلدان العربية أفضل قليلاً من مستواها في الدول النامية بشكل عام التي لا يزال الفرد فيها يعاني من الفقر، والأمية، والحرمان، وعدم الحصول على الخدمات الأولية المناسبة.

وبالتالي لا غرابة في أن نجد نغمة اليأس واضحة في تقرير لجنة الجنوب الذي قدمه جوليوس نيريري [٥٦]، رئيس لجنة الجنوب عام ١٩٩٠، إذ يعكس هذا التقرير مدى التشاؤم العميق الذي يسيطر على دول الجنوب ـــ ومنها البلدان العربية بعد عقود من التنمية التي لم تغير، أو تعدل، من وظيفة هذه البلدان في إطار التقسيم الدولي للعمل.

فما زالت هذه البلدان في غالبيتها، منتجة ومصدرة للمواد الخام، ومستوردة ومستهلكة للسلع المصنعة، والسلع الزراعية والغذائية. ولا تزال هذه البلدان فقيرة وتابعة، ولم تزد فيها درجة الاعتماد على الذات مما أدى إلى استمرار تبعية هذه البلدان وإلى ازدياد الفجوة بين الشمال والجنوب.

ويوضح التقرير العوامل التي أدت إلى هذا الوضع الحزين ــ وهي عوامل تزيد درجة تبعية البلدان النامية ــ بلدان الجنوب ــ وانكشاف اقتصادياتها للمراكز الرأسمالية. ومن أبرز هذه العوامل: الاستثمار الكثيف في الصناعات الاستخراجية،والمنتجات الأولية المعدة للتصدير، واعتماد إقامة المشاريع الإنتاجية على أساس تسليم المفتاح، ووفق تقنيات معقدة لا تنسجم مع حاجات وهذه البلدان وإمكاناتها، ولا مع قدرات العلماء المحليين فيها، وتوظيف رؤوس أموال كبيرة لإقامة الصناعات الاستهلاكية والكمالية لإشباع حاجات فئات اجتماعية محدودة.

وتبرز هذه العوامل بشكل واضح في حالة البلدان العربية، وبخاصة النفطية منها، ذلك أن الاستثمار الكثيف في الصناعات الاستخراجية أكثر ما يميز اقتصادات البلدان النفطية العربية. وهي اقتصادات محكومة بسبب هيكلها ذاته بالتبعية والمحاصرة والهيمنة نظراً لاعتمادها الأساسي على تصدير النفط، ونظراً لأهمية النفط كمصدر للطاقة الصناعية في بلدان المراكز. وتعمد بلدان المراكز هذه إلى إبقاء تدفق النفط إلى صناعاتها وإن أدى ذلك إلى استعمال وسائل عسكرية يشار إليها أحياناً بـ "دبلوماسية السفن الحربية". كما يعمل رجال الفكر في هذه البلدان على بناء النماذج المستقبلية لاستشراف الأزمات المحتملة بهدف اختيار السياسات اللازمة لاستمرار تدفق النفط وعدم انقطاعه عن المراكز الغربية الصناعية.

وهكذا توضح التحليلات التي استرشدت بالمقولات الرئيسية لنظرية تبعية إمكانية الاستفادة من هذه المقولات لفهم العلاقة المعاصرة بين البلدان العربية والغرب

الصناعي كما يوضح منهج المؤشرات المستخدم أن هذه البلدان تعاني بشكل خاص من آثار التبعية الاقتصادية.

وقللت أزمة الخليج وما رافقها من انقسامات سياسية حادة في العالم العربي من سيطرة العرب على ثرواتهم البترولية، وعطلت دور منظمتي الأويك والأوابك اللتين مارستا درجة واضحة من السيطرة على إنتاج هذه الثروات، ما حول العرب من مقرري أسعار إلى متقبلي أسعار.

أما بالنسبة لنظرية النظام العالمي الحديث فإنها في تركيزها على العامل الاقتصادي معياراً لتقسيم الدول طبقياً داخل النظام العالمي وأداة لضم هذه الدول إلى هذا النظام، أهملت العامل السياسي ودوره المميز في بعض المجتمعات النامية ومنها المجتمع العربي.

وعلى الرغم من أن هناك اتفاقاً على أهمية العامل الاقتصادي معياراً للتقسيم الطبقي داخل النظام العالمي، إلا أن هناك اختلافاً حول دور هذا العامل الاقتصادي في البدايات الأولى لعملية ضم المناطق خارج أوربا الغربية إلى النظام العالمي الحديث.

ويؤكد والشتين في هذا السياق أن عمليات الضم هذه وقعت لأسباب اقتصادية،وبخاصة فيما يتعلق بتوفير المواد الخام وما يتعلق بفتح أسواق جديدة.

أضف إلى ذلك، أن هذا التحليل يؤكد أن أداة الضم كانت اقتصادية على الأغلب،وعسكرية في بعض الأحيان. فالتجارة الخارجية إذاً هي الأداة التي سهلت عملية الضم هذه. ويصدق هذا التحليل طبعاً، والى حد كبير، على العلاقة المعاصرة بين دول المركز ودول المحيط، فالتجارة الخارجية حاليا هي الأداة المستعملة لتدعيم هذا الضم وللمحافظة على التقسيم الطبقي الراهن للنظام العالمي الحديث. إن الأدلة التاريخية المتوفرة لنا توضح أن مثل هذا التحليل لا يصدق على البدايات التاريخية لعملية ضم العالم العربي إلى النظام العالمي الحديث، التي بدأت مع نهاية القرن السابع

عشر. فربط مصر مثلاً بالعالم الغربي تم أساساً لأسباب سياسية وعسكرية تتعلق بتأمين طرق المواصلات بين بريطانيا والهند أكثر من كونه، تم لأسباب اقتصادية. وبالإضافة إلى ذلك فإن هذا الضم، أو الربط، لم يتم من خلال التجارة الخارجية، وإنما تم بوسائل عسكرية صرفة بعد هزيمة محمد علي، وبعد تدمير قوته العسكرية، وهذا ما حصل أيضاً في أغلب الدول العربية الأخرى التي خضعت للاستعمار فترة من الوقت.

وبإضافة إلى ذلك فإن رد فعل العالم العربي والإسلامي (الدولة العثمانية آنذاك) أخذ صوراً متعددة، أهمها المقاومة العسكرية التي لم تكن حاسمة أو فعالة نظراً للتفوق التكنولوجي لدول المركز. وكان هناك ردود فعل أخرى إيديولوجية وإدارية، أهمها إصدار السلاطين العثمانيين لما عرف بالتنظيمات في النصف الثاني من القرن الثاني عشر التي هدفت إلى تحديث الجيش والإدارة العثمانية على النمط الغربي الحديث، لكن هذه التجديدات لم تؤد إلا إلى نتائج ملحوظة.

وفي مصر كانت تجربة محمد علي أكثر حظاً من تجربة السلاطين العثمانيين إذ أنها حولت مصر إلى قاعدة صناعية متقدمة مقارنة بما حولها. وكان من الممكن لهذه التجربة، بالإضافة إلى تجربة خير الدين التونسي في تونس، أن تؤدي إلى تنمية تملك مقومات النجاح في عصر لم تكن التكنولوجية الأوربية قد وصلت فيه إلى التعقيد الذي وصلته فيما بعد. لكن ضم مصر، والبلدان العربية الأخرى بالإضافة إلى الدولة العثمانية نفسها، فيما بعد، إلى النظام العالمي الحديث، أجهض هذه التجارب التي كانت تملك مقومات ذاتية للنجاح، وكانت أداة الإجهاض عسكرية وسياسية خالصة، ويشرح جلال أمين ذلك:

"إن من المهم التمييز بين العقود الأربعة الأولى من القرن التاسع عشر وما تلاها. لقد شهدت هذه العقود الأربعة محولات رائعة لتحقيق نهضة عربية مستقلة، تعتمد على

الطاقات الاقتصادية والفكرية الذاتية. وتدل كل الدلائل على أن هـذه المحـولات لـو تركت وشأنها دون ضغط خارجي لكانت جديرة بأن تثير تقدماً اقتصاديـا لا يضحـى معه بالسمات الخاصة للثقافة العربية والإسلامية،وبأن تؤدي إلى قيام الدولـة الغربيـة الواحدة، في الوقت نفسه (٥٧) .

والجدير بالذكر أن اليابان بدأت نهضتها في هذه المرحلة أيضا واسـتطاعت نتيجـة السياسات الحكومية الفعالة، وربما نتيجة لعدم استعمارها وضمها بالقوة إلـى النظـام العالمي الحديث، أن تنقل العالم الغربي، وبخاصة من اللغة الهولندية إلى اليابانيـة، وأن تخلق قاعدة صناعية واسعة أدت بالتدريج إلى نهضة اليابـان إلـى دولـة رأسـمالية مزدهرة ذات طابع شرقي ياباني.

ومن الصعب تقييم الدور الذي أداه الاستعمار في التأثير على النمو الداخلـي للـدول العربية في دراستنا الحالية فهو موضوع مستقل في ذاته. لكن يكفي هنا أن نشير إلـى أن الاستعمار أدخل العالم العربي من أقصاه إلى أقصاه ضمن المنظومة الدولية للنظـام العالمي بشكل كامل مؤدياً إلى عرقلة عملية التنمية الذاتية التي استمرت لفترة محـدودة من الوقت. ويوضح سمير أمين هذا الدور المخرب للاستعمار بقولـه: "فـي تـاريخ تشكيلة العالم العربي المعاصر يمكن تمييز ثلاث فترات واضحة: الأولـى مرسـومة بإدراك الخطر الأوربي، وأحياناً بالمحاولة لتقليد أوروبا من أجـل مقاومتـها بشـكل أفضل، وسيؤدي فشل هذه المحاولة إلى الاستعمار الذي تكتسب خلالـه التشـكيلات العربية طابعها المحيطي التبعي النهائي. أما الفترة الثالثة فهي فترة إعادة النظـر فـي هذه لتبعية وذلك ابتداءً من الخمسينيات" (٥٨) .

هذه الأدلة التاريخية تقدم ما يكفي لانتقاد التحليل التاريخي لنظريـة التقسـيم الدولـي للإنتاج، ولكنها قطعاً لا تنتقص من أهمية تحليل الواقع المعاصر لعلاقات دول العـالم. فلا شك في أن العالم اليوم يمكن النظر إليه على أنه مقسم طبقياً عـل أسـاس نمـط

الإنتاج، بالإضافة إلى تقسيمات أخرى أيديولوجية، أو جغرافية ... الخ. والدول التي تمثل الطبقة العليا (المركز) هي الدول التي تقوم على التصنيع الكثيف، والدول التي تشغل المكانة الطبقية الدنيا (دول التخوم أو المحيط) هي دول العالم الثالث. وتحرك هذه الدول طبقياً وتحسن مركزها بين الدول الأخرى يرتبط، كما توضح النظرية،بتغير نمطها الإنتاجي تغيراً جذرياً. ولكن كما أشرت سابقاً فإن النظرية لا تقترح لنا الوسائل أو الأدوات المناسبة لتحقيق مثل هذا الانتقال.

تلخيص وخاتمة

هدف هذا البحث إلى توضيح المقولات الأساسية لكل من النظريات التالية: نظرية التحديث، ونظرية التبعية، ونظرية النظام العالمي الحديث، من خلال مراجعة لأهم أعلام هذه النظريات وكتاباتهم، وبخاصة أولئك الذين أجروا دراسات على المجتمع العربي. وهدف البحث أيضاً إلى تقييم قدرة هذه النظريات على تفسير عمليات التنمية في المجتمع العربي في ضوء الأطروحة الرئيسية التي يقوم عليها التي تقول إن هذه المقولات في مجملها لا تنطبق على واقع المجتمع العربي، إذ إنها طورت في ضوء التجربة التاريخية لأوربا الغربية.

وتوضح الأدلة والتحليلات التي يقدمها هذا البحث أن نظرية التحديث تعالج التنمية في المجتمعات العربية وكأنها عملية داخلية بحتة تتم بمعزل عن الإطار المجتمعي الدولي على الرغم من أهمية الدور الذي يؤديه هذا الإطار، في التأثير على التنمية في المجتمعات العربية. وتهمل هذه النظرية الخصوصية البنائية والثقافية للمجتمعات العربية في تأكيدها أن هذه المجتمعات تتجه نحو صورة مشابهة للمجتمع الغربي الحديث .

أما بالنسبة لنظرية التبعية فعلى الرغم من أهمية مقولاتها وقدرة هذه المقولات على توجيه الباحث لتحليل عمليات النمو والتحديث في عدد من المجتمعات النامية،وبخاصة

في أمريكا اللاتينية، إلا أنها، في مجملها لا تساعدنا كثيراً في فهم التنمية في المجتمع العربي، ويعود ذلك إلى عاملين أساسيين يحللهما البحث ببعض التفصيل هما:

١) على الرغم من وقوع أغلب أجزاء المجتمع العربي تحت الحكم الاستعماري الأوروبي المباشر، إلا أن هذا الاستعمار لم يقع أساساً لأسباب اقتصادية ــ كما تذكر نظرية التبعية ــ إنما وقع لأسباب سياسية تتعلق بالصراع بين بريطانيا وفرنسا على السيطرة على الطريق على الهند.

أضف إلى ذلك، أن المجتمع العربي قبل اكتشاف البترول لم يكن يملك ــ فيما عدا أجزاء محدودة منه ــ ثروات الهند، أو أمريكا الجنوبية. وبالتالي فقد ابتعد المستعمر الأوروبي في أغلب الأحيان عن أجراء عمليات نقل واسعة للثروات الوطنية إلى المركز كما حصل في الهند.

٢) قد تكون العلاقة بين العالم العربي وأوروبا الغربية، وبخاصة بعد وقوع أجزاء واسعة من العالم العربي تحت السيطرة الاستعمارية المباشرة علاقة تبعية سياسية،لكن في الوقت الحاضر، لا تنظر غالبية البلدان العربية إلى علاقاتها مع أوروبا الغربية على أنها علاقة تبعية، وبخاصة في المجال السياسي، إنما تنظر إليها على أنها علاقة محايدة نسبياً. لكن التبعية الاقتصادية موجودة بشكل واضح، فهي حقيقة قائمة ترتبط بإنتاج المواد الخام في البلدان العربية، والمكانة التي تحتلها هذه المواد بالنسبة للغرب الصناعي.

وهذه التبعية ليست للرأسمالية الغربية بالتحديد، إنما هي تبعية للمراكز الصناعية بشكل عام بما في ذلك اليابان.

على الرغم من دور مفهوم "التبعية" في معارضته نظرية لتحديث وتقويض مقولاتها،إلا أنه لم يقدم للبلدان النامية تفسيراً حقيقياً للتخلف فيها. ولم ينجح هذا المفهوم، والمقولات التي استندت إليه ــ كما أوضح تحليلنا في هذا البحث ــ في اقتراح آليات نقالة لتقليل التبعية، أو نفيها، لتحقيق التنمية في البلدان النامية بشكل عام.

وبالنسبة لنظرية النظام العالمي الحديث، أو التقسيم الدولي للإنتاج، أوضح تحليلنا في هذا البحث أن هذه النظرية تركز على نمط الإنتاج السائد الذي يعتبر المؤشر الأساسي على درجة النمو في المجتمع، وعلى المكانة الطبقية التي يشغلها هذا المجتمع داخل النظام العالمي الذي بدأ بالتشكل في بدايات القرن السادس عشر الميلادي. وتقترح النظرية آلية يمكن من خلالها تحقيق التنمية في البلدان النامية، والانتقال بعد ذلك إلى مكانة طبقية أعلى داخل النظام لعالمي هي الانتقال بالنمط الإنتاجي من الإنتاج الزراعي البسيط إلى الإنتاج الصناعي الكثيف. مما يعني أن هذه النظرية ـ على عكس نظرية التبعية ـ تطرح صورة متفائلة إلى حد ما للعلاقة بين دول المركز ودول المحيط، أو على الأطراف.

لكن ـ على الرغم من ذلك ـ أوضح تحليلنا في هذا البحث أن نظرية النظام العالمي الحديث في تركيزها على العامل الاقتصادي لصفته معياراً لتقسيم الدول طبقياً داخل هذا النظام، وأداة لضم الدول إلى هذا النظام، أهملت العامل السياسي ودوره المميز الذي يضطلع به في المجتمعات النامية بشكل عام، وبخاصة المجتمع العربي. وتوضح الأدلة التاريخية التي استند إليها هذا البحث، أن ضم العالم العربي والإسلامي وإدماجه في هذا النظام حدث لأسباب سياسية تتعلق بالتنافس بين بريطانيا وفرنسا على قيادة النظام العالمي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين. كما أوضحت هذه الأدلة أن أداة الضم لم تكن اقتصادية، بل عسكرية، كما أن رد فعل العالم الإسلامي (الدولة العثمانية آنذاك) على هذا الضم أخذ أشكالاً سياسية، وبخاصة عسكرية، لكنها لم تكن ناجعة، أو فعالة. مما أدمج العالم العربي والإسلامي في النظام العالمي كأحد أطراف هذا النظام العديدة ـ وهي المكانة التي لا يزال يشغلها هذا العالم العربي والإسلامي إلى اليوم داخل النظام العالمي الحديث.

المراجع

1- Un, Economic Development in selected countries:plans, progress, and agencies, New York: Un, 1947,p. xv; and gerald M. Meir, and Robert E. Baldwin, Economic development: theory, history, and policy, New York: John Willy, 1963, pp. 1-16.

٢ـ راجع: يوسف صايغ، مقررات التنميـــة الاقتصاديـــة العربيـــة، ج٣، بـــيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٥، ص١٢ـ ١٩؛ وأيضاً:

سيمون كوزينتس، النمو الاقتصادي الحديث (مـــترجم)، بـــيروت: دار الآفـــاق الجديدة، ١٩٦٦، ص٧؛ وأيضاً:

Edward shils, political development in the new states, englewood cliffs: prentice – hall, Inc. 1965, p. 10.

3- Gunnar Myrdal, "cleansing the approach from biases in the study of underdeveloped countries, social science indormation, vol. VIII-3,pp. 9-29, 1967; and B.F. Hoselitez, socilogical aspects of economic growth, N.Y.:free press, 1960; and david lerner, the passing of traditional societies: modernizing the middle east, N.Y.: free press, 1958.

4- Talcott parsons, "comparative studies and evolutionary change", pp.97-139 in Ivan Vallier (ed.), Comparative Methods in Sociology, 2nd ed., Berkely: University of California Press, 1973-, pp. 115-139.

٥ـ دافيد مـــاكليلاند، مجتمـــع الإنجـــاز: الدوافـــع الإنســـانية للتنميـــة الاقتصاديـــة (مترجم)،القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٥ ، وبخاصة الفصل الأول.

٦ـ افيرت هاجن، اقتصاديات التنمية (مترجم)، عمان: مركز الكتاب الأردني،١٩٨٨.

7- Alex Inkeles and David smith, Becoming Modern: Individual Change in sex Developing Countries, Cambridge: Harvard University Press 1974, PP. 290-300.

٨ــ نبيل السمالوطي، علم اجتماع التنمية: دراسة في اجتماعيات العالم الثالث،بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨١ ،ص ص ١١٩ــ١٣٣.

9- David Lerner, The Passing of Traditional Society.

10- Joseph Kahal, The Measurement of Modrnity: A Study of values in Brazil and Mexico, University of Texas Press, 1961.

11- Walter Rostow, The Stages of Econmic Growth A Non-Communist Manifesto, Cambridge University Press, 1962.

١٢ــ دافيد ماكليلاند، مجتمع الإنجاز (مترجم)؛ وافيرت هاجن، اقتصاديات التنمية (مترجم)، عمان: مركز الكتاب الأردني،١٩٨٨.

13- Alex Inkeles and David Smith, Becoming Modern.

14- R. Prebischi, Towàrd A New Trade Policy for Development, Report by The Secretary general of the UNCTAD, UN: New York, 1964

15- Fernando Henrique Cardos and Enzo Faletto, Dependency and Development in Latin America, Transe. By Marjory Mattingly Urquidi, Barkely: Univ. of California Press, 1974.

16- Paul Baran and Paul M. Sweezy, Monopoly Capital: an Essay on the American Economic and Social Order, New York: Monthly Review Press, 1966, and Paul Baran, The Political Economy of Growth, New York: Montly Review Press, 1957, PP. 27- 34, and PP. 144-150.

١٧ــ سمير أمين، التراكم على الصعيد العالمي: نقد نظرية التخلف، ط٢، ترجمة حسن قبيسي، بيروت: دار ابن خلدون، ١٩٧٨ ، ص ص ٢٥ــ٥١؛ والتطور

اللامتكافئ: دراسة في التشكيلات الاجتماعية للرأسمالية المحيطية، ترجمة برهان غليون، بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٤؛ وجلال أمين، المشرق العربي والغـــرب: بحث في دور المؤثرات الخارجية في تطور النظام الاقتصادي العربي والعلاقات الاقتصادية العربية، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيــــة، ١٩٧٩؛ وعبـــد الخالق عبد الله، "التبعية والتبعية الثقافية"، مجلة المستقبل العربي، السنة ٨، العـدد ٨٣: ١٥ــ٢٤، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦.

18- Dos Santos, Theodore, "The Structure Dependence", American Economic Review, Vol. Ix, No. 2, PP. 231-240, 1963.

19- A.G. Frank, Capitalism and Underdevelopment in Latin America: Historical Studies in Chile, and Brazil, New York: Montly Review Press, 1967.

20- Ropert Brenner, "Agrarian Class Sturcture and Economic Development in Pre-Industrial Europe", Past and present, No. 70, 1976.

21- Immanuel Wallerstein, The Modern World system: eapitalist Agrieultuve and the origins of European world Economy in the Sidteenth Century, N.Y.: Academic Press, 1974.

22- Immanuel Wallerstein, The Modern World System, pp. 228-240.

٢٣ــ سمير أمين، إمبراطورية الفوضى، ترجمة د.سناء أبـــو شـــقرا، بـيروت: دار الفارابي، ١٩٩٢، ص ص ٨ــ٨٧.

24- Samir Khalaf and E. Shwaiyri, "Family Firms and Industrial Development: The Lebaness Case", Economic Development and Cultural Change, Vol. 15, PP.59-69, 1968.

٢٥ــ ٢٦ــ راجع: مجد الدين خيري، العلاقات الاجتماعية في بعض الأسر النوويــــة الأردنية، عمان: جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٨٤؛ سليمان خلف، "قـــراءة نقدية للأنماط واستخداماتها في انثربولوجية الشـــرق الأوســـط"، مجلـــة العلـــوم

الاجتماعية، المجلد ١٣، العـــدد ٤، الكويـــت، جامعـــة الكويـــت، ١٩٨٥، ص ص٣٦٩ــ٣٩٩؛ فهد الثاقب، "الروابط العائلية ــ القرابية في مجتمـــع الكويـــت المعـــاصر". حوليـــات كليـــة الآداب، الحوليـــة الثالثـــة، الكويـــت: جامعـــة الكويت،١٩٨٢؛جهينة سلطان العيسى، "تأثير صناعة النفط على تحديث اتجاهات وقيم العمال: دراسة ميدانية"، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربيـــة، الســـنة ٦،العدد٢٢، ص ص:٥٣ــ٧٠، الكويت: جامعة الكويت، ١٩٨٠.

27- Joseph Gusfield, "Tradition and Modernity: Misplaced Polarities in the Study of Social Change", American Journal of Sociology, No. 72, pp 352-362. 1968.

28- Loyd I Rudolph, and Susanne Hoeber Rudolph, The Modernity of Tradition: Polilical Development in India, Chicago: University of Chicago Press, 1967, pp. 3-4.

29- Breian Turner, Marx and the End of Orientalism, London: Allen and Unwin, 1978.

30- Gunner Myrdal, "Cleansing up the Approach......" pp. 9-14.

31- S. N. Eisenstatdth, "Post – Traditional Societies and the Continuity and Reconstruction of Tradition, Deadalus, Vol. 9,pp. 1-27, 1973.

٣٢ــ علي حيدر إبراهيم، " تطور علم اجتماع التنمية في العالم العربي"، مجلة العلـــوم الاجتماعية، المجلد ١٥، العدد ١ ص١٢٠ــ١٥٧، الكويت: جامعة الكويـــت، ص ١٤٥ــ١٤٦، ١٩٨٨.

33- Majduddin Omar Khairy, Jordan and the World System: Development in the Middle East. West Germany, Verlag Peter Lang, 1984, pp. 23-25.

34- H. Dodwell, The Founder of Modern Egypt. A Study of Muhammed Ali, Cambridge: University Press, 1931.

٣٥ـ عبد الوهاب بكر، "ملاحظات على الحياة الاقتصادية في ولاية مصر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر"، ص ص ٣٠١ـ٣٣٠، في عبد الجليل التميمي، الحياة الاقتصادية للولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني،ج١، وج٢، تونس: مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني. ١٩٨٦.

٣٦ـ سمير نعيم أحمد، "التكوين الاقتصادي والاجتماعي وأنماط الشخصية في الوطن العربي"، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد٤، ص ص٨٣ـ١٣٧، الكويت: جامعة الكويت، ١٩٨٣.

٣٧ـ شارل عيسوي، تاريخ اقتصاد للشرق الأوسط وشمال إفريقيا، ترجمة صليبا بطرس، القاهرة، مكتبة الوعي العربي، ١٩٨٣، ص٣٠، وص٢٧٨.

38- Frances V. Moudlder, Japan, China, and the Modern World Economy, N. Y.: Cambridge University Press, 1978.

٣٩ـ بتصرف عن: فؤاد مرسي، الرأسمالية تجدد نفسها، الكويت: وزارة الثقافة والارشاد القومي، ١٩٩٠،ص٣١٨.

٤٠ـ محمد أزهر السماك، "قياس التبعية الاقتصادية في الوطن العربي وتأثيراتها الجيوبوليتكية المحتملة"، مجلة المستقبل العربي، العدد٩١،بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦، ص٧٩.

٤١ ـ إبراهيم العيسوي، قياس التبعية في الوطن العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٩ ، جدول رقم ٣ ـ ٣٠ ، ص١٧٦.

٤٢ ـ إبراهيم العيسوي، قياس التبعية...ص١٧٦.

٤٣ ـ عبد الوهاب رشيد، التجارة الخارجية وتفاقم التبعية العربية، بيروت: معهد الإنماء العربي، ١٩٨٤.

٤٤ ــ الاتحاد العام لغرف التجارة والصناعة والزراعة في البلدان العربية، التقرير الاقتصادي العربي، الدمام: الأمانة العامة للاتحاد، ١٩٨٧ ، ص١٢٦ ــ ١٢٧،وص٢٢٨ ــ ٣٦٢

٤٥ ــ مجلس الوحدة الاقتصادية العربية، الأمانة العامة، دراسة مقارنة للتكامل الاقتصادي العربي وتجارب التكتلات الدولية وأنظمتها في مجال التكامل الاقتصادي وطريقة عمل تلك التكتلات، الأمانة العامة: ١٩٨٣، ص٣٩٦.

٤٦ ــ بتصرف عن: جامعة الدول العربية، الأمانة العامة، التقرير الاقتصادي العربي الموحد، ١٩٩، جامعة الدول العربية، ١٩٩١، جدول رقم ١، ص٣٩.

٤٧ ــ جامعة الدول العربية، التقرير الاقتصادي العربي الموحد،١٩٩٠ ....، ص٤٢.

٤٨ ــ بتصرف عن: جامعة لدول العربية، التقرير الاقتصادي العربي الموحد،١٩٩٠، جدول رقم٤، ص٤٢.

٤٩ ــ جامعة الدول العربية، التقرير الاقتصادي العربي الموحد، ١٩٩٠، ص٤٢.

٥٠ ــ جامعة الدول العربية، التقرير الاقتصادي العربي الموحد، أعداد متفرقة.

51- UN, and league of Arab States, Unified Arab statistical Abstracts 1979 – 1986, 2nd Issue, Baghdad, 1989, Table 11-2,p. 466.

٥٢ ــ ابراهيم سعد الدين ومحمود عبد الفضيل (محرران)، وآخرون، التنمية العربية،ط١، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٩ ، ص١٠٩.

٥٣ ــ ابراهيم سعد الدين ومحمود عبد الفضيل (محرران)، التنمية العربية .... جدول رقم ٣ ــ ١٠، ص١٣٧.

٥٤ ــ بتصرف عن

The world bank, world development report, Washington D.C.,The bank, 1989, table 23, pp. 208 – 209.

والبنك الدولي، تقرير عن التنمية في العالم ١٩٨٠، واشنطن دي ســـي، البنــك الدولي، جدول ١٣، ص ١٥٢ ــ ١٥٣.

٥٥ ــ البنك الدولي، تقرير عن التنمية في العالم ١٩٩١، واشنطن دي ســـي: البنــك الدولي، ١٩٩١، جدول رقم ٢ ــ ٢، ص٤٥.

٥٦ ــ جوليوس نيريري، رئيس لجنة الجنوب: "تقرير لجنة الجنوب: تحديـــات أمـــام الجنوب"، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٠، ص٨٩.

٥٧ ــ جلال أمين، المشرق العربي والغرب: بحث في دور المؤثرات الخارجية فـــي تطور النظام الاقتصادي العربي ...ص ١٥٠.

٥٨ ــ سمير أمين، التطور اللامتكافئ ص٢٣١.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق ١٩٩١/٨/٢٨

أثر العوامل الطبيعية في الطرق ووسائط النقل بالسيارات بين قرية جديدة الوادي ومركز التكية في منطقة وادي بردى

د. هيثم ناعس
كلية الآداب ــ قسم الجغرافيا
جامعة دمشق

الملخص

لاشك في أن للعوامل الطبيعية أثراً بارزاً في عمليات إنشاء الطرق وحركة وسائط النقل والمواصلات، بشكل عام، على الرغم من توافر التقانات الحديثة والإمكانات المادية الكبيرة، التي تساعد في تذليل، الكثير من العقبات، في العصر الحاضر، أمام تنقل الإنسان بوسائط حديثة على درجة كبيرة من التطور.

ويبدو ذلك واضحاً في المناطق الجبلية، من سورية، ومنها منطقة دراستنا، في القطاع المحصور بين قرية جديدة الوادي ومركز التكية في منطقة وادي بردى. إذ يخضع النقل في هذا القطاع لتأثير عدد من العوامل الطبيعية، التي تتحكم تحكماً كبيراً في رسم شبكة الطرق وتحديد مسارها، في هذه المنطقة ذات الأهمية الاقتصادية الكبيرة، وخاصة من الناحية الترويجية بالنسبة لدمشق العاصمة، بشكل خاص، وللقطر السوري والأقطار العربية الأخر بشكل عام.

١.مقدمة:

تعد طرق النقل البري شرايين حيوية تربط المناطق المختلفة التي تجتازها وتصلها بالمواقع، والمراكز المتعددة لتتزود بجميع احتياجاتها، ومتطلباتها الحياتية. وتسهم وسائط النقل المتنوعة في عمليات نقل الركاب والمنتجات بين المناطق الاقتصادية المختلفة.

ولاشك في أن العامل الطبيعي لايزال يؤخذ بالحسبان، أو يشكل أحياناً عقبة أمام عمليات شق الطرق وإنشائها ولاسيما في المناطق الجبلية. لكن الإنسان في الوقت الحاضر ،بإمكاناته المادية الكبيرة وتقاناته الحديثة والمتطورة قلل كثيراً من الصعوبات والمعوقات التي كان يستحيل التغلب عليها، في بعض الأحيان.

ولا يعني ذلك بحال من الأحوال أن الإنسان قد تمكن، بصورة مطلقة، من التغلب بسهولة على العوامل الطبيعية جميعها، فبعضها مازال يشكل عوائق فعلية وأخطاراً حقيقية كبيرة لابد من أخذها بالحسبان عند القيام بعمليات شق الطرق، في المناطق الجبلية، كما هو الحال في منطقة دراستنا. وقد حدد أ. باغ (١) أهم العوائق التي تعيق النقل، وتجعله شاقاً في المناطق الجبلية، كما يلي :

١ ــ شدة انحدار السفوح والمنحدرات.

٢ ــ غزارة التهطال ولاسيما الثلجي منه.

٣ ــ شدة أعمال الحت والانتكال.

ففي المناطق الجبلية تنشط عمليات السيلانات الطينية، وحركات انزلاق التربة، وانهيار الصخور من المرتفعات والسفوح نحو الأودية والمنخفضات. ولايقل عن ذلك الأثر التخريبي لعملية التجلد والتميع وتدفق مياه الأنهار الجبلية والسيول، وماتحمله من مجروفات وأنقاض ولاسيما في مواسم الفيضان.

٢. منطقة الدراسة:

تقع قرى منطقة وادي بردى، ضمن قطاع الدراسة المحصور، مابين قريتي جديدة الوادي (الشيباني) في الجنوب الشرقي والتكية في الغرب، إلى الشمال الغربي من العاصمة دمشق، على مسافة ١٥ كم إلى الجنوب من مدينة الزبداني.

وتحظى هذه المنطقة بأهمية بالغة، من حيث موقعها من مدينة دمشق التي لاتبعد بدورها عن مدخل بلدة جديدة الوادي أكثر من ١٦ كم. (انظر المصور المرفق رقم ١)

يعد القطاع المذكور جزءاً من منطقة ترويجية هامة، ومتنفساً طبيعياً للعاصمة، وسكانها والزائرين والقادمين إليها، بسبب تنوع مظاهرها الطبيعية، ففيها الجبال والأودية والسهول، وفيها المياه والخضرة، والمنشآت الترويجية المختلفة. وهذا مايجعلها مركز جذب واستقطاب للمصطافين والمتنزهين الذين يقصدونها أو يمرون عبرها، من العاصمة، باتجاه مصايف منطقة الزبداني والبلدات المحيطة.

يعزى التفاعل المتبادل بين المنطقة المعنية وبين العاصمة إلى جملة أسباب وعوامل أهمها:

أ - الدور الترويحي الذي تقوم به المنطقة. والتي تشكل مركزاً رئيساً من مراكز الاصطياف الهامة في القطر العربي السوري.

ب - التبادل الاقتصادي بينهما. حيث تعد منطقة دراستنا مصدراً رئيساً للعاصمة لأنواع الفواكه والثمار والخضر الصيفية المختلفة، وبالمقابل فإن العاصمة تزودها بالحاجيات والسلع الحياتية المتنوعة وبالمواد المصنعة.

ج - تبعيتها للعاصمة من الناحية الإدارية والخدمية والثقافية والعلمية والتعليمية. مما ينشط حركة سكان الوادي إلى دمشق بشكل ملحوظ.

الزبداني

مضايا

التل

عين الفيجة

دمشق

داريا

مركز محافظة يضم حكماً : فندق - مطعم - مخفر شرطة - بريد - هاتف - صيدلية - طبيب - مستشفى - محطة بولمان - محطة محروقات - صيانة سيارات

مركز منطقة يضم حكماً : مخفر شرطة - بريد - هاتف - صيدلية - طبيب - مستوصف - محطة محروقات - صيانة سيارات

مركز ناحية يضم حكماً : مخفر شرطة - بريد - هاتف - نقطة طبية

بلدة تضم حكماً : مخفر شرطة - بريد - هاتف - نقطة طبية

قرية من الدرجة ١ - تضم حكماً : مخفر شرطة - بريد - هاتف

قرية من الدرجة ٢ تضم حكماً : مخفر شرطة - هاتف

قرية تضم خدمات متفرقة

حدود دولية

طريق دولية (اوتوستراد)

طريق مركزي

طريق محلي

سكة حديدية

مجرى نهر

مسافة كيلومترية

المقياس 0 2 4 6 KM

ويبرز الترابط والتفاعل الوثيقان بين دمشق وقرى الوادي أهمية الطرق ودور وسائط النقل بالسيارات، وفي تحقيق التكامل والتوازن في المجالات المختلفة، ولاسيما التبادلية منها، وعلى رأسها نقل الركاب والبضائع.

يمتد طريق الوادي، في القطاع المدروس، من قرية جديدة الوادي إلى قرية التكية بطول ٢١ كم. مسايراً في معظم قطاعاته، للسفوح الجبلية، متدرجاً في ارتفاعه، فوق سطح البحر من ٧٥٠ متر حتى ٩٥٠ متراً، مجانباً في خط سيره لمجرى نهر بردى تقريباً،على ارتفاع نسبي عنه يزيد على ٢٠ متراً في العديد من المواقع.

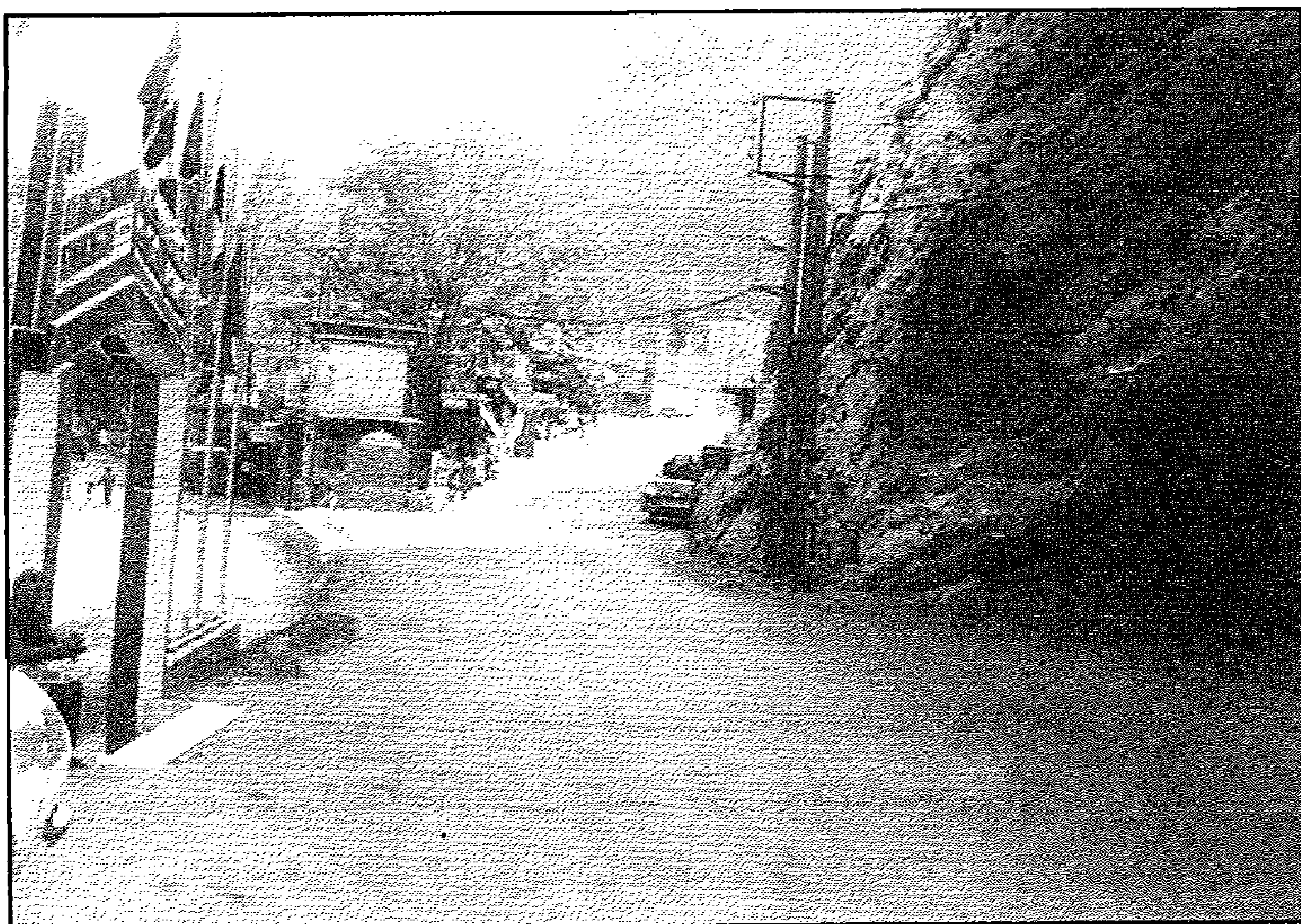
إن الامتداد المذكور، يجعل الطريق ومساره مقيدا، من الناحية الطبيعية، مابين مجرى الوادي النهري والسفوح الجبلية، ولم يتمكن الإنسان رغم تقاناته أن يغير أو يتحكم كليا بخط سيره العام الذي يرتبط، بوادي النهر، وإلى حد كبير بالخصائص التضريسية للمنطقة. هذا مايجعل طريق الوادي يأخذ في امتداده العام، الشكل الخطي المتعرج، الذي يتفرع باتجاهين وخاصة نحو اليمين، للوصول إلى التجمعات والمنشآت السكنية والخدمية والإنتاجية، عبر الجسور الحجرية والإسمنتية الضيقة والقديمة، التي تمتد فوق مجرى النهر، إلى أشرفية الوادي وبسيمة وعين الخضراء وعين الفيجة وكفير الزيت.

يعد هذا الطريق من الناحية الفنية مناسبا لاستيعاب حجم الحركة العادية للسير (نحو ١٨٥ سيارة/ساعة)، ولكنه يغدو عاجزا، نسبيا عن تحقيق ذلك، في أوقات الاختناقات الحركية أو الأوج الحركي، التي تزيد فيها حركة السير على ٣٣٩ سيارة/ساعة، والتي تتزامن مع موسم الاصطياف خلال فصل الصيف، عندما يتزايد عدد الوافدين إليها وتنشط عملية نقل المحاصيل الزراعية، وخاصة الفواكه، منها باتجاه دمشق، مما يؤدي إلى ارتفاع حركة السير اليومية، وخاصة أيام الجمع والأعياد.

ويعزى هذا العجز النسبي، في أوقات الاختناقات، إلى كونه طريقا ضيقا وحيد المحور للذهاب والإياب معا. ولايزيد عرضه الإجمالي، مع الحواف الجانبية، إن وجدت على

٩,٦ أمتار، ويضيق في بعض المواقع إلى ٧ أمتار أو دون ذلك، بسبب ضغط العوامل التضريسية، وخاصة عند الخوانق النهرية، كما هو موضح في الصورة رقم (١) عند خانق عين الخضراء.

ويزيد عرض الطريق أحياناً ليصل إلى ١٢,١ متراً مع الأرصفة الموجودة وذلك عند مداخل القرى والتجمعات البشرية الكبيرة.



الصورة رقم (١)

٣.الهدف من الدراسة:

يهدف البحث إلى دراسة المؤثرات الطبيعية المختلفة، وإظهار درجة فاعليتها، ومدى تأثيرها في عمليات شق الطرق، واختيار نوعيتها، وحركة وسائط النقل (بالسيارات) في

القطاع الأوسط من منطقة وادي بردى، لتحديد شروط الاستخدام الأمثل للطرق والسيارات، من أجل استغلال الثروات والموارد المتوافرة كافة. والعمل على تحسينها وتطويرها وفق أفضل الشروط والإمكانات المتاحة.

٤ـ طرق البحث ووسائله المعتمدة:

اعتمدت الدراسة، بالدرجة الأولى، على أسلوب الملاحظة العلمية، والبحث الميداني للمنطقة، لتحديد مختلف المظاهر الطبيعية التي تؤثر في مسارات الطرق ووسائط النقل. وتم وضع بعض المقاطع الجيولوجية والطبوغرافية، المأخوذة عن الخرائط المتوافرة لمنطقة الزبداني من مقياس ١/٥٠٠٠٠، والمخططات الإدارية والتنظيمية لقرى المنطقة من مقياس ١/١٠٠٠٠. فضلاً عن الإفادة من الصور الفوتوغرافية الملتقطة لتفسير بعض الظواهر المدروسة.

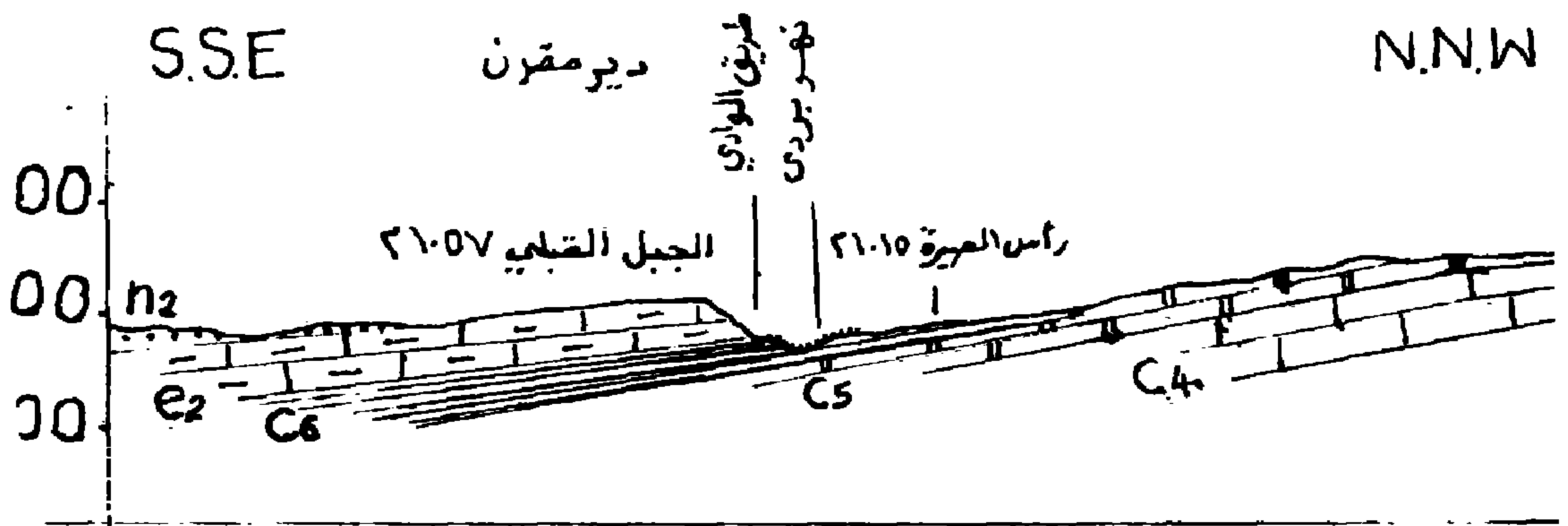
٥ـ المؤثرات الطبيعية (الجيولوجية والمناخية والجيومورفولوجية) في الطرق ووسائط النقل في المنطقة:

تغطي التوضعات الرباعية البحرية حوض وادي بردى الأوسط، ويغلب عليها التوضعات التضريسية المارنية، والطف الكلسي البحيري الرمادي المصفر الذي تتخلله بعض الأشرطة من الحصى الكلسي ورسوبيات أخرى لحقية نهرية تتألف من الحصى والرمال والغرين والغضار والكلس.

"ومما يميز وادي بردى أنه يقطع السلاسل الجبلية بمحور يتعامد معها في معظم قطاعاته وقد أسهمت بعض العمليات البنائية والصدوع الصغيرة في رسم خط سير الوادي الذي قام الحت النهري الرأسي الصاعد فيه بتحديد معالمه الحالية. وقد تعمق الوادي في

التوضعات البحيرية الرباعية التي تشكلت في الوادي بين التكية وعين الفيجـــة، وفـــرغ معظمها وشكل فيها مصاطبه النهرية في الحقب الرابع الجيولوجي وعددها أربع" (٢).

وبتحديد البنية الجيولوجية وطبيعة المنطقة التي حفر نهر بردى واديه فيها ويمــــر بـــها محور الطريق يمكن القول، إنها عموما، صالحة ومناسبة لشق الطرقات. والمقطع التالي يبين طبيعة التوضع الستراتوغرافي الطبقي، ضمن قطاع دير مقرن.



C4 ــ كلس دولوميتي رمادي غامق قمة (السينوماني).

C5 ــ صخور كلسية مارنية ٢٥٠ متر (توروني).

C6 ــ مارنيات دمر البيضاء ٤٠٠ متر (كريتاسي علوي أساس الأيوسين).

E2 ــ رنيات بيضاء وصخور كلسية (أيوسين أوسط).

N2 ــ مشبكات سهل الصحراء ــ طف نهر العراد البحيري (نيوجين المعقـد العلوي).

من بدء القطاع المدروس الممتد من مدخل جديدة الوادي إلى بسيمة تظهر طبقـات مـن النيوجين العلوي، التي تتكون من مشبكات سهل الصحرة وطف نهر العراد البحيري. في حين تتكشف طبقات من الإيوسين الأوسط، التي تتكون من مارنيات بيضـاء وصخـور كلسية حطامية على شكل حبيبات رملية متماسكة، على طول الامتداد الواقع مابين عيـن

الخضراء وعين الفيجة، وتظهر في منطقة سوق وادي بردى التوضعات المارنيـــة ــ السينونية. ويتابع الطريق امتداده غرباً ليخترق طبقة من الصخـور الكلسـية المارنيـة العائدة إلى الإيوسين الأوسط، وعلى مسافة ٤,٤ كم من التكية ونهاية القطاع الـمدروس تتوضع الصخور النيوجينية القارية التابعة إلى الميوسين والبليوسين المتمثلة بمشـبكات سهل الصحرة وبطف نهر العراد ذي الطبيعة البحيرية بالإضافة إلى بعـض الصخـور والتوضعات الرملية. وتتوضع التشكيلات السيلية عند مخاريط الأنقاض علـى سـفوح الجبال والأحواض ويغلب على تركيبها الرمل والغضار مع الحصى.

إن موقع المنطقة ضمن السلاسل الجبلية المرتفعة لجبال لبنان الشرقية وجناحها الشـرقي وارتفاعها عن سطح البحر الذي يزيد على ٨٠٠ متر، يعد من أبرز العناصر المؤثرة في مناخ المنطقة والطريق المدروس.

تدخل المنطقة في البيئة المناخية المتوسطية التي تمتاز بصيفها الحار والجاف وشـتائها المعتدل. واستناداً إلى معطيات محطة الأرصاد الجوية في الفيجة، والمحطات المجـاورة في مضايا وميسلون (٣) يبلغ المتوسط السنوي للحرارة في المنطقة نحو ١٤,٢° مئويـة، وتصل درجة الحرارة العظمى) المطلقة (لأبرد أشهر السنة) كانون الثـاني (إلـى ١٠° مئوية والصغرى إلى ــ٢° مئوية دون الصفر. وترتفع إلى حدها الأعلى خلال شـهر آب لتصل إلى ٣٢° مئوية، في حين تهبط الحرارة الصغرى إلى ١٥° مئويـة. إن انخفـاض درجة الحرارة إلى مادون الصفر المئوي يتسبب بحدوث الصقيع الذي يكون شـديداً إذا سبقه هطول الثلوج. والذي يتركز معظمه خلال شهري كانون الثاني وشباط، ويبلـغ المتوسط السنوي لعدد أيام الصقيع في المنطقة ١٣ يوماً، وتشكل تلك الظاهرة، وخاصـة خلال ساعات الصباح الأولى، عقبة هامة أمام عملية النقل والحركة على الطريق.

"تؤدي زيادة نسبة الماء إلى انتفاخ التربة ومن ثم إلى تغير في طبقـة التغطيـة، هـذه الحادثة تظهر بصورة جلية وخاصة في الأراضي الغضارية والجصية. وإذا كانت نسـبة

المياه غير متساوية داخل التربة فإن مقاومة الأساسات لاتكون متجانسة. ومن هنا ينتج خطر الخسف المحلي في حرم الطريق" (٤).

وترتفع الرطوبة النسبية، في المنطقة، إلى أقصاها في الشتاء، إذ إنها تبلغ نحو ٧٥٪في شهر كانون الأول، وتصل إلى حدها الأدنى خلال أشهر الصيف في حزيران وتموز ٣٥٪، وتختلف نسبة الرطوبة النسبية بين ساعات الصباح الباكر، حيث ترتفع إلى حدها الأعظمي، ولا تلبث أن تتناقص حتى تبلغ أدناها وقت الظهيرة.

ومن خلال دراسة المعدلات العظمى والصغرى لدرجات الحرارة نلاحظ الفروقات الحرارية اليومية والسنوية .إذ يصل المدى السنوي للحرارة إلى أكثر من ٢٠° مئوية، في حين يصل المدى اليومي للحرارة إلى ١٢° مئوية خلال شهر كانون الثاني، وترتفع إلى ١٧° مئوية خلال شهر آب.

تؤثر تلك التباينات الحرارية السنوية واليومية القصوى والدنيا المطلقة تأثيراً بالغاً في طبقة الإسفلت الخارجية للطريق، والطبقات التي تحمله، والمناطق التي تحيط به وتطل عليه، وذلك مع ازدياد فاعلية العوامل الجوية الميكانيكية الفيزيائية ولاسيما العوامل الجوية الحرارية، حيث تتأثر مقاومة الصخور نتيجة الإجهادات الداخلية العالية التي قد تتجاوز في بعض الأحيان متانة الصخور مما يؤدي إلى تحطيمها وذلك على فترات متباينة تبعاً للخواص الفيزيائية والكيميائية لتلك الصخور، وتزداد فاعلية التفتت كلما ارتفع المدى الحراري اليومي، وتتناقص متانة الصخور بازدياد شدة العوامل الجوية لأنها تؤدي إلى ازدياد المسامية وضعف قوة الترابط بين الحبيبات الصخرية. كذلك فكلما كان الصخر مركبا أو مؤلفا من فلزات عديدة ومتباينة زادت سرعة التفتت نظرا لأن كل فلز يتمدد ويتقلص بصورة مغايرة لتمدد وتقلص الفلزات الأخر، وهذا مايسرع في خلخلة بنية الصخر وفي تفتيه، وهكذا فإن معامل التمدد بالحرارة يختلف بشدة من صخر إلى آخر.

تسود في الشتاء، الرياح الغربية والشمالية الغربية، والتي تحمل معها الرطوبة وتسبب أحياناً حدوث موجات برد وصقيع في حال مرورها فوق القمم المغطاة بالثلوج. ويصل المعدل السنوي لسرعة الرياح إلى ١٨ كم/سا، وتزداد السرعة إذا اتفقت الحركة العامة مع حركة نسيم الوادي والجبل في المنطقة.

وتبدو الآثار السلبية للرياح، خلال فصل الشتاء، وخاصة في حال مرورها فوق القمم والمرتفعات المغطاة بالثلوج، فتحمل معها بلورات الثلج المتصلبة التي تساهم، أحياناً في تشكل الجليد على أجزاء واسعة من الطرقات، في المنطقة، والتي تضعف كذلك مدى الرؤية، وهذا مايؤثر في حركة السير في تلك المواقع، وخاصة في القطاع الواقع من مفرق عين الفيجة وقرية دير قانون.

كما تؤثر الرياح، الساخنة والجافة، في عملية تبخر الماء الموجود داخل التربة، على السفوح الجرداء المشرفة على الطريق، مما يؤدي إلى تجفيف سريع للتربة وإيصالها إلى حد الانكماش، ومن ثم يبدأ الهواء باقتلاع العناصر الناعمة وينقلها إلى نقاط أخر.

يتفق هطول الأمطار هنا مع فصل الشتاء والربيع وذلك مع سيطرة المنخفضات الجوية القادمة من البحر المتوسط، وتتلقى المنطقة نحو ٩٥٪من أمطارها السنوية في الفترة مابين تشرين الأول ونيسان ولا يكون توزعها الكمي متساوياً، حيث يهطل نحو ٦٥٪ من مجموع الأمطار السنوية خلال الأشهر) كانون أول نحو ٨٠ ملم، كانون ثاني ١٠٠ ملم، شباط ٥٠ ملم (في حين أنها تقل في أشهر أخر) آذار ٣٥ ملم، نيسان ٢٠ملم (على حين ينقطع المطر من أيار تقريباً إلى تشرين الأول .وتكون الأمطار خلال الفصول الانتقالية زوبعية تتصف بعنفها وشدتها ويرافقها، في بعض الأحيان البرد (Hail) خلال أيام الربيع، وتكون من النوع التصاعدي خلال الخريف والتي تحدث بعد الظهر عادة.

ويدخل تأثير البرد Hail في الحسبان، ضمن القطاع المدروس، عندما يتحول الماء إلى جليد مما يزيد في الحجم ومن ثم يخرب الطريق. ويظهر تأثير هذه الحادثة أكثر مايمكن

تحت الطريق المعبد. حيث تكون درجة البرودة أكثر مما هي عليه ضمن التربة على الجوانب، وخاصة بعد تساقط الثلوج، حيث يكون الطريق معرضاً لبرودة الجو القارس. ثم يحصل خسف فيهبط الطريق في كثير من أجزائه، إلى جانب تأثير حركة الحافلات التي تزيد الأمر خطورة وتخريباً.

يتراوح المعدل السنوي للتهطال، في المنطقة عموماً، مابين ٢٥٠ - ٣٥٠ ملم سنوياً،ويرتفع في السنوات الخيرة إلى أكثر من ٥٠٠ مم، كما حدث عامي ١٩٩١و ١٩٩٢. وتشير دراسات الجيومورفولوجيا المناخية (٥) إلى أن تأثير الأمطار العنيفة ذات الصفة العاصفية، التي يتركز تهطالها خلال أوقات محدودة في فترات زمنية قصيرة يكون تأثيرها وطاقتها الجيومورفولجية شديدة في التضاريس والمنشآت الأخر، إذ إنها لا تسمح للتربة بامتصاص كميات كبيرة من المياه أو تشربها بها، فترتفع قدرتها وطاقتها التخريبية عن طريق تشكيلها للسيول والفيضانات العنيفة ذات الآثار المدمرة، والتي قد تتعرض لها بعض المواقع على طول السفوح المشرفة على الجانب الأيسر من الطريق باتجاه التكية.

هذه إلى جانب عمل المياه المتوغلة في أعماق التربة، ضمن الصخور النفوذة، وخاصة الصخور الكلسية (الجيرية)، في تنشيط فاعلية العوامل الجوية الكيمياوية، وظاهر الانتفاخ، التي تتسبب في إضعاف قوى الترابط بين الحبيبات الغضارية وابتعادها عن بعضها، فتزداد مسامية الصخر، وتزداد قابليته لامتصاص كمية أكبر من الماء، ومن ثم يزداد حجم الصخر، هذا مايساعد على تشكل الانزلاقات على السفوح الجبلية المكونة من صخور غضارية، والتي قد تترافق بكثير من المخاطر على محور الطريق والمنشآت المختلفة المنتشرة على جوانبه.

يتكرر سقوط الثلج هنا، ويصل متوسط عدد الأيام التي يسقط فيها الثلج بين ٣ ـ ١٣ يوماً، ويزيد ارتفاعه أحياناً على المتر، في المناطق التي يزيد ارتفاعها على ١٥٠٠ متر

عن سطح البحر، وقد يدوم لفترات طويلة تزيد على الشهر في بعض الأحيان، وخاصة فوق المرتفعات المحيطة.

وتنخفض متانة الصخور، الرسوبية الحطامية والصخور الغضارية، التي تنتشر في مساحات كبيرة، ضمن قطاع الدراسة، عند تعرضها للمياه التي تنفذ إلى المسامات والشقوق، وتتجمد ضمنها، وهذا مايضعف قوى الترابط بين مكونات الصخر، وذلك نتيجة الجهد الداخلي المتولد عن اختلاف عامل التمدد الحراري للفلزات المختلفة وعدم تساوي درجة حرارة الأجزاء المختلفة في الطبقات الصخرية، والضغط الناتج عن نمو بلورات الماء المتجمد. وقد دلت الدراسات الجيوهندسية "أن الضغط المتولد عن بلورات الجليد يتراوح بين ٠,٥ كغ/سم^{2} عندما تنمو البلورات بشكل حر و ٢٠٠٠ كغ/سم^{2} عندما يتجمد الماء في جملة مغلقة تماما .(٦)

ترتفع قيم الإشعاع الشمسي، في المنطقة، خلال أشهر الصيف، وتبلغ أقصاها في شهر تموز (نحو ٤٠٠ ساعة). وتتناقص إلى حدها الأدنى خلال أشهر الشتاء، وخاصة في شهر كانون الثاني نحو ١٨٠ ساعة، حيث تزداد كمية السحب خلال الشتاء.

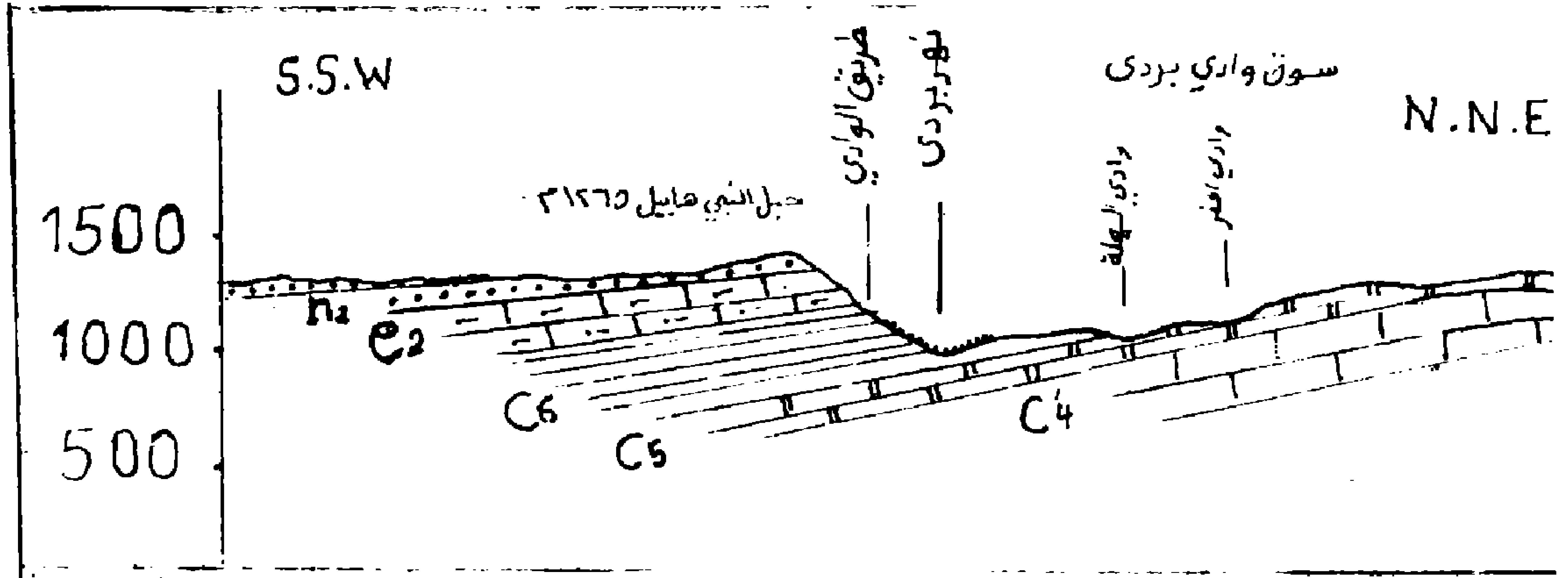
ويكثر الضباب Fog وخاصة في شهري كانون الأول وكانون الثاني، ويقل ظهوره في الربيع والخريف، ويندر في الصيف، وينتشر الضباب الكثيف على أطراف الوادي والمنخفضات ويتصاعد إلى أعالي السفوح الجبلية الرطبة، نتيجة لعمليات التصاعد التدريجي للهواء الدافئ، ويبلغ متوسط عدد الأيام التي يحدث فيها الضباب حوالي ٢٠ يوما في السنة، والذي يشاهد غالبا في ساعات الصباح الباكر من أيام الشتاء، حيث يصعب تمييز معالم الطريق، بشكل واضح، مما يؤدي إلى وجود صعوبات جمة ومخاطر كبيرة، في عمليات الانتقال والحركة على المحور المذكور.

من الناحية الجيومورفولوجية تشتمل ممنطقة الدراسة على وحدتين جيومورفولوجيتين رئيسيتين متكاملتين، هي نطاق حتي متمثل بالأراضي والمرتفعات الجبلية والسفوح على أطراف الأودية، ونطاق حتي ترسبي يتمثل بمجرى نهر بردى والأودية التابعة له.

تعد الشروط المناخية أشد المؤثرات التي تؤثر في عمليات النشاط الجيومورفولوجي،فنجد أن المؤثرات المناخية تبدو ظاهرة في جميع أنواع الفعاليات المورفوجينية ابتداء من نشاطات الحت والعوامل الجوية الفيزيائية والكيمياوية والتعرية مرورا بنشاط النقل وانتهاء بالتراكم والترسب .هذا إلى جانب الأبعاد السلبية والآثار الخطيرة الناجمة عن التدخل غير العقلاني للإنسان وأثر ذلك في التغيرات الجيومورفولجية والتوازنات المورفومناخية. لك حين يقوم بتغيير بعض المعالم الطبوغرافية، عندما يقتطع ويحفر بعض الجوانب من السفوح الجبلية الشديدة الانحدار التي لم تحقق بعد شكلها أو مظهرها المتوازن، وذلك لغرض شق الطرق وتوسيعها أو من أجل استغلالها زراعيا، أو اقتلاع واقتطاع الصخور للبناء، كما هو الحال في طريق الوادي موضوع الدراسة. وهذا مايؤدي بدوره إلى تزايد كبير جدا في معدلات انحدار لسفوح ووتائر الحت والتعرية، وظهور شروط عدم الاستقرار والتوازن مما يساعد في حدوث الانزلاقات والانهيارات الكتلية والأنقاض المتوضعة فوقها وتحريضها للتحرك نحو السفوح التي يوجد فيها جسم الطريق، إضافة إلى تزايد واضح في معدل سرعة جريان مياه السيول ومن ثم تزايد قدرتها الحتية، ولاسيما عندما يتم الاعتداء على الغطاء النباتي الطبيعي والتربي على تلك السفوح.

وتزداد خطورة الانزلاقات والانهيارات في بعض المواقع، حين تتعاقب بعض صخور المشبكات مع سافات(طبقات رقيقة) من التوضعات التي تغلب عليها الطبيعة المارنية والغضارية الكتيمة نسبيا، والتي تتقلب بمجرد تشبعها بالمياه إلى سطوح انزلاق مثالية،تسهل تحرك الصخور والكتل والأنقاض المتوضعة على السطح، وخاصة عند توافر الانحدارات المناسبة. والمقطع التالي يوضح طبيعة التوضعات

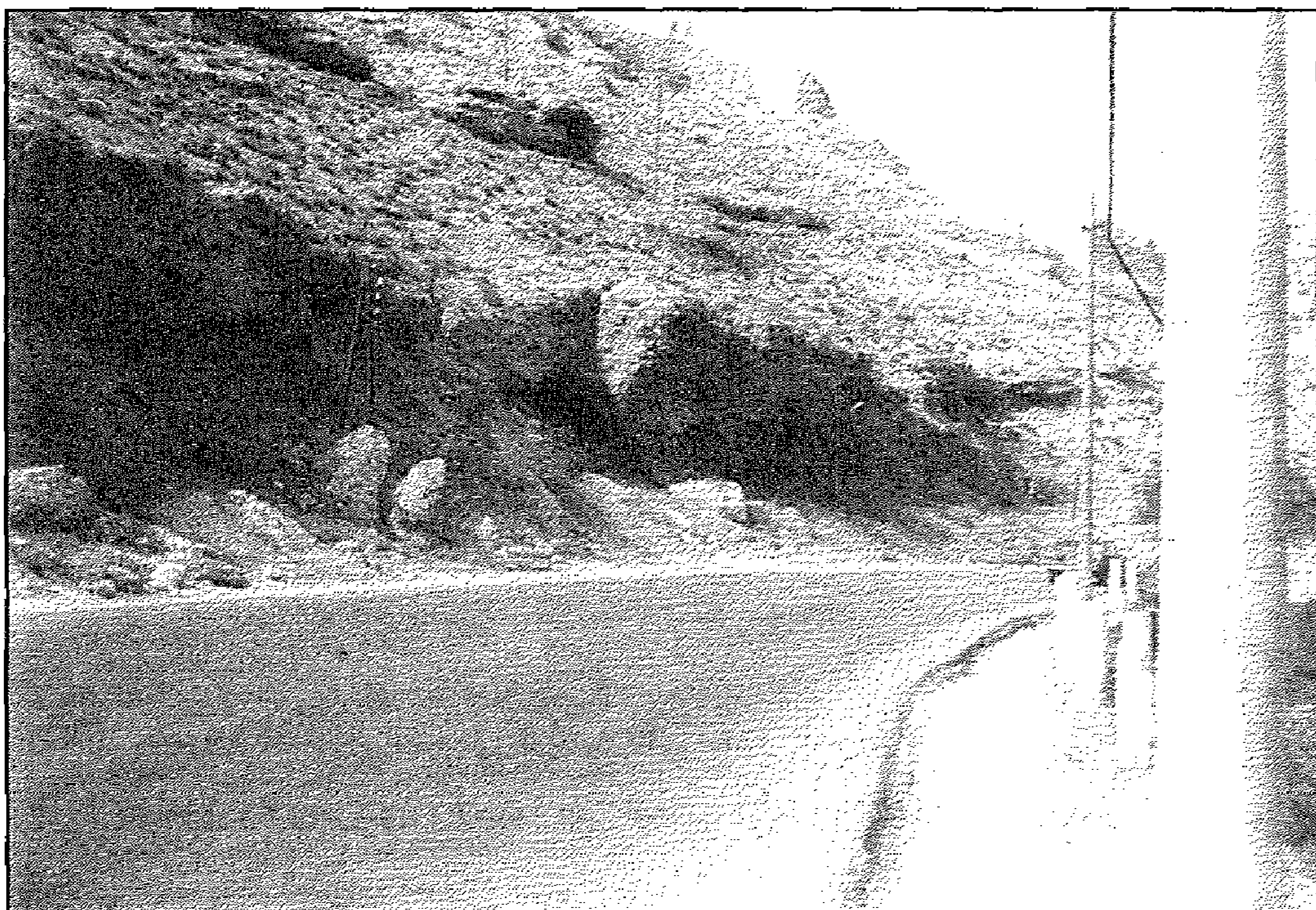
الستراتوغرافية،ويبين خطورة الانزلاقات والانهيارات الكتلية على محور الطريق نتيجة الانحدارات الشديدة ضمن قطاع سوق وادي بردى.



وتظهر خطورة العمليات الجيومورفولجية على محور الطريق المدروس، من الجديـــدة إلى قرية سوق وادي بردى، ولاسيما على الجانب الأيســـر للطريـــق (المتجـــه نحـــو التكية)،حيث يمتد الطريق مسايرا السفوح الجبلية وأقدامها، ونتيجة حتمية لتأثير العوامـل المناخية المختلفة ودرجات انحدار السطوح وأوجه النشاط الجيومورفولوجي، ولاســيما عمل المياه الجارية وحركة الأنقاض في السفوح وارتفاع درجة الرطوبـــة، وخاصـــة خلال المواسم الماطرة، تتعرض تلك السفوح للانهيارات والانزلاقات الخطرة التي تؤدي إلى سقوط الكتل الصخرية والأنقاض بشكل مباشر على محور الطريق.

ونلاحظ في قطاع الدراسة في منطقة جديدة الوادي ظاهرة انجراف التربة وتحرك المواد والكتل الصخرية المفتتة المتوضعة على أقدام المنحـــدرات، نحـــو الأســـفل باتجـــاه الوادي،وذلك بتأثير الجاذبية الأرضية التي تعد أكثر القوى المسببة لانهيال المنحـــدرات (٧)، إلا أنها تتوضع على حافة الطريق الممتد عند أقدام السفوح المذكورة، مما يؤثـــر

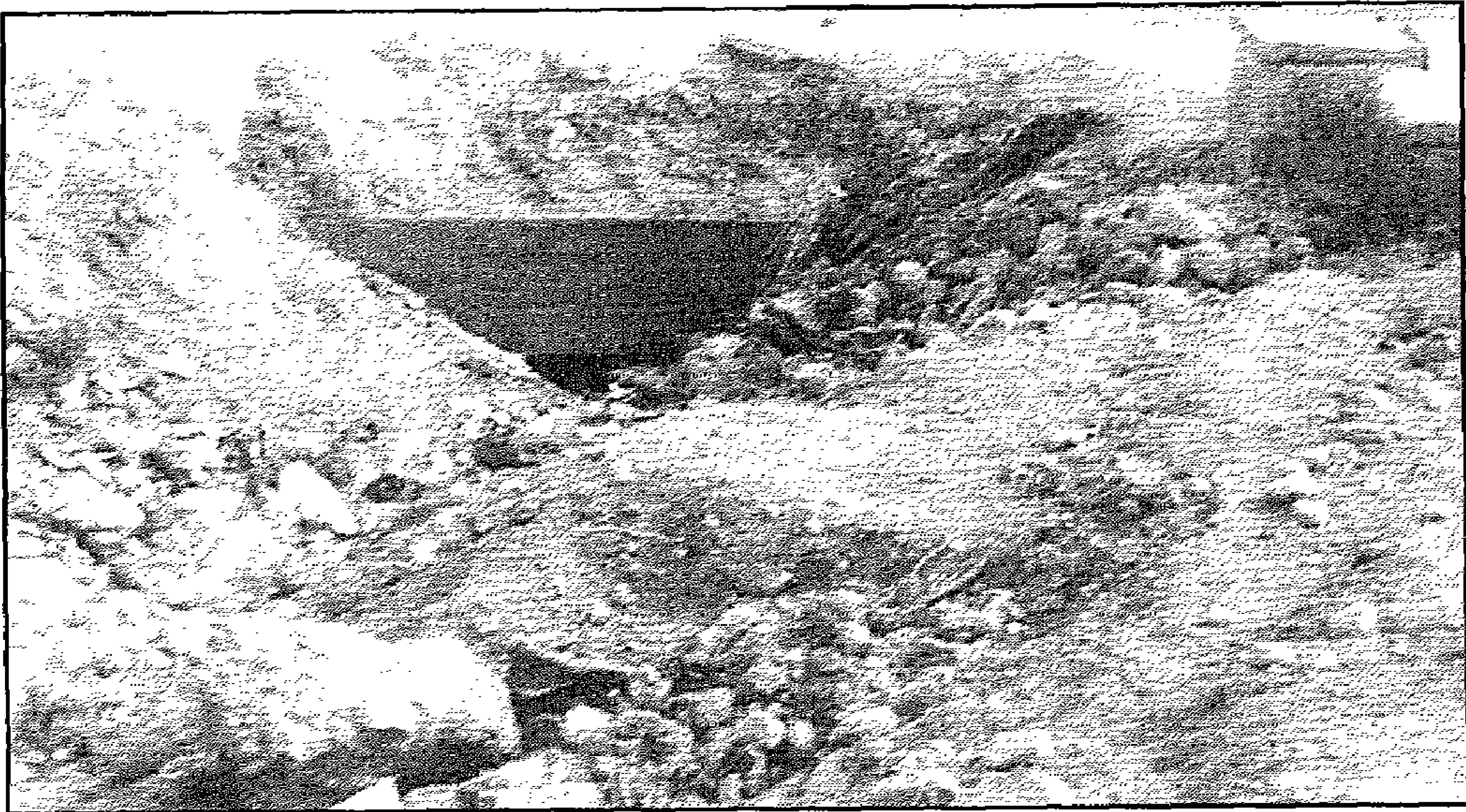
في أعمدة الكهرباء والهاتف التي تمتد على طول تلك الحافات وهذا مايشـــكل خطـــورة بالغة على حركة السير والمنشآت المختلفة، وخاصة السكنية منها. والصورة رقـــم (٢) توضح ذلك.



الصورة رقم (٢)

في منطقة أشرفية الوادي تظهر الجروف الصخرية التي تعرضت للتعرية والانجـــراف وسطحها المتشقق الذي استغلته المجاري المائية .وبما أن التكوينات الكلسية تغلب علـــى تلك المنطقة، وتبعا لتركيب هذه الصخور ومقدار تعرضها للرطوبة والماء، نلاحظ كـثرة الخدوش الكارستية الناتجة عن التحلل ونشاط عمليات التجوية، كذلك تنتشـــر الشـــرفات الصخرية التي تشكلت نتيجة لتجمع مياه الأمطار عند أقدام الجروف، مما يؤدي إلى تحلل الكلس من الأسفل وبروز نتوء صخري من الأعلى. وتكمن الخطورة هنا مـــن جـــراء

السيول الفيضية، خلال فترة الهطولات العنيفة، كتلك التي حدثت بتاريخ ١٣/١٠/١٩٩١ حيث لم يستطع نفق تصريف المياه للمسيل بجانب المدرسة، الممتد تحت جسم الطريق،استيعاب وتصريف المياه الجارفة والمواد المحمولة، مما أدى إلى ارتفاع المياه وترسيب الطمي فوق مسار الطريق، ثم عرقلة حركة السير وتوقفها خلال ذلك. والصورة رقم (٣) تبين انسداد فتحة التصريف في النفق المذكور.



الصورة رقم (٣)

وتتكرر تلك الظاهرة وبدرجات متفاوتة من التأثير، في العديد من المواقع ولاسيما عند أقدام أو نهايات المسيلات أو مخاريط الأنقاض على الجانب الأيسر للطريق (المتجه نحو التكية)، ضمن القطاع المحدد، حيث تتوضع الترسبات اللحقية والنقضية السيلية التي تحملها معها، كسيل وادي الجوز، ووادي المراحات في جديدة الوادي، وسيل وادي العجل، ووادي البقر، والشحتي في أشرفية الوادي، وسيل ناتريا في عين الخضراء،وسيل وادي مقدوش، ووادي حيدر في دير قانون، ووادي الحلواني، ووادي

الشقاف، ووادي المرحلة التي تتلاقى لتشكل سيلا كبيرا ينتـــهي عنـــد مفـــرق قريـــة الحسينية،وسيل وادي الدعسة عند مفرق الطريق إلى كفر العواميد .وجميعها تكون علـــى شكل أودية سيلية جافة، إلا أنها خلال ساعات قليلة يمكن أن يرتفع تصريفها إلى بضـــع عشرات من الأمتار المكعبة من المياه في الثانية.

وفي منطقة بسيمة تتوضع الصخور الحطامية على شكل حبيبات رملية متماسكة تفصـــل بينها شقوق مما يؤدي إلى سيادة الحت والتحلل والاصطفائي، وتعد ظاهرة التجمد* هنـــا المؤثر الرئيسي على الصخور وتفككها، وقد دلت التجارب "أن معظم الصخـــور تبـــدأ بالتشقق نتيجة التجلد عندما تقترب من درجة الرطوبة الحرجة التي تعادل حوالـــي ٨٠٪" (٦). ومع تكرار عملية التجمد والذوبان تنخفض متانة الصخور المتجلدة مما يؤدي إلـــى انفلاقها وتفتتها وتحركها وزحفها حال وجودها علـــى المنحـــدرات بفعـــل الجاذبيـــة وبتحريض من مياه الذوبان والأمطار. وهكذا تتعرض السفوح هنا للغسل، مـــع انتشـــار ظواهر الحت والتحلل، وتظهر المغاور والأودية العميقة والضيقة والحادة الزوايا.

وتتكرر تلك الظواهر والمشاهد الجيومورفولوجية في موقع عين الخضراء أيضا ويشكل الخانق الجبلي فيها عائقا صعبا أمام حركة السير، وخاصة في فترات الذروة الحركيـــة (انظر الصورة رقم(١)). إذ يستغل الطريق ذلك الممر الطبيعي الوحيد الذي يعود تشـــكله إلى عملية(سبق) في نهر بردى خلال الفترة التي تعرضت فيها المنطقة للارتفـــاع مـــع النهر، مما دفعه إلى تعميق مجراه، عن طريق الحت الرأسي، ليتناسب مع الوضع الجديد الطارئ.

وتتمثل أهم الظواهر الجيومورفولوجية في عين الفيجة بعمل المياه الجاريـــة والتحلـــل الكلسي، حيث تظهر الشقوق على الجروف الصخرية، التي تمتد على شكل كويســـتات أو ضلوع من نموذج الهوغ باك أو الأعراف الصخرية. ونلاحظ توضع الفتات الصخـــري

* تجمند: تفلق الصخور تحت تأثير التجلد وانفكاكه.

والأنقاض المتكسرة من الطبقات القاسية التي تشكل جبهة الكويستا على الحدور المتمثل بالطبقات الطرية والتي ستتحرك باتجاه الأسفل إن عاجلاً أو آجلاً.

وتتكرر المخاطر الطبيعية الناتجة عن الأعمال الجيومورفولوجية المختلفة، في معظم القطاعات المدروسة على محور الطريق، فعند مدخل قرية دير مقرون تمت دراسة مراحل تطور انهيار الكتل الصخرية والرملية والأنقاض المتباينة الأبعاد والأحجام التي انزلقت وانفصلت عن السفوح ومتابعتها وذلك خلال بضعة أيام من ١ ــ ١٩٩٣/٨/٦.



الصورة رقم (٤)

وتم تحديد أبعاد الكتلة المتساقطة على شكل مخروط طول كل ضلع من أضلاعه ٤٢ متراً وقاعدته ٤٩ متراً وارتفاعه حوالي ٣٥ متراً وبلغت مساحة السطح الظاهري للكتلة ٨٨٢ م^{٢}، ووصل حجمها العام نحو ٢٩٧٣,٥ م^{٣}. والصورة رقم (٤) توضح ذلك.

٦.الإجراءات الممكن اتخاذها للحد من بعض المخاطر الطبيعية التي يتعرض لها الطريق:

يمكن الحد من الكثير من المخاطر التي يتعرض لها الطريق في الكثير من المواقع، مع اختيار الأسلوب الأمثل لتنفيذ الحلول وذلك تبعا للظروف الطبيعية والمناخية، والامكانات المحلية المتوافرة التي تتحكم بذلك. وعمليا نجد أن أكثر المشكلات التي تعترض محور الطريق المدروس، هي تلك الناجمة عن الانهيارات والانهيالات الأرضية. ويمكن اللجوء هنا إلى وضع الجدران الاستنادية الحجرية أو الاسمنتية التدعيمية لتلك السفوح وذلك في حالات الخطورة الدنيا، بحيث لاتزيد كمية الأنقاض والمجروفات على الطاقة أو الضغط والحمولة التي يمكن أن تتحملها تلك الجدران والتي لاتزيد على ٢٠ ــ٣٠ كغ/سم٣ مع مراعاة وجود فتحات مناسبة عبر تلك الجدران لتصريف المياه عبرها، مع ضرورة الصيانة الدورية لها وإزالة المجروفات والأنقاض المتراكمة خلفها التي قد تؤدي إلى مخاطر جسيمة في حال إهمالها. كما يمكن اللجوء إلى تثبيت الكتل الصخرية المعرضة للسقوط والانهيار، أو المواقع المخلخلة غير المتماسكة، والتي يخشى من تساقطها وانهيارها، في أي وقت، والتي نصادفها بكثرة في مناطق الجروف الصخرية المتكسرة، التي أشرنا إليها سابقا، ويمكن تثبيتها في حال الضرورة بواسطة الشباك المعدنية التي تحملها الكابلات المعدنية المتينة وربطها بالصخور الصلدة الثابتة على السفوح. وذلك في العديد من المواقع، على طول الامتداد للجانب الأيسر من الطريق، مابين جديدة الوادي وصولا إلى قرية سوق وادي بردى.

وقد أكد مهندسو الطرق المتخصصون (٨) في هذا المجال فاعلية اللجوء إلى طريقة إنشاء المصاطب العريضة، بعرض ١ــ٢ متر، على السفوح الخطرة، دون الإخلال بشروط التوازن الطبيعي للتضاريس، وذلك بترك مسافة أمان وحماية وإبعاد مخاطر تساقط الكتل والحطاميات مباشرة على محور الطريق، مع ضرورة استمرار العناية بها،

وإزالة جميع الردميات والأنقاض المتوضعة فوقها، منعا من تراكمها وتساقطها من جديد على الطريق .وفي حالات الخطورة الدنيا، يمكن اللجوء إلى غرس الأشجار ذات الجذور العميقة، كأشجار الدلب على امتداد السفوح المواكبة للطريق التي يمكنها أن توقف زحف بعض الأنقاض والمجروفات ذات الأحجام الصغيرة والكميات الضئيلة، والتي نجدها حاليا في الكثير من المواقع مابين أشرفية الوادي وعين الخضراء إلى دير قانون، ولكنها وللأسف فإن معظمها لاتزال صغيرة وحديثة العهد، فهي تحتاج إلى وقت طويل، ريثما يمكنها أن تقوم بوظيفتها المرجوة لحماية الطريق على الشكل المطلوب، مع مراعاة عدم العبث بها من قبل الأهالي وخاصة الصغار منهم.

ولا يمكن كذلك إغفال مخاطر السيول العنيفة المركزة. التي تنحدر مسرعة من السفوح حاملة معها المجروفات والأنقاض المختلفة. لذا لابد من فتح وحفر مجاري مسايرة لجوانب الطريق لصرف المياه السطحية، والعمل على جرها وسحبها إلى القنوات الخاصة (العبارات) الممتدة تحت جسم الطريق، مع ضرورة مراعاة المواصفات الهندسية المناسبة لتلك المنشآت كي تستوعب الكميات الكبيرة من المياه والمواد التي تجرفها. ولتأمين الصرف المناسب لتلك المياه يجب ان يتم وضع العبارات كل ٥٠٠ متر على الأقل على طول امتداد الطريق، وينبغي العمل على صيانتها وتنظيفها والعناية الدائمة بها منعا من انسدادها كليا أو جزئيا وهذا مايشكل خطرا كبيرا على مكونات الطريق وحركة النقل عليه (انظر الصورة رقم (٣)).

ولتأمين تصريف المياه السطحية من على غطاء الطريق، يعمد إلى إعطاء الشكل المحدب للمقطع العرضاني للطابق الترابي ولغطاء الطريق، وذلك لتأمين جريان المياه على السطح الخارجي للطريق (٨).

هذا إلى جانب مخاطر تشكل الضباب الكثيف (Fog) الذي يؤدي إلى انعدام وضوح الرؤية ومعالم الطريق كليا أو جزئيا، لذلك ينبغي تخفيف السرعة واستعمال الأنوار الخاصة بذلك ومنع التجاوز في كلا الاتجاهين في أثناء انتشار الضباب.

وفيما يتعلق بظاهرة تشكل الصقيع (Frost) والتهطال المطري العنيف وتساقط البرد Hail وتراكم الثلوج بثخانات كبيرة، وفي بعض الأحيان، على محور الطريق، فإن هذا يتطلب اتخاذ بعض الإجراءات الكفيلة بتوفير السلامة واستمرارية الحركة النقلية دون توقف. فلا بد من تأمين الآليات المتخصصة بإزالة الثلوج المتراكمة ورش الملح الخاص لمنع الانزلاق، وتجهيز الرافعات الخاصة لسحب الآليات المتعطلة أو المتوقفة على قارعة الطريق منعا للحوادث. هذا إلى جانب التأكد من جاهزية الحافلات وصلاحيتها، من الناحية الميكانيكية والفنية، وخاصة فيما يتعلق بجودة العجلات المستخدمة للسير على تلك الطرق، حيث يخف الالتصاق بين الإطارات والطريق في حال اهتراء سطحه وفقد خشونته، كذلك فإن وجود المياه، في حالتيها السائلة أو المتجمدة، عند زيادة سرعة السيارة يقلل أيضا من الالتصاق. وبذلك يمكن القول "إن عامل التماسك للطريق يختلف من فصل إلى آخر، حيث يزداد صيفا وينقص شتاء".

هذا وتتمثل الخطورة على الجانب الأيمن من الطريق (المتجهة إلى التكية) والمطل مباشرة على الوادي النهري من ارتفاع يحوم حول ٢٠ ـ ٣٠ مترا، ضمن القطاع المحدد سابقا، في حين تتمثل تلك المخاطر على الجانب الأيسر منه مابين قريتي سوق وادي بردى والتكية. فيجب حماية تلك الجوانب وخاصة عند المنعطفات والأكواع القاسية، وذلك بوضع الحواجز الواقية المعدنية أو الاسمنتية والدعائم والمصدات منعا من وقوع حوادث التدهور والسقوط. مع ضرورة إنارة معظم أجزاء الطريق، وخاصة في المواقع المشار إليها سابقا، وضمن القطاع الممتد من مفرق عين الفيجة إلى قرية دير قانون، وألا يقتصر ذلك على مداخل البلدات والقرى كما هو الحال في الوقت الراهن.

٧ـ الخاتمة:

نتيجة لتزايد أهمية منطقة وادي بردى وحوض الزبداني من الناحية الاقتصادية والترويجية، فلابد من توافر السبل الكفيلة بتطويرها، ودعم هذا المجال

الحيوي والهام، الذي يسهم في بناء الوطن وزيادة دخله، وذلك بتوفير وسائط النقل الحديثة والمناسبة مع ضرورة العناية الدائمة بالطرق الرئيسة والفرعية فيها، وتجهيزها بالمتطلبات اللازمة كافة، ليتم تخديم التجمعات البشرية والمنشآت البشرية والاقتصادية والخدمية والترويجية كافة والتي تمتد على طول الطريق المذكور، بالشكل المناسب ويترتب على ذلك إيجاد فسحات مناسبة لوقوف السيارات أمام تلك المنشآت والأماكن كي لاتعرقل حركة السير. وينبغي كذلك تخصيص منتزهات شعبية عامة للمواطنين،فيتلك المواقع التي تعاني من ضغط كبير في عدد المتنزهين، مابين بسيمة وعين الخضراء، يمكنها أن تستوعب الأعداد الكبيرة منهم، وخاصة خلال يوم العطلة الأسبوعية. حيث لا تتسع المنتزهات الخاصة المنتشرة على جانبي النهر، ذلك الكم الكبير من المتنزهين مما يضطرهم للجلوس بجانب سياراتهم المتوقفة على حافات الطريق، وخاصة تلك القريبة من مجرى النهر. وهذا مايشكل إعاقة واضحة في حركة السير، إلى جانب خطر الحوادث التي يمكن أن تنتج عن ذلك.

كذلك من الضروري العمل على إزالة المخالفات والتجاوزات القائمة على جانبي الطريق كافة، وخاصة العمرانية والسكنية والمقاصف السياحية ومرافقها المختلفة ومشاغل إصلاح الآليات وحوانيت البيع المختلفة، إلى جانب ظاهرة انتشار المدارس، ولاسيما الابتدائية منها، على مسافة قريبة جدا من مسار الطريق الرئيسي، وهذا مايشكل خطرا بالغا على التلاميذ، عند دخولهم وخروجهم منها، وإعاقة واضحة لحركة السير أمامها،لهذا من الواجب إنشاء أنفاق خاصة للمشاة تمتد تحت جسم الطريق أو إشادة الجسور المعلقة فوقه لهذه الغاية، وخاصة أمام الثانوية في قرية أشرفية الوادي،ومدرسة الحسينية ومدرسة سوق وادي بردى. إلى جانب ذلك يجب الحد، قدر الإمكان، من أعمال الحفريات لغايات مد خطوط الكهرباء والهاتف وأنابيب المياه والصرف الصحي، التي غالبا ماتتم على جانبي الطريق، والتي يجري تنفيذها، على الأغلب ببطء شديد، وفي حال

الانتهاء منها تبقى مخلفاتها التي تؤدي إلى إعاقة واضحة في حركة السير إضافة إلى ماتسببه من حوادث في أكثر الأحيان.

وللحفاظ على جاهزية الطريق الحركية، وخاصة في أوقات الأوج الحركي، ينبغي منع مرور الجرارات الزراعية والسيارات الشاحنة والكبيرة، أو اللجوء إلى تخصيص أوقات محددة من اليوم لسيرها مع تحديد السرعة القصوى لسير الحافلات على الطريق بحيث لا تتجاوز ٦٠ كم/ساعة، والتقليل من التقاطعات الخطرة مع الطريق وذلك تجنبا من حدوث العرقلة أو الاختناقات المرورية، كما انه يجب التحفظ أو المنع القطعي لمرور الشاحنات التي تجر وراءها مقطورات ذات حمولات عالية تزيد على ٢٠ طنا، للأسباب السابقة، أو التخوف من الضغط الكبير للحمولة الزائدة على بعض المقاطع الخطرة من الطريق.

وتجدر الإشارة هنا إلى ضرورة الاعتماد على الأساليب التقنية الحديثة والوسائل المتطورة، كاستخدام الأجهزة المتطورة، من قبل الدوريات المرورية، لمراقبة الحركة على الطريق وتنظيمها ومتابعة الظواهر المؤثرة فيه كافة بشكل دقيق، تجنبا لوقوع الحوادث، وخاصة في أوقات الازدحام. مع ضرورة توضع مراكز للإسعاف السريع،ثابتة أو متنقلة، لهذه الغاية. وتأتي أهمية الحفاظ على الشروط البيئية المناسبة من الأولويات التي يجب مراعاتها في المنطقة إذ إنه ينبغي الحد ــ قدر الإمكان ــ من الآثار السلبية، التي تؤثر في البيئة، الناتجة عن الاحتراق غير الكامل لوقود السيارات أو ظاهرة التلوث الضوضائي الناتج، بشكل خاص، عن الاستخدام الكثيف للجرارات الزراعية أو الدراجات النارية، التي يكثر استعمالها هنا، وهذا بشكل عام ينعكس على حركة الاصطياف الموسمية فيها وربما يشكل عامل نبذ أو طرد للوافدين إليها، ولو كان ذلك على نطاق ضيق.

والجدير بالذكر، تم تلافي الكثير من الملاحظات المشار إليها سابقا في العديد من المواقع، ولكن مازال بعضها الآخر قائما بانتظار التنفيذ لتحقيق الكفاءة العالية المرجوة

من ذلك الشريان الحيوي لكي يتم استثمار واستغلال الموارد والإمكانات المتاحة للمنطقة بكاملها، الاقتصادية منها والبشرية كافة، والعمل على تخديمها وفق أفضل الشروط الممكنة، وتوفير السبل الكفيلة بتطويرها لتقوم بدورها الحيوي والفعال بصفتها مركزا ترويحيا هاما، ليس على المستوى الداخلي للقطر فحسب بل على المستوى العربي والدولي.

٨. الحواشي:

١ــ أديب باغ، الوجيز في الجغرافية الاقتصادية - المواصلات والنقل (دمشق : ١٩٦٣) ص ١٠٤.

٢ــ عادل عبد السلام، الأقاليم الجغرافية السورية (جامعة دمشق : ١٩٩٠) ص ٥٠٣.

٣ــ نشرات مناخية من عام ١٩٥٦ ــ ١٩٩٤. دمشق : المديرية العامة للأرصاد الجوية، مديرية المناخ.

٤ــ عبد الكريم الحلبي، الطرق - الجزء الثاني (كلية الهندسة : جامعة حلب، ١٩٨٢) ص ٧.

٥ــ محمد فائد حاج حسن، أسس الجيومورفولجيا المناخية (جامعة دمشق، ١٩٩٥) ص ١٠١ و ٣٤٣.

٦ــ محمد أنور محفوظ، الجيولوجيا الهندسية (كلية العلوم : جامعة دمشق، ١٩٨٣) ص ٣٤ ــ ٣٥.

٧ــ محمد صبري محسوب سليم، الظاهرات الجيومورفولوجية الرئيسية (القاهرة : دار الثقافة، ١٩٩٢) ص ٣٨ ــ ٣٩.

٨ــ محمد زهري حبوس، الطرق والمطارات – القسم الأول، تصميم الطرق (جامعة دمشق، ١٩٧٤) ص ٣٩ ــ ٤١.

٩.مراجع البحث:

ـــ باغ، أديب: الوجيز في الجغرافية الاقتصادية - المواصلات والنقل. دمشق ١٩٦٣م.

ـــ بيرجر، لويس: دراسة النقل الشاملة. الطرق والنقل الطرقي (المجلد الرابع). دمشق :وزارة النقل ١٩٨٠م.

ـــ حاج حسن، محمد فائد: أسس الجيومورفولوجيا المناخية. جامعة دمشق ١٩٩٥م.

ـــ الحلبي، عبد الكريم: الطرق (الجزء الثاني). كلية الهندسة : جامعة حلب ١٩٨٢م.

ـــ حبوس، محمد زهري: الطرق والمطارات (القسم الأول) تصميم الطرق. جامعة دمشق ١٩٧٤م.

ـــ خير، صفوح: مدينة دمشق ـــ دراسة في جغرافية المدن. دمشق: وزارة الثقافة ١٩٦٩.

ـــ رسول، أحمد حبيب: دراسات في جغرافية النقل. بيروت: دار النهضة العربية ١٩٨٦م.

ـــ سليم، محمد صبري محسوب: الظاهرات الجيومورفولجية الرئيسية. القاهرة: دار الثقافة ١٩٩٢م.

ـــ عبد السلام، عادل: الأقاليم الجغرافية السورية. جامعة دمشق ١٩٩٠م.

ـــ محفوظ، محمد أنور: الجيولوجيا الهندسية. كلية العلوم : جامعة دمشق ١٩٨٢م.

ـــ نيكولسكي، آ. ف: جغرافية النقل والمواصلات في الاتحاد السوفيتي. موسكو: جامعة موسكو ١٩٧٨م (باللغة الروسية).

ـــ خريطة الزبداني الطبوغرافية مقياس ١/٥٠٠٠٠ دمشق: إدارة المساحة العسكرية.

ـــ خريطة الزبداني الجيولوجية مقياس ١/٥٠٠٠٠ دمشق: إدارة المساحة العسكرية.

ـــ مخطط قرى وادي بردى مقياس ١/١٠٠٠٠ دمشق: إدارة المساحة العسكرية.

ـــ نشرات مناخية من عام ١٩٥٦ ـــ ١٩٩٤. دمشق: المديرية العامة للأرصاد الجوية .مديرية المناخ.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق ١٩٩٥/٧/٤

قراءة في رواية "شاهندة"

لراشد عبد الله

د. الرشيد بو شعير
قسم اللغة العربية
جامعة الإمارات العربية المتحدة

الملخص

يتناول هذا البحث رواية "شاهندة" للكاتب الإماراتي راشد عبد الله، وهـي الرواية التي تكتسب قيمة تاريخية بالإضافة إلى قيمتهـا الأدبيـة، وذلـك بوصفها رواية رائدة في الأدب الإماراتي الحديث.

إن راشد عبد الله، يرصد ملامح التغير الفكري والاجتماعي والاقتصادي والعمراني من خلال قصة "شاهندة" التي فرضت عليها حياة الرق التي لـم تكسر قيودها إلا في ظل عهد جديد يبدأ باكتشاف النفـط واستثماره فـي منطقة الخليج.

وفي سياق قصة هذه الفتاة الرومانسية يطرح الكاتب إشكالية الصراع بيـن قيم قديمة أخذت تتصدع وتندثر، وقيم جديدة أخذت تتأكد وتحل محلها.

وقد انتهى البحث إلى أن رواية شاهندة تعكس النضـال التـاريخي الـذي خاضه الإنسان العربي في منطقة الخليج من أجل صياغة حياة جديدة فـي بنيتيها الذهنية والمادية، كما خلص إلى أن هـذه الروايـة تظـل مقبولـة ومتطورة من حيث الرؤية الجمالية، إذا وزنت بنظرائـها مـن الروايـات الرائدة في الأدب العربي الحديث، وذلك عائد أساساً إلى استفادة الكاتب من زخم التراث الروائي العربي والعالمي.

تعد رواية "شاهندة" لراشد عبد الله أول عمل روائي في الأدب الإماراتي الحديث، أي أنها رواية رائدة، ولذلك فإنها تكتسب أهمية مزدوجة بالقياس إلى الأعمال الروائية الأخرى، فبالإضافة إلى أهميتها الفنية والفكرية تتمتع بأهمية تاريخية على نحو ماتتمتع به الروايات الرائدة المعروفة في الأدب العربي الحديث، مثل "حديث عيسى بن هشام" لمحمد المويلحي، و"زينب" لمحمد حسين هيكل، و"الأجنحة المتكسرة" لجبران خليل جبران و"غادة أم القرى" لأحمد رضا حوحو، وغيرها من الروايات العربية التي تكتسب أهمية تاريخية إلى جانب أهميتها الأدبية.

ولن نعقد موازنات مفصلة بين "شاهندة" وتلك الروايات العربية الرائدة، لأن "شاهندة" كتبت في فترة زمنية متأخرة بالقياس إلى تلك الروايات التي ظهر أغلبها في فترة تاريخية مبكرة، أي في الفترة المحصورة بين نهاية القرن الثامن عشر والعقد الثاني من القرن العشرين، خلافا لرواية "شاهندة" التي لم تظهر إلا في السبعينيات من هذا القرن، أي أنها ولدت بميلاد دولة الإمارات العربية المتحدة.

ومع ذلك فإن رواية "شاهندة" تتجاوز كثيرا من الهنات الفنية التي نجدها في تلك الروايات الرائدة. وهذا شيء بدهي، لأن "راشد عبد الله" لم ينشئ عمله من فراغ كما فعل "المويلحي" أو "هيكل" أو "جبران" مثلاً، وإنما أنشأه مستفيداً من التراكم الروائي العربي وإنجازات كتاب الرواية العربية عبر ثلاثة أجيال على الأقل.

وإذا كانت الروايات العربية الرائدة قد تناولت موضوعات اجتماعية محلية بأسلوب رومانسي، وخاصة رواية "زينب" ورواية "الأجنحة المتكسرة" فإن رواية "شاهندة" كذلك تتناول موضوعاً اجتماعياً، ولكنه أكثر تعقيدا وشمولية، كما سنرى، وهو موضوع الرق الذي كانت تجارته رائجة تاريخيا في القرن الماضي في بعض المناطق الخليجية التي كان يستخدم فيها للغوص على اللؤلؤ خاصة، وذلك بأسلوب لايخلو من لمسات رومانسية صارخة.

إلا أن "شاهندة" لاتتعامل مع الظاهرة الاجتماعية بوصفها ظاهرة ثابتة، وإنما تتعامل معها بوصفها ظاهرة متغيرة متطورة، وذلك في سياق طرح إشكالية الصراع بين جيلين: جيل الرق والعبودية، وجيل العتق والحرية.

مالذي حدث في هذه الرواية؟

لن نستطيع في هذا المقام أن نسهب في تلخيص أحداث الرواية، ولكننا سنقف ــ مضطرين ــ عند أهم الأحداث التي تفيدنا في فهم مضامينها.

إن أحداث هذه الرواية تجري في قرية مقفرة ممحلة على ضفاف الخليج العربي وهي قرية "الحيرة" الإماراتية تحديدا، وقد كان سكان هذه القرية يعملون في التجارة ويجلبون الغذاء من الهند، ولكن "الحرب" (*) تقطع تجارتهم فيعانون من شظف الحياة، وتتحول القرية التي كانت عرضة للرياح والعواصف الرملية إلى قبور في داخلها أناس أنصاف موتى أو أنصاف أحياء (١) لايجدون ما يقتاتون به، فيلجئون إلى أكل الأعشاب التي تكون سامة أحيانا.

وأول من نقابله من سكان هذه القرية هو "سالم" النخاس وصديقه "محمد" اللذين نراهما يبحثان ليلا في مقبرة القرية عن أكفان الموتى كي يبيعاها ويشتريا طحينا وملحا يسدان به رمقهما ولكنهما لايجدان هذه الأكفان، لأن اللصوص سبقاهما إليهما...

وحينئذ ينخرط "محمد" في البكاء برما بهذه الحياة التي تفرض عليه أن يسرق أكفان الموتى حتى يعيش أما "سالم" فإنه يقاوم ضعفه فيرفض الموت جوعا مؤاليا على نفسه ألا يعود إلى كوخه إلا "بصيد" ما ابتداء من الكفن إلى الإنسان (٢) ولهذا نراه يلقي بجسمه في مياه الخليج التي كانت أمواجها "تعوي كالذئاب" ويسبح حتى ينتهي إلى جزيرة صخرية، حيث يقضي ليلته، وفي الصباح يفاجأ بوجود عائلة غريبة تتألف من أب وزوجة وبنت وهم "شهداد" وزوجته وابنته "شاهندة" بطلة هذه الرواية، الذين غادروا موطنهم في الساحل الآخر من الخليج على متن مركب سعيا وراء العيش

الكريم، ولكن الأمواج الصاخبة تحطم المركب وتلقي بهم في هذه الجزيرة التي تجمعهم بسالم مصادفة.

ويفرح "سالم" كثيرا لهذا الصيد الثمين فينقل أفراد العائلة الغريبة إلى القرية ويعرضهم على التجار بوصفهم عبيداً، وهنا تبدأ قصة نضال "شاهندة" ضد الرق والبحث عن حياة الحرية والكرامة.

وفي البداية تباع العائلة إلى تاجر طيب في " الحيرة " وهو التاجر "حسين" فتعامل معاملة إنسانية، وخاصة من "سلمى" زوجة التاجر التي لم ترزق بأبناء فتجد في "حليمة" وابنتها "شاهندة" عزاءً وأنساً، ولهذا نراها تحرص على لم شمل هذه العائلة البائسة وتعارض زوجها الذي كان يفكر في بيع "شهداد" وتقنعه بتعيينه ربان سفينة،بالرغم من استياء البحارة والخاصة من الأحرار الذين كانوا يستهجنون أن يقودهم عبد مثل "شهداد".

وتعيش هذه العائلة في بيت التاجر "حسين" ردحا من الزمن مطمئنة، ولكن "شاهندة" التي أصبحت فتاة ناضجة جميلة برزة تثير حنق سكان القرية الذين كانوا يخشون فتنتها وينظرون إليها بوصفها فتاة لعوبا.

ويتربص "محمود" بن "سالم" النخاس بالفتاة "شاهندة" التي كان يراقبها من بعيد ويزداد إعجابه بها، فيعترض سبيلها ويكمم فاها ويجرها قسرا إلى بيت مهجور محاولا أن ينال من شرفها، وهو يزعم أنه يحبها ويريد الزواج منها، فتقاومه وتصده بعنف،ولكنها تشغل به عند عودتها إلى البيت وتغرم به، بالرغم مما تكنه لوالده من مقت بوصفه السبب المباشر في انتقالها ووالديها من حياة الحرية إلى حياة العبودية،وبالرغم مما كانت قد وطنت نفسها عليه من الانتقام للعبيد.

ونفاجأ بشاب ثري في القرية يطلب "شاهندة" للزواج عارضاً عليها مهراً كبيراً،ولكنها ترفض وتتحدى التاجر "حسينا" الذي كان يحرص على هذه الفرصة التي تكسبه ماديا

وتلجم ألسنة الناس الذين كانوا ينتقدونه فيسخرون منه، ويلقبونه بـ "محرر العبيد"(٣) وحينئذ يفتضح أمر "شاهندة" ويعرف سبب إصرارها على رفض الزواج وتشيع علاقتها بمحمود الذي كان في الحقيقة يريد أن يتسلى بها ولايريد أن يتخذها زوجة.

وفي هذه الأثناء تأتي أخبار "شهداد" الذي تغرق سفينته بما كانت تحمل فلا ينجو أحد من ركابها.

ويثور سكان القرية على التاجر "حسين" فيذهب أعيانهم إلى منزله كي يناقشوه في مصير "شاهندة" التي أصبحت في نظرهم "كالطاعون" (٤) الذي يهدد أبناءهم وبناتهم،وهنا يضطر التاجر أن يبيع "شاهندة" إلى النخاس العتيد "جابر" الذي يقطع بها الصحارى والفيافي البعيدة في قافلة، ثم يخلو بها محاولا اغتصابها كما تعود أن يفعل بأمثالها ممن يشتريهن، ولكنها تصده بقوة فيعجب بها ويتزوجها.

وهنا تفتح صفحة جديدة في حياة "شاهندة" التي أصبحت زوجة وأما في قرية نائية،ولكنها تشرع في الانتقام من تجار العبيد، فتضلل جابراً وتخونه بعد تأكدها من خيانته الزوجية، وعندما يفتضح أمرها يعاقبها "جابر" فيرسلها في قافلة يتركها قائدها في صحراء نائية بواحة لايوجد فيها سوى رجل هرم يعيش وحيدا مكتفيا بما كانت تدره عنزاته من حليب.

وتبدأ "شاهندة" حياتها الجديدة في هذا المنفى الرملي مع عجوز غريب، كي تموت موتا بطيئاً.

وبعد سنة يفقد العجوز عنزاته واحدة تلو الأخرى، ثم يموت لتبقى "شاهندة" وحيدة تهيم في الصحراء المقفرة المترامية الأطراف باحثة عن قطرة ماء دون جدوى، فتقع على الأرض مغمى عليها، فتتهافت عليها الطيور الكاسرة هامة بنهش لحمها، ثم تستفيق لتجد مجموعة من صائدي الحبارى يحيطون بها ويسعفونها، وعندما تنتهي رحلة الصيد يصطحبونها إلى مدينة جديدة ذات شوارع واسعة ومحلات تجارية أنيقة عامرة

بأنواع البضائع وقصور فخمة وحدائق غناء، وتجد نفسها في قصر قائد حرس الملك مرفهة تدوس على المخمل وتتكئ على وسائد "من ريش الطاووس" (٥).

وتتوالى الأحداث بسرعة فنرى "شاهندة" التي استعادت نضارتها وإحساسها بالحياة تنتقل إلى قصر الملك بوصفها هدية من قائد الحرس الذي كان يطمح أن يصبح وزيرا، فتحظى بإعجاب الملك فيتزوجها وتغدو ملكة آمرة ناهية، ولكنها لن تنس محموداً بن "سالم" النخاس فقد أمرت قائد الحرس أن يحضره من قرية "الحيرة" كي تنتقم منه فتجعله عبدا فاقدا الرجولة في قصرها.

ذلك ماحدث في رواية "شاهندة" بتركيز شديد، وتجاوز لكثير من الملابسات والتفصيلات، فماذا عن المضامين التي يمكن أن نعتصرها من هذا الحدث؟

لعلنا نستطيع أن نؤكد ونحن مطمئنون أن الإشكالية الكبرى التي تتمخض عنها هذه الرواية هي إشكالية الصراع بين جيلين: جيل الرق والعبودية، وجيل العتق والحرية كما ذكرنا من قبل.

وإذا كان "سالم" و"جابر" و"محمود" يمثلون جيل العبودية في الرواية فإن "شاهندة" و"سلمى" و "حسين" و "قائد الحرس" و "الملك" يمثلون جيل الحرية بتفاوت فيما بينهم.

١ ــ "سالم": وهو أول يطالعنا في الرواية بوصفه نخاسا لايكتفي بتجارة العبيد فيشتري ويبيع، وإنما بوصفه مختطفا، إنه لن يتورع ــ كما رأينا ــ عن استغلال ظروف عائلة "شهداد" التي ألقى بها القدر على صخور تلك الجزيرة منهكة يائسة جائعة، فبادر إلى سوق أفرادها بوصفهم "غنيمة" أو صيداً ثمينا على حد تعبيره. وكلمة "الصيد" هنا تحمل دلالة محددة، فهي تستخدم لغويا للدلالة على اصطياد الحيوان أو الطير في البر والبحر والجو ولكن "سالماً يستخدمه في الرواية استخداما مجازيا يشمل الإنسان كذلك، أي أنه في قرارة نفسه لم يكن يفرق بين الإنسان والحيوان عندما "يصطاد" ولذلك فإنه منذ البداية لم يستطع أن ينظر إلى هذه العائلة

البائسة التي كانت تبحث عن خلاص وملاذ أمن تخلع فيه "كل أثواب الحياة القاسية"(٦) نظرة إنسانية، فيؤاسيها ويساعدها على مواصلة رحلتها أو عودتها إلى موطنها، بل نظر إليها مهينة تخلو من أي رأفة، ولذلك فإنه ماكاد يبلغ البيت حتى طلب من أفراد هذه العائلة البائسة أن يناموا استعدادا لبيعهم.

"ولكن ناموا... ناموا ساعات طويلة، ففي صباح اليوم التالي سأذهب بكم إلى سوق العبيد. ألم أقل لمحمد إنني الليلة سوف أحصل على أي صيد، ولكن لم أكن أتصور أن يكون صيد الليلة ثمينا بهذه الدرجة... رجلا مفتول العضلات وامرأته قوية، ومشروع فتاة جميلة"(٧).

وإذا كان "سالم" يعيش ظروفا قاسية ويريد أن يتحدى الموت، وإذا كان قد ألقى بنفسه في اليم رغبة في "الانتحار مفضلا عليه أن يسقط في شارع من شوارع القرية ميتا من الجوع والألم واليأس"(٨). فإن ذلك كله لم يكن ليسوغ له هذه الذهنية العبودية التي تخلط بين الإنسان والحيوان.

وسوف يظل موقف عرض "سالم" لهذه العائلة على مجموعة من تجار العبيد الذين كانوا يفحصون أفرادها واحدا واحدا، بينما كان "سالم" يمسك بـ "شهداد" فيفتح فاه كي يفحص أسنانه و"كأنه يفتح فم حمار"(٩) نقول: سوف يظل هذا الموقف معبرا على مدى امتهان كرامة الإنسان.

٢ ــ جابر: وهو يعد من طينه "سالم" لايختلف عنه إلا من حيث علاقته بالمرأة خاصة، وهي علاقة عبودية بالتأكيد، إن جابراً الذي اشترى "شاهندة" دون علمها يأخذها في قافلته ويتوغل بها في أعماق الصحراء، حيث يحاول أن يغتصبها كما تعود أن يفعل مع مثيلاتها، ولكنها ترفض أن تذعن فيقرر أن يتزوجها شرعا فتتأثر "شاهندة" لهذه اللفتة التي تعيد إليها كرامتها، وتخلص له، ولكنها ماتلبث أن تكتشف

خيانته واستمراره في عادته الدنيئة في معاملة الإماء فتنتقم منه بخيانته مع رفيقه "عبد الله".

إن جابرا كمانرى ــ يحتقر الأمة ولو كانت زوجة شرعية وأما لابنته.

٣ ــ محمود: وهو يعد امتدادا لوالده "سالم" النخاس، ذلك أنه كان يصدر في تصرفاته عن الذهنية العبودية ذاتها. وإذا كان "محمود" قد تعلق ظاهريا بـ "شاهندة" فإنه في أعماقه كان يحتقرها، ولذلك فإنه يرفض فكرة الزواج منها، بالرغم من حبها وإخلاصها له، فقد كان يشتهيها كامرأة غضة، ولم يفكر فيها كزوجة وأم لأولاده، كان كل تفكيره منحصرا في هذا اللقاء في البيت المهجور"(١٠).

وإذاً فإن كلاً من "سالم" و"جابر" و "محمود" يمثلون ذلك الجيل الذي دفعته ظروف الحياة إلى تجارة العبيد، فتأصلت في ذهنه ووجدانه قيم معنية نتيجة تلك التجارة أدنى ما يقال فيها إنها قيم عبودية تتنافى مع إنسانية الإنسان.

ولئن كان هؤلاء يمثلون طرفا في إشكالية صراع الأجيال، فإن الطرف الآخر يمثله كل من "شاهندة" و "سلمى" و "حسين" و "قائد الحرس" و "الملك".

١ ــ شاهندة: وهي ترمز في الرواية إلى المرأة المتمردة على قيم العبودية التي تحاربها بكل الوسائل وتريد أن تمارس حريتها فتحدد مصيرها بنفسها(١١).

ولهذا فان الكاتب جعلها بطلة روايته التي حملت اسمها، وهو مالايحدث إلا نادرا في الرواية العربية، وحتى رواية "زينب" للدكتور هيكل لم تكن البطولة فيها في الحقيقة لزينب بقدر ماكانت لحامد.

إن "شاهندة" تعي جيدا أن العبودية لم تكن قدرا محتوما، وإنما هي من صنع أشخاص معينين، وهم هؤلاء النخاسون من امثال "سالم" الذي سلبها حريتها، ولذلك فإنها تحاول أن ترسم "طريقها"(١٢) وتصمم على الانتقام واستعادة حريتها وهو ماتحققه في

النهاية، بالرغم من ان المصادفات هي التي خدمتها في الرواية أكثر مما خدمها التخطيط المحكم والمقاومة المنظمة، ولكن هذه الحرية التي تريد "شاهندة" أن تحققها تظل حرية نسبية لاتتجاوز وضعها وموقعها في المجتمع، وهذا ماتصرح به هي ذاتها في حوارها مع التاجر "حسين" الذي كان يريد أن يحملها على الزواج من رجل مسن:

" أنا كما تعلم مملوكة... عبدة أباع أشترى... واليوم... سيدي حسين... وغدا محمد... وربما عبد الله... وقد يكون سلطانا... ولكن بالتاكيد فأنا قد جئت حرة لأعيش عمري كله عبدة... وأنا لااهتم كثيرا بنوع القيد. وربما يكون من اللؤلؤ وربما يكون من الذهب... وقد يكون من النحاس أو الحبال.. ولكنه... كما تعلم ياسيدي ــ قيد" (١٣).

ووعي "شاهندة" بهذا القيد الذي يشكل جدرانا عالية تطوق حياتها تريد أن تقاومه بالانتقام، ليس من "محمود" الذي غرر بها فحسب، وإنما من كل الذين يمارسون تجارة الرقيق، ولذلك فإنها لم تكن تريد أن تنتقم من "محمود" في حد ذاته وإنما كانت تريد أن تنتقم "في شخصه لكل رجل وفتاة وطفلة وامرأة وضع والده القيد في أيديهم"(١٤) على حد تعبيرها، وهي عندما تصبح ملكة في آخر الرواية تشفي غليلها فتجعل محموداً عبداً فاقد الذكورة.

٢ ــ سلمى: وهي الزوجة الحنون التي لم ترزق بأبناء فوجدت في "شاهندة" موضوعا لعاطفة الأمومة، ولذلك فهي تعامل هذه العائلة البائسة معاملة طيبة، وتحرص على بقائها في بيتها فتحول دون نوايا زوجها "حسين" الذي كان يفكر أحياناً في بيعها.

وقد سعت "سلمى" لدى زوجها كي يعين "شهداداً" ربانا لسفينته فنجحت في مسعاها. ويكفي أن نستأنس بموقف من المواقف الإنسانية الحميمة التي تعبر عن مدى تعلق "سلمى" بـ "شاهندة" فعندما قدم بعض الغرباء إلى منزل التاجر حسين توجست شاهندة خيفة ظانة أن هؤلاء الغرباء ليسوا إلا نخاسين يريدون أن يشتروها ووالديها.

واقتربت شاهندة.. وأخذتها سلمى بين ذراعيها ثم ضمتها إلى صدرها بقوة ونظرت شاهندة إلى سلمي... فوجدت أن دموعها بطيئة تتساقط من عينيها... فانتفضت شاهندة وقالت لها... سيدتي يبدو أن سيدي سوف يبيعنا... فردت سلمى عليها...

ــ لاتقولي لي من الآن سيدتي أبدا.. أنت ابنتي... قولي ياأمي.. أنا أمك ياشاهندة. أنا مثل حليمة.. أنت بالنسبة لي شيء كثير.. أنا لم أعرف طعم الأمومة إلا بك ومعك..(١٥).

فمثل هذا الموقف يعبر عن عاطفة إنسانية عميقة لم تدنسها الأطماع العادية في تجارة الرقيق. ولاقيم العبودية التي كانت تجرد العبيد من صفاتهم البشرية...

٣ ــ حسين: وهو بالقياس إلى تجار العبيد يعد تاجرا طيبا، لأنه يعامل خدمه من الرقيق معاملة إنسانية هو الآخر، ويرى في عائلة شهداد فألاً حسنا عليه(١٦) فبعد أن فقد أمواله كلها في تجارة الأقمشة الهندية بغرق قاربه. أخذت ظروفه المادية تتحسن بقدوم هذه العائلة.

وموقفه من الرق ــ كما يبدو من خلال الرواية ــ لم يكن موقفا مزاجياً عابراً، بل كان موقفاً واعياً، ذلك أنه أقدم على خرق سافر للذهنية العبودية التي كانت سائدة في قريته عندما تحدى الأعراف الاجتماعية فعين شهداداً ربانا لسفينته عندما لمس قدرته على قيادتها فأوغر بذلك صدور التجار والبحارة والغاصة من الأحرار الذين كانوا يرفضون أن يتلقوا أوامرهم من شهداد العبد، فيتوافدون على منزله ليعبروا له عن استيائهم ويتغامزون عليه فيلقبونه بـ "محرر العبيد"(١٧) بل إن البحارة يهمون بالتمرد عليه والامتناع عن العمل في سفينته مادام يريد أن يجعل "شهداداً" ربانا لها،ولكن حسين يصر على موقفه في حزم:

شهداد سوف يصبح ربانا عليكم أن تطيعوه في عرض البحر... شهداد لم يولد ليكون عبدا... من منكم ولد سيدا، من منكم يستطيع أن يعرف مصيره...

كم من رجال القرية من سقط في مصيدة النخاسين وبيع، وأصبح عبدا لانعرف عنه الآن شيئاً... بينما عاش العمر كله سيدا.. شهداد أعامله كأحد أفراد أسرتي... إن فيه من القيم والشهامة والكرامة مالايوجد عند سيد السادة (١٨).

وحينئذ لم يجد البحارة بدا من الموافقة على تعيين "شهداد" ربانا وأقلعت السفينة برئاسته.

فحسين ـ كما نرى ـ كان مناصرا للعبيد في الرواية عن وعي، وموقفه لم يكن نزوة عابرة، وإنما كان موقفا صادرا عن دراية، وإذا كان قد عامل "شاهندة" معاملة لاتخلو من جفاف وغلظة، فإن ذلك كان نتيجة ارتياب في سلوكها الأخلاقي، وهو الموقف الذي كان منتظرا من رجل متدين مثل التاجر "حسين".

٤ ـ قائد الحرس: وهو ينتمي إلى العهد الجديد الذي تطورت فيه مظاهر الحياة تطورا سريعا مفاجئا في الرواية، بينما كانت "شاهندة" تعيش حياة العزلة في بيت "جابر" أو في المنفى.

إن قائد الحرس يكرم شاهندة فينقذها من الموت، ويكرم وفادتها في قصره الفخم ولايعاملها بوصفها حيوانا على نحو ما فعل "سالم" بل يعاملها بوصفها كائناً إنسانياً. وذلك بالرغم من اتخاذها محظية خاصة له، مما يجعلنا نفترض أن الكاتب أراد أن يومئ إلى أن الذهنية العبودية ماتزال آثارها مستمرة بشكل آخر لدى بعض الأفراد.

٥ ـ الملك: وهو يعد نموذجا مثاليا ساميا يعكس مدى تطور القيم في المجتمع الجديد فبالرغم من كونه يمثل قمة الهرم في بناء المجتمع الجديد فإنه لايجد غضاضة في أن يتخذ شاهندة زوجة شرعية بصرف النظر عن كونها أمة، ولايكتفي بذلك بل نراه يشجعها على إبداء رأيها ومناقشته في مسائل تتعلق بتدبير شؤون الرعية والحكم، كما يبدو لنا من خلال المقطع الآتي من حوارها مع الملك.

" ـ لاأدري يامولاي... سمعت من زمان.. وأنا في بداية رحلتي إلى الساحل أن الأكفان ليس لها جيوب..

ـ ماقولك هذا..

ـ مولاي... لأني أحبك... ولأني أخاف عليك... ولأن أحشائي تضم طفلا أنت أبوه... فإنني أتمنى أن يقال ذات يوم إن عهدك كان عهد سخاء وكرم... (انه في عهدك عاش قومك سعداء.. كرماء... انتعشت التجارة... وكثرت المدارس وانتهى الفقر.

ـ ياشاهندة كنت دائما في حاجة إلى امرأة تقول لي: لا، عن حب وإخلاص.. كنت أريد امرأة تقول لي ما أوقفته أنت ساعات الغضب من قراراته فإنني لم أسمع من وزرائي... ومن حرمي ـ ومن كل من حولي إلا كلمات الإعجاب بكل ما افعله ... لقد نصبوني ملكا.. لابل إلها.. وأنت ياشاهندة نوع من النساء مختلف تماما أنا لست إلها.. أحيانا أبحث عن لعب أطفالي وألعب بها.. لقد حرمت من متاع كثيرة في الحياة.

ـ ما أنت يا مولاي إلا بشر مثلنا. ولكن الله اختارك لتكون في مكان القوة والنفوذ.... وهو امتحان... ولاأدري أنني أرى فيك قوة... واشعر أن الرجل القوي هو الرجل الرحيم الكريم الذي يحب الخير لأسرته ولقومه.

ـ كم امرأة ياشاهندة؟

ـ لا أدري... ولكنهن كثيرات...

ـ إنني أشعر أنني لا أملك سوى واحدة... هي أنت (١٩)

فمن خلال هذا الحوار الذي حرصنا على نقله على طوله، نستطيع أن نلمس مدى الانقلاب الكبير الذي حدث في القيم والعلاقات الاجتماعية بجانب الانقلاب المادي،فإذا

كانت المدنية الحديثة تعكس مدى التطور العمراني الكبير من الأكواخ الهشة التي تعبث بها الرياح والعواطف الرملية إلى القصور الفخمة، فإن القيم الاجتماعية والأخلاقية قد تطورت هي الأخرى من ذهنية الرق والعبودية والامتهان إلى ذهنية العتق والحرية والكرامة، وهو ما يؤكد انتصار القيم الإنسانية للجيل الجديد، جيل النفط.

ونكاد نجزم أن راشد عبد الله لايطرح قضية الرق بوصفها وجها من أوجه صراع الأجيال فحسب، وإنما يطرح قضية المرأة من حيث كونها امرأة، بصرف النظر عما إذا كانت أمة أو حرة، أي انه يلجأ إلى أسلوب "التبطين" وهو ما يمنح روايته أبعاداً فكرية أكثر عمقاً. إنه لايختار شخصية المرأة الحرة، وإنما يختار شخصية المرأة الأمة بوصفها أكثر قدرة على تجسيد المثال الفاقع او المتطرف في الدلالة على ذهنية العبودية التي يحاصرها في هذه الرواية، ومن هنا فإن "شاهندة" تؤدي وظيفتين مزدوجتين في الرواية، فهي تؤدي وظيفة تجسيد ظاهرة الرق بوصفها ظاهرةاجتماعية تاريخية محدودة تعد من إفرازات الجيل الماضي، جيل ماقبل النفط أو جيل ما قبل الطفرة الحضارية الكبيرة التي قطعتها منطقة الخليج العربي بشكل عام، ومنطقة الإمارات العربية المتحدة بشكل خاص، ووظيفة حمل قضية المرأة من حيث كونها امرأة، أي أن شاهندة هنا تغدو معادلا موضوعيا لظاهرة عامة، وهي ظاهرة قهر المرأة التي لم يرغب الكاتب في علاجها بأسلوب صريح لسبب ما، قد يكون فنيا وقد يكون فكريا أو روحيا مرتبطا بدائرة "التابو".

ولكن الذي نلفت النظر إليه أن أسلوب "التبطين" الذي يستثمره "راشد عبد الله" لايخرج مضمون الرواية عن سياق إشكالية صراع الأجيال.

تلك هي القراءة المقترحة لمضامين شاهندة فماذا عن القراءة الجمالية؟ سنقف في قراءتنا الجمالية عند أهم العناصر الفنية المتميزة في هذه الرواية، وهي ظاهرة العناصر التي يمكن حصرها فيما يأتي:

أ ــ بناء الحدث: ينبغي أن نسجل بداية أن الحدث في هذه الرواية كان طاغيا على غيره من العناصر، إذ أننا نجد حشدا كبيرا من الأحداث المضغوطة. وكأننا أمام رواية مغامرات رومانسية.

وقد وزع الكاتب أحداث روايته على واحد وعشرين فصلا متتابعا توزيعا روائيا محكما حريصا على تقديم جزء من الحدث الرئيسي في كل فصل، أو تقديم حدث ثانوي مستقل يلقي الأضواء على جوانب من الحدث الرئيسي: فهو ــ على سبيل المثال ــ يقدم لنا ملابسات "البحث عن صيد" في الفصل الأول، ويتتبع سالماً في مغامرته المضنية من جل العثور على شيء ما بدءا من "الكفن" حتى (الإنسان)، إلى أن يجد عائلة شهداد في الجزيرة، ثم يعود الكاتب في الفصل الثاني إلى ماضي هذه العائلة وحكاية خروجها من الشاطئ المقابل بحثا عن حياة كريمة، وفي الفصل الثالث يواصل حوك نسيج حكايته الرئيسية فيتابع سالما الذي كان مشغولا بتسويق صيده وهكذا دواليك.

ولكن التوزيع "المحكم" للأحداث على الفصول لايعني أن الكاتب استطاع أن يقدم لنا بناء محكما لذلك الحدث بل بالعكس نراه يقدم لنا بناء لايخلو من تورمات لعل أهم مظاهرها يتجلى لنا في غياب تسبيب الأحداث أو غياب الحافز الذي يسوغ الفعل الروائي ويحكم ترابطه، وهنا كان لابد أن يلجأ الكاتب إلى المصادفة كي يسد فراغ غياب السبب أو الحافز في بناء حدثه الروائي، على نحو مافعل عندما جعل سالما يلتقي بعائلة شهداد في الجزيرة مصادفة، وعندما جعل شاهندة تلتقي بـ محمود في المكان المهجور دون موعد مسبق، وعندما جعل قائد الحرس يكتشف شاهندة في

منفاها بأعماق الصحراء وهي تحتضر، بينما كانت الطيور تتهافت على جسدها (٢١) مصادفة، وعندما جعل القافلة تصادف ذلك الرجل "الأسطوري" (٢٢) في الواحة.

وبالرغم من هذه المصادفات فقد حاول الكاتب أن يبني حدثه بناء مسلسلا حريصا على التدرج به من المقدمة إلى العقدة أو الأزمة إلى الحل والانفراج أي أن بناءه كان بناء تقليديا كلاسيكيا، وهو ما يعد طبيعيا في أول رواية رائدة في الأدب الإماراتي الحديث. وما دامت بنية الحدث بنية تقليدية كلاسيكية فإنه من الطبيعي كذلك أن يسند سرد الأحداث إلى الراوية (الكاتب) الذي كان مطلعا على كل صغيرة وكبيرة في الرواية،سواء أكان ما يتعلق بالأحداث أم بالشخصيات وما تبديه أو تخفيه من دقائق وخلجات نفسية، إلى درجة أنه كان أحيانا يستبق الأحداث وتدرجها فيخبرنا بما سيقع في الرواية مستقبلا، على نحو مافعل عندما أومأ إلى مصير شاهندة في الفصل الرابع من الرواية بقوله: "فهي فتاة باحثة عن الحنان، فلم تخلق أبداً شاهندة لتكون أمة. لقد خلقت لتكون شيئا ما في هذه الدنيا، إن تصرفاتها كلها وذكاءها وشكلها، كل هذا يؤكد أنها سوف تحطم القيد، وتنطلق إلى آفاق لاتصل إليها سيدتها"(٢٣).

فالكاتب هنا يتنبأ بمستقبل شاهندة، وكأنه يطمئن القارئ بأنها ستكسر قيودها وتخرج من ظلام العبودية إلى نور الحرية!

وينبغي أن نشير إلى أن الكاتب يسند سرد الأحداث الثانوية إلى بعض الشخصيات الفرعية أحياناً.

وإذا أردنا أن نصنف المادة السردية التي كان يقدمها الرواي فإننا نجدها تتمثل في الحدث الرئيسي (قصة نضال شاهندة من أجل تحقيق ذاتها وحريتها نسبيا، وانتقامها من ذهنية النخاسة مجسدة في محمود) والأحداث الفرعية التي كانت تستهدف تعميق خط الحدث الرئيسي أو تلقي أضواء على ماضي الشخصيات الثانوية في الرواية، أو تؤدي وظائف أخرى، كان تسهم في اتخاذ موقف أو تفسيره.

وإذا كان الحدث الرئيسي في الرواية قد أخذ حقه في هذه "القـــراءة" فـإن الأحـداث الفرعية تحتاج إلى وقفة قصيرة لمالها من أهمية في بناء الرواية.

إننا لن نستطيع في هذا المقام أن نقف عند كل الأحداث الفرعية في الروايـــة، وإنمـا نقف عند أهم هذه الأحداث التي يمكن أن نحصرها فيما يأتي، حريصين على تحديـــد الوظائف التي تؤديها في بناء الحدث الرئيسي.

١ ـ حكاية النوخذة (*) علي: ويورد الكاتب حكايته بلسان أحد البحارة. ومؤدى هـذه الحكاية أن الماء والزادقلا في السفينة فراح "النوخذة" يقتر على البحارة بينما كان هـو يأكل ويشرب دون حساب، وعندما رأى "السيبل"(*) ـ الذي كان يعاني من الجوع ـ يسرق تمرا وماء أمر بربطه في الساري كي يجلد ويكوي بالنار،ثم أمر النوخذة بربـط بعض الحجارة في رجليه، وألقوه في البحر"(٢٤).

وقد وظف الكاتب هذه الحكاية الفرعية فجعلها تسهم في دفع عجلة أحداث الرواية إلـى الامام، ذلك أن البحارة الذين كانوا يهمون بالتمرد احتجاجا على تعيين شـــهداد بديـلا للنوخذة "علي" أخذت مواقفهم تلين عند سماع الحكاية وهي الفرصـــة التـي ينتـهزها حسين فيستطيع أن يقنع البحارة بقبول شهداد ربانا.

٢ ـ حكاية الصندوق: وهي الحكاية التي تسند إلى الراوي ذاته، مؤداهـا أن التـاجر حسينا جمع كل ما يملك من مال فرضعه في صندوق ـ كما أشرنا من قبل ـ وركـب قاربا في طريقه إلى الهند كي يشتري الأقمشة، وبينما كان القارب يمخر عباب الخليـج تصدت له سمكة ضخمة فأخذت تعصف به يمينا وشمالا حتى حطمته والتهمت كثـيرا من الركاب من بينهم الحاج سليمان صديق حسين، الـــذي رآه بيـن فكـي السـمكة يستنجد(٢٥) أما حسين فقد كتبت له النجاة.

وهذه الحكاية تؤدي أكثر من وظيفة في الرواية، فهي تقدم لنا جزءا من الإجابة عـــن استفسار القارئ عن السبب الذي جعل التاجر حسينا يختلف في قيمه عن تجار العبيـد.

كما أنها تفسر لنا تفاؤله بهذه العائلة الغريبة التي اشتراها، أي عائلة شهداد، فضلا عن تصوير أهوال ركوب البحر الذي كان مصدر رزق لدى الإماراتيين وغيرهم من الخليجيين.

٣ ـــ حكاية الرجل "الأسطوري" (٢٦) الذي استقر بجوار بئر ماء ونخيل منذ سنوات في أعماق الصحراء معتزلا، وكأن له زوجة وأبناء فماتت الزوجة وهجره الأبناء بحثا عن الحياة الاجتماعية اللينة، بينما ظل هو هنالك يعيش على التمر وماتدره عنزاته من الحليب منتظرا مرور القوافل التي تزوده بشيء من الزاد كل ستة أشهر أو يزيد.

وكما يبدو فإن هذه الحكاية تؤدي وظيفة فنية في الرواية تتمثل في إيجاد وسيلة لإطالة حياة شاهندة ريثما تنتقل إلى الحياة الجديدة في المدينة، وكان الكاتب لم يجد مكانا يتركها فيه فاخترع حكاية هذا الرجل "الأسطوري" وهي حكاية تظل غير مقنعة أبدا.

وهناك حكايات أخرى فرعية كثيرة، مثل حكاية "اللؤلؤة"(٢٧) وحكاية "شهداد"(٢٨) في مواجهة العاصفة، وحكاية "الآغا"(٢٩)، وما إلى ذلك من الحكايات التي تتضافر جميعا لتصب في معين الحدث الرئيسي، فضلا عن إسهامها في تعميق الرؤية الفكرية.

ب ـــ بناء الشخصية: لقد كان الاهتمام بالحدث في هذه الرواية على حساب الشخصية إنها نتيجة حتمية في كل عمل تكون فيه العناية منصبة على الحبكة، وأبرز مثال على ذلك هو الرواية "البوليسية" التي تحتل الشخصية فيها الرتبة الثانية بعد الحدث. وبالرغم من أن شاهندة تعد بطلة الرواية كما أشرنا من قبل، فإن أبعادها النفسية والفكرية والوجدانية لم ترسم بدقة، كما أن بناء شخصيتها ينطوي على كثير من التناقض، إن شاهندة مافتئت تؤكد في الفصول الأولى من الرواية أنها ستنتقم لطبقتها من تجار العبيد(٣٠) الذين كانت تمقتهم وترى "أن أبشع تجارة يمكن أن يمارسها إنسان هي تجارة الرقيق"(٣١) ولكننا نفاجأ بها تتعلق بـــ "محمود" بن "سالم" النخاس الذي كان أول من وضع قيد العبودية في يديها، ولاتكتم مشاعرها تجاه "محمود" في قرية

محافظة كقرية "الحيرة" بل نراها تعلن تعلقها به في بجح أمام الملأ، ولاتتردد في السعي إليه قبل توطد العلاقة بينهما (٣٢).

وبالرغم من أن الكاتب يقدم لنا شخصية شاهندة وهي تناضل من أجل تحقيق ذاتها،فإنه كان في كثير من الأحيان يتخذها أداة أوبوقا لاذاعة أفكاره الخاصة، فالحوار السابق الذي دار بين الملك وشاهندة، على سبيل المثال ـ لم يكن يعبر عن شخصية شاهندة،التي لم تكن مهيأة لحمل تلك الأفكار بحكم نشأتها ـ بقدر ماكان يعبر عن آراء الكاتب ذاته، ولعل المثال الصارخ الذي يؤكد اتخاذ الشخصيات أبواقا لبث أفكار الكاتب هو ماورد على لسان " وصيفة الملكة" الجديدة" في الفصل الأخيرة من الرواية:

"مولاتي... منذ أن أصبحت ملكة وأنت شاردة الذهن.... مولاتي... لاتفكري كثيرا في أحوال القصر.. فهكذا كل القصور... إن سكانها أشبه بعصابة... كل فرد يكره الآخر... وكل فرد يكيد للآخر... وكل فرد يقابل الآخر بابتسامه والخنجر خلف ظهره...

والنساء... كل امرأة لها رجل آخر غير زوجها، ربما داخل القصر، وربما خارجه"(٣٣).

فوصيفة الملكة لايمكن أن تجرؤ على سيدتها إلى هذه الدرجة وتنتقد حياة القصور انتقادا مقذعا على هذا النحو. إنه المؤلف الذي يبث أفكاره ويقررها بلسان الوصيفة دون ريب...

أما الشخصيات الأخرى فقد جاءت أشباحا لانحس فيها نبض الحياة، وفي كثير من الأحيان يهمل الكاتب بعض شخصياته الروائية، فلا يعرف القارئ مصيرها، على نحو ما فعل بـ " حليمة " وابنه "شاهندة" من "جابر".

جـ ــ بناء المكان: لقد جاء المكان في الرواية مجردا عاما وليس خاصا محددا فنحن لانعرف أي شيء عن موطن شاهندة الأصلي سوى كونه يقع على الساحل الآخر من الخليج (٣٤) كما أن قرية الحيرة التي تجري فيها أحداث الرواية لم يقدم الكاتب عن معالمها سوى الأكواخ والمقابر والعواصف الرملية (٣٥) وهي معالم عامة لاتميزها سمات محلية خاصة، وكذلك الأمر بالنسبة إلى "الجزيرة" والمدينة الجديدة التي لم يستطع أن يميزها عن غيرها من المدن الحديثة المماثلة (٣٦). وإذا كان وصف المكان في أي عمل روائي يتوخى منه أهدافا مختلفة، فيوصف تارة بغرض الوصف في حد ذاته أو بغرض الإيهام بالواقعية، على نحو مانرى عند كتاب الواقعية الطبيعية(٣٧) ويوصف تارة أخرى بغرض شحنه بدلالات ورموز، أو بغرض توظيفه على نحو ما نجد عند كتاب الواقعية النقدية من أمثال "بالزاك" و "دوستويفسكي" و"يوجين أو نيل" في أعماله الرمزية.

إن وصف الفندق الذي ينزل فيه "الأب غوريو" (٣٨) يحمل دلالة معينة تتمثل في مقدار إفلاس العلاقات الإنسانية وتفكك أواصر القرابة في المجتمع الذي يحلله بالزاك،ووصف "تشيرماشينا" في "الأخوة كارامازوف" (٣٩) تجعلها تغدو رمزا مكثفا لاثم كل من "إيفان" و "ديمتري" ووصف المزرعة والبيت في مسرحية "اونيل" رغبة تحت شجر الدردار(٤٠) يجعلها رمزا دالا على الحياة المغلقة المجدبة في مقابل الحياة الحرة الخصبة في" كاليفورنيا وهلم جرا....

فهل استطاع راشد عبد الله في شاهندة أن يوظف المكان على نحو ماوظف في هذه الأعمال وغيرها؟

الحقيقة أنه مادام قد أهمل وصف المكان، إلا لماما كما رأينا، فإنه لم يحرص على توظيفه على هذا النحو المبدع، ومع ذلك فإن هناك موقفا عابرا يبدو أن الكاتب كان واعيا به جيدا، وهو موقف مناقشة مسألة الرق عند مكان يحمل دلالات ثرية. وهو

المسجد، ذلك أن سكان القرية وتجار العبيد تحديدا كانوا ينظرون إلى إصرار حسين على تعيين شهداد العبد ربانا للسفينة سابقة خطيرة أو "زلزالا في القرية" (٤١) يطال القيم والمواصفات الاجتماعية، ولذلك فإن بعض تجار العبيد، وفي مقدمتهم "سالم" اعترضوا سبيل حسين عند المسجد بعد أداء الصلاة وأخذوا يناقشونه في موقفه من العبيد:

"وأول ماخرج حسين من المسجد بادر سالم قائلا:

ــ ياحسين.. هل صحيح ما سمعناه...؟

فرد حسين قائلا بنغمة التحدي نفسها التي تحدث بها سالم قائلا:

ــ وماذا سمعت ياسالم؟

فرد سالم بسخرية

ــ إنك تجعل من العبيد سادة القوم...

ــ وانك ستجعل من شهداد عبدك ربانا يأمر سادة القوم... "(٤٢)

وعلى أي حال فإننا لانريد العودة إلى هذا الموضوع، وإنما نريد أن نلفت النظر إلى المكان الذي اختاره الكاتب لطرحه على هذا النحو، فليس من شك في أن مناقشة قضية العبيد عند المسجد بالذات يوحي إيحاء قويا بموقف الإسلام من الرق، ويوحي إلى تناقض صارخ بين سلوك سالم النخاس وعقيدته، ومن هنا يكتسب المكان دلالة ويغدو موظفا، ولكنه المكان الوحيد في الرواية الذي وظف...

د ــ بناء الزمان: لقد كان الزمن في هذه الرواية موضوعيا وليس ذاتيا، وهذا شيء طبيعي مادام الكاتب يهتم بالحدث أكثر من اهتمامه بالشخصية الروائية.

كما أن الزمن في هذه الرواية كان تصاعديا وليس دائريا أو حلزونيا، ذلك أن الزمن كان يسلك الوقائع التي كانت تبنى مسلسلة، كما رأينا من قبل، ولكن الكاتب أحيانا يكسر الخط التصاعدي للزمن الروائي بالعودة إلى الماضي مسترجعا بعض الأحداث،إلا أن هذا "الكسر" الزمني لم يكن يلجأ إليه الكاتب إلا في حالات بعينها،وهي حالات سرد الحكايات الفرعية التي وقفنا عندها منذ قليل.

ومما ينبغي تسجيله أن الكاتب لم يكن يحرص على توازن وتيرة التتابع الزمني في السرد، فطورا نجده يعطي مجالا لامتداد الزمن الروائي، على نحو ما فعل في الفصول الأولى من الرواية، وطورا آخر نراه يغير مقياس تطور الزمن في الرواية فيجعله سريعا، وهذا يبدو لنا خاصة في الفصول الأخيرة من الرواية، على نحو مافعل في الفصل التاسع عشر عندما انتقل فجاءة إلى زمن جديد، وهو زمن التطور العمراني والمدني والثقافي، أو زمن العتق والحرية، مودعا زمن الأكواخ والمقابر والعواصف الرملية والرق والعبودية: " يا إلهي... ماذا جرى لي... لقد نسيت هذه الصور... نسيتها من سنوات طويلة مضت... إنني اشعر أنني قد بلغت من العمر شيئا عظيما... إنني أشعر الآن أنني على حافة الحياة..." (٤٣).

هكذا تعبر شاهندة عن إحساسها بهذه الطفرة في الرواية، ولعل الكاتب معذور هنا لأنه لم يكن في إمكانه أن ينهي عمله الروائي دون التعجيل بتطوير السرد وتغيير مقياسه الزمني.

هـ ــ بناء اللغة: إن وظيفة اللغة في هذه الرواية توصيلية بحته، فالبنية اللغوية لاتتخذ هدفا في حد ذاتها بقدر ما تتخذ أداة توصيل لمعنى عقلي أو انفعالي، كما أنها لغة قاموسية تتخللها كثير من الصيغ المستهلكة، كقوله "وأصبحت المركب كريشة في مهب رياح عاصفة" (٤٤) و "تأتي الرياح بما لاتشتهي السفن" (٤٥) "ومن ترك داره قل مقداره" (٤٦) "وكان لبعضهم المشجب الذي يعلقون عليه كل آلامهم

وأحزانهم"(٤٧) وما إلى ذلك من الصيغ التي رددت كثيرا حتى استنفدت طاقتها الجمالية.

وقد راوح الكاتب في نسيجه اللغوي بين مستويات السرد والوصف والحوار، ولم يلتزم بمستوى واحد، بالرغم من طغيان أسلوب السرد، وهذا يعد إنجازا كبيرا بالنسبة إلى رواية رائدة.

وأخيرا لايفوتنا أن نشير إلى تلك اللوحات الجنسية التي نجدها في الرواية، والتي يبدو أن الكاتب لم يكن يستهدف توظيفها على نحو مانرى في أعمال نجيب محفوظ أو يوسف إدريس أو الطاهر وطار. بقدر ماكان يستهدف الإثارة، على نحو مانرى في أعمال إحسان عبد القدوس.

وبعد، فالذي تخلص إليه في هذه القراءة لرواية "شاهندة" أنها تعكس لنا النضال التاريخي الذي خاضه الإنسان العربي في منطقة الخليج ضد الطبيعة الصحراوية وحياة الشظف والفقر، وضد قيم الاسترقاق والعبودية، وذلك من خلال طرح إشكالية صراع الأجيال التي تنتهي بانتصار الجيل الجديد الذي استطاع أن يبدد قيم الاسترقاق ويؤكد القيم الذهنية الإنسانية على مستوى البنية الفوقية، كما استطاع أن يحقق نموا اقتصاديا وعمرانيا كبيرا على مستوى البنية التحتية.

وإذا لم تكن هذه الرواية ناضجة فنيا أو جماليا، وفقا لمناهج القراءة المعاصرة وخاصة ما يتعلق ببناء الحدث والشخصية والمكان والزمان واللغة، فإن الذي يشفع لها هو كونها رواية رائدة، تظل مقبولة إذا وزنت ببعض أشباها ونظائرها من الروايات العربية الرائدة التي مرت بمراحل جنينية قبل أن ترقى إلى مستوى الصيغة الروائية الفنية.

هوامش

* لم يحدد الكاتب أي حرب، أهي الحرب العالمية الأولى أم الثانية، أم أنـــــها حـــرب إقليمية؟... ولكننا نرجح أن تكون الحرب العالمية الأولى.

١ ـــ راشد عبد الله: شاهندة ـــ المركز العربي للصحافة ـــ مطابع الأخبار ـــ الطبعـــة الثانية ـــ القاهرة ١٩٧٦ ـــ ص ٥

٢ ـــ المصدر نفسه ص ٨

٣ ـــ المصدر نفسه ص٣١

٤ ـــ المصدر نفسه ص ٦٧

٥ ـــ المصدر نفسه ص ١٢٣

٦ ـــ المصدر نفسه ص ١١

٧ ـــ المصدر نفسه ص ١٥

٨ ـــ المصدر نفسه ص ٨

٩ ـــ المصدر نفسه ص ١٩

١٠ ـــ المصدر نفسه ص٦٦

١١ ـــ المصدر نفسه ص٧١

١٢ ـــ المصدر نفسه ص٤٦

١٣ ـــ المصدر نفسه ص٧٧

١٤ ـــ المصدر نفسه ص٤٨

١٥ ـــ المصدر نفسه ص٢٦

١٦ ـــ المصدر نفسه ص ٢٥

١٧ ــ المصدر نفسه ص٣١

١٨ ــ المصدر نفسه ص ٣٨ - ٣٩

١٩ ــ المصدر نفسه ص ١٣٠

٢٠ ــ المصدر نفسه ص ٦٨

٢١ ــ المصدر نفسه ص١٢٠

٢٢ ــ المصدر نفسه ص ٢١٨

٢٣ ــ المصدر نفسه ص ٢٦

* النوخذة ــ كلمة فارسية تعني ربان السفينة.

* السبيل ــ رتبة من رتب البحارة.

٢٤ ــ راشد عبد الله شاهندة ص ٣٤

٢٥ ــ المصدر نفسه ص ٢٤

٢٦ ــ المصدر نفسه ص ١١٨

٢٧ ــ المصدر نفسه ص٣٤

٢٨ ــ المصدر نفسه ص ٣٦ ــ ٣٧

٢٩ ــ المصدر نفسه ص ١٣٢ ــ ١٣٣

٣٠ ــ يرجع إلى المصدر نفسه ص ٤٨

٣١ ــ المصدر نفسه ص ٦١

٣٢ ــ المصدر نفسه ص ٥٧

٣٣ ــ المصدر نفسه ص ١٣٢

٣٤ ــ المصدر نفسه ص ١١

٣٥ ـ المصدر نفسه ص ٥

٣٦ ـ المصدر نفسه ص ١٢٢ ـ ١٢٣

٣٧ ـ يرجع إلى رواية فلوبير (سلامبو) مثلا ـ ترجمة بولس غانم ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة. د ت، وإلى روايته (مدام بوفاري) ترجمة الدكتور محمد مندور ـ روايات الهلال عدد ٣٤ ـ دار الهلال ـ القاهرة ١٩٧٧.

٣٨ ـ أنوريه بالزاك: الأب غوريو ـ منشورات عويدات ـ الطبعة الأولى بيروت ١٩٣٢.

٣٩ ـ فيدوردوستويفسكي: الأخوة كارامازوف ترجمة الدكتور سامي الدروبي ـ دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ـ (ثلاثة أجزاء) القاهرة ١٩٦٩.

٤٠ ـ يوجين اونيل: رغبة تحت شجر الدردار ـ الشركة التعاونية للطباعة والنشر سلسلة من المسرح العالمي ـ رقم ٣٩ القاهرة د.ت

٤١ ـ راشد عبد الله: شاهندة ـ ص ٣١

٤٢ ـ المصدر نفسه ص٣١

٤٣ ـ المصدر نفسه ص ١٢٢

٤٤ ـ المصدر نفسه ص ١٢

٤٥ ـ المصدر نفسه ص١٦

٤٦ ـ المصدر نفسه ص٢٠

٤٧ ـ المصدر نفسه ص ٧٦.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق ١٩٩٦/٨/١٩

دور النبر في إيقاع الشعر العربي المعاصر

د. اسماعيل الكفري
قسم اللغة العربية ـ كلية الآداب
جامعة دمشق

ملخص

ما الدور الذي يمكن أن يؤديه النبر اللغوي في إيقاع الشعر العربي المعاصر ؟ هذا هو السؤال الذي يحاول البحث الإجابة عنه. بهذا الهدف،وعلى ضوء الخصائص الصوتية للعربية من جهة ومفهوم الإيقاع من جهة أخرى ، قمنا بتحليل عدد غير قليل من النصوص الشعرية التي أبدعها بعض رواد حركة الشعر الحر. خلافاً لتأكيدات بعض الدارسين الذين توقفوا بشكل أو بآخر عند هذه المسألة، تظهر نتائج هذا التحليل أن النبر اللغوي لا يضطلع ولا يستطيع أن يضطلع بدور جوهري في تشكيل ذلك الإيقاع . فهو لا يكاد يتجاوز واحد من أمرين : إما دعم وتأكيد التكتلات الإقاعية الكمية ، أو إثراء الحركات الإيقاعية الداخلية . وكل ذلك لسبب بسيط ولكنه حاسم هو أن النبر اللغوي لايؤدي في العربية وظيفة "تمييزية"، أي دلالية

-١-

ثمة مقولة نقدية باتت اليوم بمنزلة الحقيقة العلمية لكثرة تداولها وجريانها على ألسنة المهتمين، مؤداها أن الدراسة المعمّقة للنص الأدبي عامّة والشعري خاصّة لا بد أن تركّز بالدرجة الأولى على الخصائص الدقيقة للمادّة المستخدمة في بنائه. فتحليل قصيدة ما يتطلّب أوّل ما يتطلّب معرفة اللغة التي كتبت بها تلك القصيدة معرفة واعية، ذلك أنّ هذه المعرفة الواعية هي على الإجمال الأداة الأولى والأهم التي يتكئ عليها الشاعر في إبداعه والقارئ في تثمينه لهذا الإبداع، ومن دونها لن يكون بمقدورنا فهم طبيعة ذلك الفن الذي نطلق عليه اسم "شعر".

ولا ريب في أن تلك المعرفة الشفافة ستكون أكثر من ضرورية حين يتعلّق الأمر بمحاولة فهم السمات الأساسيّة لنظام عروضي ما، لأن هذه السمات ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالخصائص الصوتيّة للّغة ذات الشأن، وقد أشار الناقد الفرنسي ب. غيرو (P. Guiraud) إلى الصلة الوثيقة بين طبيعة النظام العروضي والخصائص الصوتيّة للغة هذا النظام عندما تحدّث عن العروض الفرنسي قائلاً: إن القواعد العروضيّة لشعرنا ترتبط بطبيعة اللغة الفرنسيّة، ولهذا السبب بالذات لم تتطوّر هذه القواعد إلاّ قليلاً منذ نشأتها(١).

فالشاعر حين يكتب قصيدته يضع الخصائص الصوتية للغته موضع التطبيق ليخلق تلك الوحدة الوزنيّة التي نسميها عادة بيتاً أو مقياساً عروضياً. لكنّ العادات الصوتية كما هو معروف ليست واحدة في اللغات جميعها. بل إنّها قد تختلف من لغة إلى أخرى، ولهذا فإن الأنظمة العروضية تتنوّع بتنوع اللغات. فثمة لغات تفرض عاداتها الصوتية نظاماً عروضياً يرتكز على قاعدة نبرية، وأخرى تتطلّب عاداتها نظاماً يرتكز على قاعدة كميّة، وثالثة تنتج نظاماً يقوم على قاعدة رياضية، إلخ...

---

(١) "La versification" (النظم)، ص: ١١٠

ويتّفق المهتمون بالإيقاع العروضي على أنّ المقطع، الذي هو أصغر وحدة نطقية في السلسلة الكلاميّة، هو ما يجب أن يشكّل في الوقت نفسه وحدة القياس العروضية الأساسية، وهذا الحكم لا يصدق فقط على "النظام العروضي المقطعي، وإنما يصدق أيضاً على الأنظمة المرتكزة على النبر أو الكم حيث يختلف عدد المقاطع من بيت إلى آخر"[1]. صحيح أنّ الأنظمة العروضية جميعها تتكئ في بنيتها على المقطع، لكنّ الدور الذي يؤديه هذا العنصر الصوتي في تشكيل تلك البنية ليس واحداً، وإنما يتنوع إلى حدٍّ كبير، فهو يشكل في بعضها وحدة القياس الجوهرية والوحيدة، وهو في بعضها الآخر مجرّد دعامة ترتكز عليها سمية نغمية (نبر، كم، إلخ...) هي التي تضطلع بدور القاعدة التي يستند إليها تنظيم البيت. وقد أشار العالم الألسني والناقد الشعري ر. جاكبسون (R. Jakobson) إلى هذه الحقيقة بوضوح حين قال: "في بعض الأنظمة العروضيّة، المقطع هو الوحدة الثابتة والوحيدة المستخدمة في قياس البيت (...)، لكنّ المقاطع في بعض الأنظمة الأخرى تتفرع إلى نوعين هما: المقاطع البارزة والمقاطع غير البارزة (...) في البيت القائم على النبر، يكون التفريق بين المقاطع البارزة والمقاطع غير البارزة انعكاساً للتفريق بين المقاطع المنبورة والمقاطع غير المنبورة. على أي حال، إن غالبية الأنظمة النبرية ترتكز بصورة جوهرية على التفريق بين المقاطع التي تحمل نبر الكلمة وتلك التي لا تحمل مثل هذا النبر (...) أمّا في البيت القائم على الكمية، فإن التفريق بين البارزة وغير البارزة يتجسد بالتفريق بين المقاطع الطويلة والمقاطع القصيرة فالمقاطع الطويلة هي البارزة المقاطع القصيرة هي غير البارزة"[2].

على ضوء هذه المقولة وغيرها مما له صلة بالدرس اللساني عامّة والدرس الصوتي خاصّة ظهرت في الخمسين عاماً الأخيرة مجموعة من الدراسات الجادّة التي كرّس

---

[1] م.ن (أي المرجع أو المصدر نفسه). ص: ١٣

[2] "Essals de linguistique générale" (دراسات في الألسنية العامة) ج١، ص: ٢٢٣-٢٢٤

أصحابها جهودهم لغايات أعمق وأشق من تلك الغايات التي كان وما يزال يهدف إلى تحقيقها أصحاب الدراسات العروضية التقليدية: إذا كان الهم الأول لأصحاب الدراسات التقليدية يتمثّل بتقديم عرض مبسّط لنظرية الخليل مصحوب ببعض المبادئ والتدريبات التي من شأنها مساعدة القارئ على تقطيع الأبيات ومن ثمّ تحديد البحر وما لحق به من زخافات وعلل، فإنّ أصحاب الدراسات التجديدية لم يتوقّفوا عند حدود الغاية التعليمية، وإنما تجاوزوها وراحوا يحاولون أيضاً بثّ روح منهجية جديدة في الدرس العروضي العربي، تقوم على النقد والتحليل والتفسير مستفيدين في ذلك كلّه من معطيات علم اللسانيات ومفهومات نظرية الإيقاع.

كان السؤال الجوهري الذي حاولت تلك الدراسات الإجابة عنه هو الآتي: إلى أي نوع من الأنواع العروضية الثلاثة الرئيسية ينتمي العروض العربي؟ هل هو عروض كمي، أم نبري، أم رياضي، أم مزيج من هذا وذاك؟ والبحث الذي بين أيدينا لا يتطلع إلى الإجابة عن هذا السؤال الكبير بكل ما ينطوي عليه من تشعبات وتفاصيل، وإنما هو معنيٌّ بتحقيق غاية أكثر تواضعاً ولكنها تندرج في إطاره، تلكم هي محاولة تحديد الدور الذي يؤديه النبر في تشكيل إيقاع الشعر العربي المعاصر، أياً كانت قيمة هذا الدور وتلوناته، وهي على أي حال غاية ليست سهلة المنال.

أمّا الفكرة الأساسية التي يرتكز عليها هذا البحث فهي فكرة بسيطة مؤداها أنّ النبر في شعر ماهو بالدرجة الأولى انعكاس صادق لنبر اللغة التي كتب بها ذلك الشعر، بمعنى أنّ مواضع النبر في كلمات تلك اللغة تبقى على العموم واحدة أيّاً كانت طبيعة الخطاب، أي سواء أكان الخطاب نثراً (عادياً أو أدبياً) أم شعراً، فهذه المواضع هي فقط ما يحترمه إلى أقصى حد وبصورة عفوية المتحدثون بتلك اللغة. وقد عبّر إبراهيم أنيس عن هذه الفكرة من قبل حين قال: "والذي نلحظه في نبر الشعر أنه يخضع

للقواعد نفسها، التي يخضع لها النثر"[٢].

كما أشار إليها كمال أبو ديب حين قال: "ترتبط قضية النبر في الشعر جذرياً بقضيّة النبر في اللغة"[٢].

وعندما نقول إن لغة الشعر انعكاس لنبر اللغة العادية فهذا يعني أن دراسته في الأولى لا يمكن أن تصل بنا إلى نتائج صحيحة ومقنعة إن لم تكن دراسته في الثانية قد وصلت إلى درجة من النضوج والجدية تجعلنا نطمئن إلى نتائجها. والحق أن لدينا الآن من الدراسات الخاصة بالنبر اللغوي ما يشجعنا على تناول قضية النبر في الشعر، فقد بلغت دراسة النبر في العربية – في رأينا – حداً من الجديّة نستطيع معه الاعتماد على نتائجها في محاولة الكشف عما إذا كان للنبر اللغوي دور ما في تشكيل إيقاع الشعر العربي المعاصر وعن طبيعة هذا الدور في حال الإيجاب.

ــ ٢ ــ

ولكن ما النبر؟ "النبر إبراز مقطع صوتي واحد فيما يشكِّل في لغة ما الوحدة النبرية. وهذه الوحدة النبرية هي في غالبية اللغات ما يسمى عادة بالكلمة"[٣]. والإحساس بالنبر يرتبط ارتباطاً وثيقاً بدرجة الوضوح السمعي، فالمقطع المنبور يتمتع بقوة إسماع لا شكّ أشد من تلك التي تمتلكها المقاطع غير المنبورة، إنه أوضح منها في السمع.

أما العناصر المستخدمة عادة لتحقيق هذا الإبراز فهي الشِّدة (أو الكثافة INTENSITE) أي الطاقة النطقية، والارتفاع (HAUTEUR)، والكمية (QUANTITE).

---

[٢] "موسيقى الشعر"، ص: ١٦٨

[٢] "في البنية الإيقاعية للشعر العربي"، ص: ٢٨٩

[٣] أندريه مارتينيه (A. Martinet) , "Eléments de linguistique générale" (مبادئ اللسانيات العامة)، ص: ٨٩

فالشدة هي "التي تعطي الصوت عند إدراكه صفة الضعف أو القـوة، وهـي مقياس الطاقة التي تنتجها حركةٌ اهتزازية في وحدة زمنية ووحدة مساحيّة محدّدتيـن. فـإذا قرعنا شوكتين رنانتين متماثلتين، واحدة برفق والأخرى بقوّة، فإن الفرق بين الصوتين الناتجين سيكون أن أحدهما خفيف ومجرّد مسموع، أما الآخر فقوي ويمكن سماعه من بعد مسافة"[١]. وهكذا فإنّ شدّة الصـوت تتولّـد مـن سـعة الحركـة الاهتزازيـة للمصدر،فالسعة الأكبر تتطلب على العموم تواتراً أكبر للحبال الصوتية، وكلما كـانت سعة الحركة الاهتزازية أكبر كان الصوت أشدّ وأقوى، وبالعكس.

أما ارتفاع الصوت اللغوي (أو علوّه) فهو "الـذي يمـيّز بيـن الصـوت الخفيـض GRAVE والصوت الحادّ AIGU. وهو يرتبط بسرعة الحركة الاهتزازية، أي بعدد الاهتزازات التي تحصل في ثانية واحدة"[٢] . فكلّما زادت سـرعة اهـتزاز الحبـال الصوتية زاد الصوت ارتفاعاً وبالعكس. فالتواتر السريع ينتج صوتاً حـاداً والتواتـر البطيء يولّد صوتاً خفيضاً. من الناحية العضوية، يجد ارتفاع الصـوت أساسـه فـي أحجام الحبال الصوتية وتوترها. وهذا ما يفسر حقيقة أن هذا الارتفاع يتغـير بتغـيّر قامة المتحدث وجنسه وعمره.

أمّـا كميـة الصـوت فـهي إحساسـنا بزمـن إرسـاله، أي زمـن النطـق بـه. ويبدو أن علماء اللغة لم يستطيعوا حتـى الآن الاتفـاق فيمـا بينـهم علـى تحديـد العنصر الأهم مـن هـذه العنـاصر في إبراز المقـطع المنبور، فأندريه مارتينيـه (A. MARTINET) يلاحظ أن "الدارسين المهتمين ظلوا يعتقدون لفترة طويلـة أن النبر في غالبية اللغات الأوروبية المعاصرة هو نبر حيوي، أي يتميّز بقمّة في منحنـى الشدّة النطقية، هذا في حين "تشير الدراسات الحديثة إلى أن الخاصيّة الثابتة والممـيّزة

---

(١) بسام بركة، "علم الأصوات العامة"، ص: ٤٠ – ٤١ .

(٢) م. ن، ص: ٣٩

لجميع أنواع النبر في اللغة الإنكليزية مثلاً تتمثّل بتبدل سريع في منحنى الارتفاع النّغمي، وإلى أنّ هذه الخاصية ترافق وتدعّم في الكثير من الأحيان بالمزيد من الشدّة والكم"[٤].

والحالة ذاتها نجدها عند المختصين بالعربية الذين هم أيضاً لم يستطيعوا الاتّفاق على تحديد العنصر النّغمي (PROSODIQUE) الأهم للنبر في هذه اللغة. فهنري فليش (H. FLEISCH) مثلاً، يرى أن النبر في العربية هو "بالضرورة نبر ارتفاع،نبر نغمي، لأننا لا نستطيع أن نجد فيها أثراً لنبرة الشدّة"[٥]. أمّا ب. كرابون دو كابرونا (P. CRAPON DE CAPRONA) فيؤكد من جهته أن "التسجيلات الصوتية الحديثة للعربية الفصحى تظهر شدّة مسطحة، من جهة، وتنغيماً ذا قبب تشكّل ذراها خطّاً مستقيماً هابطاً ينتهي بصوت صامت، من جهة أخرى. المسطّحات والقبب تتناضد في ما بينها بطريقة تتجزأ معها الجملة إلى مجموعات صوتية – دلالية تتقولب حول نبرة نغمية، أي نبرة تنسّق بين الشدة والارتفاع"[٦]. كمال خير بك يعتقد هو الآخر أن النبر في العربية هو "نبر يجمع بين العلو والحدّة، ولكنه يبدو واضحاً أكثر على المستوى الأول"[٧].

واضح إذن أن العمليات النبرية تستخدم العناصر النغمية بصورة مشتركة وبلا تفضيل، إنها لا تسمح لنا بتحديد الدور الذي يؤديه هذا أو ذاك من تلك العناصر. والشرط الوحيد والهام هنا هو ألاّ يكون العنصر المستخدَم واحداً من تلك التي تؤدي في اللغة ذات الشأن وظيفة تمييزيّة.

---

[٤] م. سا. ص: ٩٠

[٥] "L' arabe classique" (العربية الفصحى)، ص: ٢٧

[٦] "Le CORAN: aux sources de la parole oraculaire" ص: ٤٧١

[٧] "حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر"، ص: ٤٢٦

ومن هنا فإننا لا نشاطر علي يونس رأيه حين يؤكد أن النبر في العربية "له أثر كمي،لأن المقطع حين ينطق منبوراً يكون أطول من المقطع نفسه حين ينطق بغير نبر"[٨]، فالنبر في هذه اللغة لا يمكن أن يكون نبراً كمياً، لأن من المؤكّد أنّ الكم يؤدي فيها وظيفة تمييزية لا يستطيع أحد أن يجادل في أهميّتها. ولهذا فإن بمقدورنا، في نهاية المطاف، أن نؤكّد ما ذهب إليه كلّ من دو كابرونا وكمال خير بك وغيرهما،ونزعم أن إبراز المقطع المنبور يتم في العربية بالتنسيق والتعاضد بين عنصري الشدّة والارتفاع.

على أي حال، أن التحديد الدقيق لطبيعة العنصر النّغمي المستخدم في إنتاج النبر ليس له أهمية كبيرة هنا، لأن "الإدراك الحسي الاعتيادي للسلسلة الصوتية هو إدراك كلي،إجمالي، وهذا الإدراك الكلّي هو أول ما يجذب الانتباه. أما الفوارق الدقيقة بين النبرات المتأتية عن عناصر مختلفة (كم، ارتفاع، شدّة) فتترك آثاراً لغوية لها مغزى دلالي. إنها على كل حال لا تعرّض السياق الكلي للسلسلة الكلاميّة إلى الاضطراب والتشوش، سواء أكانت تلك السلسلة مرسلة أم متلقاة"[٩]. وهذا يعني أن الأمر الأكثر أهمية لدراسة الإيقاع في لغة ما هو تعرّف القوانين الأساسية التي تتحكم في كيفية إرسال الجملة وتلقّيها في تلك اللغة.

بكلمات أوضح، إن ما يهمّنا هنا هو تعرّف القواعد التي تحدّد موقع النبر في الوحدة النبرية العربية، الكلمة.

---

[٨] "نظرة جديدة في موسيقى الشعر العربي"، ص: ٢٢٨

[٩] ج. ما زاليرا (J. Mazaleyrat). "Eléments de métrique francaise" (مبادئ العروض الفرنسي"، ص: ١٢

ــ ٣ ــ

تثير مسألة تعرّف موضوع النبر اللغوي في العربيّة من المصاعب والمشكلات ما لا نجد له نظيراً في كثير من اللغات الأخرى، ويعود ذلك إلى ثلاثة أمور أساسيّة:

الأول: إن المهتمّين العرب إلى ما قبل هذا القرن - اللغويون منهم كما النقّاد والشعراء- لم يتركوا لنا شيئاً يسعفنا في هذا المجال، فهم لم يتوقفوا عند قضيّة النبر، ولم يناقشوها فيما وصل إلينا من مؤلفاتهم، بل إن علماء التجويد أنفسهم، أولئك الذين "أولوا قضية الكم أعظم عناية، وقسّموا المدّ إلى واجب وجائز ثم إلى منفصل ومتصل(...) مرّوا بالنبر دون أن يعيروه أدنى التفات"[١٠].

الثاني: إن الوضوح السمعي للنبر في العربية هو من الضعف بحيث لا يستطيع المتلقي غير المتمرّن أن ينجح دوماً في تحديد موضع النبر في الكلمة. فالناطقون بالعربية، وهذه حقيقة لا مجال للتشكيك فيها، يجدون على العموم صعوبة في التفريق بين المقطع المنبور والمقطع غير المنبور، في حين إن التفريق بين الصائت الطويل والصائت القصير، وبين المقطع الطويل والمقطع القصير بالتالي، أمر في غاية السهولة عندهم.

الثالث: إنّ موضع النبر في الكلمة يختلف باختلاف اللهجات العربية وتنوع عاداتها النطقية. فالنظر في واقع اللغة العربية من حيث الحدود المكانية والفروق الاجتماعية والفردية يسمح بملاحظة أن قواعد النبر تختلف أحياناً ليس فقط باختلاف الأقطار والبلدان العربية وإنما أيضاً من منطقة إلى أخرى داخل القطر الواحد. فكثيراً ما يكون المتحدث الناطق بالفصحى واقعاً، إلى هذه الدرجة أو تلك وبوعي أو من دون

(١٠) سعد مصلوح، "المصطلح اللساني وتحديث العروض العربي"، "مجلة فصول" القاهرية، ع٤، ١٩٨٦، ص: ١٩١

وعي،تحت تأثير العادات النطقية للهجته القطرية أو المحلية. الأمر الذي يجعل محاولة وضع قواعد شاملة لتحديد موضوع النبر تحديداً دقيقاً أمراً ليس سهلاً.

مع ذلك وعلى الرغم من أهمية أثرها السلبي كمثبطة للعزائم، فإن هذه المصاعب ما كانت لتقف سدّاً منيعاً في وجه المطامح العلمية لبعض المختصين المعاصرين، ولم تشكّل بالنسبة إليهم معضلة يصعب تجاوزها، أو عقبة كأداء بمقدورها أن تحول بينهم وبين محاولة الوصول إلى نتائج مرضية في هذا المجال.

صحيح أن اللغويين القدامى لم يدركوا ظاهرة النبر ولم يعمدوا تحقيقها، إلا أنها في العربية، التي شأنها في ذلك شأن جميع اللغات الحيّة الأخرى، حقيقة موضوعية. إنّها وعلى الرغم من كل شيء ظاهرة مطردة يمكن ملاحظتها وضبطها.

وثمة، من جهة أخرى، مصدر هام يمكن الاعتماد عليه في هذا الصدد اعتماداً آمناً إلى حدٍ كبير، ذلكم هو قراءة قرأء القرآن المعاصرين بوصفها تجسيداً حياً للنبر في الفصحى المعاصرة. والذي يدفعنا إلى أن نسند إليها هذه الأهمية ونصفها ذلك الوصف هو أنها التجسيد الأقل تأثراً بالعادات الصوتية للهجات وطريقة نبرها، هذا إن لم نشأ الذهاب إلى الحد الذي ذهب إليه سيد البحراوي لنقول معه إنها "لا تخضع لاختلاف اللهجات المعاصرة، التي تجعل بعض الدارسين يحترز إزاء أي قاعدة للنبر"[11].

ومن هذا المصدر ذاته، وتحديداً من الطريقة التي يقرأ بها القـرّاء المعاصرون القرآن في القاهرة، استقى إبراهيم أنيس مجموعة من القواعد النبرية حظيت – وماتزال تحظى – على الرغم من بعض الملاحظات التي سجلت عليها[12] بتقدير بالغ ممن

[11] "العروض وإيقاع الشعر العربي"، ص: ١١٨

[12] من الملاحظات التي سجلت على هذه القواعد أنها:

١) لا تنطبق على جميع اللهجات المصرية، فهي مثلاً لا تصدق على بعض لهجات الصعيد.

٢) غير دقيقة في صياغة بعض الأحكام.

٣) ليست ذات طابع شمولي، بمعنى أنها لا تغطي الكلمة الوحيدة المقاطع ولا تعالج

اهتموا بعده بمسألة النبر في العربية، إذ كان لهذه القواعد نصيب موفور من عناية غالبية اللغويين والنقاد العرب الذين اشتغلوا بتحديث العروض العربي. يقول: "لمعرفة موضع النبر في الكلمة العربية، يُنظر أولاً إلى المقطع الأخير فإذا كان من النوعين الرابع والخامس[١٣]، كان هو موضوع النبر، وإلاّ نُظر إلى المقطع الذي قبل الأخير فإن كان من النوع الثاني أو الثالث[١٤]، حكمنا بأنه موضوع النبر، أمّا إذا كان من النوع الأول[١٥]، نُظر إلى ما قبله فإن كان مثله أي من النوع الأول أيضاً، كان النبر على هذا المقطع الثالث حين نعدّ من آخر الكلمة. ولا يكون النبر على المقطع الرابع حين نعّد من الآخر إلا في حالة واحدة، وهي أن تكون المقاطع الثلاثة التي قبل الأخير من النوع الأول "[١٦].

هل تحدِّد هذه القاعدة موضع النبر في الكلمة العربية تحديداً دقيقاً؟ هذا السؤال يفرض نفسه حين يتذكر المرء أن الباحث يستطيع العثور عند مؤلفين آخرين على قواعد نبريّة لا تتفق معها في حالات معيَّنة.

للإجابة عن هذا السؤال وبهدف تحديد موضع النبر في الوحدة النبرية العربية بما أمكن من الدقة، سنتوقف عند المبادئ التي تنطوي عليها قاعدة أنيس واحداً تلو الآخر بوضعها في مواجهة ما استطعنا الاطّلاع عليه من مبادئ أخرى ظهرت هنا وهناك

المجموعات الصوتية المشكلة من كلمتين متصلتين على المستوى النطقي اتصالاً وثيقاً، إلخ... راجع في هذا المجال وعلى سبيل المثال لا الحصر علي يونس، م. سا. ص: ٨٠، وسعد مصلوح، م. سا. ص: ١٩٤، وسيد البحراوي، م. سا. ص: ١١٨ .

[١٣] المقصود بقوله "النوعين الرابع والخامس" المقطع الزائد الطول بنوعيه، ذلك الذي يتكون من "صامت + صائت طويل + صامت"، وذلك الذي يتكون من "صامت + صائت قصير + صامتين".

[١٤] المقصود هنا هو المقطع الطويل بنوعيه: أحدهما مكون من "صامت + صائت طويل"، والآخر من "صامت + صائت قصير + صامت".

[١٥] النوع الأول من المقاطع هو المقطع القصير، أي المكون من "صامت + صائت قصير".

[١٦] "الأصوات اللغوية"، ص: ١٧٢

للغرض نفسه.

لنبدأ إذن بالوقوف عند المبدأ الأول الذي يتوضع النبر بموجبه على المقطع الأخير من الكلمة إذا كان زائد الطول. هذا المبدأ لا يثير في الحقيقة أي مشكلة، فجميع المهتمين الذين استشرناهم يؤكدونه. فأحمد مختار عمر يشدّد على أن المقطع الأخير لا يحمل النبر إلاّ إذا كان زائد الطول[17]. والقواعد التي وضعها تمام حسان[18] وتلك التي تبناها محمد النويهي[19]، وغيرها كثير، تؤكد هي الأخرى هذا المبدأ النبري. الأمر الذي يعني أن قاعدة أنيس تُحدد بمبدئها الأول موضع النبر تحديداً دقيقاً: كل كلمة عربية تنتهي بمقطع زائد الطول تحمل فعلاً نبراً على مقطعها الأخير.

ولو انتقلنا الآن إلى المبدأ الثاني، ذلك الذي يحدد تبعاً لإبراهيم أنيس الشروط الواجب توافرها ليقع النبر على المقطع الذي قبل الأخير، لوجدناه ينصّ على أنّ هذا المقطع يحمل النبر في حالتين: إذا كان طويلاً أو قصيراً مسبوقاً بطويل[20].

الحالة الأولى من هاتين الحالتين هي أيضاً غير خلافية: جميع القواعد النبرية الأخرى التي استطعنا الوصول إليها تثبتها من غير لبس. فقد كتب على سبيل المثال سيد البحراوي: "إذا انتهت الكلمة بمقطع غير زائد الطول (طويل أو قصير)، نبرنا المقطع الذي قبله إذا كان طويلاً"[21].

---

[17] "دراسة الصوت اللغوي"، ص: ٣٠٨، والمقطع الكبير عند الكاتب يعادل بحسب المصطلح الذي اعتمدناه في دراستنا هذه المقطع الزائد الطول.

[18] را. "اللغة العربية: معناها ومبناها"، ص: ١٧٢

[19] را. "قضية الشعر الجديد"، ص: ٢٤١

[20] نذكر بأن هاتين الحالتين مشروطتين بألا يكون المقطع الأخير في الكلمة زائد الطول.

[21] "العروض وإيقاع الشعر العربي"، ص: ١١٩، راجع أيضاً: حسان تمام: "اللغة العربية، معناها ومبناها"، ص: ١٧٣، وأحمد مختار عمر: "دراسة الصوت اللغوي" ص: ٣٠٨، ودوكابرونا: م. سا ص: ٢٢٢، إلخ...

لكن هذا الاتفاق العام والمؤكد بخصوص نبر المقطع الذي قبل الأخير حين يكون طويلاً لا نجد له أثراً في الحالة الثانية، أي حين يكون قصيراً ومسبوقاً بطويل. فخلافاً لما يذكر إبراهيم أنيس يذهب جميع المؤلفين الذين عدنا إليهم[٢٢] إلى أن النبر في هذه الحالة يقع على المقطع الذي يسبق ما قبل الأخير، وليس على الذي قبل الأخير. يقول تمام حسان "يقع النبر على المقطع الثالث من الآخر إذا كان (...) متوسطاً متلواً بقصيرين نحو: بيتك – لم ينته – أُخرِجَ"، "أو بقصير ومتوسط نحو "بينكم – مصطفى – أخرجوا – مفكرّ – نظرةٌ – ابتسامةٌ"[٢٣]. ويقول أحمد مختار عمر: "ينبر المقطع الذي يسبق ما قبل الأخير (الثالث من الآخر) إذا كان المقطع الأخير من النوع المتوسط والذي قبل الأخير من النوع القصير كما في "علَّمك" و"علَّموا""[٢٤]. والقواعد التي صاغها أو تبناها المستشرقون ر. بلاشير وم. ج. ديمومبين[٢٥]، وج. كانتينو[٢٦] تناقض هي الأخرى ما يؤكده إبراهيم أنيس: الكلمات من أمثال "كاتبٌ" و"يكاتب" تنبر تبعاً لهؤلاء الكتاب جميعهم على المقطع الذي يسبق ما قبل الأخير، بينما يقول أنيس بوجوب نبرها على الذي قبل الأخير.

---

[٢٢] لم يخرج عن هذا الإجماع سوى أولئك الذين تبنوا وطبقوا قواعد إبراهيم أنيس كما هي، على نحو ما فعل محمد النويهي في كتابه "قضية الشعر الجديد"، ص: ٢٤١-٢٤٢، وشكري عياد في كتابه "موسيقى الشعر العربي"، ص: ٤٣، وغيرهما.

[٢٣] م. سا. ص: ١٧٣، يستثني الكاتب من ذلك حالة هامشية، إذ يدّعي أن النبر يقع على المقطع القصير الذي قبل الأخير إذا "سبقه المقطع الأقصر ذو الحرف الوحيد الساكن الذي يتوصل إلى النطق به بهمزة وصل نحو: انحبس – ارعو – اخرجي – ابتغ – امضيا"، (م. ن. ص:١٧٣)، وواضح أن المقطع المتوسط عند كل من تمام حسان وأحمد مختار عمر يعادل عندنا المقطع الطويل.

[٢٤] م. سا. ص: ٣٠٨ – ٣٠٩، يستثني أحمد مختار عمر بدوره حالة هامشية أخرى فيزعم أن المقطع الذي قبل الأخير يُنبر إذا كان "قصيراً مسبوقاً بصدر إلحاقي" على نحو ما نجد في كلمة "يكتملْ" (م. ن. ص: ٣٠٨ – ٣٠٩).

[٢٥] “Grammaire de l’arabe classique” (قواعد العربية الفصحى)، ص: ٣١

[٢٦] “Cours de phonétique arabe” (دروس في علم الأصوات العربي)، ص: ١١٩

أما المبدأ الثالث والأخير من قاعدة إبراهيم أنيس فخلافي حقاً. إنه يثير في الواقع مسألة معرفة فيما إذا كان النبر يستطيع أو لا يستطيع التراجع باتجاه بداية الكلمة إلى ما بعد المقطع الذي يسبق ما قبل الأخير، أي إلى ما بعد المقطع الثالث حين نعدّ من آخر الكلمة.

هنا نلتقي باتجاهين عريضين متناقضين تماماً. أحدهما يدعي أن تراجع النبر باتجاه بداية الكلمة يمكن أن يتجاوز المقطع الثالث حين نعد من الآخر. أما الثاني فيزعم أن هذا التراجع يقف عنده.

الاتجاه الأول تبناه، إضافة إلى إبراهيم أنيس والذين اتبعوه، كلّ من تمام حسان (م. ن. ص:١٧٤)، وسيد البحراوي (م. ن. ص: ١١٩)، وج. كانتينو، وج. لوكومت، ور. بلاشير الذين صاغوا مبادئ نبرية متشابهة تماماً في الواقع[٢٧]. فتبعاً لهؤلاء الكتاب،الكلمات من أمثال: "مدارسكم" و"سمكة" تنبر على الشكل التالي:

- مدارسكم: "م - دا - ر - س - كم"[٢٨]
- سمكة: "س - م - ك - تن"

الأمر الذي يعني أن النبر يمكن أن يتراجع حتى المقطع الرابع.

خلافاً لذلك وتبعاً لأحمد مختار عمر[٢٩]، وكمال أبي ديب[٣٠]، لا يتراجع النبر في الكلمة العربية إلى ما بعد المقطع الذي يسبق ما قبل الأخير أبداً. فبالنسبة إلى هؤلاء المؤلفين، الكلمة التي مقطعها الأخير غير زائد الطول، ومقطعها الذي قبل الأخير غير

[٢٧] اللغويون الثلاثة يشيرون إلى أنه إذا كانت الكلمة لا تشتمل على أي مقطع طويل إضافة إلى الأخير فإن النبر يقع على أول مقطع فيها (راجع مؤلفاتهم المشار إليها سابقاً).

[٢٨] نشير إلى المقطع المنبور بوضع خط تحته.

[٢٩] را. دراسة الصوت اللغوي"، ص: ٣٠٨ - ٣٠٩

[٣٠] را. "في البنية الإيقاعية للشعر العربي"، ص: ٣٠٣

طويل ولا زائد الطول، تنبر حتماً وأيّاً كان عدد مقاطعها على المقطع الثالث حين نعد من الآخر.

وعلى هذا فإن الكلمتين المذكورتين قبل قليل تنبران على الشكل التالي:

- ُم - دا - ر - س - كمْ

- ُس - م - ك - تنْ

واضح إذن أن مقارنة القواعد التي صيغت لتحديد موضع النبر في الكلمة العربية،بعضها ببعض تظهر اختلافاً في حالتين: الأولى حين يكون المقطع الذي قبل الأخير في الكلمة الثلاثية المقاطع قصيراً ومسبوقاً بطويل، والثانية حين تشتمل الكلمة على أكثر من ثلاث مقاطع ويكون مقطعاها اللذان قبل الأخير قصيرين معاً.

في محاولة منّا إثراء هذا الجدل وربما في حسمه، سنسوق من جهتنا حجة لغوية تثبت فيما نزعم أن النبر وخلافاً لما يقول تمام حسان، ور. بلاشير، وج. كانتينو، إلخ ....،لا يتراجع في الحالة الثانية إلى ما بعد المقطع الذي يسبق ما قبل الأخير، من جهة، وأن هذا المقطع نفسه هو الذي يحمل النبر في الحالة الأولى، وليس الذي قبل الأخير كما يقول إبراهيم أنيس وشكري عيّاد ومحمد النويهي وغيرهم، من جهة أخرى.

وهذه الحجة ترتكز على حقيقة لغوية بسيطة ومعروفة جيداً عند كل من له اهتمام بعلم الأصوات، ومؤداها أن المقطع غير المنبور، لا يمتلك ولا يستطيع أن يمتلك من الخصائص الصوتية ما يمكن أن يمتلكه المقطع المنبور، وخاصة أن هذا الأخير على درجة من القوة يستطيع معها إضعاف، بل إنهاك، المقطع غير المنبور الذي يليه مباشرة.

جميعنا يعلم أن العربية تعرف ثلاث فئات من الأفعال الصحيحة هي الأفعال السالمة والأفعال المهموزة والأفعال الصمّاء (أو المضعّفة)، وأن هذه الأخيرة تخضع للقاعدة

الصرفية النظامية خضوعاً تاماً عند إسنادها إلى ضمائر معينة، وتخرج عليها عند إسنادها إلى ضمائر أخرى.

لنأخذ أولاً على سبيل المثال أفعال هذه الفئة التي صيغتها الصرفية "انفعل". فلو حاولنا اشتقاق ماضي المتكلم المذكر المفرد وماضي الغائب المذكر المفرد من الجذر الثلاثي "ش.د.د" مثلاً، وفق قاعدة الاشتقاق المعمول بها في العربية، النظامية، لوجب أن يأخذ الماضي الأول الشكل الصوتي "انشدَدْتُ"، والماضي الثاني "انشدَدَ". ولكن لو قارنا الآن بين هذين الشكلين المتوقعين، من جهة، والشكلين المستخدمين فعلاً، من جهة أخرى لتبيَّن لنا:

١ ــ ليس هناك فرق بين الشكلين في الحالة الأولى، فالشكل الصوتي المستخدم للتعبيرعن ماضي المتكلم المذكر المفرد هو الشكل النظامي نفسه: "انشدَدْتُ".

٢ ــ الشكل المستخدم فعلاً في حالة ماضي الغائب يختلف اختلافاً بيّناً عن الشكل النظامي المتوقَّع: بدلاً من الشكل النظامي "انشدد"، نستخدم للتعبير عن الماضي الشكل "انشدَّ"، حيث الصامتان الجذريان المتماثلان لم يبقيا منفصلَيْن واحدهما عن الآخر كما في "إنشدَدْت"، وإنما اتّحدا ليشكلا معاً صامتاً طويلاً واحداً هو ما نسميه عادة "حرفاً مشدّداً".

كيف نفسِّر هذه الظاهرة اللغوية؟ لماذا تحول الشكل "انشدَدَ" إلى "انشدَّ"، في حين إن الشكل "انشدَدْت" بقي على حاله؟ بصورة أدق، لماذا اختفى الصائت القصير (الفتحة) الذي يفصل بين الصامتين الجذريين المتشابهين في حالة "انشدَدَ" وثبت في حالة "انشدَدْتُ"؟.

استناداً إلى نظرية التنافس المقطعي التي تقول إن المقطع المنبور يمكن أن يضعف أو حتى ينهك المقطع غير المنبور الذي يليه مباشرة، سيكون تفسير الاختلاف في التعامل مع هذين الشكلين سهلاً للغاية، على ما نزعم.

إنه يتلخص بالآتي: تبعاً للرأي القائل إن تراجع النبر يقف عند حدود المقطع الثالث حين نعدّ من الآخر، يقع النبر في "انشدَدَ" على المقطع "شـ". ووقوع النبر على هذا المقطع أكسبه القوة الكافية لأنه ينهك المقطع "دَ" الذي يليه مباشرة مانعاً صائته من الظهور. وغياب هذا الصائت أدّى بدوره إلى انصهار الصامتين الجذريين المتماثلين أحدهما بالآخر حيث شكّل أولهما مع المقطع القصير المفتوح "شـ" الذي يحمل النبر مقطعاً طويلاً مغلقاً، وحصلنا في النتيجة على الشكل الصوتي: "انشدَّ".

أما الشكل "انشدَدْتُ" فإنه، وباتفاق مختلف النزعات النبرية التي تقدّم ذكرها، يحمل النبر على مقطعه الذي قبل الأخير: "دَدْ"، وهذا المقطع الذي هو قويّ في الأصل لأنه طويل يزيده النبر قوّة تحول دون اختفاء صائته. يضاف إلى هذا أن المقطع الذي يسبقه مباشرة "شـ" ضعيف نسبياً لأنّه قصير وغير منبور ولا يستطيع في النتيجة إضعاف المقطع الذي يليه. ولهذه الأسباب جميعها، لم يختف الصائت القصير الذي يفصل بين الصامتين الجذريين هنا، كما اختفى في حالة "انشدَدَ"، ولم يعان الشكل "انشدَدْتُ" أي تغيير في بنيته الصوتية.

وواضح أن تفسير الاختلاف في معالجة هذين الشكلين، وخاصة تحول "انشدَدَ" إلى "انشدّ"، سيكون صعباً، بل مستحيلاً، لو أننا تبنينا النزعة النبرية التي تقول بإمكانية تراجع النبر إلى ما بعد المقطع الثالث حين نعدّ من آخر الكلمة، وذلك لسبب بسيط هو أن الشكل "انشدَدَ" يجب أن ينبر بمقتضى هذه النزعة على مقطعه الأوّل وليس على الثاني.

وما قيل في تفسير تحوّل "انشدَدَ" إلى "انشدَّ" يصلح أيضاً لتفسير تحول "شدَدَ" إلى "شدَّ" و"اشتدَدَ" إلى اشتدَّ"، إلخ...

وكذلك، لو تبنينا نظرية إبراهيم أنيس النبرية التي مفادها أن الكلمة ذات التركيب المقطعي: طويل + قصير + طويل، أو التي تنتهي بهذا التركيب، تحمل نبراً على

مقطعها الذي قبل الأخير لأصبح من المتعذر معرفة لماذا يتحول الشكل النظامي لاسم الفاعل المشتق من الجذر "ش.د.د"، أي "شادِدْ"، إلى "شادّ". أما لو تبنينا النظرية التي تنبر بمقتضاها الكلمات التي لها هذا التركيب المقطعي ذاته، أو تلك التي تنتهي به،على مقطعها الثالث حين نعد من الآخر، لفهمنا بسهولة أنّ ما حدث هو الآتي: المقطع القوي "شا" الذي يحمل النبر أنهك المقطع "دِ" الضعيف نسبياً (قصير وغير منبور) مانعاً صائتة من الظهور. وهذا المنع ذاته أدّى بدوره إلى اتحاد الصامتين الجذريين المتشابهين، وبالتالي إلى ظهور الشكل "غير النظامي": "شادّ".

الخلاصة، بالاتكاء على هذه الظاهرة الصوتية التي تشجع، كما نعتقد، على البت في مسألة تحديد موضع النبر في الحالتين اللتين ما زالتا موضع خلاف عند المختصين،وعلى مجمل ما تقدم، نستطيع بهدف تحديد موقع النبر في الكلمة العربية تحديداً دقيقاً صياغة القانون التالي:

١ ــ يتموضع النبر على المقطع الأخير في الكلمة العربية إذا كان هذا المقطع زائد الطول، على نحو ما نجد في الكلمات:

"مزارعون: م – زا – ر – عون"

"كبير": ك – بير"،

"رَمَيْتْ": رَ – مَيْتْ"،

"كالبرقْ: كلْ – برقْ"،

الأمر الذي لا يحدث، لنتذكر هذا، إلا عند الوقف، أي في نهاية الجملة أو الشطر أو البيت الشعري.

٢ــ إذا لم يفرض المبدأ الأول نفسه، يتموضع النبر على المقطع الذي قبل الأخير في الحالتين الآتيتين:

آ- إذا كانت الكلمة مكونة من ثلاثة مقاطع فأكثر وكان مقطعها الــذي قبــل الأخــير طويلاً[٣١]:

كتبتُ: ك – تب – تُ،

"يكتبونَ: يك – ت – بو – ن"،

"كتابٌ: ك – تا – ب".

ب- إذا كانت الكلمة مكونة من مقطعين وأياً كان طول المقطع الذي قبل الأخير:

"بنى: بـ – نى"،

"قُلْتُ: قل – ت"،

"هامٌّ: هام – من".

٣ ــ في الحالات الأخرى جميعها، أي تلك التي لا ينطبــق عليــها المبــدأ الأول ولا المبدأ الثاني، يتموضع النبر على المقطع الذي يسبق ما قبل الأخير (الثالث حين نعــد من الآخر):

"كتبَ: كَــ – ت – ب"،

"كتابكم: كــ – تا – ب – كم"،

"مدرسة: مد – رَ – سَ – تن"،

"سمكة: سَ – مِ – ك – تن".

وإلى هذه المبادئ النبرية الثلاثة، يجب أن نضيف الإيضاحات الآتية:

---

[٣١] قد يحدث، ولكن نادراً، أن يكون المقطع الذي قبل الأخير في الكلمة الثلاثية المقاطع زائد الطول،كما في كلمة "مهامّ". في مثل هذه الحالة، يقع النبر على هذا المقطع نفسه.

١- الملحقات، أي أدوات الربط كالواو والفاء والكاف واللام والباء وغيرها مما يتشكل من مقطع قصير واحد، لا تنبر ولا تؤثر في موضع النبر إن هي دخلت علـــى كلمــة مكوّنة من مقطعين فأكثر، فالفعل "رمى" مثلاً ينبر على المقطع "ر" سواء أكان مســبوقاً بأداة الربط "و" أم لا:

"رمى: رَ – ما"،

"ورمى: وَ – رَ – ما".

أما إذا اتصلت بألفاظ أخرى أحادية المقاطع مثلها كالضمائر وغيرها، فإنـــها تصبـــح منبورة:

"لقد: لَ – قد"،

"لك: لَ – ك"،

"بلا: بِ – لا".

١ ــ نبر أو لا نبر الأدوات المستقلة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بعدد مقاطعها فهي منبـــورة إذا كانت مكوّنة من مقطعين فأكثر:

"على: عـــ – لا"،

"إنّ: إن – نَ"،

"لكنّ: لا – كِنـــ – نَ".

وغير منبورة مبدئياً إذا كانت أحادية المقاطع من مثل "في" و"عن" و"لا"، إلخ...

ولكن هذه الأخيرة تصبح منبورة إن هي عُزّزت بعناصر صوتية أخرى، كالضمـــــائر مثلاً:

"فيها: في – ها"،

"منه: من – هُـ"،

"منهما: من – هُـ – ما".

٣ ــ أداة التعريف "ال" لا تنبر ولا تغيّر من موضع النبر، فلا فرق في موضع النبر بين "قَمَرٌ" و"القمرُ"، فكل من اللفظين ينبر على المقطع "قَ"، كما أن وقوعها بين كلمتين ملتحمتين على المستوى النطقي لا يغيّر موضع النبر في أي منهما:

"غاب قمرٌ: غا – ب – قَ – مَ – زن"،

"غاب القمر: غا – بل – ق – مَ – رُ".

في نهاية هذا الحديث الذي حاولنا عبره تحديد موضع النبر اللغوي في العربية بما أمكن من الدقة، ينبغي التأكيد على أن الكلمة العربية تمتلك نبراً متحركاً ولكنه منتظم،وأن موضع هذا النبر يتحدّد تبعاً لقانون ذي طبيعة صوتية خالصة، إنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بطبيعة التركيب المقطعي للوحدة النبرية.

ــ ٤ ــ

الآن وقد أصبحت المفهومات والقواعد اللسانية الضرورية بحوزتنا، فإننا نستطيع العودة إلى السؤال الكبير: ما الدور الذي يؤديه النبر في إيقاع الشعر العربي المعاصر؟

النبر واحد من أهم العناصر التي تشكل الخطاب، "إنه إلى حدّ ما المبدأ المنظم لمكوناته. وأهميته هذه تأتي أولاً من كونه يؤدى فيه دوراً تمييزياً بالمعنى العام للكلمة. فإشاعة النظام في مكان ما مثلاً تتطلب أول ما تتطلب إحداث تمايزات في هذا المكان. ومن دون النبر لن تكون الدفقة الكلامية سوى حركة مائعة لا شكل لها، حركة لا شعورية ورتيبة إلى أبعد الحدود. فالنبر وبما يخلق من توتر وفواصل وحدود وما

يحدث من صدى وتكرار هو ما يجعل الحركة المشمولة في الدفقة الكلاميـــة حركـــة يمكن إدراكها بالحواس، إنه هو الذي يشيع فيها نظاما له دلالة ما. هذا فـــي حيـــن أن الخطاب ذا الرتابة التامة سيكون دون شك صعبا على الفهم إلى حد كبير"[1]. ولهذا فـإن الأجنبي الذي لا يراعي قواعد النبر في كلامه يجد صعوبة كبيرة في إيصال ما يريـــد قوله إلى الآخرين، إنه لا يسهل على المتلقي عملية ضبط الرسالة المتلقـــاة، ولا علـــى فهمها، بل إن مثل هذا المتحدث يمكن أن يكون ولكن بصورة عفوية، سببا في التقطيـع الخاطئ لرسالته، وهذا التقطيع الخاطئ يشكل بحد ذاته واحدا من أهم عوامـــل ســوء التفاهم أو عدم الفهم.

يضطلع النبر إذن بوظيفة جوهرية عامة هي تســـهيل عمليـــة إدراك دلالات الكـــلام وفهمها فهما صحيحا، وذلك من خلال الاختلافات والاضطرابـــات والتقلبـــات التـــي يحدثها في حركة الكلام.

وعندما "ينتظم النبر في سلاسل فإنه لا يصبح عامل تفريق وتمييز فحسب وإنما عـــامل تنظيم أيضا بالمعنى الأشمل للكلمة. فالإيقاع الشعري يرتكز على العلاقة الجدلية لكـــل من الحركة والتكرار. والأصوات المشمولة في الدفقة الكلامية هي التي تمثل أســـاس الحركة وجوهرها في لغة القصيدة، في حين أن النبر، ومن خلال بروزه المنتظم فـــي تلك اللغة، يوفر عنصر التكرار. وعندما تكون السلسلة النبرية منظمة تنظيما رياضيـــا دقيقا، فإننا نكون أمام بحر عروضي، أما عندما تحاط هذه السلسلة بالمزيد من الحريـــة وتتخللها بعض الإنزياحات فإننا نكون في مواجهة الإيقاع"[2] . انطلاقا من هذه الحقيقـــة الأخيرة، سنحاول في الصفحات اللاحقة أن نجيب عن السؤال الذي يتمحـــور حولـــه بحثنا هذا.

---

[1] أ. كيبـــدي فارجـــا (A. Kibédi Varga), "les Constantes du poéme" (ركائــــز القصيدة)،ص:٤٧

[2] م. ن. ص: ٤٧

لقد استهلكت مسألة تحديد الدور الذي يمكن أن يؤديه النبر في تشكيل إيقاع الشعر العربي عموماً والمعاصر منه خصوصاً كمية لا يستهان بها من الحبر في العصر الحديث، إنها منذ أكثر من خمسة عقود تشكل واحدة من القضايا الشعرية الساخنة التي مازالت بحاجة إلى المزيد من التمحيص والدراسة. فالمختصون الذين توقفوا عندها،عرباً كانوا أو مستشرقين، لم يتوصلوا بعد إلى اتفاق بخصوصها، لابل إنهم كما سنرى بعد قليل تبنوا آراء مختلفة تصل في بعض الأحيان إلى حد التناقض الجذري.

الغالبية العظمى من اللغويين والنقاد الذين كتبوا في تحديث العروض العربي تنطلق في حديثها عن دور النبر من بحث للمستشرق فايل يؤكد فيه أن الإيقاع العروضي للشعر العربي "لا يرتكز فقط على كم المقاطع، وإنما أيضاً على عنصر قوي آخر هو النبر الإيقاعي"[٣]. فهو يرى أن كل تفعيلة من التفاعيل الثماني التي حددّها الخليل تشتمل، من بين ما تشتمل، على مقطع منبور واحد، وأن هذا المقطع المنبور لا يمكن أن يكون سوى المقطع الطويل الذي يدخل في تركيب وتد التفعيلة. "أمّا السببان اللذان يشاركان هما أيضاً في تركيب التفعيلة ويشكّلان الأجزاء غير المنبورة فيها، فليس لهما أيّ تأثير في الإيقاع، ولهذا فإنهما يكونان في غالبية الأحوال عرضة لتغيرات كمية سميت "الزحافات"، ويكون الوتد، حامل النبر، النواة الإيقاعية الحقيقية للبحر"[٤]. وتبعاً للبنية المقطعية للوتد، يتحدث الكاتب عن نوعين من الإيقاع هما الإيقاع الصاعد والإيقاع الهابط. فحين يكون الوتد المجموع، الذي ينبر على مقطعه الثاني، هو المحاط بمقاطع محايدة فإننا نحصل على تفاعيل ذات إيقاع صاعد. أمّا حين يكون الوتد المفروق، المنبور على مقطعه الأوّل، هو المحاط بمقاطع محايدة فإننا نكون أمام تفاعيل ذات إيقاع هابط.

---

[٣] "Encyclopédie de l' Islam" (الموسوعة الإسلامية)، ص: ٦٩٦

[٤] م. ن. ص: ٦٩٥

ولتدعيم هذه الفرضية يقدم فايل العديد من الحجج، أهمها الثلاث الآتية:

١ــ لقد رتب الخليل تفاعيل البحور في دوائر وفق نظام يسمح لمقاطعها الطويلة والقصيرة أن تتماكن. ومن المؤكد أن هذه الطريقة في الترتيب لم تكن اعتباطية، بل كانت عن عمد وذات مغزى محدّد: بما أن العربية تعكس بطبيعتها كمية المقاطع فإن الخليل لم يكن بحاجة إلى تشييد هذه الدوائر لو أنه كان يريد فقط الإشارة إلى طول المقاطع في التفاعيل. ينبغي أن نفترض إذن ومنذ البداية أن الخليل كان يهدف من خلال تصنيف البحور وترتيبها ترتيباً خاصّاً في الدوائر إلى شيء آخر يخص إيقاع الشعر العربي.

٢ ــ في حين كان اليونانيون يستخدمون للدلالة على تفاعيل نظامهم العروضي كلمات وظيفتها الوحيدة أن تعكس ترتيب المقاطع الطويلة والقصيرة داخل هذه التفاعيل فقد اختار الخليل لتمثيل التفاعيل الثماني الأساسية التي يعرفها العروض العربي كلمات لها وجود حقيقي ودلالات محدَّدة في اللغة العربية. ولما كان النبر هو ما يكتِّل المقاطع في وحدات تشكل كلمات متمايزة، فمن الطبيعي افتراض أن تكون الكلمات الممثّلة للتفاعيل العربية قد وضعت لتشير إلى أن في داخل كل تفعيلة هناك مقطعاً يجب أن ينبر دوماً.

٣ــ وتتأكد أهمية هذا الافتراض لدى تفحيص الطريقة التي اتبعها الخليل في تحليل التفاعيل إلى عناصرها الأوليّة، ففي حين ينظر اليونانيون إلى المقاطع الطويلة والقصيرة على أنّها أصغر الوحدات العروضية، يستخدم الخليل لتعيين الوحدات العروضية الصغرى كلمات حقيقية هي الأقصر في اللغة العربية من الناحية النطقيّة أي كلمات فعلية أحادية أو ثنائية المقاطع. وهذه الكلمات تكشف شيئاً ما له علاقة بالنبر الكامن فيها. فكلمتا "قد" و"لك" الممثلتان للسببين الخفيف والثقيل على الترتيب لا تحملان أي نبر حين تردان في النصوص النثرية.

أما كلمتا "لقد" و"وقت" الممثلتان للوتدين المجموع والمفروق فتحمل كل منهما نبرا خاصا بها، وذلك في اتجاهين متعاكسين. وعندما تستخدم هذه السلاسل المقطعية كعناصر عروضية في التفعيلة وتشكل بيتا شعريا فإنها تؤدي حينئذ وظائف إيقاعية محددة[٥].

على أي حال، فقد استثارت هذه الفرضية مواقف متناقضة، بعضها مؤيد والآخر رافض. فالمستشرق ر.بلاشير يرى فيها "عملا عظيما" و"تعميقا لمعرفتنا بالعروض العربي"[٦]. أما المستشرق هـ. فليش فيرى فيها، على العكس تماما، عملا شديد التعسف، لأن العروض العربي برأيه "عروض كمي ليس غير". يقول: "لو كان بمقدور النبر أن يؤدي فعلا الدور الذي يسنده إليه فايل، لما احتل الكم المكانة الأولى باعتراف الجميع لأنه سيتقاسم آنئذ العمل مع النبر على إحداث الإيقاع الشعري، ولما كانت الشروط الخاصة بالكمية المقطعية دقيقة إلى الحد المعروف: التبدل البسيط الذي يمكن أن يطرأ على كمية المقطع المسمى "محايدا" لا يؤثر إطلاقا في الحركة الإيقاعية. وعندما أسند فايل هذا الدور الهام إلى النبر، أي إلى الزمن القوي في التفعيلة، فإنه كان دون شك واقعا، ولكن بصورة غير إرادية، تحت تأثير النبر الحيوي للغة الألمانية ودوره في تشكيل إيقاع الشعر الألماني. ثم كيف نستطيع التحدث عن دور للنبر في العروض العربي، في حين أن النبر لا يلعب أي دور تمييزي في اللغة العربية، وأن التراث العربي بفروعه كافة تجاهل ظاهرة النبر تجاهلا تاما"[٧].

ومن الدارسين العرب الذين يذهبون مذهب فايل ويرون أن النبر يؤدي دورا جوهريا في وزن الشعر العربي يمكن أن نذكر محمد مندور الذي يؤكد أن "الشعر العربي

---

[٥] را. م. ن. ص: ٥٩٦

[٦] "Arabica"، م٧، ١٩٦٠، ص:٢٢٥

[٧] "Mélanges de L'université Saint – Joseph" ع: ٤٢، ١٩٦٤

يجمع بين الكم والارتكاز وربما كان هذا سبب تعقّد أوزانه"[8]. فهو يرى أن طبيعة الأوزان العربية "تتكون من وحدات زمنية متساوية أو متجاوبة هي التفاعيل، وأن هذه التفاعيل تتساوى أو تتجاوب في الواقع عند النطق بها بفضل عمليات التعويض سواء أكانت مزحفة معلولة أم لم تكن، وأن الإيقاع يتولّد في الشعر العربي من تردد ارتكاز يقع على مقطع طويل في كل تفعيل ويعود على مسافات زمنية محددة النسب"[9]. ويتبنىّ محمد عوني عبد الرؤوف الرأي نفسه زاعماً أن التفعيلة العربية تحمل نبراً على وتدها المجموع[10].

وبينما يتحدّث شكري عيّاد بشيء من التحفظ والحذر في هذا الخصوص، إذ يقول: "إننا ما زلنا نعتمد على دراسة أولية عن النبر تحتاج نتائجها إلى مزيد من التحقيق (...) وإن المرء ليتهيب الانطلاق في هذه الآفاق خشية أن يكون ساعياً وراء سراب"[11]، يؤكد كمال أبو ديب "أن الشعر العربي يقوم على نظام إيقاعي ذي أسس معقّدة يلعب التركيب النووي، والعلاقة بين النوى، والنبر المجرّد والنابع من هذه العلاقة، أدواراً جوهرية في صياغتها"[12]، والنبر في رأيه "هو الفاعلية الجذرية في خلق الانتظام والتناسق وإعطاء الوحدات شخصيتها الإيقاعية، وهو الذي يحدد أطر التجاوب الإيقاعي، ويقيم التعادل بين وحدة وأخرى، ويخلق في النهاية شخصية التشكّل الإيقاعي ونمطه"[13].

---

[8] "في الميزان الجديد"، ص: ٢٣٢

[9] م. ن. ص: ٢٣٢

[10] "بدايات الشعر العربي بين الكم والكيف"، ص: ٦٥

[11] "موسيقى الشعر العربي"، ص: ٥١

[12] "في البنية الإيقاعية للشعر العربي"، ص: ٥٣٢

[13] م. ن. ص: ٣١٢، راجع أيضاً سعيد بحيري الذي يرى أن إيقاع الشعر العربي "يقوم على دعامتين من الكم والنبر معاً"، مجلة "فصول"، م٦، ع٣، ١٩٨٦، ص: ١٩٧

أما أشهر من خاض في مسألة دور النبر اللغوي في تشكيل البنية الإيقاعيـــة للشـــعر العربي المعاصر فهو بلا ريب محمد النويهي الذي يعتقـــد بـــأن الشـــعراء العـــرب المعاصرين يستغلون، بوعي أو من دون وعي، النـــبر اللغـــوي فـــي خلـــق إيقـــاع شعرهم[١٤]،وذلك لدرجة نستطيع معها القول: إن البنية الإيقاعية للشعر العربي المعاصر تتجه تدريجياً نحو الجمع بين نوعين من العروض أحدهما كمي والآخـــر نـــبري، أو ربما نحو تشكيل نظام نبري محسّن وتام يحل محل النظام الكمي.

ولتدعيم رأيه هذا، يجري النويهي مناقشة طويلة يمكن تلخيصها بالنقاط الثلاث الآتية:

١- تتمتع العربية المعاصرة بنظام تنبير ثابت تقريباً، فمقاطع كلمـــات هـــذه اللغـــة لا تختلف فيما بينها من حيث الطول فحسب، وإنما أيضاً من حيث أن بعضـــها منبـــور وبعضها الآخر غير منبور[١٥]. صحيحٌ أن موضع النبر داخل الكلمة الواحـــدة يختلـــف أحياناً من قطر عربي إلى آخر، أي باختلاف اللهجات العربية وتأثيرها، أو حتى مـــن منطقة إلى أخرى داخل القطر الواحد، إلا أنَّ هذا الاختلاف في موضـــع النـــبر هـــو اختلاف محدود وضيق، ولا يسمح بأي حال من الأحوال بالتشكيك" بوجـــود النظـــام النبري ذاته"[١٦].

٢- لا جدال في أن إيقاع الشعر العربي يرتكز في الدرجة الأولى على مبدأ كمي. مـــع ذلك، وما دامت لغة هذا الشعر تتحلىً بنظام نبري محدّد، فإنه يصعب تصور ألاّ يكون للنبر تأثير في هذا الإيقاع أو ألا يؤدي دوراً ما في تشكيله. فإذا كان النبر ودوره فـــي إيقاع الشعر العربي قد أُهملا لفترة زمنية طويلة، فما ذلك إلاّ لأنّ الإلقاء الشعري كـــان خاضعاً آنذاك إلى أسلوب مصطنع لا يهتم إلاّ بتقطيع البيت إلى تفاعيل كمية. أما فـــي

---

[١٤] را. "قضية الشعر الجديد"، ص: ٣١٤

[١٥] يتبنى المؤلف قواعد النبر التي صاغها أنيس دون أيّ تحفظ.

[١٦] را. م. ن. ص: ٢٣٩

عصرنا الحاضر فمن الثابت "أننا نقرأ الشعر قراءة تدخل على كلماته نظام النبر الذي نطبقه على كلامنا وقراءاتنا للنثر"[17], وهذا ما سمح للشعراء بأن يتحسسوا ظاهرة النبر، ويحسبوا حسابها عند نظم القصيدة.

٣- من بين البحور الستة عشر التي يعرفها العروض العربي التقليدي، الخبب (أو المتدارك) هو الأشد "ارتباطا بنظام النبر وتأثرا به. ولعل هذا هو السبب الذي جعل العرب القدماء يتحاشونه حين أسسوا النظام السائد لإيقاعهم الشعري على الأساس الكمي، حتى فات الخليل أن يحصيه بين البحور الخمسة عشر التي قيدها إلى أن استدركه الأخفش"[18]. أما ما جعل الخبب البحر الأكثر تأثرا بالإيقاع النبري فهو أن "تفعيلته (فعلن) أقصر التفاعيل التقليدية زمنا. فهي تتكون من مقطعين قصيرين ومقطع طويل، وليس بين التفاعيل الأخرى ما يبلغ هذا القصر الزمني. فإذا دخلها الإضمار (تسكين الحرف الثاني وهو العين) تكونت من مقطعين كلاهما طويل، فلم يعد فيها مجال يكفي لإقامة الإيقاع على أساس طول المقاطع وقصرها، واضطرت إلى اللجوء إلى توزيع النبر لتحقيق إيقاع شعري[19]. وهذا هو بالضبط ما يفعله الشعراء المعاصرون، كما يظهر من تحليل بعض الأمثلة الشعرية المؤسسة على البحر المذكور[20].

موقف النويهي هذا انتقده بشدة كمال خير بك. فتبعا لهذا المؤلف الأخير، لا يسعفنا نظام التنبير الذي وضعه أنيس وتبناه النويهي "إلا بصورة جزئية في تحليل وتفسير الإيقاعات الجديدة التي ابتكرها أدونيس على نحو ناجح وبهي (...)، والمؤسسة على

[17] را. م. ن. ص: ٣١٤

[18] م. ن. ص: ٣١٦

[19] م. ن. ص: ٣٢٤

[20] را. م. ن. ص: ٣١٦ - ٣٢٣

عروض كميّة"[٢١]. زد على ذلك أنه "سيكون من الصعب الاستناد إلى النبر كما هو معرّف ومحدّد لدى إبراهيم أنيس، من أجل إيجاد تفسير مقنع لتكرر الشذوذات الإيقاعية في الإنتاج الشعري بشكل ملفت، حتى في أعمال شعراء لا غبار على معرفتهم الوزنية والعروضية. ولعل ما ينبغي التفكير فيه في هذا المضمار هو الكشف عن نمط آخر من النبرات آتٍ من اللهجات المحكية"[٢٢].

على أي حال، إن نظام التنبير الذي تبناه النويهي، دائماً بحسب كمال خير بك، لا يسمح بأن نسند إلى هذا العنصر الصوتي القوي أكثر من دور ثانوي أو تكميلي في إيقاع الشعر العربي المعاصر الذي ما زال يرتكز على مبدأ كمي، وهذا الدور "محدد غالباً إما كعامل إضافي لتحديد المجامع الكمية وإيضاحها وإما لإثراء التنويعات الإيقاعية الداخلية، أو، في النهاية، كفعل إضافي موجه لإعادة التوازن إلى الحركات الإيقاعية التي يكثر فيها الشذوذ"[٢٣].

ولكن كمال خير بك لم يكن الباحث العربي الوحيد الذي رفض مقولة إن للنبر اللغوي دوراً جوهرياً في خلق إيقاع الشعر العربي، فعدد الدارسين الذين التقوا معه في هذا الموقف ليس بقليل، وإن اختلفت التفاصيل من واحد إلى آخر.

ففي مقالة مضيئة عنوانها "المصطلح اللساني وتحديث العروض العربي"، يسجل سعد مصلوح خلاصة رأيه على النحو الآتي: "إن النبر لا يمكن أن يشكل نظاماً أساسياً للإيقاع الشعري العربي"[٢٤]. وتصور هكذا دور "أسطورة ما إلى الإيمان بها من سبيل"[٢٥].

---

[٢١] "حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر"، ص: ٣٣٢

[٢٢] م. ن. ص: ٣٣٢

[٢٣] م. ن. ص: ٣٣١

[٢٤] مجلة "فصول"، ع٤، ١٩٨٦، ص: ١٩٤

[٢٥] م. ن. ص: ١٨٨

أما علي يونس فيرى أن "الأدلة التي ساقها كل من "فايل" و"أبو ديب" هي أدلة غير مقنعة. والظواهر التي استشهدا بها لا تفسر بالضرورة بالنبر". والأرجح في رأيه أن "الشعر العربي قائم على أساس كمي (...) وإذا كان للنبر دور في موسيقى الشعر العربي فالأرجح أنه لم يكن أساسيا في نظامه الوزني[٢٦]".

ولأحمد المعداوي رأي خلاصته "أن الجهود التي بذلت في بحث هذه المسألة لم تعد على البحث في الإيقاع بأي نتيجة يمكن أن يعتد بها، بل لقد بدا أن بين مشاريع البحث في هذا الموضوع قاسما مشتركا يبدأ بالحماسة والتفاؤل وعقد الآمال الكبيرة على المشروع الذي يوصف في هذه المرحلة بالمشروع العلمي، ثم يبدأ بالتراجع ليصل في مرحلة لاحقة إلى التشكيك في قيمة النتائج المتوصل إليها"[٢٧].

ويؤكد سيد البحراوي بدوره "أن النظام الخليلي لإيقاع الشعر العربي نظام كمي،بمعنى أنه يعتمد على كم المقاطع أساسا، وإذا كان بعضهم يرى فيه إيحاء بالنظام النبري،انطلاقا من أنه لا يعتمد على كم المقاطع وحده، بل على كيفية توالي هذه المقاطع، فإن المغالطة تأتي من عد هذه الكيفية في التوالي تعني النبر، والواقع أنها لاتعني النبر وحده، بل ربما لا تعنيه اطلاقا"[٢٨].

والآن، ما الموقف الذي يمكن تبنيه في وسط هذا الزحام من الآراء المتباينة؟ هل يسهم النبر فعلا من خلال وقوعه الدائم على المقطع الطويل للوتد إسهاما جوهريا في إنتاج الإيقاع العروضي للشعر العربي، كما يدعي كل من فايل وبلاشير ومحمد مندور ومحمد عوني عبد الرؤوف وغيرهم، أم إنه على العكس لا يضطلع بأي دور في إنتاج هذا الإيقاع، كما يعتقد فليش وسعد مصلوح وأحمد المعداوي وغيرهم؟ ثم هل يؤدي

---

[٢٦] "النقد الأدبي وقضايا الشكل الموسيقي في الشعر الجديد"، ص: ٢٢

[٢٧] مجلة "الوحدة" ع٨٢-٨٣، ١٩٩١، ص: ٥٧

[٢٨] "العروض وإيقاع الشعر العربي"، ص: ١٢٥

النبر دوراً أساسياً في إنتاج إيقاع الشعر العربي المعاصر، كما يظن النويهي وكمال أبو ديب وغيرهم، أم إنه على العكس لا يؤدي سوى دور هامشي وثانوي، كما يؤكد كمال خيربك وعلي يونس وغيرهما؟.

دراسة النصوص الشعرية دراسة متأنية وفاحصة هي فقط، كما نعتقد، ما سيسمح لنا بتقديم أجوبة موضوعية ومقنعة لجميع هذه الأسئلة. فأفضل الطرق، وأقصرها أيضاً،للوصول إلى نتائج حاسمة في المجال الذي يعنينا هنا هو استقراء الشعر نفسه،وليس المماحكة النظرية التي هيمنت على غالبية الأبحاث السابقة.

وقد حرصت في اختيار العينة المدروسة على تحقيق الشروط الثلاثة الآتية:

١- أن تكون واسعة ومتعددة، إذ لم أكتف بتحليل أبيات معدودة أو نماذج محدودة، مثلما فعل من قبل كل من عيّاد والنويهي وأبو ديب وغيرهم.

٢- أن تكون متنوعة الانتماءات، فثمة نصوص مأخوذة من شعر الشاعر العراقي بدر شاكر السياب، وأخرى من إنتاج الشاعر الفلسطيني محمود درويش، وثالثة مقتطعة من شعر الشاعر المصري أحمد بد المعطي حجازي، ...إلخ

١- أن تكون مختلفة البحور، من وجهة نظر كمية، فثمة نصوص مبنية على إيقاع "المتقارب"، وأخرى على إيقاع "الرجز" وثالثة على إيقاع "الرّمل"، إلخ...

أما الخطوط الرئيسية المتبعة في تنفيذ هذه الدراسة فتتمثل بما يلي:

كتابة النصوص المدروسة كتابة اعتيادية.

تحليل أبياتها عروضياً بتقسيمها إلى مجموعات مقطعية يشكل كل منها وحدة إيقاعية كمية (تفعيلة).

تحديد مواضع النبر اللغوي على ضوء المبادئ النبرية التي حددناها سابقاً.

مقارنة النتائج مع ما تقدم ذكره من مقولات خاصة بالدور الإيقاعي للنبر، وفي ضوء مفهوم الإيقاع.

النص الأول[٢٩]

١ ــ طوال ليالي البكاء

ب-ب / ب-- / ب+

٢ ــ ليالـــي السهاد

ب-- / ب+

٣ ــ ليالي الرماد

ب-- / ب+

٤ ــ أصلي

ب--

٥ ــ أنادي

ب--

٦ ــ حبيبي تعال[٣٠]

ب-- / ب+

[٢٩] عبد الوهاب البياتي، ديوان، م١، ص: ٣٧٨

[٣٠] الإشارة "ب" ترمز إلى المقطع القصير، والإشارة "-" إلى المقطع الطويل، أما "+" فترمز إلى المقطع الزائد الطول.

والخط المائل "/" يشير إلى الحد الفاصل بين تفعيلتين متعاقبتين، وأشرت إلى المقطع المنبور بوضـــع العلامة "x" فوقه.

النص الثاني [٣١]

١ ــ خذيني، إذا عدت يوما

ب¯ˣ¯ / بˣ¯¯ / ب ¯ˣ¯

٢ ــ وشاحا لهدبكْ

ب¯ˣ¯ / ب¯ˣ¯

٣ ــ وغطي عظامي بعشب

ب¯ˣ¯ / ب¯ˣ¯ / ب¯ˣ¯

٤ ــ تعمدَّ من طهر كعبك

بˣب / ب¯ˣ¯ / ب¯ˣ¯

٥ ــ وشدّي وثاقي بخصلة شعر

ب¯ˣ¯ / ب¯ˣ¯ / بˣب / ب¯ˣ¯

لو ألقينا الآن نظرة سريعة على الخطاطة العروضية والنبرية للنص، لأدركنا مباشرة ومن دون مشقة أن هذا النص لا يثير في الواقع أي مشكلة. فالنبرات اللغوية تتوضع فعلا على المقاطع الطويلة لأوتاد التفاعيل: ثمة تطابق تام بين موقع نبر الكلمة وموقع المقطع الطويل للوتد داخل كل تفعيلة.

وتلتحق أبيات محمود درويش (النص الثاني) بأبيات البياتي (النص الأول) من حيث أنها تقدم هي أيضا توافقا شبه تام بين موضع نبر الكلمة وموضع المقطع الطويل لوتد في التفعيلة: النبر اللغوي يقع بصورة شبه دائمة على المقطع الطويل لوتد التفعيلة

[٣١] محمود درويش، ديوان، ص: ٢٧٤

فمن بين الخمسة عشرة تفعيلة التي يشتمل عليها النص، ثمة تفعيلتان فقط لا يتحقق فيهما هذا التوافق. الأولى تظهر في البيت الأول (ب--)، والثانية في البيت الرابع (ب--). ومن المؤكد أن مثل هذا الشذوذ البسيط في النبر لا يستطيع أن يحدث بلبلة شديدة الأهمية في التناظر النبري الدقيق الذي نلمسه بين بقية تفاعيل النص وأبياته. ثم إن القارئ الشغوف بالتوافق التام والإيقاع الحاد، ليس عليه إلا أن يلغي نبرة كل من الكلمتين "القويتين" "عدت" (في البيت الأول) و"طهر" (في البيت الرابع)، وينقل نبرة الكلمة الظرفية "إذا" (في البيت الأول) من مقطعها الأول إلى مقطعها الثاني،وأخيرا،ينبر الكلمة – الأداة "من" (في البيت الرابع)، أي أن يقطع هذين البيتين على النحو الآتي:

١ ــ خذيني / إذا عُدْ / ت يوما

ب-- / ب-- / ب--

٤ – تعمــ / ــد من طهـ / ر كعبك

ب-ب / ب-- / ب--

نحن إذن أمام نصين شعريين ينتميان إلى شاعرين مختلفين، ولكنهما مع ذلك يخضعان لمخطط عروضي واحد يجمع بصورة منتظمة بين النظامين الكمي والنبري: هنا وهناك يدعم التقطيع إلى تفاعيل كمية بنبر لغوي يضرب باستمرار المقطع الثاني لهذه التفاعيل.

والسؤال الذي يطرح نفسه والحالة هذه هو: هل نستطيع تعميم هذه الظاهرة ونقول: إن الشاعر العربي المعاصر يجهد نفسه دائما ليطابق في شعره ما بين موقع نبر الكلمة وموقع العنصر القوي في التفعيلة الكمية، محققا بذلك نظاما عروضيا مرتكزا على الكم والنبر معا، كما يدعي بعض المهتمين؟ التحليل اللاحق لبعض الأمثلة الشعرية الأخرى هو ما سيسمح بالإجابة.

النص الثالث[٣٢]

١ ــ مدينتي استباحها الغجر

ب-ب- / ب-ب- / ب-

٢ ــ مدينتي أهلكها الضجر

ب-ب- / -ب ب- / ب-

٣ ــ مدينتي القمر

ب-ب- / ب-

٤ ــ يخاف من بيوتها المنفوخة البطونْ

ب-ب- / ب-ب- / --ب- / ب+

٥ ــ يخاف من عيون

ب-ب- / ب+

٦ ــ حاكمها الشريرْ

-ب ب- / ب+

٧ ــ الميّت الضمير

--ب- / ب+

٨ ــ لكنه يحب في أحيائها الفقيرة السوداءْ

--ب- / ب-ب- / --ب- / ب-ب- / -+

٩ ــ صبيّة عمياء

ب-ب- / -+

---

[٣٢] البياتي، ديوان، م١، ص: ٢٩٧

النص الرابع[٣٣]

١ ـ عرفت: كيف استبدل الطغاةُ

ب–ب– / ––ب– / ب––

٢ ـ جلودهم في زمن الهزيمة

ب–ب– / –ب ب– / ب––

٣ ـ ولبسوا أقنعة جديدة

ب ب ب– / –ب ب– / ب––

٤ ـ وردّدوا الأغنية القديمة

ب–ب– / –ب ب– / ب––

النص الخامس[٣٤]

١ ـ الناس في بلادي جارحون كالصقور

––ب– / ب––– / ب–ب– / ب+

٢ ـ غناؤهم كرجفة الشتاء في ذاوية الشجر

ب–ب– / ب–ب– / ب–ب– / ب–ب– / ب–

٣ ـ وضحكهم يئزّ كاللهيب في الحطبْ

ب–ب– / ب–ب– / ب–ب– / ب–

٤ ـ خطا همو تريد أن تسوخ في التراب

ب–ب– / ب–ب– / ب–ب– / ب+

---

[٣٣] البياتي، ديوان، م٢، ص: ٣٦٢

[٣٤] صلاح عبد الصبور، ديوان، ص: ٢٩

واضح أن أبيات النصوص الثلاثة الأخيرة مبنية جميعها من وجهة نظر كمية على إيقاع بحر الرجز الذي يرتكز كما نعلم على تكرار تفعيلة "مستفعلن: ––ب–" (أو إحدى التفعيلتين المعادلتين لها: "مفتعلن: (–ب ب–" و"متفعلن: ب–ب–") حيث يحتل الوتد الموقع الأخير.

استنادا إلى الفرضية التي سمحت دراسة النصين الأول والثاني باستخلاصها، ومؤداها أن الشاعر المعاصر يسعى جاهدا إلى أن يوفق بين موقع النبر اللغوي وموقع المقطع الطويل للوتد، كان من المنتظر أن يضرب النبر هنا المقطع الأخير من كل تفعيلة، لكن تفحص الخطاطات العروضية يبين أن الأمر بخلاف ذلك تماما: في أبيات النصوص الثلاثة الأخيرة (٤–٥–٦)، يقع النبر باستمرار ليس على المقطع الطويل للوتد وإنما على المقطع الذي يسبق الوتد، سواء أكان هذا المقطع طويلا أم قصيرا.

فالفرضية المناقشة هي إذن فرضية هشة وواهية. صحيح أن التوافق بين موقع النبر اللغوي وموقع المقطع الطويل للوتد يتحقق أحيانا ضمن البيت الواحد، ولكنه لا يستطيع أبدا تشكيل قاعدة عروضية، لأنه توافق عرضي وطارئ، من جهة، ويرتبط فقط برغبة الشاعر وبالفكرة التي يريد التعبير عنها، من جهة أخرى.

على أي حال، لو وضعنا الآن جانبا مسألة التطابق بين موضع النبر اللغوي وموضع المقطع الطويل للوتد، وتفحصنا من جديد جميع المخططات التي حصلنا عليها حتى الآن، فسوف نلاحظ أن النصوص المدروسة تشترك فيما بينها، ولكن في ظروف متباينة، بثلاث خصائص:

الأولى: إن المقاطع الطويلة والقصيرة تجتمع فيما بينها هنا وهناك لتشكل تفاعيل كمية ذات بنية واحدة لا تتغير، أو بكلمات أدق، متعادلة من الناحية الكمية ضمن النص الواحد (لنلاحظ مع ذلك أن هذا الوصف لا يخص سوى التفاعيل غير النهائية).

الثانية: إن كل تفعيلة من هذه التفاعيل تحمل نبرة واحدة فقط.

أما الخاصية الثالثة: فتكمن في أن موقع هذه النبرة الوحيدة ثابت لا يتغير من تفعيلة إلى أخرى ضمن النص الواحد.

الأمر الذي يعني أن أبيات كل نص من النصوص الخمسة المدروسة حتى الآن تخضع، من وجهة نظر كمية ونبرية على السواء لترسيمه عروضية واحدة: هنا وهناك يقترن تكرار التفعيلة الكمية دوما بعودة منتظمة للنبر اللغوي.

كيف نفسر هذه العودة المنتظمة لنبر الكلمة داخل بعض المقاطع الشعرية المنتقاة بترو وتقصد، والمعزولة عن سياقاتها النصية؟ هل نستطيع أن نستنتج من ذلك أن نبر الكلمة يؤدي دورا جوهريا في تشكيل إيقاع الشعر العربي المعاصر، أو أنه يصلح لأن يكون أساسا يرتكز عليه هذا الإيقاع؟

هذه النتيجة لا تبدو لنا فقط سابقة لأوانها، وإنما أيضا مجانية واعتباطية، لأن الأمور ستأخذ وجهة أخرى مع النصوص التي ستخضع للدراسة في الصفحات اللاحقة.

النص السادس[٣٥]

١ ـــ مهيار أجراس بلا رنينْ

-ب- / --ب- / ب+

٢ ـــ مهيار مكتوب على الوجوه.

-ب- / --ب- / ب+

[٣٥] أدونيس، ديوان، م١، ص: ٣٣٣

٣ ــ أغنية تزورنا خلسة

ـب ب ـ / ب ـب ـ / ـب ـ

٤ ــ في طرق بيضاء منفية

ـب ب ـ / ـــب ـ / ـــ

٥ ــ مهيار ناقوس من التائهين

ـــب ـ / ـــب ـ / ـ ب +

٦ ــ في هذه الأرض الجليلية

ـــب ـ / ـــب ـ / ـــ

النص السابع[٣٦]

١ ــ بين ريتا وعيوني .... بندقية

ـب ـــ / ب ب ـــ / ـ ب ـــ

٢ ــ والذي يعرف ريتا، ينحني

ـب ـــ / ب ب ـــ / ـب ـ

٣ ــ ويصلّي

ب ب ـــ

٤ ــ لإله في العيون العسلية

ب ب ـــ / ـب ـــ / ب ب ـــ

---

[٣٦] محمود درويش، ديوان، ص: ٥٠٥-٥٠٦

٥ ــ .. وأنا قبلت ريتا

ب ب-- / -ب--

٦ ــ عندما كانت صغيرة

-ب-- / -ب--

٧ ــ وأنا أذكر كيف التصقت

ب ب-- / ب ب-- / ب ب-

٨ ــ بي، وغطت ساعدي أحلى ضفيرة

-ب-- / -ب-- / -ب--

٩ ــ وأنا أذكر ريتا

ب ب-- / ب ب--

١٠ ــ مثلما يذكر عصفور غديره

-ب-- / ب ب-- / -ب--

١١ ــ آه.. ريتا

-ب--

١٢ ــ بيننا مليون عصفور وصورة

-ب-- / -ب-- / -ب--

١٣ ــ ومواعيد كثيرة

ب ب-- / ب ب--

١٤ ــ أطلقت ناراً عليها بندقية

–ب– – / –ب– – / –ب– –

١٥ ــ اسم ريتا كان عيدا في فمي

–ب– – / –ب– – / –ب–

١٦ ــ جسم ريتا كان عرساً في دمي

–ب– – / –ب– – / –ب–

النص الثامن[37]

١ ــ ووفيقة تنظر في أسف

ب ب– / ب ب– / ب ب– / ب ب–

٢ ــ من قاع البحر وتنتظر

–– / –– / ب ب– / ب ب ––

٣ ــ سيمرّ فيهمسه النهر

ب ب– / ب ب– / ب ب– / ––

٤ ــ ظلاً يتماوج كالجرس

–– / ب ب– / ب ب– / ب ب–

٥ ــ في ضحوة عيد

–– / ب ب+

[37] بدر شاكر السياب، ديوان، ص: ١١٨–١١٩

٦ ـــ ويهفّ كحّبات النّفس

ب ب- / ب ب- / -- / ب ب-

٧ ـــ والريح تعيد

-- / ب ب+

٨ ـــ أنغام الماء (هو المطر)

-- / -- / ب ب- / ب ب-

٩ ـــ والشمس تكركر في السعف

-- / ب ب- / ب ب- / ب ب-

١٠ ـــ شباك يضحك في الألق؟

-- / -- / ب ب- / ب ب-

١١ ـــ أم باب يفتح في السور

-- / -- / ب ب- / --

١٢ ـــ فتفرّ بأجنحة العبق

ب ب- / ب ب- / ب ب- / ب ب-

١٣ ـــ روح تتلهّف للنور

-- / ب ب- / ب ب- / --

المتمعّن في خطاطة النص السادس، يلاحظ أنها تكشف عن أربع ظواهر:

١ ــ تمتاز هذه الأبيات بخاصيتين جوهريتين من الناحية الكمية، الأولى أن لها جميعاً الطول ذاته (كل منها يشتمل على ثلاث تفعيلات)، الثانية أنها تستند بمجموعها إلى إيقاع كمي واحد هو إيقاع بحر الرجز. مع ذلك وعلى الرغم من اشتراكها في بنية عروضية كمية واحدة، فإن هذه الأبيات لا تحوي عدداً واحداً من النبرات، فالبيت الأول والثاني والخامس يشتمل كل منها على أربع نبرات، في حين إن كلاً من الأبيات الثالث و الرابع والسادس لا يملك إلا ثلاثاً.

٢ ــ يتباين موقع النبر اللغوي داخل التفاعيل الكمية ليس فقط على مستوى النص، أي من بيت إلى آخر، وإنما أيضاً على مستوى البيت الواحد. فبعض هذه التفاعيل يحمل النبر على المقطع الثالث، وبعضها الآخر يحمله تارة على المقطع الثاني، وتارة أخرى على المقطع الأول.

٣ ــ يختلف عدد النبرات من تفعيلة إلى أخرى ضمن البيت الواحد أحياناً،ففي البيت الأول مثلاً، تحمل التفعيلة الأولى نبرة واحدة بينما تحمل التفعيلة الثانية نبرتين، وهذا هو أيضاً حال البيت الخامس.

٤ ــ قد يحدث مع ذلك أن تخضع ظاهرتا الاختلاف الأخيرتان إلى مبدأ تنظيمي، بحيث تستطيع الترسيمة النبريّة لبيت ما أن نجد جواباً لها في البيت اللاحق مباشرة، على نحو ما نرى في حالة البنية النبرية للبيت الأول التي تجد جوابها في بنية البيت الثاني، وحالة البنية النبرية للبيت الثالث التي تؤكدها بنية البيت الرابع.

الظواهر الثلاث الأخيرة التي انكشف عنها تحليل النص السادس، نعثر عليها أيضاً،ولكن في شروط مختلفة، في النصين السابع والثامن اللذين تحقق أبياتهما إيقاع بحري الرمل والخبب على الترتيب. فمن بين الصور النبرية الأربع عشرة التي يقدمها النص السابع، ثمة صورتان فقط تتكرران مباشرة هما صورة البيت الثالث التي تتكرر

في البيت الرابع، وصورة البيت الخامس عشر التي يكررها البيت السادس عشر. وكذا الحال بالنسبة إلى النص الثامن الذي يوفر عشر صور نبرية مختلفة لا يتكرر منها مباشرة إلا اثنتان فقط هما صورة البيت الأول وصورة البيت التاسع.

إذن، خلافاً للنصوص الخمسة الأولى المدروسة، ليس هناك نص من النصوص الثلاثة الأخيرة يجري وفق ترسيمة نبرية واحدة: الترسيمة النبرية هنا تختفي سريعاً وباستمرار بعد ظهورها أول مرة، إنها تخلي المكان مباشرة لترسيمة أخرى تختفي بدورها وتترك المكان لترسيمة ثالثة، وهكذا دواليك. أما بالنسبة إلى حالات الانتظام النادرة التي لاحظناها هنا وهناك فهي عرضية ومعزولة ولا تشكل بالتالي بحراً عروضياً.

حتى هذه المرحلة من التحليل، لم ندرس توزع النبر داخل البيت إلا في إطار النظام العروضي الكمي، أي في ضوء موقعه في التفاعيل الكمية فقط. فماذا لو درسنا الآن هذا التوزع في حد ذاته، أي بعيداً عن التقطيع الكمي الذي يفرضه تناوب المقاطع الطويلة والمقاطع القصيرة تناوباً منتظماً. بهذا الهدف، سنذكّر، ولكن باختصار شديد،بعض المفهومات الجوهرية التي من شأنها أن توضح لنا متى نستطيع وصف نص ما بأنه يخضع لنظام عروضي نبري.

في هذا الصدد، نقول بداية: إن من الممكن إطلاق اسم "بحر عروضي" على كل مبدأ تنظيمي يسمح بتمييز وعزل سلاسل مقطعية (تفاعيل) ووحدة قياس. وحين يتمثل المبدأ التنظيمي هذا بتناوب المقاطع الطويلة والقصيرة تناوباً يسمح بتجميعها في سلاسل متعادلة من الناحية الكمية، نقول إن البحر كمي، أما حين يتمثل بعودة النبر على مسافات متساوية بصورة ملموسة فالبحر نبري. ومما يجب الانتباه إليه هنا هو أن النبر في الحالة الثانية يؤدي إبراز السلاسل المقطعية وعزلها: إنه يشير عادة إما إلى بداية التفعيلة أو إلى نهايتها.

زد على ذلك أن المسافة التي تفصل بين مقطعين منبورين يمكن أن تشغل بمقطع واحد أو مقطعين أو ثلاثة، أو حتى أربعة مقاطع غير منبورة، وذلك تبعاً لطول الكلمات التي يستعملها الشاعر وتوفّرها اللغة ذات الشأن.

على أي حال إن الشرط الأساسي والأوّل كي يكون نصّ ما ممهوراً ومجهزاً ببنية عروضية نبريّة، هو التوزيع المنتظم للنبر في داخله.

لنتفحص إذن في ضوء ما قيل أعلاه هذا النص الذي لا يدع مجالاً للشك في حدّة إيقاعه، والمأخوذ من قصيدة السياب الشهيرة "أنشودة المطر"[1].

النص التاسع

١ ــ عيناكِ غابتا نخيل ساعة السَّحر

ــ× / بـ× / بـبـ×ـ / ــ× / بـب× / ـ

٢ ــ أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر

ـــبـ× / بـ× / بـ× / ــ× / بـب× / ـ

٣ ــ عيناك حين تبسمان تورق الكروم

ــ× / بـ× / بـبـ× / بـ× / بـب+×

٤ ــ وترقص الأضواء... كالأقمار في نهر

بـ× / بـــ× / بـــ× / بـب× / ـ

٥ ــ يرجّه المجداف وهْناً ساعة السّحر

بـ× / بـــ× / بـ× / ــ× / بـب× / ـ

٦ ــ كأنّما تنبض في غوريهما النجوم

بـ× / بـــ× / ب ب ـــ× / بـب+×

---

[1] م. ن. ص: ٤٧٤

واضح هنا أن تركيب السلاسل المقطعية المعزولة بواسطة النبر، سواء فيما يتعلق بعددها هي نفسها أو بعدد العناصر المكونة لها أو بكمية هذه العناصر، لا يختلف فقط على المستوى الأفقي، أي في كل مرة ننتقل فيها من سلسلة إلى أخرى داخل البيت الواحد، وإنما أيضاً على المستوى العمودي، من بيت إلى آخر. أضف إلى ذلك أن هذا الاختلاف لا يخضع لمبدأ ينظمه. ومن المؤكد أن هذه السلاسل المقطعية ذات الأطوال المتنوعة ويتداخل بعضها ببعض دون ضابط، لا يمكن أن تشكل "تفاعيل"، أو بالأحرى "مقاييس" بالمعنى العروضي للكلمة. أما الادعاء بأن عودة النبر كافية لتزويد هذه السلاسل ببنية إيقاعية وجعلها وحدات عروضية فهو تفسير تعسفي لا يؤدي بطبيعة الحال إلا إلى بلبلة مفهوم القياس نفسه، أي إلى الخلط بين النصوص المشعّرة في جانبها الصوتي والنصوص غير المشعّرة، بين الشعر والنثر لأن النثر هو أيضاً يمكن أن يوصف وكأنه مؤلف من مجموعات مقطعية مختلفة التركيب وتتلاحق دون انتظام.

ومن الشائق أن يلاحظ هنا أن تطبيق القاعدة النبرية التي صاغها إبراهيم أنيس، تلك التي تعطي نص السياب السابق التقطيع الآتي:

١) --/ ب-ب / -ب- / --ب / -ب / -

٢) --ب- / ب- / ب- / --ب / -ب / -

٣) -- / ب- / ب-ب- / ب-ب / -ب+

٤) ب-ب / --- / ب--- / ب-ب / -

٥) ب-ب / --- / ب- / --ب / -ب / -

٦) ب-ب / --ب / ب---ب / -ب+

لا يسمح هو أيضاً إلا بالوصول إلى النتيجة نفسها: هنا كما هناك، يوزّع النبر توزيعاً غير منظم، وذلك على المستويين الأفقي والعمودي.

فالحقيقة التي لم يعد هناك مجال للشك فيها والحالة هذه، هي أن المعيار العروضي الوحيد الذي تخضع له أبيات السياب هذه يتمثل بتناوب المقاطع الطويلة والقصيرة تناوباً منتظماً يسمح بتكتيلها في تفاعيل كمية تشترك في ثلاثة أمور هي عدد المقاطع وطولها وترتيبها، وذلك على النحو الذي تبينه الخطاطة التالية:

١) ––ب– / ب–ب– / ––ب– / ب–

٢) ––ب– / ب–ب– / ––ب– / ب–

٣) ––ب– / ب–ب– / ب–ب– / ب+

٤) ب–ب– / ––ب– / ––ب– / ب–

٥) ب–ب– / ––ب– / ––ب– / ب–

٦) ب–ب– / –ب ب– / ––ب– / ب+

تبقى الإشارة إلى أن الاستزادة من تحليل الأمثلة في هذا المجال لن تضيف إلى هذه الحقيقة شيئاً ذا أهمية حتى ولو كانت هذه الأمثلة تنتمي إلى شعراء مختلفين وينتسبون إلى أقطار عربية متباينة. ولهذا فإننا سنكتفي بتحليل نص آخر فقط. وليكن هذا النص مأخوذاً هذه المرة من شعر الشاعر المصري أحمد عبد المعطي حجازي[٢]

[٢] ديوان، ص: ٣٣٩–٣٤٠

النص العاشر

١ ــ نحن ما زلنا نغني

ـب- /ــب / ــ

٢ ــ لك يا أيار يا شهر النهار

ب ب-- /ـب- /ــب+

٣ ــ نحن ما زلنا نغني، لك يا شهر التمني

ـب- /ــب / -- / ب ب- /ــب / ــ

٤ ــ ونوفي النذر في كل ربيع

ب ب- / -- / ب-- / ب ب+

٥ ــ لك يا شهر الضحايا

ب ب- /ــب / ــ

٦ ــ حاملين الدّم خمراً في جرار

ـب- / -ب / ب- / ـــب+

٧ ــ ناقلين الشمس بالأيدي إلى الأرض البوار

ـب- / -- / ب-- / -ب / -- / ـب+

تماماً كما في أبيات السياب، نحن هنا أمام نبر يتكرر على مسافات تتغير باستمرار،وذلك ليس فقط ضمن البيت الواحد وإنما أيضاً من بيت إلى آخر. الأمر

الـذي يعني أنّ ثمة عنصراً لغوياً آخر غير النبر هو الذي يشكل القاعدة التي ترتكـز عليها البنية العروضية لهذه الأبيات، وهذا العنصر لن يكون سوى الكم المقطعي:

١) ـب ـ ـ / ـب ـ ـ

٢) ب ب ـ ـ / ـب ـ ـ / ب+

٣) ـب ـ ـ / ـب ـ ـ / ب ب ـ ـ / ـب ـ ـ

٤) ب ب ـ ـ / ـب ـ ـ / ب ب+

٥) ب ب ـ ـ / ـب ـ ـ

٦) ـب ـ ـ / ب ب ـ ـ / ـب+

٧) ـب ـ ـ / ـب ـ ـ / ـب ـ ـ / ـب+

لنلخص الآن ما تكشف عنه تحليل الأمثلة بخصوص دور النبر اللغوي فـي تشـكيل البنية العروضية للشعر العربي المعاصر.

لا شك أننا قد نعثر في قصيدة ما على أبيات متتابعة تقدم نبراً منتظمـاً بحيـث تجـد الترسيمة النبرية لأحد الأبيات تأكيداً لها في البيت (أو الأبيات) اللاحق مباشرة. وفـي مثل هذه الحالة تكون البنية العروضية الكمية للأبيات مصحوبة ببنية أخـرى نبريـة تستطيع إما أن تتنضد عليها لتشكل معها ما يمكن أن نسميه "بنيـة عروضيـة كميـة نبرية"، أو أن تشكل منحنى إيقاعياً آخر منفصلاً عن المنحنى الكمي. فحيـن يضـرب النبر المقطع الطويل للوتد دوماً فإنه يؤدي وظيفة إيقاعية هي إسناد التفـاعيل الكميـة وإبرازها أكثر فأكثر، أما حين يشكل منحنى إيقاعياً خاصاً به فإنـه يـثري التلونـات الإيقاعية الداخلية.

ولكن علينا أن نلفت الأنظار هنا إلى أن هذه الإمكانية وبوجهيها ظـاهرة عرضيـة لا يمكن أن تكون كافية لخلق الإحساس بوجود بحر عروضي، لأنها نادرة التحقق، مـن جهة، ولاتمس حين تتحقق إلا عدداً محدوداً من أبيات القصيدة،، من جهـة أخـرى. فالدارس للشعر العربي المعاصر يجد فعلاً صعوبة كبيرة في العثور على قصيدة تقـدم صورة نبرية واحدة لا تتغير، أياً كانت هذه الصورة، أو حتى على صور مختلفة يؤكد كل منها في أبيات متلاحقة: باستثناء بعض الحالات النادرة جـداً، تتغـير الخطاطـة النبرية داخل القصيدة العربية المعاصرة في كل مرة ننتقل فيها من بيت إلى آخر.

باختصار شديد، إنه لمن المستحيل أن نستطيع استنتاج قواعد ذات طابع شمولي تحكـم استخدام النبر استخداماً شعرياً. ولهذا ليس مدهشاً أبداً أن نرى دارسي الشعر العربـي ومنظريه يتجاهلون لفترة طويلة النبر ودوره في تشكيل البنية العروضية لهذا الشـعر: لإقامة هذه البنية لا يلجأ الشاعر إلى توزيع النبر بانتظام، وإنما إلـى جعـل المقـاطع الطويلة والقصيرة تتناوب تناوباً مطلق الانتظام أو تقريبيه. ففي مثـل هـذا التنـاوب يتلمس المقياس العروضي ذاته ويجدها. أما بالنسبة إلى "الدور العروضي الجوهـري" الذي يسنده بعض الدارسين إلى النبر، فيبدو لنا وهمياً وثانوياً، إن لم يكن خالياً تمامـاً من المعنى.

— ٥ —

يبقى علينا أخيراً أن نتفحص عن قرب مسألة هامة أثارها هذا البحث مـرات عديـدة: لماذا لا يستطيع النبر أن يكون أساساً ترتكز عليه البنية العروضية للشـعر العربـي؟ ولكن الإجابة عن هذا السؤال لا يمكن أن تكون موضوعية ودقيقة إن لم تتم الإجابـة أولاً عن سؤال آخر هو:

ما وظيفة النبر في اللغة العربية؟ وذلك لأن إمكانيـة أو عـدم إمكانيـة، أن يؤسـس عروض ما على مبدأ نبري ترتبط ارتباطاً وثيقاً وراسخاً بطبيعة الوظيفة التي يضطلـع بها النبر في لغة هذا العروض.

يؤدي النبر في جميع اللغات وظيفة جوهرية يسميها علماء اللغة الوظيفـة "المفارقـة" Fanction contrastive. إنه "يسهم في عزل الوحـدة النبريـة، أو الكلمـة، عـن الوحدات الأخرى المماثلة لها ضمن المنطوق ذاته"[٣]. ولكن النـبر لا يكتفـي عموماً بتأدية هذه الوظيفة الجوهرية، وإنما يؤدي، إضافة إليها وظيفة أخرى يمكن أن تكـون إما وظيفة تمييزية "distinctive"[٤]. أو الوجه الآخر للوظيفة المفارقة، أي الوظيفـة التحديدّية "démarcative"[٥]. وتبعاً للوظيفة الإضافية للنبر يفـرق اللغويـون بيـن مجموعتين كبيرتين من اللغات: اللغات التي يؤدي فيها النبر وظيفة تمييزية إضافة إلى وظيفته الجوهرية، وتلك التي يؤدي فيها الوظيفة التحديدية كوظيفة تكميلية.

اللغات التي تنتمي إلى المجموعة الأولى هي التي يطلق عليها في علم اللسانيـات اسم "اللغات ذات النبر الحر"، أي اللغات التي يكون موضـع النبر فيها غير متوقع ويتغير بتغير البنية الصرفية للكلمة. ففي هذه اللغات يقود انتقال النبر من مقطـع إلـى آخـر داخل السلسلة الصوتية الواحدة إلى الانتقال من صيغة صرفية إلى أخـرى، ويـؤدي بالنتيجة إلى تغيير في المعنى. فالإنكليزية مثلاً تشتمل على العديد من الألفاظ الاسـمية والفعلية التي تتشابه تشابهاً تاماً من جهة تركيبها الصوتي ولا يفرق بينها سوى موضع النبر. وذلك على نحو ما نجد في كلمة "import". فإن نُبرت هـذه الكلمـة علـى مقطعها الأول فهي اسم بمعنى "استيراد"، أما إذا نبرت على مقطعها الثاني بـدلاً مـن

---

[٣] أندريه مارتينيه (A. Martinet), ((Eléments de linguistique générale))، ص: ٩١

[٤] يؤدي النبر وظيفة تمييزية عندما يقود انتقاله من مقطع إلى آخر داخل الكلمة الواحدة إلى تغيّر معنى هذه الكلمة.

[٥] يؤدي النبر وظيفة تحديديّة عندما يسمح بالتعرف على حدود الوحدة النبرية التي هي عادة الكلمة.

الأول فهي فعل بمعنى "استورد". كذلك، إن كلمة "canto" في الإسبانية تعني "أغني" إن هي نبرت على المقطع الأول، و"غنى" إن هي نبرت على المقطع الثاني. واضح إذن أن موضع النبر هو المسؤول الوحيد عن تحديد المعنى في مثل هذه الحالات[٦].

في مواجهة هذه اللغات ذات النبر الحر، ثمة لغات يكون موضع النبر فيها إما مُتوقعاً بمساعدة عوامل صوتية صرفة أو محدداً تحديداً نهائياً، ثابتاً ثبوتاً مطلقاً. بوقوعه دائماً على المقطع ذاته داخل الكلمة، يؤدي النبر في هذه اللغات الأخيرة وظيفة تحديدية، إنه يسمح بمعرفة حدود الكلمة أو، بصورة أعم، حدود وحدة لغوية ما. ففي اللغة التشيكية مثلاً يشير النبر إلى بداية الكلمة لأنه يقع دوماً على مقطعها الأول[٧]. أما في الفرنسية فهو يدل على نهاية الكلمة لأنه يقع باستمرار على المقطع الأخير[٨].

فإلى أي مجموعة من هاتين المجموعتين تنتمي العربية؟ وهل يؤدي النبر في هذه اللغة وظيفة تمييزية، إضافة إلى الوظيفة المفارقة، أم وظيفة تحديدية؟ أو، بصورة أدق، هل يتغير معنى الكلمة العربية بتغير موضع النبر فيها؟

هنا أيضاً يذهب المهتمون مذاهب مختلفة. فإبراهيم أنيس يؤكد من جهته أن معاني الكلمات العربية لا تختلف باختلاف مواضع النبر منها[٩]. أما كمال أبو ديب فيحاول جاهداً أن يثبت صحة الرأي المعاكس. فهو يبدأ حديثه في هذا الصدد بتبني موقف

---

[٦] را. ب. مالمبيرج (B. malmberg) , "La phonétique"، ص: ٩٣. وراجع أيضاً أحمد مختار عمر، "دراسة الصوت اللغوي"، ص: ١٨٨-١٨٩، وتمام حسان، "اللغة العربية، معناها ومبناها" ص:٣٠٧، وشكري عيّاد، "موسيقى الشعر العربي"، ص: ٣٧

[٧] را. ب. مالمبيرج، م.ن. ص:١٩٩

[٨] را. م. ن. ص: ١٩٩

[٩] را. "الأصوات اللغوية"، ص: ١٧٤، وشكري عيّاد يقرر بدوره أن النبر في العربية ليس صفة جوهرية في بنية الكلمة، ولا يؤدي بالنتيجة دوراً تمييزياً فيها. را. "موسيقى الشعر العربي"، ص: ٤٥

متطرف، إذ ينادي "بوجود ارتباط لحمي عميق بين النبر وبين معنى الكلمة"[١٠]، ثم يضيف بأن ما قاله بعض اللغويين بخصوص العلاقة بين معنى الكلمة الإنكليزية وموضع النبر فيها يصدق على "العربية إلى درجة أكبر من صدقه على الإنكليزية"[١١]. ولكنه بعد أن شعر وهو يحاول إثبات صحة موقفه أن الحجج التي يسوقها ضعيفة وغير قادرة على إقناع القارئ لأن العربية تعج بالحالات التي لا ينطبق عليها الأساس الذي بنى عليه موقفه، راح يخفف من لهجته ويعدل في وجهة نظره بصورة تدريجية ليقول أولاً: "لكن ارتباط النبر بالمعنى ليس ارتباطاً مطلقاً"[١٢]. ثم ينتهي إلى قوله "لكن افتراض وجود هذه العلاقة الوشيجة بين المعنى والجزء الذي يقع عليه النبر، في الحالتين الأخيرتين، قد يكون على قدر من التعسف، ويبدو أن وقوع النبر هنا يتحدد لا بالمعنى وإنما بالتركيب الصوتي الخاص بالكلمة"[١٣].

على أي حال، للكشف عن هشاشة موقف أبي ديب هذا، وتفنيده بالتالي، يكفي أن نقف قليلاً عند الأساس الذي بناه عليه.

يزعم أبو ديب أن كلمة "قتلَ" مثلاً لا تحمل نبراً محدداً، وأنها في حالة مائعة حيث النبر طاقة كامنة لا يحققها فيزيائياً إلا السياق اللغوي التام"[١٤]. ولكن العربية، يضيف الكاتب، تستطيع أن تشتق من جذر هذه الكلمة "دلالة جديدة، أو مفهوماً جديداً، هو الذات التي فعلت القتل". ويُرافق خلق هذا المفهوم الذهني الجديد اكتساب صوت جديد هو "الألف"، بحيث يتخذ التركيب الصوتي للكلمة الجديدة الشكل "قاتل". ولما كان هذا الصوت المكتسب يلعب دوراً جوهرياً في تشكيل الكلمة المشتقة، إذ إنه العنصر

---

١٠ "في البنية الإيقاعية للشعر العربي"، ص: ٢٩٥

١١ م. ن. ص: ٢٩٥-٢٩٦

١٢ م. ن. ص: ٣٠٠

١٣ م. ن. ص: ٣٠٠

١٤ م. ن. ص: ٢٩٦

الصوتي الأكثر أهمية لمعناها، فقد كان من الطبيعي أن يُميز هذا العنصر الصوتي الجديد من غيره من الأصوات الأخرى المكون للكلمة الجديدة بوساطة ذلك الإثقال الفيزيولوجي الذي يُسمى "النبر"[15].

ثلاث ملاحظات ترد إلى الذهن عند التمعن في رأي أبي ديب هذا:

١ ــ إن كلمة "قتلَ" وبخلاف ما يدعي الكاتب في قوله السابق الذكر، تحمل نبراً محدداً، وذلك سواء أكانت مفردة أم في سياق لغوي أعم "لأن النبر جزء من شخصية الوحدة النبرية ذاتها. والشيء العجيب والمستغرب في موقف أبي ديب هنا هو ذلك التناقض الفاضح الذي يتبدى من خلال تأكيده في مكان لاحق من عمله، إذ يقول "النبر النهائي الذي تحمله الكلمة العربية نبر انعزالي، أي أنه جزء من التركيب الطبيعي، من شخصية الكلمة، وهي مفردة لم تدخل بعد في سياق لغوي ذي دلالة أعم"[16]. ومن ثم فإن النبر الذي تحمله هذه الكلمة يقع تحديداً باتفاق آراء جميع المختصين على مقطعها الأول، مثلها في ذلك مثل كلمة "قاتلٌ" تماماً.

٢ ــ إن الربط بين النبر والصوت المكتسب (الألف في "قاتِل") بحجة أن هذا الصوت هو الأهم لاشتقاق صيغة اسم الفاعل هو ربط واه لا يقبله المنطق لعدة أسباب، منها أن اشتقاق صيغة اسم الفاعل لا يتم بفضل الألف فقط، بل ثمة صوت آخر يتدخل هنا هو الكسرة التي تلي عين الجذر الثلاثي (التاء في "قاتِل"). وليس هناك، والحالة هذه، أي مسوغ منطقي يدفعنا إلى تفضيل الألف على الكسرة وجعلها الأكثر أهمية للدلالة على معنى اسم الفاعل، ومن ثم إلى تخصيص الصوت الأول بنبر رئيسي والثاني بنبر ثانوي، كما يفعل أبو ديب. ثم ماذا يمكن أن يقول المؤلف عن الحالات التي يحتاج فيها الاشتقاق إلى زيادة أكثر من صوتين على نحو ما نجد في

---

[15] را. م. ن. ص: ٢٩٧

[16] م. ن. ص: ٣٠٩

"مقاتل" و"متقاتل"، الخ...!؟ زد على ذلك، وهذا هو الأهم هنا، أن هذا الربط، حتى لو قبلنا به تجاوزاً، غير قابل للتعميم بتاتاً، أي أننا لا نستطيع أن نجعل منه قاعدة شاملة لا على مستوى محدود (مستوى اشتقاق صيغة اسم الفاعل فقط) ولا على مستوى واسع، كأن نربط بصورة دائمة بين موضع النبر والعناصر المكتسبة في الصيغ المشتقة عموماً. والحقيقة أن الأمثلة على عدم صلاحيته للتعميم أكثر من أن تُحصى. ولو حاولنا مع ذلك أن نقف عند كلمتي "قاتلةّ" و"قاتلاتّ"، وهما أيضاً صيغتان من صيغ اسم الفاعل، لوجدنا أن النبر لا يقع فيهما على "العنصر الصوتي الذي يعدّه المؤلف أكثر أهمية لاشتقاق اسم الفاعل. فالنبر في الأولى يقع على المقطع الثاني "تِ" وفي الثانية على المقطع الثالث "لا".

٣ ـــ الملاحظة الأخيرة أعمق بكثير من سابقتيها، لأنها تمس موقف أبي ديب من جذوره. إنها تكشف مباشرة عن فهمه الخاطئ أساساً للمسألة المناقشة. ففي اللغات ذات النبر الحر، لا يأتي النبر ليميز عنصراً صوتياً آخر يؤدي وظيفة دلالية ما، وإنما يأتي ليؤدي هو نفسه هذه الوظيفة. وعندما يتحدث علماء اللغة عن العلاقة بين موضع النبر وتغير المعنى فهم لا يقصدون أبداً أن يتموضع النبر على صوت أو مقطع ما هو الأكثر أهمية لمعنى الكلمة، كما فهم أبو ديب، وإنما أن يكون النبر نفسه فاعلية صوتية يتغير معنى الكلمة بتغير موضعه فيها، على نحو ما نجد في الكلمة الإسبانية "termino" التي تعني "نهاية" إن هي نُبرت على مقطعها الأول، و"أنهي" إن هي نُبرت على مقطعها الثاني، و"أنهى" إن هي نبرت على مقطعها الثالث[17]. بل إن بعض هؤلاء العلماء يذهب إلى أبعد من هذا فيقول: إن العنصر الذي يؤدي الوظيفة التمييزية في مثل هذه الحالات هو موضع النبر في الكلمة وليس النبر ذاته[18].

[17] ر.ا. ب.مالمبيرج، (La phonétique)، ص: ٩٣

[18] ر.ا. أ. مارتينيه (A. Martinet)،
"Eléments de linguistique générale"، ص: ٩٢

٤ ــ كذلك إننا لا نشاطر المستشرق الفرنسي جورج بوهــاس (G.Bohas) رأيه إذ يزعم أن العربية تشتمل كما الإنكليزية على ثنائيات تتشابه تماماً على المستوى الصوتي ولا يختلف بعضها عن بعض إلاّ من جهة موضع النبر[١٩]، لأن الاختلاف فــي المعنى الذي نلمسه بين السلاسل الصوتية التي يستشهد بها وهي:

وَمَضَتْ / وَمَضَتْ

فَصَلَتْ / فَصَلَتْ

فَعَلَتْ / فَعَلَتْ

لم ينتج، كما يقول، عن اختلاف موضع النبر فيها وإنمـــا عـــن حقيقـــة أن السلســـلة الصوتية الأولى، في كل حالة من هذه الحالات الثلاث، تشتمل على كلمة واحدة، فـــي حين أن السلسلة الثانية تتكوّن من كلمتين: و+مضت، ف+صلت، ف+علت.

وإذا كانت هاتان الكلمتان غير منفصلتيـــن إحداهمـــا عـــن الأخـــرى مـــن الناحيـــة الخطّية،فذلك لأن العربية تُلحِق دائماً الحرف المكوّن من مقطع قصـــير فقـــط ببدايـــة الكلمة التي تليه.

أما اختلاف موضع النبر من كلمة إلى أخرى في كـــل ثنائيـــة مـــن هـــذه الثنائيـــات الثلاث،فيعود إلى أن الحرف الذي يبدأ السلسلة الثانية من كل ثنائية يكون عادة غـــير منبور ولا يؤثر في موضع النبر في الكلمة التي تعقبه، لأنه يتكون من مقطع قصـــير واحد. وقد يُسأل هنا: ولكن كيف سيستطيع القارئ أن يفرّق مثـــلاً بيـــن "ومضـــت" المكوَّنة من كلمتين وتلك المشكلة من كلمة واحدة؟ في الإجابة عن هذا السؤال، نقـــول: تماماً كما في حالة التورية والمجاز المرسل والاستعارة وغيرها من الأساليب البيانيـــة

---

[١٩] را. "Etudes arabes"، ع١، 1980, Paris، ص: ٦٠-٦١

التي تسمح باستخدام الكلمة بأكثر من معنى، فإن السياق والسياق وحده هو الذي يوجّهنا هنا ويقودنا إلى المعنى المراد.

وما قيل في الرّد على جورج بوهاس يصلح أيضاً للرد على علي يونس الذي يزعم أن النبر في العربية يؤدي "أحياناً إلى تغيير المعنى"[٢٠]، ويعطي مثالين لهذا التغيير. الأول كلمة "ألم" التي هي في رأيه اسم إن نبرت على مقطعها الأول، وهمزة استفهام +حرف نفي "لم" إن نبرت على المقطع الثاني، والثاني كلمة "وَعَدَا" التي هي فعل إن نبرت على المقطع الأول، وواو العطف + فعل "عدا" إن هي نبرت على المقطع الثاني.

واضح إذن أن النبر لا يؤدي في العربية وظيفة تمييزية، وأن هذه اللغة تنتمي دون شك إلى مجموع اللغات ذات النبر الثابت، صحيح أن موضع النبر يتغيّر من كلمة إلى أخرى، إلا أن هذا التغيّر يخضع لقانون صوتي بحت، إنه يرتبط حصراً بالتركيب المقطعي للكلمة، وبهذه الطريقة من التوضّع يشير النبر في العربية إلى موقع المقطع المنبور بالنسبة إلى حدود الكلمة. إنّه يصلح عموماً للدلالة إما على نهاية الكلمة، أو على الاقتراب من هذه النهاية ذاتها.

بقي سؤال أخير ذو أهمية جذرية هنا: لماذا لا يستطيع النبر اللغوي أن يؤدي في العربية وظيفة تمييزيّة؟

إن من يعترف بأن موضع النبر في الكلمة العربية لا يؤثر في معناها، يجب أن يعترف أيضاً بأن النبر في هذه الكلمة هو نبر ضعيف، لأنّ بين قوة النبر ووظيفته علاقة جدلية: بمقدار ما يكون النبر قوياً يكون الطريق أمامه ممهداً لأن يلعب دوراً لغوياً بالمعنى الدقيق للكلمة، والعكس صحيح. والنبر في العربية هو من الضعف بحيث لا تستطيع الأذن البشرية، التي تبقى في هذا المجال الآلة الأنفس والوسيلة الأهم على الرغم من جميع الاختراعات التقنية الحديثة، إدراك المفارقات التي يخلقها إلاّ

---

[٢٠] "نظرة جديدة في موسيقى الشعر العربي"، ص: ٢٢٨-٢٢٩

بصعوبة شديدة. وكأدلة على هذا الضعف الشديد، يكفي أن نتذكر حقيقة أن النحويين والعروضيين والنقاد العرب القدامى الذين أكبوا أيما إكباب على دراسة لغتهم وأدبهم،واهتموا بأدق التفاصيل فيهما، قد تجاهلوا النبر تماما، من جهة، وأن المختصين المعاصرين (عربا أكانوا أم مستشرقين) الذين اهتموا بهذه المسألة لم يستطيعوا الاتفاق فيما بينهم على تحديد موضع النبر في بعض الحالات من جهة أخرى.

إذن في الإجابة عن السؤال الأساسي الذي طرح في بداية الحديث عن دور النبر في الإيقاع العروضي للشعر العربي، يمكن التأكيد على أن ضعف النبر في اللغة العربية هو الذي أدى إلى عجزه عن القيام في هذه اللغة بوظيفة تمييزية، وعلى أن هذا العجز ذاته حال بدوره بين العربية وبين القدرة على إنتاج عروض نبري. في اللغات ذات النبر الثابت، يقول الناقد الفرنسي بيار غيرو (P. Guiraud)، "الضعف النسبي للنبر وموضعه الاصطلاحي لا يساعدان على إقامة وحدة قياس نبرية، والتباينات والفروق التي يحدثها النبر في هذه اللغات ضعيفة، ومضطربة أو حتى محيدة بوساطة التنغيم والحرص على التعبير بأوضح صورة ممكنة، وكل محاولة لإبراز هذه التباينات والفروق بطريقة اصطناعية تجازف بإعطاء الأهمية إلى مقاطع محايدة وفقيرة من حيث الدلالة"[٢١].

خلاصة القول: إن تقنية شعر ما يجب أن تتكيف وفق المتطلبات التي تفرضها اللغة التي يكتب بها هذا الشعر. والخاصية الصوتية الجوهرية (كمية، نبر، إلخ) للغة هي التي تحدد طبيعة العروض الذي ترضاه هذه اللغة لنفسها. وعلى هذا، فإن العروض الكمي هو العروض الذي يلائم دون شك البنى التحتية للعربية، حيث يؤدي كم الأصوات دورا تمييزيا لا يستطيع أحد الطعن فيه. فهذا العروض هو العروض

[٢١] "La versification"، ص: ١٧-١٨ .

الحاضر أبداً في وعي الشاعر العربي وضميره، هو العروض المقتدر دوماً والمتـأهب دوماً لأن يتدفق على لسانه، وكأن التعبير عن الكون والحياة والأشـــياء ينســاب أولاً وتلقائياً في هذا النوع من العروض.

مراجع بالعربية

أبو ديب (كمال):

- في البنية الإيقاعية للشعر العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٤.

أدونيس (علي أحمد سعيد):

- الآثار الكاملة، دار العودة، بيروت ١٩٧١ .

أنيس (إبراهيم):

- موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو-المصرية، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٧٢
- الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو-المصرية، القاهرة، ١٩٧٥ .

البحراوي (سيد):

- العروض وإيقاع الشعر العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القـــاهرة ١٩٩٣

بحيري (سعيد):

- "ملاحظات حول مسألة العلاقة بين الكم والنبر في الشعر العربي"، "مجلــة فصول"، م٦، ع٣، القاهرة، ١٩٨٦ .

بركة (بسام):

- علم الأصوات العام، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٨٨ .

البياتي (عبد الوهاب):

- ديوان، دار العودة، بيروت، ١٩٧٢ .

حسان (تمام):

- اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣.

خيربك (كمال):

- حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر، ترجمة لجنة من أصدقاء المؤلف، دار الفكر، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٦.

درويش (محمود):

- ديوان، دار العودة، بيروت، ١٩٧١.

السياب (بدر شاكر):

- ديوان، دار العودة، بيروت، ١٩٧١.

عبد الرؤوف (محمد عوني):

- بدايات الشعر العربي بين الكم والكيف، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٦.

عبد الصبور (صلاح):

- ديوان، دار العودة، بيروت، ١٩٧٢.

عمر (أحمد مختار):

- دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٧٦.

عيّاد (شكري):

- موسيقى الشعر العربي، دار المعرفة، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٦٨.

مصلوح (سعد):

-"المصطلح اللساني وتحديث العروض العربي"، مجلة "فصـــــول"، م٦، ع٤ القاهرة، ١٩٨٦.

المعداوي (أحمد):

- "البنية الإيقاعية الجديدة للشعر العربي"، مجلة "الوحدة"، المجلس القومـــــي للثقافة العربية، الرباط، العدد ٨٢-٨٣، ١٩٩١.

مندور (محمد):

- في الميزان الجديد، دار نهضة مصر للطباعـــة والنشـــر، القـــاهرة، دون تاريخ.

النويهي (محمد):

- قضية الشعر الجديد، دار الفكر، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٧١.

يونس (علي):

- النقد الأدبي وقضايا الشكل الموسيقي في الشعر الجديد، الهيئة المصريـــــة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥.

- نظرة جديدة في موسيقى الشعر العربي، الهيئة المصرية العامـــة للكتـــاب القاهرة ، ١٩٩٣

مراجع بالفرنسية

Blachère (R):

"Métrique et prosodie arabes à la lumiére de publications récentes", Arabica, 7, 3, 1960.

Blachère ® et GAUDE FROY – Demombynes (M):

Grammaire de l'arabe clessique, Maisonneuve et larose, 3 éd, Paris, 1978.

Bohas (G):

"Watid, définitions, discussions et perspectives". Etudes arabes. NO l, Paris, 1980.

Cantineau (J):

Cours de phonétique arabe. Klincksieek, Paris, 1960.

Caprona (P.C,de):

Le Coran: aux sources de la parole oraculaire, structuers

Rythmiques de sourates mecquoises, Publications orientalistes de France, Paris, 1981.

Fleisch (H):

L'arabe classique, Imprimrie catholique, Beyrouth, 1956.

"Compte rndu de Blachére, Mélanges de l'université Saint – Joseph, 42, Beyrouth, 1964.

Guiraud (P):

La versification, P. U. F. (Que sais – je?), Paris, 3 éd, 1978.

Jakobson (R):

Essais de linguistique générale, Minuit, Paris, 1963.

Malmberg (B)

·: La phonétique, P. U. F. (Que sais – je?), Paris, 12 éd, 1979.

Martinet (A):

Eléments de linguistique générale, Armand Colin, Paris, 1980.

Mazaleyrat (J):

Eléments de métrique Francaise, Armand colin, Paris 2 éd, 1974.

Varga (A.K):

Les constantes du poème, Picard, Paris, 1977.

Weil (g):

-"Arud", Encyclopédie de l'islam, Nouvelle éd, Leyde, Brill – Maison – neuve. 1960.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق ١٩٩٧/٦/٤

أصل الرواية الفرنسية

د. زكي عروق، د.لمياء بيطار
قسم اللغة الفرنسية ــ كلية الآداب
جامعة دمشق

ملخص

وجدت الرواية في عهد قدماء اليونان والرومان دون أن تسمى صراحة باسمها، ولكنها لم تذكر في الدراسات الشعرية لهذا العهد. وبالحقيقة لم يتمتع الجنس الروائي في عهد من العهود بضوابط ثابتة إذ إنه كان يتطور باستمرار إلى درجة أن النقاد اختلفوا على تعريفه وحتى في القرنين التاسع عشر والعشرين. فإن "موريس بلانشو" يرى أن "الكتاب وحده هو المهم بعيداً عن الأجناس". رغم ذلك فإن الرواية مازالت جنساً دائم التبدل. وترجع أصولها إلى "الأوديسة" و"الإنيادة" وتعد الـ "ساتيريكون" لـ "بيترون" الرواية الأولى التي تستحق هذه التسمية.

استوحى هذا المؤلف روايته من "الألياذة" و"الأوديسة" واستمدت أيضاً الرواية الفرنسية في العصور الوسطى مادتها من آثار القدماء التي تضم أهم الحكايات الميثولوجية والتاريخية لهذه الحقبة الزمنية ومن الأساطير السلتية والشرقية. نشأت الرواية الفرنسية المنبثقة عن الملحمة مع "رواية الإسكندر" ثم انتشرت في العصور الوسطى وهي تركز على الحب وتصف النفوس والخصائص الفردية ونفسية الشخصيات إلا أن الرواية في العصر الوسيط لم تتوصل إلى واقعية الرواية الحديثة وحيويتها في القرن التاسع عشر لأنها تتطرق غالباً للموضوعات ذاتها وتعيد الأوضاع ذاتها وبكلمة فإنها تبقى تقليدية جداً.

يرد هذا البحث بالتفصيل باللغة الفرنسية في الصفحات (30-21) من هذا العدد.

استخدام النصوص الفكاهية في التمرين على القراءة

د.براون روبنسون
جامعة قطر

الملخص

إن للحكايات المسلية مكانة في تدريس اللغة، غير أن هذه الناحية لم تكن لتستغل في التدريس بطريقة منهجية إلا قليلاً في الماضي.

تقدم هذه الورقة اقتراحاً في استخدام منهج للتحضير وبعض نشاطات التعلم كمساهمة من أجل تطوير مهارات القراءة في مستوى النصوص التي تدرس للمستوى المتوسط العالي.

ويجب أن يتم اختيار الكتابة الفكاهية التي ستستخدم للتمرين على القراءة بعناية، وأن يتم التحضير لها جيداً، إذ أن هذا النوع من اللغة يقوم على أنماط معينة من السمات التي يساعد المنهج الأسلوبي على إظهارها.

يرد هذا البحث بالتفصيل باللغة الإنكليزية في الصفحات (47-31) من هذا العدد.

سلبية رؤية بو في قصيدة "الغداف"

بعض سمات التطرف والاختلاف

د. احمد يعقوب المجذوبة

قسم اللغة الإنكليزية ــ جامعة اليرموك

إربد ــ الأردن

ملخص

تسلط هذه الدراسة الضوء على عدد من السمات التي تميز قصيدة الشاعر الأمريكي ادغار ألن بو " الغداف " عن غيرها من قصائد المدرسة الرومانسية التي ينتمي اليها "بو" بوجه عام. تبدأ أولاً بالتذكير بإيجاز بأهم اوجه الشبه التي تجمع بين القصيدة المذكورة والقصائد الرومانسية الأخرى التي كتبها شعراء الحركة ، سواء المتفائلون منهم (مثل ويردزورث وإمرسون) أو الذين هم اقل تفاؤلا (مثل شيلي وكيتس). ثم تنتقل الدراسة بعد ذلك(وهنا تكمن مهمتها الأولى) إلى الخوض في أوجه الاختلاف الرئيسة والتي نراها بوضوح في عنوان القصيدة (وخاصة في اختيار الغراب ذاته)، وفي وصف الشاعر مكان وزمان الحدث ، وفي موقف القصيدة من موضوع الذاكرة وموضوع البحث عن المراد، وتنطلق المقالة من مفهوم عام مؤداه أن بو يكاد يكون أكثر تطرفا وسلبية في رؤيته من جميع اتباع الحركة الرومانسية الآخرين قاطبة. ويبدو أن إسهام القصيدة يتجسد في نهاية المطاف في إبرازها هذا التطرف وتلك السلبية.

يرد هذا البحث بالتفصيل باللغة الإنكليزية في الصفحات (69-49) من هذا العدد.

رسائل الدكتوراه والماجستير

سليمان، ثناء، كلية التربية، جامعة دمشق.

إشراف: أ. د. علي سعد.

الموضوع: مشكلات أطفال الرياض وحاجاتهم الإرشادية من وجهة نظر مربياتهم ــ دراسة ميدانية في رياض وزارة التربية بمحافظة طرطوس ــ.

Problems of kindergartens" Children and their guidance needs from their governesses" points of view.

مرحلة الطفولة المبكرة (مرحلة الروضة) من أهم مراحل النمو الإنساني، في هذا البحث تم الكشف عن المشكلات التي تعيق النمو السوي للطفل، وتحديد الحاجات الإرشادية للأطفال مرحلة الروضة، وذلك من وجهة نظر معلماتهم، على اعتبار أن المعلمة هي حجر الأساس في العملية التربوية.

بعد عرض الباحثة لمجتمع البحث وعينته وحدوده وأدواته، قدمت في الفصل الثاني أهم الدراسات العربية والأجنبية السابقة المتعلقة بالموضوع، وخصصت الفصول الستة الأخرى للإطار النظري، وتضمنت هذه الفصول: النمو في مرحلة الطفولة (تعريفه عوامله، مبادئه، مظاهره) وبينت مطالب النمو للأطفال في مرحلة الروضة، ثم بينت أن لحاجات النمو أهمية في تحقيق الصحة النفسية، وجاء ذلك من خلال عرض الباحثة لحاجات النمو الجسمي، العقلي، الانفعالي الاجتماعي، وكما جاء في الإطار النظري معلمة الروضة، مشكلات أطفال الروضة من حيث العوامل فيها، من وراثة وبيئة. وقدمت لأهم مشكلات الأطفال: تعريفها، مظاهرها، أنواعها، العوامل وراءها،وقدمت الباحثة عرضاً موجزاً لواقع رياض الأطفال من حيث عدد رياض الأطفال وعدد الأطفال وعدد المعلمات في القطر العربي السوري وفي محافظة طرطوس، وقدمت الدراسة الميدانية في الفصل التاسع أهم النتائج والمقترحات والملاحق.

علوه، زيدان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية، جامعة دمشق.

إشراف: أ. م. د. خليل الموسى.

الموضوع: شكري فيصل وجهوده في الأدب والنقد.

Shukry Fysal and his activities in the literature and criticism.

يتناول البحث دراسة الآثار الأدبية والنقدية للدكتور شكري فيصل، وذلك ضمن أربعة فصول:

- الفصل الأول: ويتناول حياة الدكتور شكري فيصل منذ ولادته في دمشق وحتى وفاته، ويبرز الفصل المعالم الفكرية لدى (د. فيصل) وأهم المناصب التي شغلها. كما ركز البحث على عرض الآثار الأدبية والنقدية لمسير (د. فيصل).
- الفصل الثاني: يتناول دراسة المقالات الأدبية، وما يندرج تحتها من أنواع: (المقالة الوصفية ـ التأملية ـ الوطنية ـ الرحلات ـ الصورة القلمية ـ الدراسات الأدبية).
- الفصل الثالث: يتناول دراسة المقالات الموضوعية لدى (د. فيصل)، وما يتفرع عنها من مقالات تتعلق بـ (الفكر القومي ـ الفكر اللغوي).
- الفصل الرابع: يتناول دراسة الآثار النقدية (نظرية وتطبيقية)، مبيناً آراء (د. فيصل) في هذا المجال، والمنهج الذي يسير عليه في نقده.

ويتناول أيضاً الخصائص الأسلوبية لآثار (د. فيصل)، وتتضمن هذه الخصائص (دراسة الألفاظ والتراكيب، والخيال، والمحسنات،......).

وأورد أخيراً نتائج البحث، مرفقاً بعد ذلك كشافاً يتضمن مصادر البحث ومراجعه.

مصطفى، طلال، كليــــة الآداب والعلـــوم الإنســـانية، قســـم الدراســـات الفلســـفية والاجتماعية، جامعة دمشق.

إشراف: د. عدنان مسلم.

الموضوع: التصنيع وعلاقته بالتغير في بناء الأسرة ــ دراسة ميدانية في مؤسسات القطاع الصناعي العام في مدينة دمشق.

The industrialization and its relation to the change in the construction of the family (through applied study in the institutions of general industrial sector in Damascus city.)

سعت هذه الدراسة إلى معالجة موضوع "التصنيع وعلاقته بالتغير في بنـــاء الأســـرة "استناداً إلى دراسة ميدانية على عينة من الأسر، التي يعمل أربابها (رجال ــ نســـاء) في مؤسسات القطاع الصناعي العام في مدينة دمشق، وبالتالي استندت الدراسة إلـــى دعامتين أساسيتين هما التصنيع (كمتغير مستقل) والتغير في بناء الأسرة. وقد أظهرت الدراسة تحول الأسرة من الشكل الممتد إلى الشكل النواتي من خلال ســـيادة الأســـرة النواتية لدى أسر عينة الدراسة، بالإضافة إلى تأثير التصنيع على حجم الأسرة باتجـــاه خفض عدد المواليد وزيادة الاهتمام بتنظيم الأسرة. وأظهرت الدراسة التغير الملمـــوس في العلاقات الداخلية للأسرة من خلال ممارســـة الزوجيـــن لأدوار جديـــدة مقارنـــة بالأدوار الزوجية في المجتمعات التقليدية.

وقد أظهرت الدراسة استمرار العلاقات بين الأسرة ــ الصناعية ــ مع (الأسر القرابية والجوارية) على خلاف الدراسات العالمية، التي أكـــدت ضعـــف الروابـــط القربيـــة والجوارية لدى هذه الأسرة.

بكداش، سلوى، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية، جامعة دمشق.

إشراف: د. مسعود بوبو.

الموضوع: الدلالة في الأضداد اللغوية.

The semantic in language antongms.

الأضداد في اللغة جمع ضد، وهو النقيض والمقابل، وضد كل شيء ما نافاه. وألفاظ الأضداد هي التي يؤدي كل منها معنيين أحدهما نقيض الآخر.

بدأت رواية الأضداد اللغوية منذ القرن الثاني الهجري. وقد انقسم اللغويون تجاهها إلى قسمين:

مؤيد لوجودها في العربية ومنكر لها. ومال كلا الفريقين إلى المغالاة في رأيه، إذ مال المؤيدون إلى حصر عدد كبير من الألفاظ المتضادة، وأهملوا أو تناسوا الدلالات الدقيقة التي تميز لفظة عن أخرى. ومال المنكرون إلى رفض القول بها البتة، وهم مغالون في ذلك أيضاً، لأن التضاد قد يبرز بين اللهجات المتباعدة، ويختفي في صور أخرى حين نتلمس الفروق الدلالية بين الألفاظ، وتظهر الخطوط المعنوية الدقيقة التي تقف حاجزاً بين مدلول ومدلول. وهذا ما سعى اللغويون الحديثون إلى إبرازه حين بحثوا هذه الظاهرة اللغوية.

أما الأسباب التي دعت إلى القول بوجود الأضداد في العربية فهي:

١. اختلاف اللهجات. لكن هذه اللهجات تبقى على مستوى المحادثة، ولا ترقى إلى لغة الثقافة، وفي هذه الحدود يخرج هذا العامل عن كونه أحد أسباب وجود الأضداد.

٢. التطور الدلالي لبعض الألفاظ. إلا أن هذا التطور قليل في اللغة العربية التي بنيت على جذور ثابتة تشد المدلول إليها.

٣. التطور الصوتي الذي أصاب بعض أصوات الكلمات. وهذا التطور أيضاً لم يتناول في الغالب إلا لغة المحادثة.

إن معظم ألفاظ الأضداد إنما كانت الضدية متوهمة فيها وهذا يتضح من استقراء بعض الأمثلة والشواهد وتتبع المعاني الحقيقية في السياق. وفي هذا إبراز لأهم ما تختص به العربية التي وصلت شأواً كبيراً من النضج والكمال، وتوفرت سمات علم الدلالة فيها على مستوى رفيع. وهذا حصر للأضداد في أضيق نطاق.

سعدون، فريد سليمان، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق.

إشراف: د. وائل بركات.

الموضوع: الصورة الشعرية عند بدر شاكر السياب.

L' Image Poetique Chez B. S. Alsayab.

إن بحث "الصورة الشعرية عند بدر شاكر السياب" موضوع رسالة لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية، يسير وفق مخطط ينقسم إلى مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة،تتناول المقدمة الهدف من اختيار البحث ومراجعة الدراسات السابقة عن الشاعر، ثم عرضاً لسيرة حياته ومؤلفاته، والباب الأول الذي يحمل عنوان:

"مفهوم الصورة الشعرية" ينقسم إلى فصلين يتناول الأول منهما مفهوم الصورة في النقد العربي القديم، والفصل الثاني يتناول مفهوم الصورة في النقد العربي الحديث،والباب الثاني الموسوم بـ "المؤثرات العامة في صور السياب" ينقسم إلى فصلين أيضاً، في الفصل الأول دراسة عن المؤثرات العربية، وفي الفصل الثاني دراسة عن المؤثرات الأجنبية في صور السياب، أما الباب الثالث الموسوم بـ "الصورة عند السياب، فإنه ينقسم إلى فصلين أيضاً في الأول دراسة عن الصورة من الناحية الشكلية وتتضمن تقنيات الصورة ومكوناتها عند السياب، وفي الفصل الثاني دراسة عن الناحية المعنوية، وهي دراسة لنماذج مختارة من صور السياب، وتتضمن صورة المكان، الزمن، الموت، المرأة......

وفي الخاتمة يستعرض البحث النتائج التي توصل إليها، ثم تليها قائمة المصادر والمراجع والفهرس التفصيلي.

عساف، عبد الناصر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربيـــــة، جامعــة دمشق

إشراف:أ. د. منى الياس

الموضوع: جهود ابن عطية الأندلسي النحوية والصرفية.

The grammatical and morphological efforts of Andalusin Ibn Atiya.

ترك لنا ابن عطية الأندلسي (٤٨١ ــ ٥٤١هـــ) كثـيراً مــن الآراء والاختيــارات والأعاريب والتوجيهات النحوية والصرفية وقد انتشرت في غير مصنف من مصنفـات المتأخرين نقلاً ومناقشة، وهو ما دعا بعضهم إلى أن يعد ابن عطية من شيوخ النحـــو وأئمة العربية، بيد أن تلك الجهود لم تحظ بما تستحق من الدراسة والعناية، فنهض هذا البحث لدراسة هاتيك الجهود كما تجلت في تفسير ابن عطية (المحرر الوجــيز) فــي ضوء آراء النحويين والمصنفين المتقدمين والمتأخرين.

وقد بني هذا البحث على ثلاثة أبواب ومقدمة وخاتمة بين الباحث في المقدمة دواعيــه إلى دراسة هذا الموضوع وأهميته، ثم نقد مصادر البحث وعني الباب الأول بدراســة عصر ابن عطية وحياته في فصلين، ودرس الباب الثاني آراء ابــن عطيــة النحويــة والصرفية واختياراته وأعاريبه وتوجيهاته وردوده ومناقشاته في ثلاثة فصول واســتقل الباب الثالث بدراسة مذهب ابن عطية النحوي وأصول الاحتجاج لديه في فصلين.

وبينت الخاتمة أبرز ما انتهى إليه البحث من نتائج. ومن ذلك أن كثير مما نسب إلـــى ابن عطية م آراء وأعاريب وتوجيهات قد سبق إليه، ولم يكن له فيها إلا المتابعــة، وأن الغالب على كلام ابن عطية أن يجري على مذاهب النحــــاة الســابقين ويختــار مــن آرائهم،ويتنقل بينها، مع ميل إلى المذهب البصري؛ وأن ابن عطية كان يحكم أقيســـة

النحويين وأصولهم وقواعدهم في القراءات، بما فيها القراءات المتواترة، وإن أدى ذلك إلى طرح القرّاءات وتغليطها أو تضعيفها واعتراضها؛ وأن مذهب ابن عطية النحـوي لم يكن مذهباً محكماً له بنية كلية متماسكة يأخذ بعضها برقاً ببعض رأياً ودليلاً وتمثيلاً وتوجيهاً.

الصياح، رنا، كلية التربية، جامعة دمشق.

إشراف: د. أمل الأحمد.

الموضوع: فاعلية برنامج تدريبي لزيادة دافعية الإنجاز لدى المتعلمين ــ دراسة شبه تجريبية في الصف الثاني الإعدادي.

The efficiency of training program to raise the achievement motivation of student's – semi experimental study on class eight at official schools in Damascus.

يهدف البحث إلى دراسة فاعلية برنامج تدريبي لاستثارة دافعية الإنجاز، وتحسين التعلم في غرفة الصف لدى المتعلمين من طلبة الصف الثاني الإعدادي في مادة علم الأحياء.

ويتألف البحث من بابين: الأول خصص للدراسة النظرية، والتي تضمنت مشكلة البحث وأهدافه وأسئلته ومنهجه وفرضياته، والدراسات السابقة التي اهتمت بموضوع دافعية الإنجاز والتدريب عليها، كما تناول الباب الأول علاقة دافعية الإنجاز بمجموعة متغيرات نفسية وسلوكية وشخصية.

وتعرض الباب الثاني للجانب الميداني شبه التجريبي، وتضمن إعداد البرنامج الخاص بزيادة دافعية الإنجاز والتدرب عليها، وإعداد برنامج خاص بتحسين عملية التعلم في غرفة الصف، وهو رديف للبرنامج الأول ومكمل له، إضافة إلى بناء اختبار تحصيلي لقياس تحصيل الطلبة في مادة الأحياء قبل إجراء التجربة وبعدها، إضافة إلى الدراسة الاستطلاعية للاختبارات والبرامج، والتحقق من صدق الاختبارات وثباتها، وقد اعتمدت الباحثة قانون (ت، ستودنت) لدلالة فروق المتوسطات بين المجموعتين (الضابطة والتجريبية)، ومعامل ارتباط بيرسون من أجل حساب الارتباط بين درجة الفاعلية ودرجة التحصيل لدى الطلبة أفراد العينة التجريبية. ودلت النتائج على وجود

ارتباط دال وموجب بين درجة الدافعية ودرجة الإنجاز "التحصيل" لدى عينة الطلبة المتدربين على البرنامج.

كما دلت وجود فروق جوهرية ودالة بين المجموعة التجريبية والمجموعة الضابطة،سواء أكان في مستوى الدافعية أم في مستوى الإنجاز "التحصيل" وأخيراً هناك تحليلات نتائج البحث وتفسيراته، إضافة لبعض المقترحات الموجهة للمعلمين والمتعلمين والمعنيين بالأمر.

المليح، فادية عبد اللطيف، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية، جامعة دمشق.

إشراف: أ. د. فيصل سماق.

الموضوع: الرواية والأيديولوجيا في سورية ١٩٥٨ ــ ١٩٩٠.

Novel and Ideology in Syria 1985 – 1990.

علاقة الأدب بالأيديولوجيا علاقة وثيقة، اقتضتها طبيعة الأيديولوجيا الشاملة، وطبيعة الأدب الخاصة فالأدبُ أحد مكونات الأيديولوجيا، أو أحد أنشطتها التي توجهها، وفيه تظهر الأيديولوجيا، ويظهر أثرها وهو يجسدها ويوحي بإمكانية تطبيقها، ومن غيرها يفقد مسوغات وجوده.

وفي الرواية تصبح الأيديولوجيا ضرورة، لأنها تشكل مجموعة المفاهيم التي يفسر بها الكاتب ما يفعله البشر والطريقة التي يؤدون فيها أفعالهم، وغايتهم منها.

في زمن الدراسة، وهو زمن نضج الفن الروائي في سورية، انطلقت الرواية إلى آفاق أيديولوجية رحبة وصارت ذات توجه فكري، منحها صفة الإبداع، فحملت المقولات بعيداً عن المباشرة بتقنيات روائية عالية.

غيرت الأيديولوجيا موضوعات الرواية تغييراً جوهرياً، فبعد أن كانت الموضوعات في الغالب تاريخية أو مستمدة من أعمال مترجمة، أصبحت موضوعات حياتية،تتناول حياة العاديين والبسطاء الذين تتوجه إليهم الأيديولوجيات. وأعطت الأيديولوجيا الأدب الروائي السوري استقلالية، وصار للروائيين السوريين صوتهم الخاص، وللرواية السورية شخصيتها المتفردة بين الروايات العربية.

وأوصلت الأيديولوجيا العمل الروائي في سورية إلى أفضل حالاته، ولولاها لما تقدمت بهذه الخطى الثابتة الواثقة، وأخذتها إلى مسارها الجماهيري الحقيقي.

الزايد، إيمان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية، جامعة دمشق.

إشراف: أ. د. فيصل سماق.

الموضوع: النمو السكاني والتطور العمراني والخدمي في حي الميدان.

Building and population growth, service development in Al Meedan area.

يشكل حي الميدان الجزء الجنوبي لمدينة دمشق، وهو مدخل دمشق الجنوبي الذي يربطها مع الأردن والجزيرة العربية.

لقد تضاعف عدد سكان الحي خلال الفترة ١٩٦٠ ـ ١٩٩٤ مما أدى إلى نمو الخدمات التحتية العصرية التي استطاعت أن تستوعب حاجات سكان الحي، بالإضافة إلى الخدمات الحضرية المرافقة للنمو العمراني، وما يزال يعاني من نقص الخدمات الترفيهية، ونلاحظ أن التفوق الاقتصادي لهذا الحي يعتمد في معظمه على التجارة.

إن الحركة العمرانية في الحي تتصف بأنها سريعة وكثيفة وعامة، مما أدى إلى ازدياد عدد المساكن.

ومع مرور الزمن واستمرار القدوم إلى الحي شهد الحي تجمعات سكنية متواضعة على أطرافه /القدم ـ الدحاديل/ لازالت تنمو حتى الآن.

الكوسى، عصام درار، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق.

إشراف: د. شوقي المعري.

الموضوع: الموشح في شرح كافية ابن الحاجب، تأليف الششيخ محمد بن أبي بكـر الخبيصي ت ٧٣١هـ.

Al-Muwashshah fi sharh Al-Kafiyeh Abi Bakr Al-Kabisi.

الموشح في شرح كافية ابن الحاجب، شرح مختصر ممزوج صنفه الشيخ محمد بـن أبي بكر الخبيصي ت (٧٣١). وهو شرح بلغة النهاية في حسـن الإيجـاز وسـهولة العبارة، ينم عن حذق ومهارة في صنع النحو، إذ استطاع أن يجلي الغموض عن كثير من مسائل الكافية الغامضة.

ويقسم هذا المؤلَف إلى ثلاثة أقسام رئيسة: القسم الأول ويضم الأسماء وما يعتري هذه الأسماء من بناء وإعراب وينتهي بالمشتقات، أما القسم الثاني فيضم الأفعال وما يتعلـق بها. وأما القسم الثالث فيضم الحروف بدءاً من حروف الجر وانتهاءً بنون التوكيد.

والمؤلَف ذو مسحة تعليمية يسهل على الطلاب فهمه واستيعاب مسائل النحو المبثوثـة فيه حتى غدا هذا الشرح من أهم شروح الكافية وأكثرها انتشاراً بين طلبة العلـم، وذاع صيته في معظم الأقطار العربية.

رز، منى، كلية التربية، جامعة دمشق.

إشراف: د. علي سعود حسن.

الموضوع: فاعلية مهارات القراءة الصامتة في اللغة الإنكليزية ـ دراسة ميدانية لطلاب الصف الأول الثانوي في المدارس الرسمية في مدينة حلب.

Efficiency of silent reading skills in English – A field study on the first secondary class students at the official schools in Aleppo.

تعالج هذه الدراسة فاعلية مهارات القراءة الصامتة في اللغة الإنكليزية وتعد القراءة هامة في عصرنا الحالي بسبب التفجر المعلوماتي في ميادين المعرفة جميعها وحاجة الطالب إلى الاعتماد على نفسه في اكتساب المعلومات والمعارف الجديدة، كما أن تعلم القراءة شيء ضروري لتعلم اللغة.

واستخدمت الباحثة في بحثها الأدوات التالية: اختبار قراءة صامتة، وثلاث استبانات مختلفة وجهت إلى كل من الطلاب والمدرسين والموجهين الاختصاصيين.

وتوصلت الدراسة إلى نتائج متعددة من أهمها: تدني مستوى اتقان الطلاب لمهارات التنبؤ، والتصفح السريع للحصول على المعنى العام للنص، وشرح معنى الكلمات غير المألوفة من السياق، واستدلال الأفكار الضمنية، وترتيب عناصر المادة المقروءة،وتحديد المعنى المباشر من خلال فحص مدى الاستيعاب، وشرح وظائف أدوات الربط، وتلخيص المقروء، والقراءة الناقدة للنص المقروء.

نحاس، رواء، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق.

إشراف: أ. د. طيب تيزيني.

الموضوع: فلسفة نيتشه وأثرها في الفكر العربي المعاصر.

The philosophy of Nietzche and his influence in the aktuel Arabic thought.

تبحث هذه الرسالة في نسقين فكريين ينتميان إلى حقلين معرفيين تاريخيين يمثل النسق الأول منهما: المنظومة الفكرية لـ (نيتشه) الألماني المحدث (١٨٣٣ ــ ١٩٠٠) في تكونها التاريخي وأهم المفاهيم المركزية فيه. هذا ويمكن حصرها في ثلاثة هي على التوالي: الايبرمنش (الإنسان المجاوز) و (إرادة القوة) و (العود الأبدي). وقد تبين أن هذه المفاهيم الثلاثة تجسد تصوراً جديداً للوجود والإنسان في عصر التحولات الكبرى على جميع الأصعدة الاقتصادية والفكرية نتيجة التقدم العلمي والصناعي في أوروبا في القرن التاسع عشر.

أما النسق الثني فيتمثل في فلسفة عبد الرحمن بدوي المصري (١٩١٧ ــ) صاحب الاتجاه الوجودي في الفكر العربي المعاصر. تلك الفلسفة التي صاغها بالاستناد إلى فلسفات الآخرين عموماً ونيتشه خصوصاً. وعلى هذا كانت مهمة الرسالة التي قدمتها كامنة في البحث في تأثر بدوي بنيتشه، مع الإشارة إلى أن ذلك كان يحدث في سياق عملية التأسيس لمذهبه الوجودي في الأربعينات، وتحديداً حول مفهوم الوجود.

كركه، أحمد حمدي، كلية التربية ، جامعة دمشق.

إشراف: د. أحمد الدبسي، ومشاركة د. محمد نزار حمد.

الموضوع: واقع الإشراف الفني والتربوي للتعليم الثانوي الزراعي في سورية وتطويره.

The current situation of technical and educational supervision in agricultural secondary schools in Syria, and its development.

يعد التعليم الثانوي الفني الزراعي أحد أنواع التعليم الفني في سورية، وقد ازداد الاهتمام بهذا النوع من التعليم حيث برزت للمشرفين عليه بعض من العقبات منها: ضعف الإشراف الفني وغياب الإشراف التربوي والافتقار لأدوات تقويم موضوعية لأداء المدرسين والمدربين داخل غرفة الصف وخارجها.

هدف البحث إلى تحليل أهداف التعليم الثانوي الزراعي، وتعرف آراء المدرسين والمديرين والمشرفين فيه، وتصميم بطاقة ملاحظة وبطاقة تقويم لأداء المدرس داخل غرفة الصف وخارجها، وتجريبهما، إضافة لتعرف النظريات والاتجاهات الحديثة للإشراف الفني والتربوي.

اتبع الباحث المنهج المسحي في تعرف أراء الفئات الثلاث، وتم تطبيق منهج الوصف التحليلي لتحليل أراء المدرسين والمديرين والمشرفين حول الممارسات الحالية والمرغوب فيها للإشراف الفني والتربوي في التعليم الثانوي الفني الزراعي.

تم تطبيق البحث في العام الدراسي ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥ على كامل المجتمع الأصلي والبالغ (١٨) ثانوية فنية زراعية.

توصل البحث إلى اتفاق بين المشرفين والمدرسين على ضــــرورة اســتخدام بطاقـــات تقويم لأداء المدرسين، وتباينت أراء كل من المدرسين والمديرين والمشــــرفين حــــول الممارسات الإشرافية الحالية والمرغوب فيها، وأكد الجميع ضرورة تطوير الإشـــراف الفني والتربوي بالشكل الذي يساعد على تطوير العمليــــة التعليميــــة والتعلميـــة فـــي الثانويات الفنية الزراعية.

السعد، حسام، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم علم الاجتماع، جامعة دمشق.

إشراف: أ. د. عدنان مسلم ومشاركة د. نبيل الحفار.

الموضوع: المسرح ودوره في التغير الاجتماعي في سورية.

Drama and social development in Syria.

المسرح ودوره في التغير الاجتماعي في سورية، هو موضوع الدراسة التي قام بها الباحث، وقد سعى إلى رصد العلاقة بين المسرح والتغيرات الاجتماعية في سورية وتحولاتها من خلال دراسة عينة مختارة من المسرح السوري تمثلت بعروض المعهد العالي للفنون المسرحية بدمشق.

وتمحورت الدراسة الميدانية لهذه الدراسة بتحليل مضمون العروض المسرحية التي يقدمها المعهد العالي، ودراسة العلاقة بين ما تتضمنه هذه العروض من طروحات وأفكار ومدى ارتباطها بالتغيرات والتحولات التي حدثت في المجتمع السوري في الآونة الأخيرة على الأصعدة كافة.

وقد انتهت الدراسة إلى جملة من النتائج، تمحورت حول علاقة المسرح بالواقع الاجتماعي في سورية من خلال محاولة رسم آفاق عمل المسرح المستقبلية وربطه بالمجتمع بشكل أكبر.

صالح، صلاح، كلية الآداب والعلوم الإنسانية قسم اللغة العربية، جامعة دمشق.

إشراف: د. فيصل سماق.

الموضوع: قضايا السرد في الرواية العربية المعاصرة (١٩٦٧ ــ ١٩٩٣).

Problemes de narration dans le Roman Arabe contemporain de 1967 – 1993.

تنطلق فكرة البحث من فرق مبدئي بين الجماليات الشعرية التي كرستها الثقافة العربية في عصورها المتتالية، والجماليات السردية التي بدأت تسم ما اعتمده الروائيون العرب المعاصرون لإبقاء القارئ مشدوداً إلى العمل الروائي، وإنجاز ما اصطلح على تسميته بالإغراء السردي أو الجاذبية السردية التي تعتمد التشويق والحبكة وإبقاء القارئ ضمن أفق التوقع المستمر، خلافاً للمعهود في البلاغة الشعرية. وانطلاقاً من الواقع العياني للرواية العربية التي حققت نضجاً مميزاً في العقود الثلاثة الأخيرة من هذا القرن، تم استخلاص عدد من القضايا التي انتظمت العدد الأوفر من النتاج الروائي العربي المعاصر، كسرد الشؤون المحلية، بوصف ذلك سبيلاً يؤدي إلى تميز المادة الحكائية بالندرة والجدة، وخصوصية الهوية. وسرد الغزارة المعلوماتية، التي يضجّ بها عصرنا الذي شهد أكثر من ثورة علمية ومعلوماتية، وسرد السيرة الذاتية بوصفها نوعاً من الوثيقة، وتقريراً لواقع قائم ناء عن كافة أشكال التخييل.

واستثمار جماليات اللغة الشعرية في السرود المعاصرة، في محاولة للتعويض عن فقر الرواية بالاحداث والاثارة، وتقديم جماليات اللغة على سواها، ومحاولات استلهام التراث السردي العربي الموجود في كتب الأخبار والأدب العام والسير والمقامات و"ألف ليلة وليلة" والتوجه إلى تأسيس السرد العربي المعاصر على بعض أنماطه القديمة، والسعي إلى شيء من قطع الوشائج المتبقية مع الرواية الغربية التي انتهجها

الإنتاج الروائي العربي، في بواكيره شكلاً ومحتوى، وانتهى البحث إلـــى اســـتخلاص عدد من النتائج التـــي تعكـــس بمجملـــها ســـعي الروايـــة العربيـــة إلـــى التجـــاوز والتأصيل،بوصفها جنساً مستحدثاً في الثقافة العربية.

20- Ibid, p. 223 (1.208).

21- Stephen E. Whicher (ed.) Selections from Ralph Waldo Emerson (Boston: Houghton Mfflin Company 1957) p. 66.

22- See For example, Edward H. Davidson Poe: A Critical Study (Cambridge, Massachuetts: The Belknap Press of Harvard Univ. Press, 1957 pp. 84 - 91.

23- Blake's Poetry and Designs (ed.) Mary Lynn Johnson & John E. Grant (New York & London W.W. Norton & Company 1979), p.102.

Received, 11/8/1993

10- See Wallace Stevens " very interesting poem" Thirteen Ways of Looking at a Blackbird "and Archie Ammon's Jungle Knot." The former can be found in Wallace stevens The Palm at the end of the Mind (ed.) Holly Wallace Stevens (New York: Vintage Books. 1972),p. 20; the Latter is in A.R. Ammons, the Selected Poems 1951 - 1977 (New York: W.W. Norton & Company Inc. 1977) p. 30

11- In an anonymous Scottish ballad called "The Twa Corbies," the slain knight is deserted by his hawks, hounds, and lover, and the ravens promise to "make" of his body "our dinner sweet." see the whole text of the poem in Laurence Perrine, Sound and Sense: An Introduction to Poetry (New York: Harcourt Brace. Inc. 1973), p. 12.

12- Webster's New World Dictionary of the American Language (ed.) David B. Guralnik (New York: Simon and Schuster,1982) p. 1180.

13- See Edith Hamilton, Mythology (New York: New American Library, 1940) pp.279 - 280.

14- Ibid. p. 308.

15- See Al - Munjid a standard dictionary of the Arabic language (Beirut: Dr Al - Mashreq. 1986), p. 57 on the meaning of "al – bain" and p. 547 on the negative connotations of "al – ghorab" See also Al Mu Jam Al - Waseet (Cairo: Dar I mran 1972) 669. Also p. 671.

16- See, for example, Sculley Bradley's note in The American Tradition in Literature (New York: W.W. Norton 1967). p.796.

17- Hamilton pp. 270 - 271.

18- Great Short Works of Herman Melville p. 46

19- Bloom & Trilling p. 192 (1. 302).

Edgar Allan poe, Essays and Reviews (New York: The library of America, 1984) pp. 8 - 10, 13 - 25.

6- Vincent Buranelli is right when he says - in Edgar Allan Poe (New Haven Connecticut: College and University Press 1961)- that " The raven is the principal symbol (p.101). If such is the case, and it obviously is, one ought to devote some significant space to the discussion of the possible meaning and connotations of this " symbol ", Such is the main target of the first section of this study.

7- Unlike the raven in Poe's poem, the birds give Words worth a great deal of pleasure:

The birds around me hopped and played

Their thoughts I cannot measure --

But the least motion which they made,

It seemed a thrill of pleasure.

All quotations from the English Romantic poets are taken from Harold Bloom and Lionel Trilling eds. Romantic Poetry and Prose (New York London: Oxford Univ, Press 1973).

8- Henry David Thoreau, Walden and Civil Disobedience (ed.) Sherman Paul (Boston Houghton Mifflin Company 1960) for the importance of birds, see the chapters entitled " Sounds" pp. 77. 89 "Visitors" pp. 96 - 107, "Brute Neighbors" pp. 153 - 163. The declaration after the title is: "I do not propose to write an ode to dejection, but to brag as Lustily as chanticleer in the morning standing on his roost, if only to wake my neighbors up"

9- See Great Short Works of Herman Melville (ed.) Warner Berthoff (New York: Harper & Row 1969) pp. 75 - 97.

Notes

1- M.H. Abrams, A Glossary of Literary Terms (New York: Holt Rinehart, and Winston 1981) p. 116

2- Ibid., p. 116

3- All selections from " The Raven " are based on the text as it appears in Selected Writings of Edgar Allan Poe (ed.) Edward H. Davidson (Boston: Houghton Mifflin Company 1956), pp. 36 - 39. The numbers at the end of each quotation refer to the Lines of the poem.

4- Most Romantic Literature is either autobiographic or personal. It is, as criticism has shown, Literature of the I, be it the poet's self, the protagonist's, or the human. Examples include: wordsworth's Lyrical Ballads and The Prelude, Coleridge's "The Rime of the Ancient Mariner " Shelley's and Keats: Odes, Emerson's Nature, Thoreau's Walden, Melville's Moby-dick and Whitman's Song of Myself For research on this matter see - in addition to Abram's A Glossary p. 116 - Abrams "The Theodicy of the Private Life Natural Supernaturalism: Tradition and Revolution in Romantic Literature (New York: W.W. Norton 1971) pp. 95 - 97; Lawrence Buell " Transcendentalist Self - Examination and Autobiograhical Tradition " Literary Transcendentalism: Style and Vision in the American Renaissance (Ithaca and London: Cornell Univ. press, 1973), pp. 265 - 284.

5- An examination of poe's critical works how much he is dissatisfied with the mainstream Romantics, including not only Words worth and Coleridge, but also Shelley and Keats. He does admire them no doubt and he does praise them on several occasions, but he is at times very critical and very disapproving. Speaking of Words worth, for instance, he says " As to Words worth, I have no faith in him (p.8). for more see

I hope I have made clear how "the Raven" which doubtless shares many salient features (thematic and stylistic) with other mainstream Romantic poems, distinguishes itself (in very subtle but crucial ways) from those poems. Such distincition is important to pin - point because a) it enables us to look at the poem's argument from angles which readers normally neglect (which makes us understand the implications of the argument more profoundly) and b) it encourages readers to attempt to determine (precisely and tangibly) poe's special contribution to Romantic thought.

Clearly, I have not intended the study to be exhaustive,saying everything that can be said about the matter. Far from it, the aim is to cite a specific set of examples illustrating how the difference actually works, leaving ample room for other readers to come up either with other examples of their own or with their own conception of what the distinction or difference is like.

Let the Priests of the Raven of dawn, no
Longer in deadly black, with hoarse note curse
the sons of joy. Nor his accepted brethern,
whom, tyrant, he calls free - lay the bound or
build the roof. Nor pale religious letchery call
that virginity that wishes but acts not!
For every thing that Lives is Holy. [23]

Yes, everything is " Holy" including the " Raven of dawn" which is, unlike in poe's poem, no longer " deadly black " and with " hoarse note." Thanks to the imagination. In " The Raven" there is no transcendence, no transformation whatsover. The speaker remains throughout the poem imprisoned in the chamber and the raven remains black, ominous, and extremely vexing and frustrating.

In fact there seems to be a substantial degree of fall and descent. The raven is a messenger not from heaven above but from Hell below: "Tel me what thy lordly name is on the Night's Plutonian shore" (my emphasis; 47). In mythology, Pluto is the god of the underworld and the infernal regions. Coming from such regions, the raven aims not to lift the protagonist spiritually but to pull him down. The last metaphore in the whole poem, which appears in the last two lines, reinforces the concept of fall and failure: "And my soul from out that shadow that lies floating on the floor / Shall be lifted – nevermore" (108). Unlike in Keats,Shelley,and Blake, these lines rule out any future possibility of rise or change. It is a very pessimistic, catastrophic ending: the speaker has fallen, and will remain fallen - Shall be lifted - nevermore."

interpretation of Lenore's signification - which is not the case at all. As for the expression "Lost Lenore," it may refer - and this is the reading this study prefers to adopt - to a universal, human (not just personal) loss, Lenore being the symbol of watever happiness humanity wishes to regain and possess: notice the expression "sainted maiden" and the important allusion to Eden ("Aidenn")

Additionally there is no reference, unlike in "La Belle Dame sans Merci to any period of rejoice the speaker may have enjoyed when lenore was alive - assuming that she is an individual person of flesh and blood. With respect to Lenore, the speaker fails in two ways, each more distressing than the other: the first is reunion with her (when he asks the raven whether his soul " shall clasp...Lenore," the raven replies " Nevermore") and the second is forgetting that she exists: " Quaff, oh quaff this kind nepenthe and forget this lost Lenore!" (84).

Indeed "The Raven" is, as some critics have hinted, about the failure of the imagination - and this is when the poem borders on anti - Romanticism[22]. The imagination functions positively even in Keats and Blake. In the former, we Learn not only that through the mind the self can transcend temporarily, but that the process of transcendence may be repeated. One, in other words transcends then falls, but one can transcend again after each fall. In Blake the imagination - as clear in "The Marriage of Heaven and Hell' is capable of reconciling good and evil in a marriage which recongnizes both: there are the states of experience and innocence,but there is also the sythesized state of organized innocence.

The mind transforms the ugly reality of a world in which good is severely crippled by evil into one in which the two combine to create a very peculiar but appealing type of harmony. The appendix to "The Marriage of Heaven and Hell" A Song of liberty' - in which a positive reference to a raven is embraced and ultimately celebrated --ends on an optimistic, happy note:

In Keats'former poem, the speaker is able to ranscend to the nightingale's immortal world, leaving behind (at least momentarily) his feelings of pain and dullness of spirit: he participates fully in whatever the nightingale participates in. The same is true regarding the kinght in keats'latter poem, for he does meet the maiden and does partake in what seems moments of utter gladness regardless of their apparently deceptive nature at times:

I set her on my pacing steed

And nothing else saw all day long

For sidelong would she bend, and sing

A faery's song.

No matter how negatively one looks at the kinght's situation, he at least has had the impression (which has seemed true enough to him at that particular moment, however subjective it may turn out to be) that he has been loved ("I love thee true" (28) and that he has in fact quenched his thirst for an extra - terrestrial love.

Poe's protagonist in "The Raven" takes part in no discernible degree of joy or fulfillment. At the beiginning of the poem, he like keats' and other personae, is a seeker. We find him reading conscientiously, poring and pondering "Over many a quaint and curious volume of forgotten lore" (2). He is not a lazy dreamer; far from it he has been working hard (i.e. reading till late at night, thinking, and meditating) to achieve his objective; he is described, right from the start, as " weak " and " weary" (1).

Such objective seems to be union or reunion with Lenore, a "rare and radiant maiden": Tell this soul with sorrow laden if,within the distant Aidenn, It shall clasp a sainted maiden whom the angels name Lenore " (93 - 94). Obviously, Lenore stands for many things. Poe's restrictive, reductive assertion in "The Philosophy of Composition" that she is the speaker's "deceased mistress" may give the false notion that this is the only

had not tried so diligently and successfully - as will shortly be pointed out - to dig into books about older times, which Emerson calls " the mind of the past".[21]

The final radical difference I wish to raise in this study is related to the idea of the Romantic pursuit, quest or journey. In almost all Romantic poems and stories, the persona begins as a seeker of a certain experience or truth, an experience or truth which normally lies above or beyond every day life, and ends after some initial hardships and even failure - by achieving the object in point,wholly or partially. Wordsworth goes to the Tintern Abbey area. Thoreau to Walden, Coleridge to Xanadu (Literally or metaphorically) for example, and they come back with a certain degree of fulfillment or a certain amount of helpful wisdom.

Such is the general trend. In the case of some Romantics however, there is a strong sense of failure in the end. Keats who is one of the more abortive seekers, provides some good examples. In "Ode to a Nightingale", for instance, the speaker undergoes a sharp fall which he expresses in the last few lines: the word " forlorn" he says, brings him "back from thee to my sole self" (72); "the plaintive anthem fades / past the near meadows... and now ' tis buried deep /. In the next valley - glades"(79-80); the music is "fled" (80). The speaker laments the loss of a " vision" or a dream which he possesses for moments only. At the end of the poem, the speaker is once again in the world of permanent suffering. The same sense of loss is more dramatically portrayed in " La Belle Dame Sans Merci" where the Knight is cruelly abandoned in the aftermath of the adventure: he is "alone" pale "haggard" "woebegone" anguished (I &II) etc. As soon as the fatal meeting with the maiden is over, there is hardly anything cheering. "The sedge has withered from the Lake/ And no birds sing " -- a desolate landscape and a desolate psyche. Nevertheless, the fall, and this is a remarlable difference from the speaker's condition in "The Raven" is preceded by intense moments of elevation, joy, and satisfaction.

Take thy beak from out my heart, and take thy from off my door."

Quoth the raven " Nevermore" (97-102)

But he soon discovers that he is mistaken in his assumption,for the outcome of this particular unfortunate incident will not be like that of any of the previous incidents; it is one which will be impressed upon his memory forever. The first evidence of the everlastingness of this unpleasant comes from the raven's prompt response; "Nevermore." The second is stronghly embodied in the last stanza:

And the Raven never flitting, still is sitting, still is sitting

On the pallid bust of Pallas just above my chamber door.

Obviously, the raven refuses to leave. The present continuous "Still is sitting" in a narrative which uses the simple past throughout also emphasizes the fact the experience does not come to an end. The raven, in other words, comes to haunt and stay. But the third, most powerful, evidence appears in the second stanza, which depicts the speaker's condition long after the initial meeting with the raven: "Ah, distinctly I remember..." "Distinctly is crucial here; it signifies beyond any doubt that the speaker's memory of the whole experience has neither vanished nor weakend. On the contrary, it is still as clear and vivid as ever ("distinct"). The " Ah" denotes the sense of pain and Lamentation the speaker is still feeling. The poem makes it clear then that the unhappy memory, Like the raven itself, will continue to be a source of eternal torment and grief. In this respect, the poem is an anti - memory poem.

But the poem is hostitle to memory in yet another sense. As the poem's opening lines stress, it is the speaker's delving into the past (which, among other things, stands for collective human memory) that triggers all events in the poem. Such unfortunate events would not have happened, in other words, if the protagonist

But by the same degree, he also enjoys the journey's happy moments, especially throughout its triumphant final stages.

It is a memory partly haunting and frustrating, but also partly fulfilling. At the end of the poem, he, though his beard is "hoary" has "bright" eyes. And he probably goes on, after taking leave of the Wedding Guest, to tell the story to another person with the same firm and eager spirit he expresses when he stops the guest at the beginning of the poem. There is no indication, anywhere in the poem, that the mariner is reluctant or unhappy about recounting the past adventure which has become a persent reality.

In the Raven "on the other hand, the speaker is recollecting a story which he clearly wishes to forget. The fact that he is recalling a painful experience is obvious in the very first line: "Once upon a midnignt dreary, while I pondered weak and weary....."

The persona is telling an autobiographical tale of, as has just been mentioned, woe and frustration. He decides right away while the encounter with the raven is still taking place, that it is one of those events which are greatly unwelcome: "Other friends have flown before --/ On the morrow he will leave me as my hopes have flown before" (58 - 59). As the last part of the latter line indicates,the speaker has had several disappontments: "as my hopes have flown before." He therefore immediately concludes that this particular disappointment, Like the previous ones, is better not remember and he intends to forget all about it as soon as it is over. The following stanza, occuring just before the final stanza,expresses such intention very fluently:

> "Be that word our sign of pating, bird or fiend" I shrieked
> upstarting ---

"Get thee back into the tempest and the Night's Plutonian shore! Leave my Loneliness unbroken! -- quit the bust above my door!

rather, it is a unique form of "terror" one experienced neither by the speaker (i.e. before this time) nor by others.

Another radical difference from mainstream Romanticism appears in connection with memory. For nearly all Romantics,memory is a faculty in the mind which contributes positively to the speaker's overall condition. Memory, as in Wordsworth's "Thintern Abbey" and "My Heart leaps Up," brings into the extremely dull everyday reality sublime images and noble fellings from recollected scenes of a past nature or childhood experience. The mind stores in it those glorious moments of beauty,happiness, and fear called in The Prelude " sports of time"[20] which inject a healing power and vigor into despondent souls. Says Wordsworth in "Tintern Abbey", describing the blessed effect of memory:

These beauteous forms
Through a long absence, have not been to me
As is a landscape to a blind man's eye;
But oft, in lonely rooms, and mid the din
Of towns and cities, I have owed to them,
In hours of weariness, sensations sweet,
Felt in the blood, and felt along the heart. (23-29)

Even the darker memories, such as in "The Rime of the Ancient Mariner" have a positive dimension. It is true that every time the old mariner tells his story, and he is partly cursed in this respect, he relives and re- experiences the pain and trauma of the infamous voyage. And as readers recognize, it is the mariner's destiny to spend the rest of his life telling and retelling the story.

in the poem are the adjectives which precede and follow it, " bleak" and "dreary" (7). Poe's December has no warmth, no hope, no sign of life. The embers are "dying" and are like "ghosts": "And each separate dying ember wrought its ghost upon the floor" (8).

The third stanza reveals more about the setting: "And the silken sad uncertain rustling of each purple curtain, / Thrilled me - filled me with fantastic terrors" (13 - 14) A typically Romantic setting would by no means include luxurious curtains - neither would it include a "bust of Pallas" (41), a "cushioned seat" (68) with "velvet lining" (69). etc. Such aristocratic, Gothic flavor of the chamber in question functions to isolate the speaker from the rest of the world and imprison him inside the room and to heighten the dilemma and fear, not to lessen it: " filled me with fantastic terrors." The curtains block the speaker's vision completely,and even when he opens the door, he is able to see "nothing": "Darkness there and nothing more" (24) In this particular repect, he is more confined, more retricted than Bartleby in his "hermitage" For even though the latter is surrounded by walls and a screen, there is "a small side - window in that part of the room a window which.... gave some light."[18] The rich but untypical colors of the room - "purple" "violet" (77) (all bluish colors) - are associtated in the poem, but perhaps also in general (one remembers the blues music here), with " sad," "uncertain," and "thrilling" feelings. The second part of line 14 in particular is quite significant; it informs us that the locale evokes/ provokes fantastic terrors never felt before" (my emphasis). It is indeed "terror" that the persona experiences, and this is a feeling stronger than that of "fear" which the Romantics typically emphasize - one is reminded here of Wordsworth's famous line," fostered alike by beauty and by fear."[19] However, "never felt before" is precisely what Poe seems to want to underscore. It is not any thrilling,fearful or horrific feeling (like those normally felt by other Romantics)

extreme point from the day's beginning (daybreak) and its end (sunset). Readers feel sorry for Goodman Brown when he embarks on his journey at sunset, anticipating evil, destructive happenings to occur - symbolized by the darkness which succeeds a sunset. In "The Raven "whose action is triggered exactly at midnight, the unfolding events will unavoidably be much more evil and destructive. In much of the Gothic genre and the horror stories (and "The Raven" is Gothic and horrific to a great extent), midnight has a special significance; it is usually the hour when monsters (i.e. warewolves, vampires, etc.) emerge. And these are more unbearable than the devil Goodman Brown meets. The latter,though extremely conniving, seductive, and elusive is at least communicative (unlike the raven) has a sense of humor, and is physically closer in looks to human beings (he looks like both Goodman Brown and his father). In fact, the image we have of the devil throughout the story is that of a commonsensical,knowledgeable, confident, and extremely polite elder person; one is no more afraid of him (or repulsed by him) than of one's benevolent grandfather. By contrast, the said monsters, including the raven, have redeeming attributes whatsoever. And while some people will be attracted to the devil (i.e. Marlowe's Faustus and Washington Irving's Tom Walker) hardly any is likely to find a vampire or monster attractive in any serious way.

Furthermore, the disastrous encounter takes place, as the second stanza stresses, in a "bleak December." Clearly December is the end of the cycle of months, the month most associated (in literature especially) with the year's death. Fall or autumn is to a great degree unpleasant, But there are, as in Shakespeare's famous sonnet " That time of year.... " and Keats' " to Autumn", many pleasant features and advantages to it. Even Winter, as a word and as a season, has some very desirable associations and benefits. December has almost none. What mkes it even more objectionable

opted for the owl, but he soon changed his mind[16]. Such deliberate shift is very telling. The owl, which is Athena's bird in Greek mythology, signifies wisdom. The same signification is true in Walden where Thoreau learns a great deal from owls. Thus, though the song of an owl may be accompanied by feelings of sadness and even fear - when one is exposed to it in the solitude of nature it is supposed, unlike that of a raven, to communicate wisdom to the listener. Poe himself an avid reader of mythology and literature,must have been aware of the difference. The raven rimes better with the poem's overall pessimistic tone and theme.

But the raven is also a more appropriate choice than the nightingale and the albatross. Though the story of the nightingale (Philomela or Procne in mythology) stands for great misfortune,suffering, and tragedy, it has a somewhat heart - warming ending. After the cruel mistreatment and abuse inflicted on them by tereus, Philomela and procne were able to triumph in the end. The two sisters, who were originally maidens, were turned into birds. Their song "is sweetest because it is saddest."[17] Keats derives a great deal of joy from listening to the nightingale, in his encounter with it before the composition of his famous ode. And in his poem, the nightingale has a postive effect on the persona. As for the albatross, it is considered a sign of life in Coleridge's poem,something to be celebrated, not feared; it is its killing that is negative. Thus, while almost all other Romantic birds are a plus and blessing to the speakers or protagonists in Romantic texts, the raven is a big minus and a curse. In this sense, Poe's willful act of prefering it to other brids has a message behind it. It is as if Poe were saying: we have seen what it means to encounter a skylark, an owl, a nightingale, and an albatross; but we have not experienced what it is to be stuck with a raven.

So much for the bird. A second distinctively Poesque characteristic is reflected in the setting. The action begins, as the first stanza shows, at "midnight," which is the most distant, most

deduces that it haunts people wherever they go and, again, spies on them and reveals their inmost secrets - including their thoughts and memories. In the Arabic culture, the raven (Al - Ghorab) is associated with both bad omen and separation - hence the expreseeion "Ghorab al - bain" "bain "meaning separation[15].

The Poem itself, sixthly, carries within it the most indisputable evidence of the raven's extreme negativity and ominousness. The first thing the rader notices, in this particular respect, is the description of the raven. To the speaker, the raven is "grim" "ungainly" "ghastly" "gaunt" and "ominous (71) all highly undesirable attributes. Also, the names, nicknames, and titles the speaker employs when he refers to the raven are all damning: "beast" (53), " thing of evil" (85), "devil" (85), "Tempter" (86),"demon" (105), etc. In addition, the raven is most uncommunicative. The only thing he says is " nevermore" " but the raven.... spoke only / that one word, as if his soul in that one word he did outpour. Nothing farther then he uttered "(55 - 7)." "nevermore" which is repeated at the end of every stanza since the raven's entrance into the room, is the strongest of all negative forms, linguistically speaking. It is stronger than "unlikely", than "anymore," than "no" than "nomore", and than "never". It is an expression of utter impossibility, leaving no room whatsoever for either probability or even far - fetched possibility. Futhermore, the raven comes to vex, frustrate, and persecute the speaker. The poem tells us that its "fiery eyes" burn into the narrator's " bosom's core"(73) and that it has its "beak" into his "heart (101). Moreover,the raven is extremely aloof, detached, and unmoved; it betrays no signs of sympathy understanding: "not the least obeisance made he: not a minute stopped or stayed he" (39); Not a feather then he fluttered " (57).

The ultimate point behind the preceding discussion is to suggest how Poe, in consciously selecting the raven, differentiates himself from other Romantic authors. Initially, critics inform us, he

animal and people. One clearly remembers the medieval ballad "The Three Ravens" in which the three hungry birds gather and chat in preparation for feasting on the body of a slain knight, which is luckily protected by the knight's Loyal hawks, hounds, and Lover.[11] It is significant to remind in this particular context that Poe's persona calls the raven a "beast" (53). Fourthly, "raven" is Linguistically negative: the verb to "raven" means, according to Webster's New World Dictionary, to " devour greedily" or to "search for prey or plunder"; the adjective "ravenous" means "greedily or wildly hungry." The related words, etymologically as well as connotatively, "ravine" "raving" and "racish" mean, respectively "a long, deep hollow in the earth's surface," " raging delirious; frenzied," and to "seize and carry away forcibly" or "to rape."[12]

Fifthly, we draw identical conclusions about the raven from mythology (Greek and Roman) whose archetypal themes and tales are at the heart of most English and American literary texts. In one story, for example, we are told that Apollo, the god of Truth, falls in love with a maiden in Thessaly whose name is Coronis and who is, naturally, of great beauty. Though she seems to have reciprocated Apollo's feelings at first, Coronis eventually loves a " mere mortal." She tries to hide her secret from Apollo, but it is soon betrayed to him by his bird, the raven, Extremely angered by her unfaithfulness, Apollo has Coronis Killed and curses the raven, changing its color from white to black.[13] In another myth (a Norse myth), we learn that Odin, a " strange and solemn" god who is " always aloof," has two wolves which " crouch at his feet" and two ravens, aptly named Thought and Memory, which perch on his shoulders. They fly "each day through the world and bring him back news of all that men do.[14] From the first myth, one concludes that the raven is clearly an informer and a spy on people, a messenger of bad news, and a direct cause of calamity (the raven is directly responsible for Coronis's death); from the second, one

a great deal of interest in them as subject matter; in fact fowls figure prominently in almost all significant Romantic texts.They are essential in Wordsworth's The Prelude, "Intimations," "Resolution and Independence," etc. In "Lines Written in Early Spring, " a poem of six stanzas[7] (for instance), they occupy a whole stanza. The albatross is a fundamental milestone in the journey of Coleridge's Ancient Mariner. In Thoreau, of course owls,wodchucks, and other birds - to which he devotes whole chapters in Walden - are pictures as " neighbors " with whom Thoreau converses and socializes. The very first, and most major dclaration in the book appearing immediately after the title compares Thoreau to "Chanticleer."[8] And a rooster is the protagonist of Melville's "Cock - A - Doodle - Doo," an allegorical story which pokes fun at the New England Transcendentalists, most notably Thoreau.[9] Preoccupation with birds is then a Romantic tradition which dates back (if one stretches the definition of such tradition to encompass any Ramontic themes in earlier or later English literature) to the medieval lyrics and ballads, and it survives, and continues tc survive, Long after poe - in Stevens Ammons, and others.[10]

But if Poe's decision to follow a Romantic convention in naming his poem and in picking a bird and making it central to the development of the plot may not appear particularly interesting, the choice of the raven is. The raven, more so than any other Romantic bird, is, in itself and in what it stands for, most negative and most ominous. In fact, no matter how one looks at it, it is the most extreme choice an author can come up with. There is, first of all, its color: a raven is the blackest of all Romantic birds (the poem tells us it is " ebony " black (43), a color normally associated with sorrow and evil. Secondly, its " song " is the harshest and least pleasant: a skylark's is lovely, a nightingale's is enchanting, an owl's is somber, but a raven's is disturbing and decidedly ugly. Thirdly, a raven is a flesh - eating fowl, thriving on corpses of dead

- than with those written by the more cheerful and affirmative ones- - Wordsworth, Bryant, Emerson, Thoreau, etc. For example, in its interanlly theatricalized depiction of the persona's psychological trauma and in its vivd recollections of a shattering past experience which is never forgotten, it brings to mind the perennial isolation and suffering of Coleridge's Ancient Mariner. It also recalls - in its extremely disappointing, unfulfilling, and pathetic ending - many of Keats' poems, in which (as in " la Belle Dame Sans Merci, " for instance) the main character finds himself ruthessly abandoned, dejected, and even hopeless. And in revealing the demonic, satanic, and evil nature of some elements in the universe, it evokes some of Blake's and Shelley's chillingly tragic moments.

Nevertheless there is more to this highly sophisticated and complex poem. A careful reading show that "The Raven" persistently, though subtly and indirectly, attempts to differentiate itself from whatever comes before it, be it the works of the Romantic optimists (obviously) or even (shall one say especially?) those of the more skeptical and pessimistic authors. In so doing, it seeks to push the level of conflict, dilemma, and Romantic discourse into farther, more extreme spheres, ones which had not yet (by the time poe was composing the poem) been forcefully explored. In other words, there are moments in the poem when Poe deliberately tries to go beyond Coleridge, Shelley and Keats[5]. The aim of this paper is to examine some of these dimensions of extremeness and difference.

What first attracts the reader's attention is, of course, the title. Poe chooses a bird to name his poem after and to weave the argument around. [6] At one level, there is hardly anything innovative, or even exciting, about such a choice, Many Romantic poets, before and after Poe, have selected fowls for their titles and their themes. One instantly remembers Shelley's " To a Skylark," Keats' " Ode to a Nightingale," etc. But even the Romantic authors who do not use birds in the titles of their well - known poems show

Edgar Allan Poe's widely - celebrated poem " The Raven" composed in the early 1840's and published in Poems (1845), is without a Romantic masterpiece. Stylistically as well as thematically, it bears obvious similarities to, and even strong echoes of, several (earlier and later) British and American Romantic texts, both poetic and prosaic. For instance, it is a descriptive/ meditative poem. According to M.H. Abrams, one of the finest exponents and scholars of the Romantic period, Romantic Poetry is not simply poetry of the physical landscape or the outer scene, but (mor importantly) poetry in which the landscape functions as a " stimulus" for the poet or the speaker " to engage in the most characteristic human activity, that of thinking."[1] Such definition applies perfectly to " The Raven," which is, among other things of course, a poem of " feelingful meditation about central human problems."[2] The speaker is describing not only the external surroundings (i.e. the " dreary " weather, the chamber, etc.),

but also his state of mind: the " pondering " and the feelings of " sorrow." [3] The purpose behind the setting is both to evoke emotions and ideas as well as to mirror them.

In addition, the focus in " The Raven," as in other Romantic poems, is not on a social experience, but on the poet's or persona's. The solitary, speaker and this is the case of other personae in the said tradition or genre, is a personal quest. He is completely with-drawn from the world at large (into a world of his own), worrying about questions which relate to his own condition both as individual and as man: "..... tell me truly, I implore -- / Is there --- is there balm in Gilead ? --- tell me -- tell me, I implore " (88 - 89). " Tell this soul with sorrow laden if...", (93). The autobigraphic dramatization of " me," "I, " and " this soul " aims to stress the personal / human level of the conflict. In this sense also, the poem is typically Romantic.[4]

"The Raven," of coures, seems to have more affinities with work written by the darker Romantics -- Coleridge, Shelley, Keats -

Poe's Negative Romantic Vision in " The Raven": Some Aspects of Extremity and Difference

Dr. Ahmad Y. Majdoubeh
English Department
Yarmouk University
Irbid - Jordan

Abstract

The aim of this paper is to examine some of the distinctive aspects of Edgar Allan poe's "The Raven" in the context of Romanticism at large. It begins by briefly reminding of a number of similarities it bears to other poems in the Romantic tradition - those written by both the optimists (Wordsworth, Emerson, etc.) and the more pessimistic poets (Shelley, Keats, etc.). It then moves (and here is where the study's major bulk lies) to explore some of the fundamental differences as reflected in the title itself (i.e. the very choice of the raven), in the peculiar and remarkably eerie setting, in what the poem says about memory and in the conception of the quest or pursuit. The underlying assumption throughout the study is that Poe is more extreme and negative in his vision than nearly all other Romantics. The precise contribution of " The Raven " seems to lie in such extreme and negative portraiture.

References

Carter, R. and M. Long 1987. *The Web of Words.* Cambridge: Cambridge University Press.

Crystal, D. and D. Davy 1969. *Investigating English Style.* London: Longman.

Leech, G.N. 1969. *A* Linguistic Guide to English Poetry. London: Longman.

Morgan, J. and M. Rinvolucri 1983. *Once Upon a Time.* Cambridge: Cambridge University Press.

Nash, W. 1985. *The Language of Humour.* London: Longman.

Thurber, J. 1940. *Fables for Our Time.* New York: Harper and Row.

Widdowson, H.G. 1992. *Practical Stylistics.* Oxford: Oxford University Press.

Received, 13/12/1994

well as its linguistic features. This is why the instructor needs to take a close look at a text before deciding whether it is usable and, if it is, to consider carefully what activities will help students to enjoy the humour. Thought must be given to the cultural and literary background of a proposed text, connections between reader, characters and writer and the patterning of choices in grammar and vocabulary, sound, and graphology.

the bedroom and woke his wife. "There's a unicorn in the garden eating roses," he said. She opened one unfriendly eye and looked at him. "Unicorns are in fairy tales," she said and turned over to go to sleep again.

This version brings in one complete sentence from Thurber's text. *She opened one unfriendly eye and looked at him.* It is interesting that this does cause signs of amusement among students as they read it. Thurber's opening of his fable may now be presented, the aim again being identification of features such as those previously observed in the preparation' above.

Questions

Interactional features may be further investigated by questions such as these:

1. What do you think of the way the wife responds to the husband's story?

2. Is the wife telling the truth to the police and the psychiatrist?

3. How do they interpret her report?

4. Are there any parts of the story that it would be difficult to believe happening in everyday life?

These are different from ordinary reading comprehension questions in that they are intended primarily to make students aware of interactional factors in the narrative.

Conclusion

'Humour is not for babes, Martians, or congenital idiots.' (Nash p. 9) The question arises, is it for learners? Surely, knowing a language must include some awareness of how its humour works. But selection is all important. In the same way that other teaching materials are graded on grammatical and lexical considerations, humour needs grading according to its generic and interactional as

The formality of register in *The unicorn is a mythical beast* was noted. Similar messages in registers of lower formality can be compared with this sentence.

a) There's no such animal!

b) Unicorns are only found in stories.

c) A unicorn? You're seeing things!

d) The unicorn is a mythical beast.

These will be ranked d) b) a) c) in descending level of formality.

Deriving

One 'deriving' process starts with a brief statement of events presented together with a rather more dramatized version:

(1) A man saw a unicorn in the garden one morning. He woke his wife and told her, but she did not believe him and went back to sleep.

(2) one morning a man was having breakfast when he noticed a unicorn in the garden. He woke his wife and told her. "Nonsense," she said, then turned over and went to sleep again.

The differences in (2) will be readily observed: detailed information, movement, direct speech. Developments continue in two other progressively derived versions.

(3) One fine morning a man looked up from his breakfast and saw a unicorn out in the garden. He went upstairs and woke his wife. "There's a unicorn in the garden," he said. "There aren't any unicorns!" she said, with a glare, and turned over to go to sleep again.

In the final derived version some of Thurber's phrasing is included.

(4) One sunny morning a man looked up from his breakfast egg to see a white unicorn eating roses in the garden. The man went up to

realize it is a pun derived from booby-hatch. Other possible items for deletion occur in the deviant or remarkable collocations:

Once upon a ————

quietly cropping the ————

The unicorn ate it ————

one ———— eye

a ———— in her eye

At a ———— signal from the psychiatrist

These, and other foregrounded items, may be blanked out of part of the text and given to students for comment before they read the complete version.

Comparing

"Comparing" with variants of Thurber's text may begin with a narrative that excludes the humorous and much of the dramatic foregrounding:

> "The police and the psychiatrist arrived, sat down, and looked at her. 'My husband saw a unicorn this morning,' she said. The police and the psychiatrist looked at each other. 'He told me it ate a lily,' she said. They looked at each other again. 'He told me it had a golden horn in the middle of its forehead,' she said. The police, acting on a signal from the psychiatrist, got up quickly and took hold of the wife."

The activity here is to compare this with Thurber's version, for identification of the stylistically effective features noted earlier, such as positioning of inquit, repetition and reversed syntax of *The police looked at* ... etc, and emphatic vocabulary.

1. a) Police and psychiatrist arrive, sit down, look at wife
   -b) wife says her husband saw a unicorn
2. a) Police look at psychiatrist, psychiatrist looks at police
   -b) wife says he told her it ate a lily
3. a) Psychiatrist looks at police, police look at psychiatrist
   -b) wife says he told her it had a golden horn
   -c) Psychiatrist signals, police seize wife

Ordering jumbled sentences is a well-established procedure in paragraph construction or reading comprehension exercises where the focus is on reconstructing the discourse. Here the aim of the activity is generic rather than linguistic; it is clear that 2a and 3a, and 2b and 3b could be transposed without materially altering the structure of the narrative, and it is this structure that the student is to be made aware of. The items that must be ordered exactly as above are la and lb, and 3c.

This reordering of the events of the encounter between the wife, the police and the psychiatrist is also a good way to investigate interactional features. Reassembling the text helps students see the pragmatic absurdities in the scene, the irony of what happens as opposed to what the wife intended to happen, and the relations between characters, author and reader.

Completing

"Completing": The moral of Thurber's fable takes the form of a commentary joke, a locative witticism, which students may be asked to complete after reading the passage, and if necessary referring to the original proverb:

Moral: Don't count your ________ before they are hatched. The locus of the joke is *hatched*, which students will see when they

Composing

First, 'composing' , related here to a generic feature, the narrative structure: one activity suggested above has students order jumbled events and so recreate the structure of a story. Few linguistic clues are given in this because the aim is to impart understanding of the phasing of the narrative. Here are the jumbled phases of 'The Three Little Pigs', a well-known fairy story:

"Wolf enters by the chimney

Wolf blows down house of wood

Pig blown to house of wood

Wolf falls into boiling water

Wolf fails to blow down house of brick

Wolf blows down house of straw

Two pigs blown to house of brick"

This activity may be started off by presenting the opening of the story: three little pigs leave their mother and each builds a house, one of straw, etc. By ranking the relative stability in wind of the set of building materials, and consideration of cause and effect, students will order the events vertically. Then they should be able to complete a blank version of the phasing:

1 a) Wolf blows down house of straw	1 b)
2 a)	2 b)
3 a)	3 b)
	3 c)

Later, students will be able to produce a similar phasing summary (see above) for Thurber's fable or its climatic scene, which has a comparable symmetrical structure:

to poetry. Indeed Widdowson acknowledges correspondence between readers' responses to poetry and to humour:

> "There is a parallel here with jokes, another use of language which disrupts the pattern of conventional expectation. (Widdowson 1992: 13)"

The parallel between poetry and humour is noted in Leech 1969: Deliberate linguistic foregrounding is not confined to poetry, but is found, for example in joking speech and in children's games. (p 57)

And Nash provides analysis, again and again, of deliberate linguistic foregrounding, not only in joking speech and children's games, but also in longer humorous texts and larger forms.

It seems appropriate then to try some techniques developed for poetry as learning aids in the study of humorous texts. Widdowson describes four kinds of activities for students of poetry:

composing (line assembly)

completing (blanks)

comparing (with variants; with prose, etc.)

deriving (from prose, etc.)

The limited space available here allows only a selection of examples of these activities for some of the stylistic features noted above. The focus is generally on foregrounding. For example, in choosing words to be blanked out for completing, 'gloat' is picked on as the deviant element in the collocation 'a gloat in her eye'. For comparing and deriving activities, a stylistically unmarked passage is compared with Thurber's text, and an unmarked starting point for a derivation exercise is devised. In the composing exercise, Thurber's narrative is investigated as a parody of the fable form.

and screaming, and shut her up in an institution. The stark reportage of this conclusion gives it a certain inevitability.

The husband lived happily ever after: this concluding sentence is charged with humour, and students respond to it even if they are not aware that it is a standard formulaic ending to a fable. But meaning is manipulated: it is Thurber's penultimate joke, the culmination of the fable's irony - *the trompeuse trompée* carried off, cursing and screaming, the man now free to enjoy such wonders as unicorns. The sentence has the mark of a *formulate,* in Nash's terminology: it formulates mischievous satisfaction, innocently expressed, that justice has been served, and its throwaway quality matches the husband's bland betrayal and casual turning of the tables.

Without the foregoing narrative, the moral *Don't count your boobies until they are hatched* could not be understood as a joke, though it might be seen as joking because of the substitution of *boobies* for the 'chickens' of the proverb. That is to say, part of the genus of the joke is independently clear, but it derives mainly from Thurber's fable, and with this in the reader's mind the pun on *hatched* is understood. Using Nash's account of the structure of humour, the fable is co-*structured* with the moral and both share a *substructure* of generic detail, which includes allusion to the fable form, the proverb, and knowledge of the American expression 'booby hatch' for 'mental hospital'. The signalling of intention to joke contained in the design of this formula is, as suggested above, the word *boobies,* and the locus, the word essential to the joke, is *hatched.*

Learning activities

Activities to encourage appreciation of the humour in a text may be derived from those developed in, for example, Carter and Long 1987, and used by widdowson (in Widdowson 1992) as approaches

second rejection of his story, resorts to pejorative slang with *booby;* she has a *gloat* not a 'gleam' *in her eye,* another deviant collocation. *When the police and the psychiatrist arrived they looked at her, with great interest:* here the comma foregrounds the concluding adverbial, thus hinting at the kind of interest these people have in her. Students readily appreciate this point if they are asked to rewrite the sentence omitting the comma and compare the effects produced.

The repetition and reversed syntax of *the police looked at... The psychiatrist looked at...* alternates with the wife's fabulous reports and reveals the understatement of *looked* at, the significance of those looks. The repetition and the separation of the wife's statements also have the effect of slowing down the narrative just before the climax, as does the initial placing of the adverbial *at a solemn signal from the psychiatrist* in the climactic sentence. Alliteration plays its part here, binding closer the unusual collocation, and linking it to *psychiatrist;* a psychiatrist's solemn signal, perhaps a slow nod with pursed lips? The dramatic irony in this scene has generic allusions: we know the wife is quite sane, but we also know about the popular belief that psychiatrists are liable to jump to conclusions.

The scene culminates in action and violence - *leaped, seized, struggle, subdued, the strait-jacket.* It is 'the' rather than 'a' straight jacket because it is the one she told them to bring. This foist-with-own- petard irony continues as the plot is revealed. The husband denies telling his wife he saw a unicorn by echoing her own scornful words The *unicorn is a mythical beast,* and sets the seal on her incarceration. The psychiatrists ready acceptance of the man's denial is realized in his use of the homespun simile *crazy as a jaybird*-refreshingly plain speaking for a psychiatrist. Interactional features of likelihood and predictability are at play in the language of this closing scene. So *they took her away, cursing*

Once upon GENERIC (derived from fable form)

a sunny morning

LINGUISTIC (deviant collocation)

INTERACTIONAL (signals intention to joke)

Notable in the opening sentence is a blend of the fabulous and the commonplace: a white unicorn with a gold horn is observed by a man over a plate of scrambled eggs. The generic allusions are both extraordinary and ordinary: 'white unicorn' and 'scrambled eggs.' 'Quietly cropping' is ordinary enough (though neatly alliterative) but cropping 'the roses' is not. The syntax of his announcement is unmarked at first - he would have used the same structure for 'There's a cat /dog /broken glass in the garden' - but after the inquit *he said* the minor sentence *Eating roses* imparts joking or dramatic structure to the utterances (cf. 'Your teeth are like stars,' he said. 'Out at night.') The adjective-noun collocation *unfriendly eye* is striking and the wife's retort *The unicorn is a mythical beast* is deviant in register - something less formal like 'There aren't any unicorns' would be more predictable. These manipulations of structure, lexis and register do not produce formulaic jokes here, but the foregrounding creates an engaging, amusing tone.

This process continues: *browsing among the tulips, The unicorn* ate it *gravely, 'The unicorn, ' he said, 'ate a lily.* 'And the wife, for her

3. Wife brings police and psychiatrist

-man denies story

-wife taken away

Other generic factors in Thurber's fable that suggest approaches are the battle-of-the-sexes theme, and the imposition of humorous content on the fable form.

Interactional features

Turning to the interactional mode, one immediately observes the unlikelihood of events - the rapid arrival of psychiatrist and police, their willingness and authority to lock up the wife on such evidence, a unicorn eating roses in the garden; and authorial control of the reader exerted in the predictability of the plot, bringing anticipation of the denouement.

These kinds of generic and interactional factors will appear in the following observations on the linguistic mode, which take an exegetic form.

Linguistic features

The opening phrase *Once upon...* signals the onset of a fable and thus alludes to generic matters, and its continuation *a sunny morning* creates a deviant collocation (i.e. in the linguistic mode) which signals the interactional intention to joke, so that all three modes operate.

telephoned a psychiatrist; she told them to hurry to her house and bring a strait-jacket. When the police and the psychiatrist arrived they sat down in chairs and looked at her, with great interest. "My husband," she said, strait-jacket "saw a unicorn this morning." The police looked at the psychiatrist and the psychiatrist looked at the police. "He told me it ate a lily," she said. The psychiatrist looked at the police and the police looked at the psychiatrist. "He told me it had a golden horn in the middle of its forehead," she said. At a solemn signal from the psychiatrist, the police leaped from their chairs and seized the wife. They had a hard time subduing her, for she put up a terrific struggle, but they finally subdued her. Just as they got her into the strait-jacket, the husband came back into the house.

"Did you tell your wife you saw a unicorn?" asked the police. "Of course not," said the husband. "The unicorn is a mythical beast." "That's all I wanted to know," said the psychiatrist. "Take her away. I'm sorry, sir, but your wife is as crazy as a jaybird." So they took her away, cursing and screaming, and shut her up in an institution. The husband lived happily ever after.

Moral: Don't count your boobies until they are hatched.

Generic features

First the generic mode of expansion, referring to matters of derivation: Thurber parodies the traditional structure of the fairy tale, three phases leading to a resolution:

1. Wife scorns husband's story

- man returns to garden

2. Wife scorns story again

- man returns to garden, sleeps

He illustrates this with a narrative of his own that concludes with a punning formula. A similar structure - narrative and formula - is to be found in Thurber's 'fables' (Thurber 1940), which are well suited for use in a language class. In fact a version of the following one appears in Morgan and Rinvolucri 1983, but it is remarkable that none of the accompanying activities suggested by the authors are designed to exploit the humour of the story.

The Unicorn in the Garden

Once upon a sunny morning a man who sat in a breakfast nook looked up from his scrambled eggs to see a white unicorn with a gold horn quietly cropping the roses in the garden. The man went up to the bedroom where his wife was still asleep and woke her. "There's a unicorn in the garden," he said. "Eating roses." She opened one unfriendly eye and looked at him. "The unicorn is a mythical beast," she said, and turned her back on him. The man walked slowly downstairs and out into the garden. The unicorn was still there; he was now browsing among the tulips. "Here, unicorn," said the man, and pulled up a lily and gave it to him. The unicorn ate it gravely. With a high heart, because there was a unicorn in his garden, the man went upstairs and roused his wife again. "The unicorn," he said, "ate a lily." His wife sat up in bed and looked at him, coldly. "You are a booby," she said, "and I am going to have you put in the booby-hatch." The man, who had never liked the words 'booby' and 'booby-hatch,' and who liked them even less on a shining morning when there was a unicorn in the garden, thought for a moment. "We'll see about that," he said. He walked over to the door. "He has a golden horn in the middle of his forehead," he told her. Then he went back to the garden to watch the unicorn; but the unicorn had gone away. The man sat down among the roses and went to sleep.

As soon as the husband had gone out of the house, the wife got up and dressed as fast as she could. She was very excited and there was a gloat in her eye. She telephoned the police and she

This [the three responses of the characters] can be generalized, *mutatis mutandis,* as a principle of comic narrative. The audience is persuaded to suspend belief, or take a neutral position on matters of likelihood. (Nash 1985: 109)

These contrasting views show up difficulties and possibilities in the analysis of a humorous text. Though Crystal and Davy point out that 'to list a set of features and predict that the configuration will be literary or funny' is an impossibility, stylistics cannot be ignored as a key to literature and humour. Nash has certainly provided a serviceable system for the analysis of humour, based on three informing principles, 'the workings of our language, the varieties of our social experience, and our habitual modes of thought', while giving language' pride of place'. He proposes that the act of humour has three principle references: a genus (i.e. a derivation), a characteristic design, and a locus (i.e. the central linguistic element of a joke). And in the study of a text we may observe the 'modes of expansion' of its humour: generic, interactional and linguistic. These modes are the background for his subsequent analyses and discussion of joke and anecdote design, allusion and parody, pragmatics and logic, and humorous language itself.

Preparation for presenting a humorous text

Nash's treatment is a valuable aid to anybody preparing for the presentation of a humorous text to a language class. A text is discussed here, and the observations made are not intended as stylistic analysis, but as elaboration of the kind of notes an instructor might make before meeting students. The essential point is that such a text demands a specially informed preparation.

In the course of his discussion of generic modes of expansion, Nash makes the following proposition:

... there are two aspects of joke design, one having to do with the method of extended narration, the other with the construction of witticisms in formulaic patterns. (27)

Analyzing humourous texts

When a student is asked to perform tasks on a text, the assumption is made that a descriptive rhetoric exists for the variety in question. A factual report may serve as a model for student writing; official and personal letters may be contrasted; questions may be asked about the adjectives in a passage of descriptive prose. Behind such activities lies the understanding that the *style* of the text has certain identifiable features. Can we make this assumption with humourous texts?

Crystal and Davy offer stylistic analyses of a number of varieties of English, but avoid literary or humourous texts.

Literature and humour ... are essentially different from other varieties, being fundamentally unspecifiable linguistically, and thus stylistically ...

... literature and humour, more than any other varieties, introduce a large number of descriptive problems ...

... it is difficult to know how to account for the 'standard' kind of joke, where the familiarity of the linguistic pattern in the narrative is the main source of the effect ...

They specify the 'shaggy dog' joke (i.e. one whose humour lies in the irrelevance of the punch line) as a type characterized by 'standardness' in the narrative pattern and go on to pose the question:

... how does one account for the standardness which is an intrinsic part of the variety and responses to it ? (Crystal and Davy 1969 : 78 80)

Nash accounts for just such a 'shaggy dog' joke: its setting is 'the privileged world of the cartoon,' where 'we accept the impossible as a theoretical postulate' and the strength of the anecdote lies 'in the responses of characters within the story.'

Using Humorous Texts in Reading Practice

Dr. Brian Robinson
Quatar University

Abstract

Amusing anecdotes and jokes do occur in language teaching, yet there seems to have been little systematic exploitation of humour. In this paper a method of preparation and some learning activities are suggested for a text to be used at the upper-intermediate level, as a contribution to reading-skills development. Humorous writing that is to be presented for reading practice needs careful selection and special preparation, as this variety of language is built on particular patterns of features, which a stylistic approach as outlined here may help to reveal.

14) Id., p. 78

15) Id., p. 78

16) Poème d'Ovide en 15 livres où sont rassemblées les principales légendes de la Mythologie. Alors que "Les Métamorphoses" d'Apulée racontent les mésaventures d'un certain Lueius qui se passionne pour les sciences occultes. Métamorphosé en âne à la suite d'une malencontreuse erreur de procédé, il sait, toutefois,qu'il pourra retrouver sa forme humaine s'il parvient à brouter des roses. Mais toutes sortes d'obstacles viennent s'interposer entre lui et ce remède de sorte qu'il se trouve entraîné dans de multiples aventures qui le mettent en contact avec les milieux sociaux les plus divers. Il ne sera sauvé que grâce à la déesse Isis qui lui donnera le moyen de brouter les roses qu'il convoite.

17) BOISROBERT, dans l' "Avis au lecteur de l'Histoire indienne d'Anaxandre et d'Orzie..."(1629), parle de "beaux Romans qui tiennent de la nature du Poëme Epyque". Texte reproduit par Henri Coulet, "Le Roman jusqu'a la Rèvolution", Paris, Armand Colin, 1968, t. II,"Anthologie", p. 38.

18) CHAELAIN, (Jean), "Lettre à Monsieur Favereau (...) sur le poème d' Adonis'du Chevalier Marin" (1623), in COULET, (Henri), op. cit., t. II, p. 24.

19) Cf. SCUDERY, (Georges de), "Préface d'Ibrahim" (1641) in Coulet, (Henri), op. eit., t. II, pp. 45-56.

20) HUET, (Daniel),"Lettre à Monsieur de Segrais sur l'origine des romans", (1670), t. II, op. Cit.p. 66.

21) Id., p. 67

22) Id., p. 67.

Received, 24/6/1997

Réfrences citées et notes

1) Préface de "Pierre et Jean", voir "Documentation thématique" in "Contes et Nouvelles" t. II de Guy de Maupassant, Nouveaux Classiques Larousse, Paris, 1973, p,130.

2 et 3) Ibid., p. 130

4) Ibid., p. 131

5) BLANCHOT, (Maurice), "Le livre à venir", Paris, Gallimard, 1959, pp.243-244

6) TODOROV, (Tzvetan), "L'origine des genres" in "La notion de littérature et autres essais" Paris, Seuil, (Coll. Point), 1987, p.31.

7) Cf. Aristote, "Poétique", Paris, Seuil, 1980, (texte, introduction et notes par Roselyne DUPONT -ROC et Jean LALLOT).

8) Chrétien de Troyes, "Le Roman de Perceval ou Le Conte du Graal", éd. Par W.Roach, Genève - Lille,1956, v.7-8.

9) Aristote, "Poétique",op. Cit. Chap.24,p.123 – Tzvetan TODOROV, "Poétique de la prose", Seuil, 1978 p. 21: "l'Odyssée, ce premier récit, qui devrait à priori correspondre le mieux à l'image du récit primitif. Rarement on trouvera, dans les oeuvres, plus récentes, tant de "perversités" accumulées, tant de procédés qui font de cette oeuvre tout sauf un récit simple".

10) MADELENAT, (Daniel), "L'épopée", Paris, P.U.F., 1986, p.128.

11) Cf. GRIMAL (Pierre), "Introduction et notes à Romans grecs et latins", Bibliothèque de la Pléiade, Gallimard, 1958.

12) CHAPPON, (Georges), "présentation d'Homère, l'Odyssée I à IX", (Coll. Traduction Hatier); Hatier, Paris, 1966, p. 6.

13) MARTIN, (René) et GAILLARD, (Jacques), "Les genres littéraires à Rome", t. I, Paris, Scodel, 1981, p. 80

autres personnages mêmes secondaires dominent dans le récit romanesque.

Toutfois, le roman médiéval français n'atteint pas le réalisme et la vivacité du roman moderne au XIXéme siècle. Nous trouvons dans la plupart des romans médiévaux des lieux communs: ils traitent souvent les mêmes sujets, répètent les mêmes situations, les mêmes descriptions. Ainsi traite-t-on dans plusieurs romans la souffrance d'amants séparés, le thème des combats singuliers où l'un des combattants découvre parfois trop tard dans son adversaire un père ou un ami, le thème du bon chevalier masqué qui défend les êtres faibles, délivre les prisonnières et fait cesser les usages criminels...Les portraits des personnages sont conventionnels: le portrait moral décrit la courtoisie, la prouesse et la sagesse; le portrait physique montre la grande laideur d'un géant et d'un vilain et la parfaite beauté des jeunes gens dont on vante la clarté du visage à la couleur rose et blanche comme neige, la blondeur des cheveux; en tout cas, si l'homme paraît fort, fier, obéissant, patient, indiscret ... la femme se montre gracieuse, capricieuse, exigeante..

Ainsi sous certaines formes, le roman avait-il commencé à naître, sans être nommé expressément, depuis Homère. Au Moyen Age, il puisait ses origines dans différentes sources. L'imitation des prédécesseurs était une pratique très fréquente et très normale à cette époque où le roman ne sortait pas des sentiers battus et répétait les mêmes sujets et les mêmes descriptions. Toutfois, le roman affirmé comme genre indépendant évoluera énormément par la suite à tel point qu'il dominera tous les autres genres littéraires.

(de 1200 à 1235). De même sont écrits en prose le "Lancelot propre" et ses suites (de 1215 à 1225), la "Mort du roi Artus" (1230 à 1235), "Tristan en prose" (1230)... La prose eut beaucoup de succès à cette époque, succès qui se perpetue toujours à tel point que la notion de roman semble, aujourd'hui, inséparable de celle de la prose.

Si la Chanson de Geste raconte de hauts faits historiques ou prétendus tels et célèbre la gloire de héros légendaires, le roman médiéval, par contre, s'éloignant des caractéristique épiques, constitue sa propre identité: l'aventure remplace les faits historiques; à la force, à la bravoure et à la ruse du héros s'ajoute un cadre merveilleux plein de rêve, de magie, de géants... Le héros doit affronter ce monde de mystères; mais pour réussir il a besoin de la grâce divine.

Dans l'épopée le thème de l'amour reste marginal alors que dans le roman médiéval il occupe une place prépondérante. La présence de ce thème s'explique par le rôle tenu par la femme dans la société à cette époque. Le héros, sans penser au mariage, obéit à la belle dame capricieuse qu'il aime et cherche à lui plaire. Le romancier peint les âmes et pose un problème moral.

L'action dans l'épopée malgré la multiplicité des personnages, garde une unité d'ensemble: une guerre que mènent les Grecs contre Troie où réside Pâris qui a enlevé Hélène, femme de Ménélas, roi des Grecs.Des rois, des héros,une armée anonyme recherchent un seul but: gagner la guerre, châtier les Troyens et rétablir la justice en invoquant tout une mythologie. Dans les Chansons de Geste l'action garde également son unité d'ensemble et réside par exemple dans une campagne contre les Barbares, dans une prise d'une ville,dans le châtiment d'un vassal révolté...

Ainsi l'action s'intéresse – t – elle à la réalité extérieure alors que dans le roman l'action est plus complexe car l'individualité des personnages et leur vie psychologique mises en jeu avec ceux des

chacun des deux genres. Dans sa: "Lettre à M.de Segrais sur l'origine des romans" (1670), Huet précise: "Ce que l'on appelle proprent Romans sont des fiction d'avantures amoureuses, écrites en Prose avec art pour le plaisir et l' instruction des Lecteurs" (20). L'amour reste "le sujet principal" des romans qui "ne traitent la politique et la guerre que par incident" alors que les Poèmes épiques "ont pour sujet une action militaire ou politique, et ne traitent l'amour que par occasion" (21). Les sujets traités dans chaque genre impliquent une composition et un ton appropriés: "les Poëmes doivent s'expliquer par de grands détours, par le ministère des Dieux, par des expressions libres et hardies, de sorte qu' on les prenne plutôt pour des Oracles, qui partent d'un esprit plein de fureur, que pour une narration exacte et fidelle", ces poèmes " reçoivent moins de matière, d'événemens, et d'Episodes" que les romans qui sont" moins élevez et moins figurez dans l'invention et dans l'expression" (22).

Après avoir envisagé les avis de certains théoriciens, romanciers et critiques sur le roman, nous constatons que le roman médiéval Français fut très influencé par l'épopée antique et les légendes celtiques.

Le roman va s'affirmer en se dotant,donc, de caractéristiques propres à lui et en se différenciant de l'épopée. Le roman médiéval français commence par être un poème lu, en octosyllabes aux rimes plates alors que la Chanson de Geste, oeuvre plutôt épique, est un poème chanté en laisses inégales de décasyllabes, mètre épique par excellence comme c'est le cas dans la " Chanson de Roland" , celui du "Couronnement de Louis" etc. Toutefois, de rares Chansons sont écrites en alexandrins (le "Pèlerinage de Charlemagne") ou en octosyllabes ("Gormont et Isembert").

Dans le premier tiers du XIIIème siècle s'effectue la substitution de la prose au vers dans le genre romanesque. Le "Conte du Graal", laissé inachevé, est poursuivi en prose par plusieurs continuateurs

"l'Enéïde". René Martin et Jacques Gaillard trouvent même que ce roman "est, dans une certaine mesure, une épopée parodique" (15).

Le roman médiéval français commença par puiser sa matière dans les oevres de l'Antiquité où sont reproduits les grands récits mythologiques, historiques de cette époque ... tels que l' "Enéïde" de Virgile, "Les Métamorphoses" (16) d'Ovide, "La Thébaïde" de Stace, dont se sont inspirés les auteurs inconnus du "Roman de Thèbes" (vers 1150) et d' "Enéas" (vers 1160) ainsi que Benoît de Sainte-Maure, auteur du "Roman de Troie" (1160). Au Moyen Age, la langue grecque était considérée comme une langue barbare. C'est pourquoi Albéric de Pisançon, l'auteur du "Roman d'Alexandre", a dû, pour l'écrire vers 1130, se servir d'un abrégé fait de la traduction latine d'un roman grec sur Alexandre. D'ailleurs "l' Iliade" d'Homère dont s'inspira l'auteur du "Roman de Troie" n'était connue que par un résumé latin.

Sans pousser plus loin l'étude des sources, entre autres celtiques et orientales du roman médival français, nous constatons, que ce roman est très influencé par les oeuvres épiques. D'une manière générale, le roman, né de l'épopée (17), aura petit à petit ses caractéristiques propres. Des critiques, des théoriciens et des romanciers nous donnent une idée des caractéristiques du roman à leur époque ou nous montrent son évolution à travers les siècles. Jean Chapelain, dans sa "Lettre à Monsieur Favereau (...) sur le poème d' 'Adonis' du Chevalier Martin" (1623) trouvait que le manque d'unité de l'action caractérisait le roman: "L'unité de l'action, entre les règles générales que toute épopée doit observer, est particuliérement la principale, sans laquelle le poème n'est pas poème ains (= mais) roman" (18). Georges de Scudéry dans la "Préface d'Ibrahim" (1641) trouve que la vraisemblance dans le roman "est comme la pierre fondamentale de ce bastiment, et ce n'est que sur elle qu'il subsite" (19). L'un des premiers critiques importants du roman, Daniel Huet montre la différence entre les thèmes de l'épopée et ceux du roman, entre les caractéristiques de

deux poèmes a sa concentration propre: l'Iliade, simple et à effets violents, l'Odyssée, complexe (...)et centrée sur le caractère" (9). L'iliade, âpre, sombre, où se déploient guerre, colère, violence est du côté de la tragédie. L'Odyssée, par contre, aux tonalités plus douces, aux aventures plus variées, annonce comme l'affirme Daniel Madelénat, la "nonchalance anomique du roman" (10). Avant ce critique, Pierre Grimal l'avait considérée aussi comme le premier roman d'aventures (11), Georges Chappon,ayant relevé nombre de maladresses, de répétitions, de remaniements, d'additions qui nuisent à l'unité de cette oeuvre l'appelle,lui aussi,"le roman d'Ulysse" (12). De même L'Enéïde,épopée romaine écrite par Virgile comprend des épisodes romanesques tel celui des amours de Didon et Enée où tout semble possible y compris que la faiblesse des hommes ou le hasard des événements l'emporte sur le destin.

Les oeuvres ne respectant pas les règles classiques ne figurent pas dans les traités poétiques des Anciens. Toutefois, au IVème siècle l'écrivain Macrobe, parlant du type d'oeuvres illustrées à Rome par Pétrone et Apulée, les appelle "argumenta fietis casibus amatorum referta" (= des récits pleins d'aventures fictives arrivant à des amoureux). En effet Pétrone est l'auteur du "Satiricon" qui date de la seconde moitié du premier siècle de notre ère vers les années 60 (?). Apulée (125 - V. 180), l'un des écrivains nord - africains de l'époque est l'auteur de "Métamophoses", oeuvre connue surtout par son sous - titre "Asinus aureus" (= "l'Ane d'or").Cet ouvrage postérieur d'environ un siècle au "Satiricon" est considéré par René Martin et Jacques Gaillard comme "le second roman de la littérature latine"(13) après le "Satiricon" considéré par eux comme le premier roman: "tous les romans grecs que nous possédons, précisent-ils, et que Pierre Grimal a eu le mérite de mettre à la portée du grand public, sont postérieurs au "Satiricon", et rien n'indique qu'il en ait existé avant l'époque où celui-ci a vu le jour"(14). Pétrone semble s'être inspiré de "l'Iliade" et de

Si au XIXème siècle le roman recherche sa valeur dans le renouvellement perpétuel, au XXème, les délimitations de ce genre littéraire s'estompent à tel point que Maurice Blanchot précise,en 1959: "Seul importe le livre tel qu'il est loin des genres, en dehors des rubriques, prose, poésie, roman, témoignage, sous lesquelles il se refuse de se ranger et auxquelles il dénie le pouvoir de lui fixer sa place et de déterminer sa forme. Un livre n'appartient plus à un genre, tout livre relève de la seule littérature, comme si celle – ci détenait par avance, dans leur généralité, les secrets et les formules qui permettent seuls de donner à ce qui s'écrit réalité du livre" (5).

A ce critique qui nie la séparation des genres Tzvétan Todorov répond: " Il n'y a jamais eu de littérature sans genres, c'est un système en continuelle transformation, et la question des origines ne peut quitter historiquement le terrain des genres" (6).

En retournant aux sources anciennes nous trouvons qu'Aristote étudie dans sa "Poétique" (7) la tragédie, l'épopée, la comédie mais n'aborde aucunement le roman.

Ce dernier terme a pour origine, d'après le ROBERT le vocable ancien "romans" datant de 1135, et qui signifiait alors la "langue parlée en France, le français"; de même l'ancien verbe "romancier" signifiait au XIIIème siècle "traduire en roman, en français" et en 1586 "composer des romans". En tout eas Chrétien de Troyes est le premier qui qualifie une oeuvre littéraire de "romans" comme il l'écrit, vers 1181, au début du "Conte du Graal":

"Crestiens semme et fait semence

D'un romans que il encommence" (8).

On a pourtant qualifié de romans certaines oeuvres de l' Antiquité; c'était une appellation anachronique mais nécessaire pour désigner des oeuvres inclassables selon les genres connus à l'époque. En effet, Aristote avait fait, dans sa "poétique"la distinction entre deux types d'épopée suivant la structure et la concentration: "Chacun des

Les Anciens ne connaissaient pas le genre romanesque, du moins, ils n'en parlaient pas dans leurs éerits. Même aux XIX et XX siècles, on n'arrive pas à se mettre d'accord sur sa définition. Comment parler alors de ses origines? En essayant de le différencier de l'un ou l'autre genre littéraire, nous tenterons de découvrir ses origines et connaître ses débuts.
Les traités poétiques de l'Antiquité n'avaient jamais parlé de roman. Au XIXème siècle où le roman avait atteint son "âge d'or", ce genre littéraire n'avait pas non plus une définition fixe. Dans la préface de son roman Pierre et Jean qui paraît en 1888, Guy de Maupassant, romancier éminent du XIXème siècle, s'élève contre l'avis des critiques qui veulent enfermer le roman dans des règles figées. S'il est toutefois d'accord avec eux pour dire qu'un roman est "une aventure plus ou moins vraisemblable, arrangée à la façon d'une pièce de théâtre en trois actes dont le premier contient l'exposition, le second l'action et le troisième le dénouement" (1), il ne refuse pas pour autant "toutes les autres" (2) méthodes parce qu'il ne voit pas de critères absolus pour définir un roman:

"Si Don Quichotte est un roman, le Rouge et le Noir en est – il un autre? Si Monte-Cristo est un roman, l'Assomoir en est-il un? Peut-on établir une comparaison entre les Affinités électives de Goethe. les Trois Mousquetaires de Dumas, Madame Bovary de Flaubert, M.de Camors de M.O. Feuillet et Germinal de M. Zola? Laquelle de ces oeuvres est un roman? Quelles sont ces fameuses règles? D'où viennent – elles? Qui les a établies? En vertu de quel principe, de quelle autorité et de quels raisonnements? " (3) Et Maupassant de finir par encourager l'originalité:

"Un critique intelligent devrait, au contraire, rechercher tout ce qui ressemble le moins aux romans déjà faits, et pousser autant que possible les jeunes gens à tenter des voies nouvelles. (......) Le talent provient de l'originalité qui est une manière spéciale de penser, de voir, de comprendre et de juger" (4).

Origine du Roman Francais

Dr. Zaki Arrouk
Faculté des Lettres,
Université de Damas

Dr.Lamia Bitar
Faculté des Lettres,
Université de Damas

Résumé

Le roman existait dans l'Antiquité gréco - romaine mais sans être nommé expressément. Les traités poétiques de cette époque ne le mentionnaient pas. En effet, le genre romanesque n'a jamais eu de règles fixes puisqu'il a toujours été en perpétuelle évolution à tel point que les critiques ne s'entendaient pas sur sa définition, même aux XIXème et XXème siècles.En effet Maurice Blanchot voit que "seul importe le livre loin des genres".

Toutefois, le roman existe comme un genre en continuelle transformation et dont les origines remontent à L'Odyssée et à L'Enéïde. Le Satiricon de Pétrone est considéré comme le premier roman digne de ce nom. Cet auteur s'est inspiré del'Iliade et de L'Odyssée pour son roman. De même le roman médiéval français puisera sa matière dans les oeuvres de l'Antiquité où sont reproduits les grands récits mythologiques, historiques de cette époque ainsi que dans les légendes celtiques et orientales.

Le roman français, né de l'épopée, débute avec "Le Roman d'Alexandre" puis il se développe au Moyen Age en insistant sur le thème de l'amour et en peignant les âmes, les caractères individuels et la vie psychologique des personnages. Toutefois, le roman médiéval français n'atteindra pas le réalisme et la vivacité du roman moderne au XIXème siècle parce qu'il traite souvent les mêmes sujets, répète les mêmes situations et, en unmot, reste très conventionel.

LE ROLE DE L'ACCENT DANS LA STRUCTURE RYTHMIQUE DE LA POESIE ARABE CONTEMPORAINE

Dr. Esmael Al-Kafri
Départment de Arabic
Faculté de Letters
Université de Damas

Résumé

Quel rôle l'accent linguistique peut-il jouer dans la structure rythmique de la poésie arabe contemporaine? Telle est la question sur laquelle essaie de répondre cette étude.

Dans ce but et à la lumiére des caractéristiques prosodiques de l'arabe littéraire et de notion du rythme, nous avons analysé une grande quantité de textes empruntés à la production poétique des pionniers du poéme en vers libre arabe. Les résultats de cette analyse montre, en réalité et contrairement à ce qu'affirment certains auteurs, oue l'accent du mot n'assume et ne peut pas assumer un rôle primordial dans cette structure. Et cela pour une raison essentielle: sa fonction dans la langue dont il s'agit n'est pas du tout distinctive; elle est seulement démarcative, et une telle fonction ne peut lui permettre de jouer qu'un rôle secondaire: ou bien il renforce et illustre les groupes rythmiques quantitatifs, ou bien il enrichit les variations rythmiques internes.

For the paper in Arabic language see the pages (٢٩٧ _ ٢٣٥)

Reading in the Novel Chahenda By Rashed Abdallah

Dr. Errachid - Bouchaïr
Emirates University

Abstract

The Following research deals with the novel "Shahenda" written by the Emirates writer "Rashed Abdallah". The novel is very valuable because of its historical and literal achievement; it may be considered as one of the first novels in the modern Emirates literature.
Throughout the novel, The writer "Rashed Abdallah" has deeply watched and expressed the whole aspects of changes in different fields: social, economic and architectural ones.
"Shahenda" who had to live a slavery life for a long time, could break up her ties only at new period, which started with the discovery and marketing (investment) the oil in the Gulf area.
Through the story of this romantic girl, the writer present the formal conflict between the old traditional beliefs, which began to break down and decay, and the new modern values, which began to replace the old ones.
The research comes to the conclusion, that the novel reflects the historical struggle which the Arab man in the Gulf area has been doing for forming a new life in its mental and material structure. Finally, the research comes to the point that the novel is still acceptable and developed as regard aesthetic and technical vision when it is compared with a similar modern novel in the modern Arab literature, and that is because of the experience, which the writer has gained from the world and the Arab novelistic treasure.

For the paper in Arabic language see the pages (٢٣٣ ـ ٢٠٩)

The effects of natural factors on the roads and vehicles used for transport between the villages of Jdaydit Al-Wadi and At-Tkieh in the area Wadi Barada.

Dr. Haitham Na'es
Department of geography
Faculty of Letters
Damascus University

Abstract

There is no doubt that natural factors play a significant role in the process of road building and the movement of transport means in general despite the availability of modern technology and the huge financial resources, which could help remove many of today's obstacles facing man's movement by modern means of transport.
This becomes quite clear in Syrian mountainous areas including the area of the present study, which is in the section located between Jdaydit Al-Wadi and At-tkieh in Wadi Barada. Transport in this area is affected by many natural factors which, to a large extent, control the drawing of routas and road network in this economically - important part, especially for tourism and recreation, to the city of Damascus, in particular, and to Syria as well as other Arab countries, in general.

For the paper in Arabic language see the pages (٢٠٨ ــ ١٨٣)

Development and Modernization Theory: A Critical Appraisal in Light of Experience of Arab Society.

Dr. Majd Al-Deen Khairi
Faculty of Sociology
Jordan University

Abstract

This paper evaluates the basic postulates of development theories in the light of Arab experience. The Theories evaluated are Modernization theory, dependency, theory and modern world system theory, by means of an extensive review of the writing of expononents of these theories especially those who did research on the Arab society.

Analyses presented in this paper show that modernization theory regards development in the Arab society as an internal process independent of the wider international framework. Analyses also show that this theory disregards Arab structural and cultural properties in its endeavor to preach a western capitalist model of development.

Dependency theory is shown to have problems in fully explainning backwardness, or underdevelopment and in suggesting efficient mechanisms to reduce dependency in the Arab society.

Modern world system theory is also shown to have problems in fully explainning development of the Arab society due to its disregard of the political factor and its effects on the Arab society.

It is hoped that these analyses would lead to some modification of the postulates of the development theory.

For the paper in Arabic language see the pages (١٨٢ _ ١٣٥)

The Attitudes of secondary school students and those of their parents and teachers towards the determining factors which influence the choice of educational and vocational study

Dr. Khassan Saleh
Faculty of Education
Damascus University

Abstract

This study deals with students' attitudes in technical schools and compares them with their parents' and teachers as factors that affect professional and choices of study in the governorates of Damascus, Hamma, and Hasakeh. It uses an analytical - a descriptive methodology and three questionnaires for students, parents, and teachers. The following results were concluded:

1- There were no significant difference between the mean scores of students' attitudes of first and third secondary technical school.

2- There were no significant difference between the mean scores of students' attitudes of secondary technical school in Damascus and Hamma.

3- There were no significant difference between the mean scores of students' attitudes and parent s attitudes.

4- There were no significant difference between the mean scores of technical students' attitudes and teachers attitudes.

For the paper in Arabic language see the pages (١٢٣ _ ٧٩)

Tawfiq Al.Tawil

Contemporary Arab Philosopher of Moral

Zahid Rousan
Department of Sociology
Faculty of Arts
Yarmouk - University
Irbid - Jordan

Abstract

This study attemps to shed light on one of the contemporary Arab thinkers who called for finding a contemporary Arab philosophy which would have an intermediary position between Idealism and Empiricism. This thinker is Tawfiq Al - Tawil.

The study comprised three issues. The first dealt with Tawil's attitude towards moral Naturalists and their empirical method. The second dealt with his attitudes towards moral idealists, He rejected their rational method as the sole method to treat moral questions. The authors attitudes towards morality came as the core of the third issue. It combined thetwe previous attitudes in one view wich the called "the modified idealism of morality".

The question whether Al - Tawil's contribution satisfied the requirements of Arab reality and ambitions, or it was only an exposition of foreign strums alien to our Arab society is the core of the current discussion.

For the paper in Arabic language see the pages(٧٧-٣١)

*our heritage, putting in his mouth words that Mussa has never said, He mentioned th at Mussa called for studying old and modern literature. , * the tiwe we see that Mussa calls for eradicating the he tage from the minds of the new generation pretending th t it hindess them from thinking.*

I did not restrict th research to bringing out Mussa's shortcomings only. Because, in spite of his negative attitude towards dossical Arabic, we find that - indirectly - he emriched our language by manipulating it and making it the language of life and literature. \He was also one of the first critics to use - in their work - literary and scientific terminology - borrowed from the west.

Mussa can also be considered one of the first critics to give mach attention to the theater. transforming it into a forum for deep thought. thus the stage is no more a place for pure amusement. Al last I underlined his skill in writing stories, especially in depicting the characters.

For the paper in Arabic language see the pages (٢٩ _ ٩)

The Criticism and Ideology of Salama Musa

Dr. Mageda Hamoud
Faculty of Letters
Department of Arabic
Damascus University

Abstract

Modern Arabic criticism has suffered from the idea of admiring the pioneers of Renaissance, Their output is considered lofty and their mistakes overlooked.

This research aims at studying carefully the thought of a pioneer from the Renaissance period, i. e. Salama Mussa bringing out both his good and weat points.

I started by studying the idea of literature in our critic and how the matter overwhelmes the spiritual and aesthetic sides, and his conviction that the form freeres literature. In fact, Salama Mussa belives in sacialism and has adopted it at an early stage in his life. He is also confined to one fixed idea, i.e. science is the only way to development and literature is bound to it and can only surcrie if the society becomes industrial. The reason for this attitude is probably due to his amazement by the industrial achievements in the west. So, to Salama Mussa the mission of the writer is to display the valuer of west inirting our cirlization to be a mere photocopy.

Therefore, he called for the use of colloquial Arabic and encouraged the use of Latin alphabet instead of the Arabic. Only in this way - he believes - could we belong to the civilization of sciences.

Hence, we set Salama Mussa as an example of the educated person who is torn away from his envrionment, criticizing it and overlooking the positive sides.

This research points out also how the critic ghali Shukri erred in defending Salama Mussa's belonging to

CONTENTS

DAMASCUS UNIVERSITY

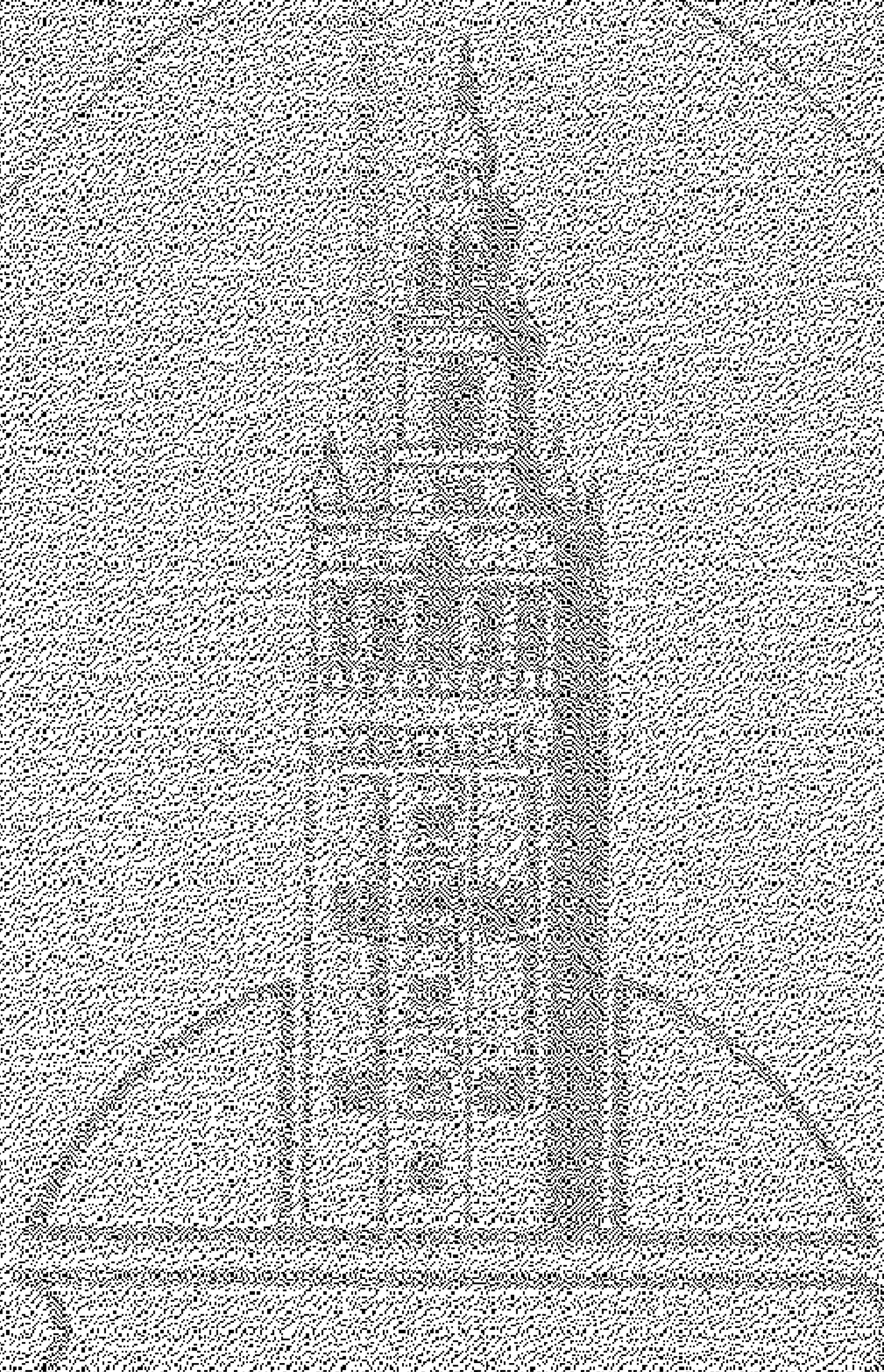
JOURNAL

FOR THE ARTS AND HUMAN AND EDUCATIONAL SCIENCES



A Refereed Research Journal

VOL. 13 – NO. 4 - 1997



إشبيلية

للدراسات والنشر والتوزيع

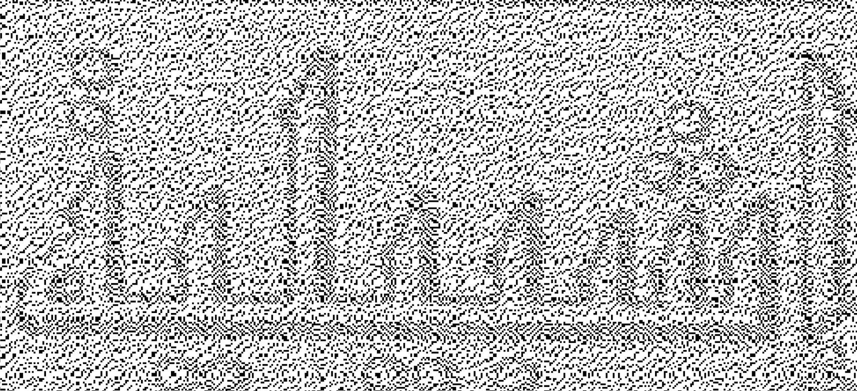
دمشق - سورية

ISHBILIA

SEVILLA

Studies, Publication & Distribution

DAMASCUS, P.O. Box 4963 SYRIA

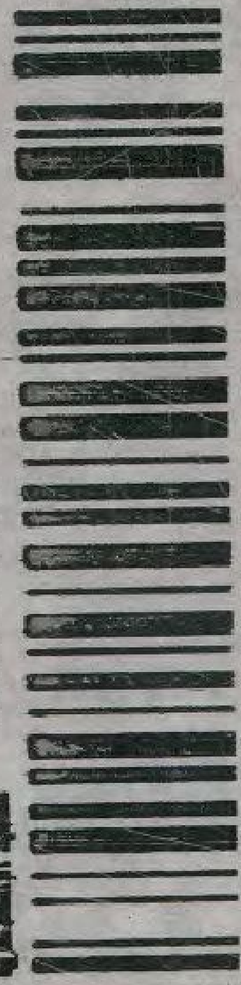


للدراسات والنشر والتوزيع

دمشق - سورية

Studies, Publication & Distribution

DAMASCUS. P.O. Box [illegible] SYRIA


Bibliotheca Alexandrina
0531497
